

إطار الملامح المجتمعية وصورة العصر

تطور الصحافة العربية في مصر

أنور إيجي

تطور الصحافة العربية

وأثرها في الأدب العربي المعاصر

- (الأول) : الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية (صدر)
- (الثاني) : تطور الصحافة العربية في مصر (إطار للامع المجتمع وصورة العصر)
- (الثالث) : تطور الصحافة العربية بين الحربين (١٩١٩ - ١٩٣٩)
في العالم العربي (تحت الأعداد)
- (الرابع) : تطور الصحافة في العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية إلى اليوم
(تحت الأعداد)

مطبعة الزيتونة
طبع في مصر - القاهرة ٢٠٠٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصدي

في مجال البحث في تاريخ الأدب العربي المعاصر منذ أوائل حركة اليقظة في العقد السابع من القرن التاسع عشر إلى أوائل الحرب العالمية الثانية ، نجى الصحافة في السكبان الأول من نهضة السكمة وأثرها البعيد المدى ، فإذا قلنا أن الحركة السياسية والاجتماعية والتطور القوي والبياني ، والمؤلفات والأبحاث والدراسات المختلفة ، كل هذا إنما خرج إلى الرأي العام من نافذة الصحافة أولاً ، لاندو قول الحقيقة ، ولأهمية الصحافة ، هذه الأهمية البالغة كان لابد من إجراء دراسة واسعة في قطاعين هامين : القطاع السياسي ، والقطاع الاجتماعي .

وقد كان كتابنا « الصحافة السياسية في مصر منذ نشأتها إلى أوائل الحرب العالمية الثانية » قد حفل بالدراسات الخاصة بالقضايا السياسية ، وقد وجد إهتماماً طيباً من الباحثين ، والدارسين في هذا الحقل ، مما دفعنا إلى إستكمال البحث في نفس المرحلة بالنسبة للقطاع الاجتماعي ، فكان ثمرة العمل ، هذا البحث الذي تقدمه اليوم ، والذي يمد موازياً للبحث السياسي في نفس الزمن والمراحل ومكلا له . . .

وقد كان أهم ما عني به هذا البحث : محاولة رسم إطار للملامح المعاصرة وصورة المجتمع ، وهو في هذا المجال بكل دراستنا المستقلة « المشرق في فجر اليقظة » وكذا قد تناولنا في كتابنا « الفكر العربي للمعاصر في معركة التفريب والتبعية الثقافية » عديد من القضايا الفكرية والاجتماعية والسياسية - في مرحلة ما بين الحربين - ومن هنا ، فإننا لم نكرر أنفسنا في هذا الكتب الأربعة التي ذكرناها وقد اختص كل منها بجانب مستقل ، وهي

في مجموعها تسكل بعضها البعض في دراسة شاملة للمصر كله منذ (١٨٧١ تقريباً إلى ١٩٣٩)
(صحافة - سياسة - مجتمع - حضارة - فكر) . بوصفها مرحلة متكاملة في تاريخ
الشرق الاسلامي والعالم العربي .

أما هذه الدراسة التي بين أيدينا فقد إمتازت بأنها قدمت أبحاثاً جديدة أهمها :

- (١) نماذج متعددة لتطور الأسلوب منذ فجر الصحافة إلى نهاية الفترة .
- (٢) تراجم عديدة للصحفيين ، ودراسة لرؤساء التحرير .
- (٣) معارك ومساجلات الصحف .
- (٤) قضايا الصحف ، طرائف الصحافة ، الأخطاء المطبعية ، توقيعات الصحفيين .
- (٥) خطوط عريضة للمجتمع في مرحلتيه : قبل الحرب الأولى وبين الحربين .
- في مجال المسرح ، والمجتمع ، والأزهر ، والرحلة ، والفكاهة ، والأغاني .
- (٦) مذكرات الصحفيين ، والكتابات في مجال العمل الصحفي .
- (٧) صحافة النقد السياسي الساخر ، و صحافة الأدب والثقافة .
- (٨) السكاريكاتير والصحف الهزلية .
- (٩) دراسة شاملة للمصاحفين (الكتاب الذين يكتبون في الصحف من غير محرريها) .
- (١٠) دراسة دخائل الصحافة وأمرارها من الداخل .

* * *

ويمكن القول أنه بهذا الكتاب تسكون دراسات الصحافة العربية في مصر
(إلى أوائل الحرب العالمية الثانية) قد يسرت بجهد المقل ، وإن صورة للمجتمع
قد وجدت ، وأصبحت قادرة أن ترسم ملامح مصر ، وإن كانت في حاجة إلى استيفاء
بدراسة أرجو أن أجد من الله العون على إتمامها وهي :

« جبرتي مصر الحديث » : [الأخبار والتراجم] ؛ وستضم شحنة ضخمة من يوميات

المصحف في مختلف الأحداث الكبرى خلال هذه الرحلة التي اخترنا تخطيطها . فإذا
راجعنا هذا المجلد - الذي بدأناه ممتدين على الله منذ مطلع الشباب ونحن اليوم على
أبواب الخمسين من العمر - لوجدنا أن دراسة نظم الآن (١٨) مجلداً قد أصبحت في يد الباحث :

(١) الشعر (٢) القصة (٣) النثر (٤) اللغة العربية (٥) أدب المرأة (٦) الترجمة (٧) الفكر
العربي (٨) أدب المقاومة والتجمع (٩) الصحافة السياسية (١٠) الصحافة الإجتماعية
(هذا الكتاب) (١١) الممارك الأدبية (١٢) الشرق في فجر اليقظة (١٣) الفكر
والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا (١٤) أضواء على الأدب العربي المعاصر (١٥) صفحات
مجهولة من الأدب العربي المعاصر (١٦) مفكرون وأدباء، وهي تضم ٢٧٥ شخصية في العالم
العربي .

وفي مجال الترجمة للأعلام خارج مجال الأدب قدمنا : (١٧) أعلام ورجال أعلام
(١٨) أعيان الجيل ، وتضمن دراسة لـ ١٢٥ عالماً ، وبهذا يمكن القول بأن الدراسة جميعها
تسكون قد شملت ٤٠٠ شخصية من أبرز المفكرين والباحثين في العالم العربي كله عبر
فترة من أدق فترات اليقظة في الشرق (١٨٧١ - ١٩٣٩) خلال ما يقرب من
سبعين عاماً .

* * *

وتبلغ حصيلة هذه الدراسة حتى الآن عشرة آلاف صفحة ، وقد استنفدت
من الجهد والوقت سبعة عشر عاماً كاملة ، فقد بدأت هذه المراجعات في دار الكتب
المصرية بباب الخلق والقلمة بالقاهرة عام ١٩٥٠ ومضينا نواصل البحث خلال هذه السنوات ،
لا تتخلف يوماً ، للكشف عن النائب في مجال توقف بحث الباحثين فيه من حدود المؤلفات
المنطبوعة ، ولذلك فإننا لا نبالغ إذا قلنا أن أبرز ما في هذه الدراسات ، أنها تقدم المادة الخام المدفونة في
بطون المصحف والتي لم يتحقق لها أن تنسق في مؤلفات أو دراسات قبل ذلك ، وإنني لأرجو

أن أوصل هذا العمل حتى استكمل قطاع اليوميات الوطنية والأحداث التاريخية والوفيات والوقائع والتراجم ، خلال هذه الفترة على نحو يضع بين يدي القارىء «المخطوط العامة للمصر كله» من خلال الصحافة ، وهذا هو العمل الذى أطلقت عليه « جبرى المصر الحديث » .

وقد تقدمنى فى هذا المجال ثلاثة أعلام : (١) عبد الرحمن الجبرى ، فى موسوعته التى توقفت عنده عام ١٨٢٥م (٢) أمين سائى فى موسوعته « قديم النيل » . . . (٣) أحمد شفيق باشا فى موسوعة « حوليات مصر السياسية » . . .

فإذا أتممت هذا العمل رجوت أن أكون قد قدمت فى مجال الأدب والصحافة للممارسة حفرية نافذة ، تسد نقصا ، وتحقق عملا يلقى الضوء على هذه المرحلة الهامة الدقيقة من تاريخ الأمة العربية ، وإذا كان هذا العمل قد إستطاع فعلا أن يغطى فى مجال الأدب العالم العربى كله خلال تلك المرحلة ، فإنه فى مجال الصحافة لم يحقق بعد تغطية تطور الصحافة فى غير مصر ، وقد حاولنا محاولات كثيرة مستعينين بالصحف الموجودة فى دار الكتب بالقاهرة ، لإتمام هذه الدراسة ، غير أن الدوريات العربية على كثرتها وتنوعها لم تكن كافية كفاية لفنية لأن تحقق رسم صورة كاملة للصحافة العربية وتطورها توازى ما استطعنا أن نحققه بالنسبة لمصر ، وذلك لأسباب عدة أهمها : أن الصحف الوطنية فى هذه الأقطار لم تكن - فى خلال تلك المرحلة - وهى مرحلة إحتلال لأغلب هذه الأقطار - تصل إلى القاهرة ، وإنما كانت فصل الصحف الموالية للاستعمار والحكومات التى يقيمها الاحتلال .

ومن هنا فإن الصورة التى يمكن أن توهم عن المغرب أو العراق لا يمكن أن تكون كاملة ، لأن سعاتها الوطنية المدافعة عن الحرية والمقاومة للاستعمار غائبة عن مجال البحث ، ولذلك فإنى أرجو أن تتاح لنا الفرصة لزيارة علمية واسعة خلال وحدات العالم العربى نستطيع فيها إتمام هذا

البحث واستكمال ما يحتاج إليه الدراسة الموضوعية من رسم صورة المجتمع، وللمارك الأدبية، ودراسة الأعلام على نحو يوفى حواشي الصورة العربية ويكملها ، وذلك أمل مقنود بفضل الله وهو المسئول عن تحقيقه .

* * *

وفي هذا المجال نسطيع أن نتحدث عن « الموسوعة » فنقول إننا قرأنا لها ألقى مرجع وإلمنا على ثلاثة آلاف دورة .

ولقد كانت الفكرة أساساً هي « القضاء على النظرة الإقليمية الضيقة » التي كانت سائدة في دراستنا عن الأدب العربي ، فذلك كان من الضروري أن يكتب الأدب العربي من جديد على نحو موحد تدرس فيه الظواهر المختلفة التي مرت بالوطن العربي في ضوء « وحدة الفكر والضمير والشعور والقوى » . وقد كشفت « راسقنا في أدب المقاومة عن هذه الحقيقة في مواجهة « النفس العربية » للاحتصار والاحتلال ومعارك المقاومة ، والثورات المتعددة ، وكان من الضروري أن يرود هذا العمل « كاتب » لا يتطلع إلى الثمرة السريعة ، ولا الجزاء المادي ، فيكتب دراسة على مستوى الأمة العربية في فترة تبلغ حوالى سبعين عاماً ، وهي الفترة التي واجهت فيها النزو الاستعماري والاحتلال .

ولست أذكر مدى الجهد الذي بذلته والذي اضطررت إلى اتخاذ « نظارة » طبية ، وكيف أمضيت أكثر من ثلاثة أعوام مقبلاً إقامة تامة في مكتبة القلعة بالقاهرة بين الأضابير القديمة من الصحف والصوريات ، ولست أذكر أنني لا أعد هذا العمل شيئاً كبيراً أو عظيماً ، وإنما - أعدده خلصاً - عملاً مهيئاً لعمل أكبر منه وأكثر شمولاً وتحقيقاً ، ومع ذلك فإن عملي بالنسبة لهذه الدراسة لما ينته بهد ، فقد تولدت عشرات الموضوعات والدراسات الفرعية التي تحتاج إلى مزيد من العمل ، ومع هذا الجهد الذي بذلت ، وقد طبع أغلب هذه الأجزاء على حسابي الخاص ومن رزق أولادي ، فإن قليلين جداً

م أولئك الذين أولوا «الرسوعة» بالنظر الفاحصة والنقد البناء أو ألقوا الضوء على بعض أجزائها ، ولم يكن مطمحى في هذا تطلعا إلى شئ ما سوى الرغبة في الاقتناع بأراء الباحثين ووجهات النظر الأخرى التي توسع أمانى أفاق البحث .

وقد أعطى هذه دراسة التي مازلت أعيش في دائرتها ، أعطى فكرة ونظرية ، أما «الفكرة» فهي أن فكرنا العربى الإسلامى: فكر حى متحرك إيجابى مرن متطور ، قادر على الحياة والاستمرار والنمو ، والتجاوب على المستويين : الزمنى واللبنى ، فهو يعتمد «زمنيا» دون أن يتحطم ، ويقاوم كل مؤامرات تمزيقه أو تدميره ، ويعتمد «لبنيا» فيشمل المالمين العربى والإسلامى ، فضلا عن أنه قدم إلى أوروبا أعظم مقومات الفكر الأوروبى المعاصر وهو «المنهج التجريبى» ، فضلا عن عديده من المقومات التي قامت عليها النهضة والحضارة الحديثة أما «النظرية» فهي أننا في حاجة إلى تأكيد أساس فكرى نقيم عليه نهضة فكرنا الحديث ، هذا الأساس الذى لا يمكن أن نستعده إلا من جوهر فكرنا العربى الإسلامى ، وتتمثل فيه قيمة الأسيلة ومقوماته الأساسية . فقد كان فكرنا دائما مفتوحا وقادرا على الأخذ والمطاء ، وله من مقوماته ما يمكنه من الحفاظ على شخصيته وملائحه ولن يستطعم أبدا أن يتخلى هذه المقومات .

ولن أستطيع أن أنسى في هذا المجال أنه بالرغم من قصور التقدير الأدبى لهذا العمل ، ربما لجنوح الباحث عن الدعاية لنفسه ، لن أنسى أولئك الأبرار الكرام من شبابنا الذين إنصلوا بى وما زالوا يتصلون وهم يمدون رسائلهم وأطروحاتهم وسأظل بعمون الله مستعدا لأن أكون في خدمة أى باحث في هذا المجال بكل ما يمكن تقديمه من أجل إحسان العمل وإبلاغه من السكال قدر المستطاع .

هذا وبالله التوفيق

أنور الجندى

نهاية ١٩٦٧ م

موضوعات البحث

س

(القسم الأول)

(الباب الأول) صحف وأفلام وصراع أنسكار ١٧

« تطور صحافة الرأي في أوائل الحرب العالمية الأولى »

- ٢٣ . . . : صحافة جمال الدين
٢٥ . . . : جريدة مصر
جريدة مرآة الشرق (سليم منجوري)
٢٨ . . . : وإبراهيم الفاني
٣١ . : تلاميذ جمال الدين بعد سفره من مصر
٣٢ . : جريدة مصر القاهرة (أديب اسحق)
أثر الصحافة في مجلس شورى القوانين
٢٤ . . : (عبد السلام لاوي)
٣٦ . . : صحف مصرية في لندن وباريس
٣٦ . : مرآة الأحوال : رزق الله حسون
٣٧ . . : الخلافة : لويس صابونجي

قبل الاحتلال وبعده :

- ٣٩ . . . : « الأهرام » : آل تولا
٤٢ . . . : الطائف (عبد الله نديم)
٤٤ . : المروة الوثقى : جمال الدين محمد عبده
٤٦ . : للظلم : سروف ونمر ومكاريوس
٤٩ . . . : المؤيد : علي يوسف
٥١ . . . : اللواء : مصطفى كامل
٥٢ . . . : الجريدة : لطفي السيد

(الباب الثاني) دلائل الصحافة ٥٣

س

(الباب الثالث) ممالك ومساجلات الصحف :

- ٦٦ . . . بين للؤيد والواء والجريدة
الصحافة الوطنية والاحتلال (سكرومير
والصحافة) ٧٨
الصحافة ومقالة قناة السويس . . . ٨٥
بين مصطفى كامل وعلى يوسف . . . ٨٨
صحف وطنية وصحف متعددة . . . ٩١
للغير : حافظ عوش وعبد مسمود —
الظاهر : محمد أبو شادي . . . ٩٣
بين فريد وجدي (الاستور) واطن السيد
(الجريدة) ٩٧
مذكرات صفي : سليم سركيس (لواء)
الحال ٩٠٢

(الباب الرابع) : إطار لصورة مصر والمجتمع (من الاحتلال إلى أوائل الحرب

المالية الأولى) ٩١٧

- (١) الأزهر ٩١٩
(٢) لواء ٩٢٨
(٣) الرحلة ٩٣٩
(٤) الصحافة ٩٤٥

عنايات للصحافة :

- (عنايات عبد العزيز جادوش) . . . ٩٥٠
قضية السكابين ٩٥٧
قضية ذكرى دلفواي ٩٦٣
قضية التفريقات ٩٧٤
عنايات أصحاب المقطم ٩٧٦

س

١٧٧	• • • • •	قصيدة لدوم
١٨٠	• • • • •	المجوم على أسرة محمد علي
١٨٢	• • • • •	(٥) المجتمع
١٨٢	• • • • •	الأغان والأناجيد
١٨٣	• • • • •	للدرج
١٨٤	• • • • •	الأعياد
١٨٥	• • • • •	الحاكم
١٨٩	• • • • •	دولة الجير
١٩٠	• • • • •	قصيدة الغرام

(الباب الخامس) : طرائف الصحافة :

١٩١	• • • • •	(الإضاءات المتتارة)
١٩٤	• • • • •	المقدمات والتعاريف
١٩٨	• • • • •	المواقف المرحية
		مذكرات أحمد حافظ هوش (الصحافة بين
٢٠١	• • • • •	١٨٩٨ — ١٩١٤)
٢٠٩	• • • • •	النقد الاجتماعي
٢١٢	• • • • •	الاصطلاحات الصحفية
٢١٥	• • • • •	طرائف الصحافة
٢١٩	• • • • •	وفيات الأعيان
٢٢٢	• • • • •	نقد الصحافة والمجتمع

(القسم الثاني)

(الباب السادس) : صحافة ما بين الحربين وتطور الصحافة في الأسلوب والمضمون

(بين ١٩١٩ - ١٩٣٩) ٢٢٥

مدخل تاريخي للفترة ٢٢٧

الصحافة خلال الحرب الأولى ٢٣٣

الصحافة في ثورة ١٩١٩ ٢٣٧

رئيس التحرير ٢٤٣

داوود بركات ، خليل ثابت ٢٤٨

أمنه الرافعي ٢٤٨

عبد القادر حزة ٢٤٩

حميد هيكل ، حافظ موسى ، أنطون الجليل ، خليل ثابت ٢٤٩

الدكتور هيكل ٢٥٠

عبد القادر حزة ، التايي ، توفيق هباب ، عباس المقاد ٢٥١

التايي ٢٥٢

فكري أباطة ٢٥٥

إبراهيم عبد القادر المازني ٢٥٨

أحمد حسين ٢٦٠

عمود كامل ٢٦٣

توفيق حبيب ٢٦٤

توفيق دياب ٢٦٥

لطفى جمه ٢٦٧

(الباب السابع) : دخائل الصحافة : في مرحلة ما بين الحربين ٢٦٩

أثر الاحتلال في الأدب والصحافة (ذكرى

مبارك) ٢٧٧

صناعة الأخبار ٢٨١

المخبرون ٢٨٢

أخبار الأقاليم ٢٨٣

ما لا ينبغي في حياته ٢٨٤

أثر السوريين في الصحافة ٢٨٤

٢٨٦	محاكمات الصحف
٢٨٩	المجموع على الصحف ومخطيها
٢٩٠	كلمة طيرة أحداث أزمة
٢٩١	صالون الأهرام
٢٩٢	الأخطاء المطبعية
٢٩٩	(الباب الثامن) : تطور الصحافة الأسبوعية
٣٠١	صحافة النقاد السياسي الساخر
٣٠٤	روز اليوسف والكشكول
٣٠٩	الأدب الكشوف
٣١٠	تجربة حشد عقيد المصري
٣١٥	الساكنيات والصحف المزلية
٣١٧	فن الساكنيات
٣٢٢	سانتس وصاروخان
٣٢٤	صحافة الأدب والثقافة
٣٣١	(الباب التاسع) : الكتاب والمصاحفون
	مرحلة ما قبل الحرب الأولى
٣٣١	ميخائيل عبد العبد
	سليم منصورى ، محمد بيرم ، جزة فتح الله
	أديب اسحق ، أمية الحداد ، إبراهيم
٣٣٢	القائل
	أحمد حلمى ، حسن حسن الطويرانى ، الفبيخ
٣٣٣	الفريل
٣٣٤	يوسف الحازن
٣٣٥	خليل مطران ، نقولا الحداد

س

(مرحلة بين الحربين) . . .

- ٣٣٦ . داود بركات ، عبد القادر حزة
مباس القادر ، ابراهيم عبد القادر لالان ،
٣٣٧ . أحمد وديق
٣٣٨ . عبد الله حمين ، الدكتور محمد أبو طائلة
٣٣٩ . جورج طنوس ، نجيب هادام ، منيرة ثابت
٣٤٠ . سعيد حل
٣٤١ . الشيخ صالح روتر ، الدكتور سيد كامل
٣٤٢ . توفيق حبيب ، محمود عزي
٣٤٣ . فكري أباطه
٣٤٤ . محمد المهاوي
٣٤٥ . توفيات الصحفيين . صحفيون اجانب في الصحافة
٣٤٦ . لراة في الصحافة

المصاحفون (فترة ما بين الحربين) .

- محمود أبو الميوني ، أحمد زكي باها ، محمد
٣٤٧ . مسعود ، منصور فهمي
محمد صري ، وحيد ، محمد لبيب
البناتوني ، التفتازاني ، توفيق
اسكاروس ، محمد فريد وجدي ،
٣٤٨ . سالم حسن ، أحمد فلووش ، مي زيادة
مرطوسون ، أحمد فؤاد ، حل مصطفى
معرفة ، أحمد غفقي ، مزרחاني
لطف الله ، عبد الصالح الصمدي ،
٣٤٩ . محمد رمزي ، هكيب أرسلان
الأب انطاس الكرملي ، المهاوي ،
٣٥٠ . حسن القايان ، محمد ثابت
٣٥١ . تكريم الكتاتيب (الدكتور هيكل)
٣٥٥ . الصحف العربية في مرآة الصحف الأجنبية

«الباب العاشر»: إطار لصورة العصر وملامح المجتمع (بين الحربين) . . ٣٥٧

- (١) تحرير المرأة ٣٥٩
- (٢) مجتمع القاهرة ٣٦٤
- (٣) للعلم ٣٦٦
- (٤) منم الفكرات ٣٦٧
- (٥) بنك مصر ٣٦٩
- (٦) الأزهر ٣٧٢
- (٧) سهرات رمضان ٣٧٥
- (٨) المولد النبوي ٣٧٥
- (٩) الطرق الصوفية ٣٧٦
- (١٠) أسباب الاصح ٣٧٩
- (١١) لباس الرأس ٣٨٠
- (١٢) التجميل ٣٨١
- (١٣) الفكاهة ٣٨١
- (١٤) الأغاني الشعبية ٣٨٢
- (١٥) الأفراح الشعبية ٣٨٦
- الشاعر على الرماية ٣٨٨
- (١٦) تطور المجتمع بعد ثورة ١٩١٩ . . . ٣٨٩
- (١٧) توت منخ آمون ٣٩١
- لجنة القرائنة ٣٩٣
- (١٨) أمير الشعراء ٣٩٤
- (١٩) جمال الدين وعبد عبيد ٣٩٥
- (٢٠) مدام جوليت أدام ٣٩٨
- (٢١) مصريون في مالطة ٤٠٠

مصادر البحث

إذا كانت الآثار المكتوبة في مصر الحديث هي الكتاب والمصحف ، فإن « الصحافة » : هي أبرز النوافذ وأهمها في مجال البحث والدراسة والتاريخ ، وعن طريقها يمكن رسم إطار لصورة مصر والمجتمع والصحافة نفسها ، هذه الصورة التي نحاول أن نرسمها من خلال هذه الدراسة . أما « الكتاب » فهو موجود في أيدي الباحثين . أما الآثار الصحفية المنشورة في بطون « الدوريات » : الجرائد على اختلاف أنواعها وأنماطها فهي ما تزال أشبه بالضائمة ما لم نجد من يقاها له الفرصة لمراجعتها وتنسيقها واستخلاص عصارتها . وهذا ما حاولنا أن نقوم به في سبيل رسم « إطار لصورة مصر والمجتمع » من خلال الصحافة . فلقد كانت الصحافة نفسها أبرز المجالات لتأريخ مصر ورسم صورة المجتمع في مختلف أدواره وأحداثه ومواقفه وقضاياها ، وفي مجال المارك الفسكزية والأدبية والاجتماعية ، وعن طريق الصحافة ظهر الأدب وتطور الأسلوب وبرزت مختلف قضايا الاجتماع والاقتصاد والسياسة ، ولقد حرصنا في هذا البحث أن لا نكرر ما أورده الكتب والمؤلفات ، وإنما رغبنا في أن نضيف إضافات جديدة نحقق للباحث آفاقاً أرحب من خلال نظاره محدثه ووثائق مطوية .

أم المصادر :

— المجلات —

- | | |
|--------------------------------------|---------------------------------------|
| (١) كل شيء والدنيا والامنين - ١٩٢٩ | (٥) الكشكول - ١٩٢٢ |
| (٢) مصر الحديثة المصورة - ١٩٢٩ | (٦) روز اليوسف - ١٩٢٦ |
| (٣) المصور - ١٩٢٦ | (٧) السياسة الأسبوعية - ١٩٢٦ |
| (٤) اللطائف المصورة - ١٩١٦ | (٨) البلاغ الأسبوعي - ١٩٢٦ |
| — المصحف اليومية — | |
| (١) جريدة الأهرام - ١٨٧٥ | (٥) الأخبار « أمين الزايمي » - ١٩٢٢ |
| (٢) اللواء - ١٩٠٠ | (٦) البلاغ - ١٩٢٣ |
| (٣) للمؤيد - ١٨٨٩ | (٧) السياسة اليومية - ١٩٢٢ |
| (٤) الجريدة - ١٩٠٧ | المراجعة (إلى عام ١٩٢٩) |

صحف وأقلام وصراع أفكار

تطور صحافة الرأي إلى أوائل الحرب العالمية الأولى

(م — ٢ تطور الصحافة العربية المعاصرة)

يدور البحث حول رسم إطار للعصر والمجتمع من خلال نافذة الصحافة في هذه المرحلة ، من ظهور صحافة الرأي في مصر إلى أوائل الحرب العالمية الأولى . وقد بدأت صحافة الرأي في اعتقادي بظهور الصحف التي وجهها جمال الدين الأفندي منذ ١٨٧١ هذه هي المرحلة الأولى التي عمقت مفاهيم الكتابة بظهور صحافة أكثر إيماناً بالرأي الحر وأكثر قدرة على التعبير المعصر المتحرر من قيود السجع والصناعة اللغوية ، ثم كان تحول الوقائع المصرية^(١) إلى صحيفة رأي عام ١٨٧٩ بإشراف الشيخ محمد عبده ، وجاءت المرحلة التالية في هذا التطور بظهور «المؤيد» سنة ١٨٨٩ كأول صحيفة وطنية مصرية وذلك بعد فترة السنوات الأولى من الاحتلال ثم توالى الصحف اليومية السياسية : اللواء ، الجريدة ، الدستور ، ثم كان الصراع بين اللواء والمؤيد ، وبين المؤيد والجريدة ، وبين الدستور وهذه الصحف جميعا .

لابد لكي تكون «صورة العصر» واضحة من خلال الصحافة ، بوصفها المجال الحيوي ، لليقظة الفكرية وللحركة الوطنية ، والذي كان أشبه بنهر يجري ، حاملا كل شيء في طريقه ، رأي الأحرار ، ورأي النفوذ الأجنبي : بريطانيا أو فرنسا ، ورأي الخديو وقصر عابدين ، ورأي السلطان وقصر بلدز ، وحتى تكتمل الصورة لابد من إلقاء نظرة على أطرافها ، فالدولة العثمانية قاعة تضم العالم العربي ، ومصر منذ أوائل القرن واجهت الحملة الفرنسية التي جربت حظها كأول حملة استعمارية في العصر الحديث ، وقد حاولت أن تسيطر لإقامة

(١) صدرت الوقائع المصرية ٣ / ٨ / ١٨٢٨ ، أدخل عليها تعديل جعلها صحيفة رأي بإشراك محمد عبده وتلاميذه سعد زغلول وعبد الكريم سلهان وإبراهيم الهلباوي وصدرت بعد : روضة الأخبار عبد الله أبو السعود (١٨٧٤/١١/٢٩) فالإحرام (سليم وبشارة نقلا) ١٨٧٦/٨/٥ والوطن (جندي إبراهيم وميخائيل عبد السيد) ١٨٧٧/١١/١٧ .

إمبراطورية فرنسية على أرض مصر والشام ، ولكنهما فشلت ، وقامت حركات ثلاث تريد أن تجدد الشرق ولكنهما لم يتساعا أن تتكامل أو تستمر ، وغلبتها القوى التي كانت تنحيز لالتهم المنطقة ، هي حركة محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية وحركة محمد علي في مصر وحركة الإصلاح في تركيا . . . ومن محمد علي إلى إسماعيل حيث التوضع الحضارى والديون وحفر قناة السويس التي كانت نقطة التقاء الغزاة وسيطرة النفوذ الأجنبي ، وفي الشام حلبة ضراع يقوم به النفوذ الاستعماري ، بين القوتين الغازيتين ، فرنسا مع المارون والنجلة مع الدروز ، ثم يقع الصدام ويضع النفوذ الأجنبي يده في نفس الوقت الذي تبدأ فيه حركة المقاومة ، وفي فارس استبداد ومحاولة للتحرر ، وفي تركيا محاولات لإيجاد دستور وحكم نيابي ، وفي مصر نفس المحاولة ، أما الصحافة فهي في أول أمرها لسان الحسكام والأمراء والنفوذ الأجنبي ، ثم هي بعد قليل لسان الأمة والنفوذ الأجنبي والحسكام جميعا ، ثم هناك الصراع بين ألوان النفوذ المختلفة .

وفي هذه الفترة تبرز مواقف متعددة ترسم حركة التاريخ :

(١) صدر الدستور العثماني الأول (٢٣ ديسمبر ١٧٨٦) أصدرته وزارة مدحت ، ثم حل السلطان مجلس المبعوثان بعد (٤٢ يوماً) في ٥ فبراير ١٨٧٧ ، وأعيد الدستور (بعد تسع وعشرين عاماً) عام ١٩٠٨ .

(٢) بدأت الهجرة من الشام (لبنان وسوريا وفلسطين) إلى الولايات المتحدة بأمريكا عام ١٨٧٦ وفي نفس الوقت إلى مصر وإلى مناطق كثيرة من أفريقيا .

(٣) قدم جمال الدين الأفغاني من فارس والهند إلى تركيا ثم إلى مصر عام ١٨٧٠ ثم عاد إلى مصر ١٨٧١ للمرة الثانية فأقام بها حتى ١٨٧٩ .

(٤) في مصر كان حكم إسماعيل في نهايته ، وقد تشكل مجلس شورى النواب (إبريل ١٨٦٦) ومجلس شورى بديل في أغسطس ١٨٧٨ ثم عزل إسماعيل ٢٦ يونيو ١٨٧٩ ونولى

إبنه محمد توفيق الذي كان قد تعرف على جمال الدين الأفغاني ، وقال له كنيته المشهورة : أنت في مصر موضع آمالي أيها السيد ، ثم لم يلبث أن أخرجه من مصر بعد أن تولى الحكم بأيام .

في هذه الفترة وجد الكتاب السوريون الذين هاجروا من الشام مجالا فالتفتوا حول جمال الدين ، الذي كان قد إحتضنه رياض باشا وأجرى عليه راتباً ، ومن حول جمال الدين تجمع من السوريين العامين في ميدان الصحافة : أدب اسحق وسليم النقاش وسليم عنجوري ، وقد صدرت لهم بنفوذ جمال الدين صحفاً ثلاث :

مصر : (أدب اسحق وسليم النقاش) ١٨٧٧

التجارة : (« « « ») ١٨٧٩

مرآة الشرق : (سليم عنجوري) ١٨٧٩

وقد اشترك في تحرير هذه الصحف جمال الدين ، ومحمد عبده وإبراهيم اللقاني - الذي أشرف على مرآة الشرق - ، وتبدأ هذه الصحف مرحلة جديدة يمكن أن يطلق عليها (صحافة الرأي) وقد استمرت على هذا النحو حتى أخرج جمال الدين .

ولسي تكتمل الصورة من بعد نعلم أن الاحتلال عام ١٨٨٢ قد أوقف الصحف الوطنية ، كانت الأهرام هي الصحيفة الوحيدة التي بدأت عام ١٧٧٦ وعادت الصدور بعد الاحتلال مباشرة ، ومضت ثمان سنوات طويلة مريرة ، لم يرتفع فيها صوت وطني واحد ، حتى أصدر النفوذ الاستعماري جريدة : (المقلم أوائل عام ١٨٨٩) ، ثم صدر «المؤيد» قبل نهاية العام . وكان كرومر يمثل الاحتلال الإنجليزي في مصر يرسم للصحافة سياسة ماكرة ، ترمي إلى إطلاق الشحنة الوطنية مما وصف من بعد بمباراة : رفع النطاء عن الإناء الموضوع فوق المنار لتعريف البخار . .

وكان «المؤيد» صحيفة الوطنية والمقاومة منذ صدر ١٨٨٩ ولم يصدر «الدواء» إلا عام

١٩٠٠ بعد مرور أحد عشر عاماً على صدور المؤيد ، وكان أشد ثغلاً في ميزان الحركة الوطنية ، وأكبر مقاومة للنفوذ الاستعماري ، ومن هنا حرص الاستعمار على مقاومة هذا التيار وتأكيد مركزه فشجع ظهور « الجريدة » عام سنة ١٩٠٧ لساناً للحزب الأمة : حزب للمتدلين الذين يؤمنون بالالتقاء بالإنجليز في منتصف الطريق .

وكان عام ١٩٠٧ خطيراً حقاً ، فقد تأسست فيه أحزاب ثلاث : « الأمة » وصحيفته الجريدة و « الحزب الوطني » وصحيفته اللواء ، وأسس الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد « حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية » وما كاد كرومر يخرج من مصرفي نفس العام حتى تبلور الموقف ، جاء الدون فورست بدلاً منه فأقر مع الخديوي سياسة الوفاق ، قال الخديوي إلى الإنجليز وأدار ظهره للحركة الوطنية بعد أن كان يشجعها ، وتكشف الموقف عن أربع جهات تمثلها الصحف الأربع :

المقطع : لسان الإنجليز .

المؤيد : لسان الخديوي .

الجريدة : لسان الطبقة الجديدة « أصحاب المصالح الحقيقية » التي صنعها الإنجليز

اللواء : لسان الحركة الوطنية عامة والحزب الوطني في هذه المرحلة .

وكانت هناك زعامات مختلفة تصدر الدرع في مختلف مجالاته العسكرية :

محمد عبده (الذي أطلق عليه الشيخ المفتي ثم الأستاذ الامام) يمثل التجديد الديني واللتوى .

ومصطفى كامل ومحمد فريد من بعده يمثلان الزعامة الوطنية .

ولطفي السيد يمثل فلسفة المنفعة ، ودعوة مصر المصريين ، ومقاومة كلا الدعوتين : الجامعة الاسلامية والحركة الوطنية وفق مفهوم الوطنيين وأسلوبهم .

وقاسم أمين : صاحب الدعوة إلى تحرير المرأة .

صحافة جمال الدين

قبل الاحتلال كانت صورة جمال الدين الأفغانى هي أبرز الصور ، الرجل الذى قدم مصر من أرض الأفغان تحيط به هالة من الإعجاب والحذر فى أواخر عصر إسماعيل ، وكون مدرسة من الشباب المثقف كانوا يلتفون حوله فى قهوة (متانجا^(١)) ومن بين هؤلاء كان محمد عبده أبرزهم وأكثرهم إعجاباً بالسيد ، وكان حول جمال الدين مجموعة من الصحفيين السوريين : أمثال أديب اسحق ، سليم عنجورى ، سليم النقاش . . وأغلب هؤلاء قد تحول من بعد وانضوى تحت لواء النفوذ الاستعماري ، وفي هذا العصر كان ذلك الرجل الذى كسب شهرة أكثر مما يستحق : يعقوب صنوع المسمى « أبو نصارة »^(٢) وقد أتى جمال الدين الأفغانى في هذه الفترة خطباً وأحاديث في مختلف الأندية وكتب هذه الخطب تلميذه الشيخ محمد عبده ونشرها في الأهرام والتجارة وغيرها ، ثم سافر السيد مطوفاً في الأرض ، فلما وقعت الثورة العراقية نفي الشيخ المفتي ، وفي باريس التقيا فأصدرا « المروة الوثقى » حتى عاد محمد عبده إلى مصر وقصد جمال الدين إلى اسقانبول ، وانطوت صفحة وبدأت صفحة جديدة في ظل الاحتلال ، صفحة ذلك الصراع الضخم بين الوطنية المصرية من ناحية وبين الاحتلال ، ودارت المركبة من خلال الصحف ، كان سلاح هذا الصراع الأول هو : الصحافة والمصحف حتى الأحزاب السياسية في هذه الفترة تكونت من خلال الصحف ، فقد صدرت الصحف أولاً ثم تكونت الأحزاب من داخلها ، وفي ظل المرحلة الجديدة ظهرت أفلام كثيرة . . عشرات الأفلام . ولم تكن كل الأفلام شامية ولكن كانت هناك أفلام مصرية بارزة : إبراهيم الفغانى ، إبراهيم الميمني ، علي يوسف ، محمد عبده الخ . .

وقد كان أغلب المناضلين والمكافحين في مجال الوطنية والسياسة والاصلاح الديني

(١) تفاصيل هذه الصورة في كتابنا « المرق في فجر البقعة » .

(٢) تفاصيل حياته في كتابنا « النهضة العربية في معركة التريب والشووية » .

والاجتاهى صميميون أو مصاحفين^(١) ، كلهم حمل القلم وعمل فى الصحافة ، ومن هنا كانت الصحافة هى الاطار الحقيقى لليقظة العسكرية ، وهى بؤرة النهضة وحركة الحرية واليقظة .
جمال الدين الأفغانى ، وسمد زغلول ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ومحمد فريد وعبد العزيز جاويز وأمين الرافى وأحمد وفيق كل هؤلاء حملوا القلم تحت لواء الصحافة .

هذه أبعاد الصورة فى هذه المرحلة التى تبدأ بظهور صحافة رأى الممارسة للنفوذ الأجنبى والاستبداد الداخلى ، وقد كانت أولى هذه الصحف «نزهة الأفسكار» لإبراهيم المولى وعثمان جلال الصادرة ١٨٦٩ والتى أفلقتها حكومة إسماعيل بعد عشرين عاماً عندما تبين للمستولين خطورتها عليهم .

وعندما وقع الاحتلال توقف إصدار صحف جديدة فى القاهرة ١٨٨٢ ولم يصدر خلال السنوات التالية له صحفاً ذات بال حتى صدر المقطم فى ١٤/٢/١٨٨٩ والتويد ١/١٣/١٨٨٩ .
وقد استمرت هذه الصحف تؤدى دوراً ثورياً إيجابياً متحرراً حتى أخرج جمال الدين الأفغانى من مصر بعد أن قبض عليه عشية ٢٩ أغسطس ١٨٧٩ ، هنالك نشرت الصحف البلاغ الرسمى الخاص بإبعاده ثم تحولت وجمعة أخرى .
وكانت صحيفة مصر توالى نشر كلمات جمال الدين الأفغانى وندواته

(١) المصاحف : اصطلاح أطلق على الكتاب غير المحترفين لمهنة الصحافة .

(٢) صدرت جريدة مصر مرة أخرى عام ١٨٩٥ بإشراف قيصر وصوبيل تادرس النقبادى :

جريدة مصر

(٢٣ نوفمبر ١٨٧٨)

في عشية يوم الجمعة وفد على الإسكندرية سيدنا فهرست كتاب السكال ، وفذلكة حساب الجلال ، أستاذنا الأجل الفيلسوف الأكبر السيد جمال الدين الأفغاني ، فابتسم له الثغر عن درر الهناء به ، وقرر الثناء عليه ، وسعى إليه النباه والوجاه ، وما من جارحة فيهم إلا وهي تود لو كانت أذنا تلتقط درره وجواهره ، أو عينا لتجتلي مطالعه ومناظره .

وقد أعد له جبريل افندي المجلع نجيل بارودي دى فنشى مأدبة فائقة الحسن والظرف تأخذ باللب والظرف ، جامعة لمحاسن السكالات وكالات المحاسن متوفرة أسباب الهناء والسرور كاملة وسائل الأنس والحبور .

* * *

مساء الأربعاء (٢١ مايو ١٨٧٩)

كانت قاعة زرينا محفلا لنباه الناس ، أهدت الأعين في الحجرات والقاعد بروح الفضل والحكمة المتجسمة في ذات سيدنا الأستاذ وانتجت الأسماع لالتقاط درر ألفاظ الحكمة والتشفيق بجواهر أقواله الفلسفية ، فقام أعزه الله في هذا المجمع خطيبا ، يصقل الألباب ، ويمهد مناهج الأدب بالكلام البريء الكاف الخالي من الكف حتى تثلت الجوارح لو كانت آذاننا تلتقط درر حكمه .

خطاب جمال الدين في زرينا

يا أيها السادة^(١) ويا أيها السيدات : أرى من الواجب على أولي أن أثنى على الجرائيم الشريفة الشرقية التي مضت عليها الدهور ومرت المصير وهي في حالة السكون لمع الموانع الخارجية وقصر القوامر الداخلية ، ومع ذلك لم تفقد ميزانها المالية ولم تدم سجاياها السامية بل برزت ونمت ، فأينا أصولها الشريفة سادة شرفوا هذا المحضر لإعلاء كلمة العلم ورفع منار

(١) جريدة مصر : ٤ مايو (البار) ١٨٧٩ :

المعارف وتأييد أمر الفضل باعتقاداً بأن العلم سلطان عادل حكيم، إذا حل ببلد قوم تبعه النقي والثروة لأنهما لا يحصلان إلا بالتجارة والزراعة والصناعة التي لا تحصل إلا بالعلم .

لا أريد أن أذكركم بمجد آبائكم السكرام وأنكم إما أن تكونوا من آباء المصريين أو من حفدة الفينيقيين أو من سلالة السكديانيين، وأن المصريين قد بلغوا في الهندسة ذروتها ومن الحساب غايته ومن المساحة قاصيتها ومن جر الأثقال متناه، وعلّموا اليونان الحسكة والفلسفة، بل إن شخصاً واحداً منهم قد بث في اليونان روح المعرفة وعلمهم فن تدبير المنزل حين كانوا همجا متوحشين، وأبان لهم كيفية الزراعة والصناعة على حين كانوا يعيشون بالصيد والغنص، وإن جل علمائهم ومعظم حكّامهم لم يتأثروا بالفلسفة إلا بما تعلموه في مدرسة مصر العظيمة. ولا أذكركم بالفينيقيين وأنهم واضعوا أصول الصناعة وخاصوا عباب البحار وكانت إنسكلترا واليونان من مستعمراتهم ولا تزال أسماء بلاد أسبانيا وسلاطينا شاهدة بأنهم رفعوا على تلك الأقطار ألوية تمدنهم، وأن أهلها كانوا لا يعرفون الصناعة ولا التجارة بل كانوا يقدمون لجدودكم كفوز الطبيعة وممادنها الثمينة، وأنهم علّموا اليونان الخط وكان أعظم حكّامهم منسوباً إليهم وهو تاليس الصوري .

أن الهرميين والسلات وأعمدة السكرك تفقاً بأصابعها الذهبية أعين المترشحين الذين يرمون الشرقيين بالهمجية والقص في الفطرة، وأن تلؤل نينوى وأطلال صور وبعلبك ومفيس وشبيه ما بقيت إلا لتثير الغبار على أبصار السكركين الذين ينظرون إلينا بعين الاحتخاف والاحتقار. (وانك) لن تجد لتأخرنا غير سببين أصليين هما : التعميب والاستبداد فأما الأول فهو عبارة عن سوء استعمال الدين، فأما إذا نظرنا بعين التأمل البصير إلى الشارعيين من عهد (مهادي) إلى ذرذشت إلى موسى إلى عيسى إلى محمد، لا نجد في شرائعهم إلا الدعوة لمعرفة مبدأ حق، وهو الله، والحث على الفضائل وفعل الخير والرجوع عن الرذائل والشرور. ولسكننا إذا نظرنا إلى السكركين من انبموم فإنا نراهم قد استعملوا تلك الشرائع للشقاق

والنفاق وأخذوها وسائل لإضرام الفن ووسائل لإلقاء الإحزن ، حتى أمكن للشاعر العربي أن يقول :

إن البيانات أفت بيننا إحفاً وأودعتنا أفانين المداوات

أما الاستبداد فهو أن تكون أمة من الأمم مقيدة بسلسلة رأى واحد من الناس لا تتحرك إلا بإرادته ولا تفعل إلا لأمره ، فإذا الأمة على هذه الصورة لزمها لاحتمال أن يصرف كل منهما ما أودع فيه من العقل والذكاء لمرضاة شخص واحد فيكون السكل فانيا فيه : ومن المعلوم أن الرجل الواحد ولو انفرد في العقل والذكاء والهمة وعلو النفس لا يستطيع جلب السعادة لنفسه فضلا عن جلبها لأمة كثيرة . « ا . ه .

د مرآة الشرق ،

X ولما تولى إبراهيم الثاني تحرير جريدة مرآة الشرق ابتداء من العدد ١٦ ، بدأ طابع جديد من الكتابة الوطنية والسياسية في الصحافة العربية في مصر يمكن أن نستكشفه من نظرة إلى نماذج منه وعلى هذا النحو^(١) :

على وزرائنا - حفظهم الله - أن يخطوا عن أنفسهم جلايب الراحة ويقاوموا الإغواء ويصلوا شيئاً من بياض نهارهم بسواد ليلهم جداً وسمياً في تحصيل أسباب الإصلاح واستجلاب دواعي السعادة ، نعم ، لا ننكر ما يعترض دون ذلك من المصاعب ولكن هم الرجال تزول الجبال وتسهل المشاق ، خصوصاً إذا انبث السمي عن غير حقيقة وحجة وطنية ونفس أبية ضاع حقها وتداعى ركن عزها وانبنى على تدبير محكم وسياسة مستقيمة ، كما يكون سعى وزرائنا فهم وطنيون أحرار الطباع أشراف النفوس لا يرضون الخسف ولا يدينون للعسف وقد توفرت فيهم بواعث السمي ودواعي الاجتهاد .

وتشهد الأحوال الحاضرة أن حكومتنا في قبل هذا الزمان لم تفقد القانون العادل الذي يكفل لكل ذي حق حقه ولكنها فقدت من يقوم بحفظ ذلك القانون ، وذلك لتآلف أعضائها من عبدة الهوى وعبيد الشهوات لا يرون الحق لا ما يوافق أغراضهم ولا ما يوافق القانون ، واستيلاء أفسارهم الرديئة الناشئة عن مبادئهم الفاسدة على أفكار رئيس الحكومة القابض على زمام الأمر فيزينون له المشوه ويحسنون القبيح ويظهرون الحق باطلاً والباطل حقاً .

وإهم الفاسد هي عدم مراعاة الاستحقاق في منح الراتب والمناسب ، فكنت ترى الحاشية والمقربين إليهم يقدمون من شاءوا من أقربائهم وأوليائهم مع مصادرة التيار الجديد .

(١) مجلة مرآة الشرق ١٨٧٨ تولى تحريرها إبراهيم الثاني (العدد ١٦) ١٤ أغسطس ١٨٧٩ .

وقد عارضت الرقابة هذا الاتجاه ولم تتوقف عن نقده حتى أنها أصدرت أمرها بمصادرة جريدة الوطن خمسة عشر يوماً ، وقد نشرت الوطن هذا القرار في عددها (١ - يونية ١٨٧٨) تحت عنوان : إخطار رسمي من إدارة المطبوعات « على هذا النحو : » مع سبق إخطار أرباب الجرائد بتعديل مسلكهم بالنسبة للمآل والزمان ، ما زال مشاهداً عدم الالتفات لذلك ، لذلك وحيث أن ما سطر في كل من جريدة الوطن ، وجريدة التجارة مخالف ، قد استوجب الحكم بتعطيل الجريدتين المذكورتين مدة خمسة عشر يوماً « ثم علقت الجريدة قائلة : « ... فامثالاً لهذا الإخطار الرسمي وجب علينا تعطيل جريدتنا مدة خمسة عشر يوماً ، وكنا نود لو صرح في هذا الإخطار ببعض العبارات التي لم تحظ بالقبول أو التي خرجت على الأصول ، وذلك لإصلاح الخلل وعدم الوقوع ثانية في الزلل . لا أن نتمادى إلى تعطيلها بدون سبب فإننا لم نعلم سبباً سوى ذكر فصل عن لزوم تنقيص فائدة الدين أما إذا كان التعطيل بسبب ذكر حقوق أعضاء مجلس النواب فهذا ليس بشيء بالنسبة لما هو مذكور .

وقد سئل أحد كبار وزراء أوروبا عن سن قانون لمنع حرية المطبوعات وذلك لمنع الضرر ورفع تشويش الأذهان والخطر ، فقال إن الواجب الوحيد لمنع الخطر هو ذات حرية المطبوعات ، ولم يمرى لقد أصاب هذا التحرير في هذا المقال . فالجرائد هي بمنزلة بلسم للعامل وماء لرواء الغليل ودواء لشقاء السقام ونوراً لأولى الأفهام وهدى لرفع فاسد الأوهام » .

* * *

هذا هو الطابع الصحفي الجديد الذي رسم صورة جديدة للكتابة يمكن أن يطلق عليها صحافة الرأي من خلال تلاميذ جمال الدين غير أن أمر هذا اللون لم يطل فلم يلبث أن أبعد جمال الدين الأنفاني^(١) وسدر بلاغ رسمي بإبعاده نشر على هذا النحو :

رسمي : (ورد لنا الإخطار الآتي بطريقة رسمية فقمنا به استئثالا وهو بالحرف الواحد)

(١) - جريدة مصر : الجمعة ٢٩ أغسطس (آب) ١٨٢٩ .

« لما كان الأمن والأمان والراحة والاطمئنان يتوقف عليهما تمام العمران في جميع الممالك والبلدان ومن أنجح الأبواب وأصاح الأسباب التي بها نجاح الممالك وسلوكها في أقوم المسالك قطع دابر المفسدين فيما يضر بالدنيا والدين ، ويكون ذريعة للعائشين المتظاهرين بين الناس بمظهر الحرية بدون أساس البائين ذلك على غير شرع واصل ثابت وفرع ، وإنما هي مجرد خزعبلات وترهات وإشراك وأحبولات نصبوها لاقتناص أمثالهم السفهاء والجهال الذين هم بمعزل عن معرفة شيء من صوالج الأحوال وللتوصل إلى اغراضهم الفاسدة ومقاصدهم السيئة الكائنة .

وحكومتنا . . . التي ما زالت على بصيرة متيقظة كل التيقظ ، فمن ثم قد استشهدت بأن هناك جمعية سرية من الشباب ذوي الطينس مجتمعة على فساد الدين والدنيا المضر بالبرية رئيسها شخص يدعى بجمال الدين الأفغاني مطرود من بلاده ثم من الأستانة العلية لما إرتكبه من أمثال هذه الفسدة في ديارنا المصرية المتحققة بالقبض من أهل الضبط والتيقظ والربط ، على أوراق عنده مضمونها شاهد عليه بالتوصل بتلك الجمعية إلى السعي في جميع القبائح والمفاسد التي لا تخفى على أهل الكياسة ، خصوصاً رجال الحكومة المتمكنين المدربين على السياسة والرئاسة ، فالتزمت هذه الحكومة الحازمة أن تتخذ الطرق اللازمة ، وتستعمل السداد في قطع عرق هذا الفساد فأبعدت ذلك الشخص المفسد من الديار المصرية بأمر ديوان الداخلية ووجهته من طريق السويس إلى الأقطار الحجازية لإزالة هذا الفساد من هذه البلاد عبرة للمعتبرين ولئلا يتجاسر على مثل هذا من المفسدين . اهـ

(٢) تلايد جمال الدين بعد سفره من مصر

لا شك كان للشاميين في مجال الصحافة العربية دور ، ليس في مصر والشام وحده ، بل في العالم العربي كله ، وفي الجزائر والمغرب الأقصى وتونس . وإذا نظرنا إلى الصورة من الداخل في مصر في مدة ما قبل الاحتلال رأينا مجموعة من شباب الشام (سوريا ولبنان في الأغلب) الذين طعموا في الهجرة إلى مصر ، في ظل تشجيع إسماعيل باشا للعناصر غير المصرية التي كانت تعاونته في هذه الفترة وخلق ولاء يدين له ، ويخدم أغراضه ، غير أن أغلب هؤلاء لم يلبثوا أن انقضوا عليه ، وعاونوا خصومه ، فسلمت تقلا هاجمه في الأهرام واستغل بالحماية الفرنسية ، وبمقرب صنوع الذي كان معلما للرقص في قصر عابدين ثم طرده الخديو فسافر إلى باريس أصدر صحفاً متعددة هاجمه فيها وأطلق عليه اسم « شيخ الحارة » منها : أبو نظافة ، أبو نظارة زرقا ، أبو سفارة ، ولم تكن خصومته لإسماعيل ولاءاً لمصر ، ولكنه كان يعمل على ولاء واضح لفرنسا^(١) .

أما أديب إسحق وسليم عنجهوري وسليم النقاش فقد أخذوا صف جمال الدين خلال إقامته في مصر ، أما أديب إسحق فقد خرج من مصر مغاضباً للوزير رياض خلفان شخصي معه وأصدر صحيفة أطلق عليها (مصر القاهرة) هاجم فيها الاحتلال البريطاني (وحده) وأيد النفوذ الفرنسي ووصفه بالرحمة والعدل ، ثم عاد أديب إسحق إلى مصر وأصدر صحفاً والت الاحتلال البريطاني وأيدت القصر .

وهذا نموذج من كتابات أديب إسحق في جريدته التي أصدرها في باريس :

(١) الرأ دراسة منه في كتابنا (الثقافة العربية بين التعريب والشهوية) .

جريدة مصر القاهرة

مصر «القاهرة» جريدة حرة سياسية ، محرر الجريدة وصاحبها : أدب اسحق
طابع في باريس تحت اسم الحرية ، وتنفرد ما يعود بالنفع على البلاد العربية .
«حرية» . إضاء . مساواة» باريس ٢٤ ديسمبر (كاتون أول) ١٨٧٩
[نعرض أول أعدادها افتتاحية جاء فيها] :

(الافتتاحية) إننا على يقين من أن استبداد رياض باشا في الحكومة المصرية يحمله
على منع البريد المصري من نقل الجريدة في داخل القطر ، غير أننا لا نعدم الوسيلة لإيصالها إلى
المشاركين في أوقاتها ، فقد أقمنا في المدن والثغور المصرية وكلاء من الأحناب ترسل إليهم
الجريدة بطريقة مأمونة المراقبة وأما من رام أخذها بنير واسطة هؤلاء الوكلاء فإننا نرسلها
إليه في ضمن ظرف على شكل الرسالة فلا تصل يد الاستبداد إلى منعها عنه .

وكل ما يرد إلينا من مستندات الصحيفة بلشر مكتوم النية أو مشهورها على ما يروم
المرسل . نوافق على ذلك من يكاتبنا من البلاد الشرقية المحفوفة بمكاره الاستبداد ميثاقاً
نحفظه حفظ الشرف ونصونه سيادة الروح .

هذه صحيفة مصر - طواها الاستبداد فانت شهيدة ثم أحييتها الحرية فماشت سعيدة .
حاول رياض باشا المصدر في مصر إطفاء نوري وأبى الله إلا أن يتم نوره وإن كره الظالمون .
أمانتي بدعوى الحرص على المواطنين أن أثيرها إلى الفتنة بل خاف أن أكشف الحجاب
عن حقيقة أحواله فزعم أنى ناصية الشر لفترة منه أو تشيما لسواه .

مسلكي : أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً جانب التصريح متجافياً عن التمريض
والتلميح ، وأن أجلب مبادئ الحرية وآراء ذوي النقد وأن أوضح معائب اللصوص الذين
نسميهم اصطلاحاً أولى الأمر ومثالب الخونة الذين ندعومهم وما أمناء الأمة ومفاسد الظلم
الذين نلقبهم جهلاً ولالة النظام .

مقصدي : أن أثير بقية الحية الشرقية وأهيج فضالة الدم العربي وأرفع النشأة عن
أعين الساذجين وأحيي النيرة في قلوب العارفين ليعلم قومي أن لهم حقا مسلوبا فيلتمسوه
ومالاً منهوبا فيطلبوه . وليخرجوا من خطة الخسف وينبذوا عنهم كل موالس ، ويستقيموا
في مجاهدة الدين يبيدوا أبدانهم وأموالهم وأوطانهم إلى الأجانب بما يطمعون في رفعة المقام
فمن مات دون دمه فهو شهيد ومن قتل دون ماله فهو شهيد ومن قتل دون أهله فهو شهيد .
ومن عاش بعد أولئك الشهداء فهو سعيد .

ومضى أديب اسحق يهاجم حكومة رياض باشا فإذا تعرض للاستعمار ركز الهجوم على إنجلترا
فقط ، أما فرنسا فهي ليست في نظره دولة مستعمرة تستغل باغواتنا في شمال أفريقيا وإعناهي مناور
الحرية يقول :

« على مثل ذلك طبعت حكومة الإنجليز وعلى مثله تراها في الهند قد جعلت أمراءها
علمانا وأنخذت أبناءها عبيدا واستخدمت طاعتها فيلة ويمرانا وعلى مثل هذا يراها المصريون
أن رضوا رياض باشا وزيرا يقول ليس في هذا القطر من ينفعه بخطاب أو يحسن بحجواب
أو يميز بين الخطأ والصواب ، ويستقدم الأجانب لأعظم المناصب ويشموز على الأمير ويشد
على الوطنيين النكير ويلقي الجرائد الناطقة بالصدق الرائدة عن الحق .

أما سائر الدول فإنها أقل من تلك الدول شرا وأكثر منها رفقا وبراً . تعامل الحاضرين
لها بالتي هي أحسن حتى يكادوا يحمدون وفادتها ويشكرون ولايتها .

ثم يجامل فرنسا فيقول : رياض باشا « أداماخنستون » القائل بـ « جميعية المصريين
المعتقد بأنحطاط مداركهم المصحح بضعف عزائمهم الجاهر بالازدراء بهم . » الأمة الفرنسية
المروفة بحب الإنسانية المشهورة بالحرص على حقوق الحرية والمدنية القائمة بأمر العدل
المتبوءة في قلوب الشرقيين مكانا عاليا . »

ما هو رياض بها

«رجيل»^(١) دون الرتبة . خفيف المارضة . أغبر اللون . مفكسر العين تشير صفرته إلى الضغينة . وتدل تنوء جبهته على سلاية الرأي . فيه مزية العزم والإقدام وهو من بيت الوزان من يهود مصر الأذكىاء . أقيم جده على وزانة النقود فأظهر الإسلام وتبعة بنوه من بعده إلى هذا العهد ، وللناس ما ظهر ولله ما استتر . وهو نبیه الفسکر لو حصل من العلم شيئاً لما بعد عن مقام أهل الفضل ، على أنه عريض الدهوى يتفق في كلامه تنق الميزاب في كاتون فإذا سمعته بعد المهمة والتمنمة يقول بكلام الموام خدمة الوطن ظففته من الجديرين . بالرئاسة الخبيرين بالسياسة فإذا راقبت أعماله رأيت حركة ولا بركة . صاحبته سبباً كانت سبباً في ترقيته . بأنه كان من مفروزة الأمير عباس فيستحضره في محامل أنسه ومجالس طربه فلما دب عارضه رفقه إلى بعض المناصب فاثبت أن أنه البسكوية . لم أر في سياسته ما يدل على الصباح ليكون محلاً لهذه الشبهة .

أثر الصحافة في مجلس شورى النواب

ولم يلبث أثر صحافة الرأي أن بدا واضحاً في دوائر مجلس شورى النواب .

يتمثل ذلك في جلسة مجلس شورى القوانين (الجلس ٢٧ مارس ١٨٧٩) فقد عقد مجلس شورى النواب جلسته وبدأ ينظر فيما لديه من الأعمال وإذا عطوفتو رياض باشا رئيس مجلس النظر يدخل وفي يده مرسوم للفض المجلس وثارت ثائرة الأعضاء . ودارت مناقشات حادة ، وكان عبد السلام المويلحي أبرز خطباء الجلسة الذين اشتبكوا مع رئيس النظر في المناقشة . وكانت الوزارة قد تألفت في أوائل هذا العام (١٨٧٩) برئاسة ولي العهد (محمد توفيق) ودخل بين أعضائها وزيران أوريبيان أحدهما إنجليزى وهو سير ريفرس وباسن وقد تولى وزاره المالية وثمانينهما فرنسى وهو سير بلنير وقد تولى وزارة الأشغال ، وذلك بناء على

(١) عدد ٢٣ يناير ١٨٨٠ (مصر القاهرة) باريس .

الاتفاق الذي تم بين الخديوي إسماعيل والدولتين الأنجليزية والفرنسية ، وكان مجلس الشورى قائماً في ذلك الحين فتقدم باقتراحات إلى وزارة المالية لتخفيض الضرائب الفادحة وطلب المجلس حضور وزير المالية فلم يحضر فأرسل ملاحظاته على ذلك لوزارة الداخلية فلم ترد إجابة على المقترحات ، وطلب النواب الإجابة والحوار في الشكوى من الضرائب فرأى الوزيران الأوربيان وكان لهما الرأي الأول في الوزارة ، أن بقاء مجلس شورى النواب يسبب لهما العقبات فاعتزما التخليص منه ووافقهما وزير الداخلية والحقانية (رياض باشا) ثم اسقر رأى الوزارة كلها على حل المجلس بحجة أن مدة نيابته قد انتهت وهي ثلاث سنوات وأصدر مرسوم الحل ، هنالك قال عبد السلام المويلحي : أن المجلس طالب بدم قطع أي أمر في أي شيء كان إلا باشتراكه ، وجرت بينه وبين رياض مناقشة حادة ، اشترك فيها محمد راضي الذي قال : الأمر الصادر الآن ذكر فيه أن المجلس انتهت مدته مع أنها ما انتهت وحاصل الأمر أنه لابد من عودة المجلس بعد المدة التي قررناها لأجل رؤية تلك المسالك الملحوظات .

ورد عبد السلام فهمي على ما وجهه (رياض) فقال : من ضمن ما قلته أنه أهالي مصر همج ، وأنه لا يوجد فيهم عشرة يفهمون ما يقال في الجرائيل (الجرائد) مع أنه لا يصح نسبة جميع أهالي الوطن لهذه الحالة التي لا تليق .

وأنجبه الرأي إلى إسقاط الوزارة الأوربية بعد أن فضت المجلس ، واجتمع النواب الأحرار في بيت الشيخ البكري نقيب الأشراف ثم في منزل إسماعيل راعب رئيس مجلس النواب الأول على هيئة جمعية وطنية تضم صفوف أصحاب الرأي ومطالبوا بإسقاط الوزارة وتأييد وزارة وطنية برئاسة محمد شريف ، كما طالبوا بتعديل نظام مجلس شورى النواب وتخويله السلطة المعترف بها للمجلس النيابية في أوروبا .

وقد أذعن الخديوي إسماعيل للمطالب وكان ذلك انتصاراً للمجلس .

صحف عربية في لندن وباريس

أصدر السوربون الموالون للاستعمار صحفاً متعددة خارج الوطن العربي خلال فترة ما قبل الاحتلال البريطاني لمصر ١٨٨٢ ، وقد صدرت هذه الصحف باللغة العربية في لندن وباريس وكما تحارب الدول الثمانية وتحمل عليها ومن هذه الصحف :

لويس صابونجي : جريدة النخلة (لندن) ١٨٧٠
لويس صابونجي ويوسف شلفون : جريدة الفجاء (لندن) ١٨٧١
يعقوب صنوع : أبو نضارة (زرقا) ، أبو زمارة ، أبو صفارة (باريس) ١٨٧٩ ، ١٨٨٠
أديب اسحق : جريدة مصر (باريس) ١٨٧٩
رزق الله حسون : مرآة الأحوال (لندن) ١٨٧٦
ويحاول رزق الله حسون أن يستدرج المصريين والعرب إلى السكتابة في صحيفته فيتهمه
بأنه لن ينشر أسمائهم على شريطة أن يظلموه هو عليها ، يقول :

مرآة الأحوال — بريطانيا ١٨٧٦ (رزق الله حسون)

« كل ما يرد من مطالعة مضمونها الانتقاد على سياسة أو حكومة محلية فلنراها نندرج في المرأة من دون أن يشمر باسم كاتبها إلا برغبة منه وليعلم أنه بمقتضى الحرية الإنكليزية الوارف على الدنيا ظلالها لا يطالب بما في صحيفته وقائع إلا مديرها فلماذا تاتي المراسلة بلا إمضاء يلتبس المعتمد عليهم بآخرين ، وكل رسالة ليست من مستهدفات مرآة الأحوال ينقض عنها » . والواضح أن أغلب الصحف التي صدرت في لندن وباريس كانت ذات ولاد للنهوذ الأجنبي في البلدين ، وقد استهدف أغلب هذه الصحف تمزيق وحدة الروابط القائمة في هذه المنطقة وفق المخطط الذي رسمه الاستعمار لذلك في مقدمة الاستيلاء عليها والقضاء على وحدة الفكر العربي الإسلامي . وقد وجدت الدهوات القفرية وخاصة

المسيحية بحالا ضخماً في هذا المجال ، وقد حاول الصحفيون الشاميون في العالم العربي كله نفوذ الاستعمار الفرنسي والانجليزي معاً ، سواء في الصحافة المصرية أم في صحافة طرابلس الغرب أو تونس أو الجزائر أو المغرب الأقصى ، والسودان وكلها كان لهم سبق الاشتراك في أنشائها . ولهذا التيار إمتداد بعد الاحتلال البريطاني لمصر .

فقد أناحت بريطانيا لزرق الله حسون إصدار جريدة « مرآة الأحوال في لندن للتنبيد بمخسوم بريطانيا وهو في نظر المؤرخين أعظم كاتب هاجم الدولة العثمانية وممل على تزويق وحدة العالم الإسلامي العربي في هذه الفترة وعاون المستشرقين في إنجلترا وفرنسا ، وقد قاد معركة مقدعة ضد أحمد فارس الشدياق صادق صاحب جريدة الجوائب التي كانت لساناً للدولة العثمانية ، حتى أنه أصدر مجلة خاصة لهذا الغرض أسماها (رجوم وغساق إلى فارس الشدياق) يكتب ضد خصومه بلمهجة قاسية ، ومن هؤلاء عبد القادر لباني صاحب مجلة ثمرات الفنون البيروتية) .

أما لويس صابونجي ، فقد كان صاحب ولاء واضح لبريطانيا ، وكانت صحفه بها تحمل اتجاهها ومفاهيمها ، وفي صحفه النحلة ، وموسى الخلافة ، والنجاح والخلافة حملات شديدة على ما أسماهم توفيق حبيب (خصوم الموارنة) = مجلة المستقبل (١٩١٤) . وهو الصحفي الوحيد الذي جمع في هذه الفترة بين العلم والدين فهو قس ودكتور في الفلسفة . وقد طاف العالم كله وتنقل بصحفه بين آسيا وأفريقيا وأوربا .

وقد أصدر صابونجي جريدة (الخلافة) في لندن سنة ١٨٨١ وكان يطبعها على الحجر ، ويفقد فيها العثمانيين ، وقد تبرع لها بعض المولين من الانجليز بمشرة آلاف جنيه . كما أصدر « الاتحاد العربي » عام ١٨٨١ في لندن يدعو فيها العرب إلى الثورة على الدولة العثمانية ، كما أصدر جبرائيل عبد الله الحلبي للحكومة الفرنسية في باريس جريدته للشترى والصدى عام ١٨٦٧ لنفس الغرض .

وكانت هذه الصحف سبيلاً من سبل الاستعمار في الشرق ، إذ كانت ترسل إلى المستعمرات

الفرنسية والبلاد المحتلة لنؤيد وجهة نظر معينة ونحلق تياراً فكرياً مضاللاً ، أما أبو نصارة المسمى (جيمس سانوا) فهو ليس شامياً ولسكنه يهودى إيطالى ولد في مصر وكان يصدر صحفه في باريس بعد أن نقاه الخديو ، وقد أوقف صحفه على ذم إسماعيل ، وكان يكتب باللغة العامية وهو أول من حاول اتخاذها أسلوباً عاماً ، وقد وجه همه إلى السكاريكاتير والفكاهة والزجل وأدخل كلمات فرنسية وعربية عامية إلى كتاباته كقوله (دخلنا الرستوران وأكلنا بشمبانيه) وقد تردد أن جمال الدين الأفغانى كان يشجعه ، وقد قرأت نصاً لجمال الدين في صحيفة مصر يشير فيه إليه إشارة الازدراء والاحتقار .

وقد عمل كثيرون من الشاميين المسيحيين في أوربا منهم جبرائيل دلال وابن الشميل وخلييل غانم ، وكانوا جميعاً أولياء للنفوذ العربى بقسميه الفرنسى والبريطانى من أجل المحسومة مع على الدولة العثمانية التى كانت تقف في طريق إستيلاء الاستعمار بعض أجزاء العالم العربى وتقسيمها . وقد أهانت هذه الحملات فعلا على تحقيق هذا الفرض .

وقد نشر محمد عبده مقالاته في الأعداد الأولى للأهرام ١٨٧٦ كما نشرت مقالات في صحف هذه الفترة باسم (مظهر بن وضاح) وهو اللقب الذى اختاره جمال الدين لنفسه ولم يكن الأفغانى يكتب ولسكنه كان على ، ومن ذلك مقالاته (الحكومات الشرقية وأنواعها) وأهم مقالاته كانت في الحق على الإنجليز .

قبل الاحتلال وبعده

(١) الأهرام

وانفلتت مرحلة ما قبل الاحتلال وبدأت مرحلة جديدة حافلة بالأحداث والقيارات المتعددة بعيدة المدى ، فقد توقفت الأهرام بعد الاحتلال (٠٠ بولية ١٨٨٢) حتى صدرت في ٢٩ سبتمبر ١٨٨٢ حاملة على عرابي واصفة إياها « بالامامى عرابي ورفاقه البغاة » مادحة سلطان باشا والجنرال ولسلي ، ثم لم تلبث الأهرام أن حددت موقفها من الاحتلال البريطاني في ١٩ أغسطس ١٨٨٤ ثم صدر الأمر العالي بتعطيلها وجاء في أمر التعطيل « نظراً لأن جريدة الأهرام نشرت مجلة مواد سياسية من شأنها خدش سلطة واعتبار الحكومة الخديوية ونظراً لأن العدد الصادر من هذه الجريدة في ١١ أغسطس ١٨٨٤ نشر فيه مراسله من لندرة من هذا القبيل أشد طعنًا مما سبق نشره ونظراً لأن نشر مثل هذه الجمل مع ما عليه من حالة القطر الحاضرة وحالة الأفكار بعد غخلا للنظام العموي تغلق الأهرام شهرًا من تاريخ إعلان صاحبها » .

وكانت الأهرام قد استطاعت بفضو الخديو إسماعيل بعد صدورها بسفوات قليلة ، ففي إبريل ١٨٧٩ هاجمت الأهرام الخديو إسماعيل واتهمته بالاستبداد والإسراف وسرقة أموال الدولة ، وقالت إن الخديو إحتجز لنفسه بنير حق من أموال الفلاحين مائة ألف جنيه إسترليني وكانت المراقبة الإدارية قد تقررت على مالية مصر ، وتمهد إسماعيل باشا بإرسال الأموال إلى خزنة المالية فحدث أن قطاراً حمل من طنطا إلى هابدين ٨٥ ألف جنيه فكشفت (صدى الأهرام) فصلاً بعنوان (ظلم الفلاح) : حملت على إسماعيل باشا حملة شديدة فاستاء إسماعيل وأرسل قوة من الجند أحاطت بالفندق للقبض على سليم تقياً ولكن بشاره تقدم من المحاصرين فأخذوه فأمر إسماعيل بسجنه في سجن مظلم فكشكث ثلاثة أيام لا يدرى ما يحل به أما أخوه فقد استنفر قفاصل الدول فسمعوا هدد الخديو .

قال له إسماعيل : إنك تكذب سدمن توجد حياتك وموتك بيده ، فأجابه إن ما نشر هو رأي حقير لا يستحق غضب أفنديها ولكن إذا قطعته نبت رأساً أكبر ، قال : فنضب إسماعيل

لهذا الكلام وأمر بسجنى فألقيت إلى مائت ولكن توفيق باشا على أثر ذلك اضطر
الإخوين إلى الالتجاء لحماية فرنسا ففالاها ، ولما أثبتت المسألة المصرية سنة ٨١ سافر بشارة
تفلا إلى الآستانة ومنها سافر إلى باريز ولندرة . وظل سليم وحده يصدر الأهرام يوميا
وجاهد في أوربا جهادا حسنا وعاد سنة ١٨٩٢ فأنعم عليه الخديو بالرتبة الثانية .

في الثورة الميرابية حرقوا دار الأهرام فسافر إلى سوريا وعاد فأصدر الأهرام في نشرة
صغيرة على صفحة واحدة وفي سنة ١٨٩٢ قصد الآستانة وقابل السلطان الذي أدى له بحديث
عن مد السكة الحديدية من دمشق إلى المدينة ومن معان إلى العقبة وأنعم عليه بالباشوية .
وقد وسم سليم تفلا شياصة الأهرام بهذه العبارة « سلطة سنية وثابة عثمانية ومصر
المصريين ورأى عام في الشرق الميثاق » فلم يتحول عنها طوال حياته ، ولم يتحول عنها
الأهرام بعدها ، ثم نقل بشارة إدارة الأهرام إلى القاهرة (٩٨ شارع الإسماعيلية) ثم أصدر
البرامهد الفرنسية وتوفى (١٥ يونيو ١٩٠١) .

...

وفي أوائل عام ١٨٨٩ صدر المقطم مواليا للنفوذ البريطاني ، ولم ينته العام حتى صدرت
أولى الصحف الوطنية الكبرى « المؤيد » وكان صدورها هورد الفعل على صدور المقطم .
واستمر المؤيد أحد عشر عاما الصحيفة الوطنية الأولى والوحيدة في مصر حتى صدرت
اللوام عام ١٩٠٠ وتوات الصحف .

المستور : فريد وجدي (١٩٠٧-١٩١١)

الجريدة : لطفى السيد (١٩٠٧-١٩١٥)

المفبر : محمد المهياوى وأحمد حافظ موسى (١٩٠٦-١٩٠٨)

النظام : محمد مسعود ١٩٠٩

وكانت سياسة الأهرام خلال فترة ما قبل الاحتلال ضد المرائيين فكان حزب

الخديو يوزع الأهرام خلسة بين الجنود . ولما دخل الإنجليز القاهرة عاد سليم من سوريا فاستأنف مع شقيقه إصدار الأهرام وأعطيا تمويضا قليلا فابتاعا مطبعة . وفي ١٨٨٤ سافر بشاردة إلى لندن لحضور المؤتمر الخاص للتحياض في السألة المصرية .

وعطلت الحكومة جريدة الأهرام في ٢٠ سبتمبر ١٨٨٤ بحجة أنها كتبت فصلا قالت فيه (إن حكومة مصر تحرم انجلترا دون مصر) . وقصد بشاردة بإبراز وحمل وزارة خارجية فرنسا على تأييد مطالب الأهرام واعتذر نوبار لفصل فرنسا . « هذه الحوادث التي حلت مؤسسة الأهرام إلى الاحتماء بدولة أجنبية فلولا هذه الحاية لم يبق عليهما إسماعيل وكانا يقولان أنهما يعضدان سياسة فرنسا لأنها الدولة الوحيدة التي نهضت للدفاع عن حقوق مصر .

وعرفت صداقة الأهرام للدولة العلية وقد سافر بشاردة إلى الآسمانة بعد محاكمة المرابين وأعان ولائه لسلطان .

وفي هذه الفترة استقدم أصحاب القلم بحاجتهم « المتتطف » فأصبحت تصدر من القاهرة منذ عام ١٨٨٦ ثم صدرت مجلة الهلال ١٨٩٢ وفي نفس الوقت ظهرت مجلات شهرية تحاول أن تنافس المجلتين وتأخذ نفس الطابع الشكلى مع الاختلاف في المضمون .

(١) المنار « رشيد رضا » ١٨٩٩

(٢) الحياة « فريد وجدى » ١٨٩٩

(٣) الموسوعات « محمد فريد وحافظ هروض » ١٨٩٩

(٢) الطائف

وصف الثورة العراقية

في خلال الثورة العراقية كانت هناك صحافة تهاجم الإنجليز والخصو وتؤيد عراقى أبرزها « الطائف » التى كان يصدرها عبد الله نديم فى معسكرات القتال ، وبما يذكر له من عبارات الحماسة وإثارة المشاعر فى خطبه التى كان يلقيها فى التجمعات الشعبية قوله : إنقاذ مدافع الإسكندرية تصل إلى قبرص من هذه الناحية ، وقدائف مدافع الأسفانة تصل إليها من الناحية الأخرى ، فكلمنا جالت المراكب الإنجليزية فى تحت رحمة مدافنا « وصفق له الناس . .

وكان أحمد سمير أحد محررى الطائف يصف المارك الحربية فيقول :

فى (١) ليلة الأربعاء قام الهام سعادة أحمد بك هيد الففار ومعه ستون فارسا من المساكر ومائة من مشاة الحرب وكن للعدو بجوار عزبة نوبار باشا وكانت قد توجهت أورطة على خط سكة الحديد خشية أن يكون للعدو هناك أرساد أو طلائع وفى منتصف الساعة الثامنة من الليل ألت العرب ثيابها وبقيت بألبستها وفاجأت العدو وكبسته وهو فى رباطه فأطلقت الفيران من الجانبين ثم جاءت السوارى وهجت من خلف العرب ففرت طليعة العدو وتركز الميدان وما زال هذا الهام يقيمهم ونار البنادق تطرم حتى اختفوا خاف ربة فى وسط سكة الرمل .

وقد كان للثورة العراقية آثار ومعقبات فقد بلغ الذين حركوا بمدحاكة عراقى وتفيه أكثر من ثلاثين ألفا ، وقد جمع هذه المحاكات سليم خليل نقاش فى كتابه « مصر للمصريين » فى ثلاثة آلاف صفحة منع صدور أجزاءها الثلاثة (الأول والثانى والثالث)

(١) الطائف - ١١ أغسطس ١٨٨٢ .

وسمح بالأجزاء الستة من الرابع إلى التاسع عام ١٨٨٤ ، أما الفلانة الأولى فيمد أن شرع في طبعمها أوقفته الحكومة إذ ذاك من نشرها وتحتوى تاريخ مصر منذ عهد محمد على وإبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل وتشتمل على وقائع مصر والسودان ، وقد ذكر إذ ذاك أن الرقابة وجدت في ترجمة محمد على وإسماعيل ما يجب حذفه ، والوقائع الموجودة بالسكتاب مستفعاة من جريدته (المحروسة) .

ومما يذكر أن محمود ساي البارودى أحد زعماء الحركة المرائية قد قال مصوراً حركة المرائيين : لقد كنا نرى منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر إلى جمهورية مثل سويسرا ولسكنا وجدنا العلماء لم يستمدوا لهذه الدعوة لأنهم كانوا متأخرين عن زمنهم . . .

(٣) العروة الوثقى

وكان من آثار الثورة المرابية أيضا نفي الشيخ محمد عبده الذي سافر إلى بيروت ومنها لحق بأستاذه جمال الدين الأفغاني في باريس وأصدرا معا العروة الوثقى عام ١٨٨٤ ، هذه الصحيفة التي أصدرت ثمانية عشر عدداً ولم تسجل العام وكان لأعدادها دوى وأثر من ناحيتين : من ناحية الصياغة الأدبية ومن ناحية المضمون . وقد صدرتها بريطانيا في كل مكان وصل إليها نفوذها ، كما مفعمت في مصر بلاد الدولة العثمانية ، ومع ذلك فقد نفذت إليهما ونسخها الكثيرون وتلفظوا عليها أمثال رشيد رضا وهب القادر المغربي .

وفي مصر قرر مجلس النظائر في جلسة يوم ٢١ يوليو ١٨٨٤ منع دخول جريدة العروة الوثقى إلى القطر المصري بحجة أنها مهيجة للأفكار ، ولما كانت إدارة البريد الفرنسي لا يمكنها منع إرسال الجريدة المذكورة من باريس إلا بأمر خاص من الحكومة الفرنسية فقد خابرت الحكومة المصرية الحكومة الفرنسية في ذلك . وكان جمال الدين الأفغاني منذ عام ١٨٨٣ يكتب في صحف أوروبا ومن كلماته هذه الكلمة بعنوان :

(الحق والباطل أو نتائج سياسة الإنجليز في مصر)

فعلامة العامل والفيلسوف الكامل جمال الدين الحسيني الأفغاني نشرها بالبصير (باريس) نيسان (إبريل) ١٨٨٣ . قد طبعت ترجمة هذه المقالة في جريدة الجوسميس الفرنسية وهي أم الجرائد الراديكالية في فرنسا ونقلها عنها بعض جرائد باريس ونشر قسم منها في السندور والفيل والفرفراف والفيل نيوز وهي من أعظم الجرائد الإنكليزية وفي التيو فرم برس أشهر جرائد النمسا .

يقول « ما أختلف رأيان في أمر إلا كان أحدهما حقاً والآخر باطلاً ، إن الحق أوسع الأشياء تواضعا وأجلاها برهانا وأوضحها بيانا ، ولقد صنف الحكماء فيه كثيرا وبنوا سننه ، وذكروا شواهد وقسموه إلى أقسامه ، من حقوق الملك والدول والرعاة والرعايا وشرحوا في مصنفاتهم إن الحق قوام الاجتماعات الإنسانية منزلية كانت أو مدنية ، وأن مدة دوام الاجتماعات وبقاء الدول بمقدار دوام الحق فيها وبقائه لأن الحق يحصل التسكافؤ بين القوى

المجتمعة لاكتساب الأمانة والسعادة اللتين هما غاية سير الأمم في حياتهم ، فإذا حصل الانحراف عنه زال التكافؤ فاضمحل الاجتماع ووقفت الأمم دون بلوغ غايتها .

انظر إلى الحزب الحر في الحكومة الإنجليزية كيف كانوا يحامون عن حرية الأمم ويحفظون الدول على إطلاق ربق المبودية من الشعوب ويدافعون عن الإيرلنديين وبجهازون بزمائم الحزب المحافظ ويذكرون شقائق أعمالهم في حرصهم على الفتوحات ، وكانوا ينددون على دزرائيل في إقدامه على حرب الأفغانيين قائلين له أن سير على خان حر في بلاده له أن يقبل سفير الروس ويرفض سفير الإنكليز وليس لأحد أن يمارسه في أمره هذا .

وأعجب من هذا أن المصريين بأجمعهم ولا أستثنى منهم أحداً أرادوا أن يضموا في بلادهم أساس الحرية بتشكيل مجلس النواب تخلصاً من ربة الاستبداد الذي كان يستجلب الوبال على المستبد ومن استبد عليه كليهما وخروجاً من مضيق المبودية التي نشأت من الإيثار والاستيثار بلا ملاحظة النافع والمضار ، وطلباً للانحراف في سلك الأمم المتعددة رجاء أن يحظوا من السعادة بما حظيت به الأمم . لما رأى الغرب ميل المصريين إلى الحرية وسيرهم إليها وسميهم في طلب أسبابها ما ونوا أن واجهوم بالرد وعارضوهم بالعنف ودافعوا هم عن الوصول إليها وأوجبوا الشقاق بين الراعي والرعية ١٩٠٥ هـ .

(٤) المقطم

في ١٤ فبراير ١٨٨٩ صدرت المقطم وعرضها ما أسبقه « تأييد السياسة الإنجليزية التي لولاها ما كان في الشرق بلد يستطيع أن يعيش فيه ويحيا بآرائه وأقواله » .

وقد اتخذ الثلاثة (صروف ونمر ومكاريوس) دكانا صغيرا في شارع أولاد عفان وسيموه (دار المقطف) وكان شرط كرومر عليهم : لا تزجوا باسم الوكالة البريطانية إذا أخطأتم فقدمتم للقضاء ، ثم توهمون الناس بابتكهم إنما تدافعون عن الاحتلال البريطاني للأحسان إلى مصر . ثم لسكم بعد ذلك من الأموال ما تشاءون . وفي تقدير الباحثين والمؤرخين أن جريدة الأهرام تحولت ١٨٨٤ إلى جانب الشعب ، وكتب فيها مصطفى كامل ، هنالك أصدر الاحتلال صحيفة تحمل لواء دعوته فسكانت « المقطم » ، فلم يلبث أن واجه الوطنيون القحدي بإصدار المؤيد في نفس العام ، فلما تحول المؤيد إلى صف الخديو أصدر الوطنيون اللواء عام ١٩٠٠ وقد كتب فارس نمر فصلا صور فيه مدى ثقل المهمة التي قام بها المقطم وذلك بعد نيف وأربعين عاما من إصدار المقطم ، قال : بعد الهجرة إلى مصر^(١) فتحققنا مطبعة كاملة المدّة لطبع المقطف وطبع ما يأتيها من الخارج لنستعين به على شد نفقاتنا ونفقائه ، وكانت عواقب الحوادث المالية قد أوقعت مصر في أزمة مالية ظلت تن من عسرها أعواما فلم يرد على المطبعة مطبوعات تسد الربح منها الحاجة أو تسكني لإدارة المطبعة فأنشأ المرحوم شاهين مكاريوس « اللطائف » وكنا نحرر لها الفصول التاريخية والمواضيع السهلة الطلية رجاء أن تروج بين العامة وتساعد على إدارة المطبعة ، فلم يأت ذلك بالفائدة المرجوة ، ولذلك خطر لبعضا أن نصدر جريدة أسبوعية لنشر الأخبار المحلية ومقتطفات سياسية عمومية فمارضت في ذلك كراهة الاشتغال بنير العلم ، ونحوها من الدخول في مآزق السياسة حتى اشتدت

(١) ذكريات فارس نمر - المقطف (مايو ١٩٢٦) .

الحاجة إلى تدبير عمل كاف المطبعة وجماعنا تنسك إما في إصدار جريدة أسبوعية أو المهاجرة إلى الولايات المتحدة كما كان قد خطر لنا قبل الهجرة إلى الديار المصرية .

ثم تغلب رأى شريكى على رأى وأزمننا إصدار جريدة إخبارية أسبوعية تسكنى مع المقتطف لإدارة حركة المطبعة وتتميز رأس المال ، وبينما نحن نستعد لذلك شاء القدر أن يتصدى لنا من استخف بكرة أنفسنا واستغفنا إلى استبدال الجريدة الأسبوعية بجريدة يومية رغمنا عنا ، وسبعان من قسم الخطوط ، فقد قسم لى أن أحمل أعباء هذه الجريدة اليومية وأفقد راحتى ولقدى وما تميل إليه فطرتى ومن الاشتغال بالعلم ، وبرز المقتطف رجاء أن يكون دخل الجريدة اليومية عوناً لنا على إدامة المقتطف وانقطع زميلى إلى تحريره من كل عمل سواء ، ولا أنمرض هنا لذكر شيء مما لقيت من جراء الاشتغال بالسياسة وخوض معاركها على مبدأ الاشتغال بالعلم في قول الصدق والانصراف للحق ، لا يثنيني منه إرهاب بوميد ولا وعود بمال ورتب ونياشين وما قاسيت من المتاعب التى كثيراً ما غادرتنى أفضى الليالى وأنا أقلب فى فراش الموموم من تماكب الاضطهاد تلو الاضطهاد بسبب الدسائس التى تحاك لى فى الظلام وأن أكنم خبرها فى أعماق صدرى مخافة أن يدرى بها شريكائى فيضطربا فلا يستطيع أحدهما متابعة الدرس والمطالعة وتحرير المقتطف بما يفيض ذلك من راحة البال وصفاء الذهن ، ولا يستطيع شريكى الآخر القيام بأشغال المطبعة والجريدة والمجلة بما يقتضى من الأمن والاطمئنان ، وإذا قلنا قلنى واضطربا اضطرابى بارت الأشغال وساءت حالة العمل والبال ، ولذلك بلغ منى أنى كنت أتلقى أخبار الحكم على بالإعدام من الناقين على بسبب سياسة المقطم وأنا سامت حتى ألقت الصبر على المكاييد ولم أعد أعبأ بتلك الأحكام بعد ما تكررت على ثلاثا بالإعدام وهى لا تزال محفوظة بين أوراق ليقرأها من تقع إليه بصدى ويترحم على مصدريها كما أترحم أنا عليهم اليوم بعد

لنا بلغت من العمر عتياً ولم يبق أحد منهم حياً فبعضهم مات حقت الله وبعضهم مات
غيلة أو بإفناذ حكم الإعدام عليه . . .

. . .

وقد نظم الشاعر أحمد شوقي في وصف المقطم عجالة نشرتها المؤيد (٢٦ سبتمبر
١٨٩٠) جاءت على هذا النحو :

زعم المقطم أنه يذبح وينشر فلسفه

سدد المقطم ياله من فيلسوف في السه

وقد كان أصحاب المقطم يجاه كروم والاستثمار يهاجمون الحركة الوطنية ويهاجمون
الخليو هياس ، وقد حاول هياس الإنعام على فارس عمر برتبة الباشوية فرفض .

(٥) المؤيد

ظهر المؤيد قبل نهاية العام الذي صدر فيه المقطع وقد توالى صدور المؤيد منذ ١٨٨٩ حتى توقف عام ١٩١٥ (وكان الشيخ على يوسف قد تركه عام ١٩١٢ وتوفي في ٢٥ أكتوبر ١٩١٣) وقد أنقذه سعد زغلول من الحجز حين اختلف مع شريكه أحمد ماضي ثم إنخذه الخديو عباس لساناً لسياسته من بعد ، وأعطاه أربعة آلاف جنيه فاشترى ماكينة طباعة رأس كبرى عام ١٩٠٦ ، هي أول ماكينة روتاتيف تطبع ١٢ ألف نسخة في الساعة . وقد قام على تحريره بمد صاحبه (على يوسف) على التوالى : سيد كامل ، وحافظ عوض وعبد أبو شادى وحامد إبراهيم أول من قال بتقديم الفاتورة للإنجليز بعد الحرب .

وكان تقرب على يوسف من رياض باشا فآمنة نجاحه وما زال يحوم حول الوزراء والحكام حتى عام ١٩١٢ حين تولى أعلى سلطة صوفية وكانت له الكلمة الأولى في أعلى الجهات » وقد لبس الشيخ اسكل زمن لبوسه وأخذ حيال كل ذى سلطة من الوسائل والحالات ما يؤدي لنجاح خطته على يديه بحكمة وحصانة .

وقد وصف الخديو عباس جريدة المؤيد في مذكراته^(١) فقال : كان المؤيد في الواقع يحفل بالمقالات العظيمة ، بأسلوبها البارع وأفكارها العميقة ، وكان الشيخ (على يوسف) بأسلوبه اللاذع وبلاغته التي لا تنمض وعاطفته التي كان يطمئن من غلوها لحسن الحظ فلسفة إنسانية قائمة ، قد غدا بفضل اتصاله اليومي بالشخصيات البارزة متقدما في كل علم وفن وكان يتحدث إلى القراء عن مسائل تستثير مخيلاتهم .

وقد صورت الأهرام موقف « المؤيد » في الحركة الوطنية — يوم وفاة الشيخ على يوسف^(٢) فقالت : سار المؤيد بين هترة من قلم المطبوعات وعسر مالى ، ولكن عين المنفور له رياض باشا ظلت ترمقه وتقيه الثمرات إلى أن اشتد ساعده وكثر إقبال

(١) المصري : مايو ١٩٠١ .

(٢) الأهرام — ٢٥ أكتوبر ١٩٣١ .

(م — ٤ تطور الصحافة العربية المعاصرة)

الأمة عليه بعد نشره تلذرافاً عن الحلة السودانية بقيادة اللورد كيتشنر وصل إليه
خلسة من فتي قبلى فأقامت عليه الحكومة قضية برىء منها ، وكانت هذه القصة عرضاً
للشعب ليقتل على المؤيد ، وتلا ذلك نشوب الحرب بين الدولة العلية واليونان ، فأوعز
رياض باشا إلى الشيخ على بفتح باب الاكتتاب في جريدته لإعانة التأسيسات العسكرية
العثمانية ولإعانة المسلمين الكريدين وترأس دولته ذلك الاكتتاب ، ونمت الحركة الوطنية
وتعززت نموها الكبير فصار المؤيد معرضاً لأفكار الكتاب وآراء المظالم ومن الوطنيين إلى أن
أنشأ الرحوم مصطفى كامل جريدة اللواء ، فانشطرت القوة شطرين ، كان أكثرها إلى جانب
مصطفى كامل ، ولكن المؤيد ظل مجاهداً في سبيله ، ولما ألف مصطفى كامل (الحزب الوطنى)
ألف الشيخ على حزب (الإصلاح على المبادئ الدستورية) لتظل له الزعامة وفي مناهضته
للحزب الوطنى أكبر دليل على ثباته وعزمه وصبره ، وقد نماه المقطم فقال : شق علينا نعى
هذا الرصيف الهام ٠٠٠ بعد ما قضينا أحسن سنى العمر جميعاً في جهاد عظيم ، وصدام
سياسى مستديم حتى قبض الله للجميع الاتفاق على مراعاة أحوال معلومة ومبادئ سياسية
مفهومة » ، والمقطم يقصد بهذه العبارة الإشارة إلى اتجاه المؤيد حين اختار السير في نفس
خط المقطم في تأييد السياسة البريطانية في مصر بعد إنقضاء الاتفاق الودى بين الخديوى
هباس وممثل بريطانيا في مصر « اللورد نورست » .

(٦) اللواء

ظهر اللواء (أول يناير ١٩٠٠) فحمل لواء الحركة الوطنية على نحو يختلف عما كان من اتجاه المؤيد . إنهم طابع اللواء بالحاسة الخطائية والإصرار على خصومة الانجليز دون أن ترتبط هذه الخصومة بعلامة الحديو عباس ، وفي نفس الوقت الذي تحول فيه الحديو عن الحركة الوطنية بق اللواء على خطته ، وعندما قضى مصطفى كامل أختير الشيخ عبد العزيز جابيش رئيساً لتحريره فكانت أقوى مراحل الجهاد الصحفي في مقاومة النفوذ الانجليزى في مصر . ولا هبة بما يذكره بعض الكتاب من إعتاد اللواء على موارد بلدز وعابدين ، فقد كانت الأهرام تعتمد على الفرنسيين وكان المقطم يعتمد على البريطانيين والمؤيد يعتمد على عابدين .

ذلك أن الصحف يومها لم تكن من القدرة بحيث تستطيع الاعتماد على مصادرها ، وكانت تابعة لجهات أو موالية لها وواضحة في تأييد موقف هذه الجهات ، ولعل اللواء هو أول جريدة لم يكن لها اعتماد على جهة ذات نفوذ واضحة التأثير في سياسته ، أو أنه لم يضع نفسه تحت ضغط جهات تفرض عليه سياسة تختلف مع هدفه الأساسي الذي رسمه لنفسه ، فقد كان الحديو عباس يؤيده في أول المراحل فلما تحول الحديو سنة ١٩٠٤ لم يتحول اللواء كما تحول المؤيد ، ثم وانقطعت مؤازرة بلدز بعد عام ١٩٠٨ ومع ذلك فإن اللواء لم يتحول عن خطته السياسية ، والواقع أنه إنما كان يعتمد في مصادره على سراء المصريين الذين يؤيدون سياسته وفي مقدمتهم المرحوم محمد فريد الذي كان ينهض بأضخم جوانب هذه الأعباء .

٧- (الجريدة)

وصدرت الجريدة عام ١٩٠٧ وأعلنت عن هدفها واضحاً وهو « تحقيق الأمان الوطنية باتفاق يتم بين الاحتلال وبين الأعيان المصريين - وحدهم - باعتبارهم أصحاب المصالح الحقيقية » وقد كشف لطفي السيد عن مفهوم الأمة عنده حين قال : « إن الأمة لا تتكون من الأفراد وإنما تتكون من العائلات والأعيان هم رؤساء الأمة العليميون لأنهم رؤساء العائلات وإن السبيل إلى تحقيق مطالب الأمة ، هي الطرق السلمية للمشروعة التي لا تمس مصالح الأجانب ولا تجمس للأنجليز ذريعة جديدة لتثبيت مركزهم في مصر ، أما التطرف من جانب الجمهور فإنه يؤدي إلى العناد والقسوة من جانب الاحتلال القوي ، وإننا نطمح للأنجليز إذا لم نمتزج بالتحسن المادي والإداري الذي وصل إلى مصر في عهد الاحتلال » .

ثم ظهرت صحيفة « الظاهر » لحررها محمد أبو شادي وحملت على الشيخ محمد عبده بمناسبة فتواه بأكل لحوم المنخقة وأفدعت في هجاء الشيخ وطالبت بيزله ، كما تولى مهاجمة الشيخ بمقالات على درجة كبيرة من الافذاع ، الصحفي الأفاق « محمد الشربتلي » ، يقول الشيخ رشيد رضا إن كل الصحف قد ردت على الظاهر ودافعت عن الشيخ عبده ما عدا « اللواء » .

ثم ظهرت صحيفة « المنبر » لحررها : أحمد حافظ عوض، ومحمد سمود وتابعت سياسة عابدين . وظهرت مصباح الشرق لإبراهيم المويلحي (١٤ أبريل ١٨٨٨) وكانت موالية للسلطان عبد الحميد ، وقد نشرت مقالات فياضة في هذاهم هذا الولا .

وكانت تنشر خبر تنقلات صاحبها على هذا النحو :

« حضر صاحب هذه الجريدة من سفره إلى دار السعادة بعد أن حاز جميل الانعطاف السلطاني ونال جزيل الانعام الشاهاني وكيف للقلم واللسان أن ينطلقا بشكر بعض هذه المنن المتوالية والنعيم المترددة » وكان يقدم رسائل أبو الهدى الصيادي بقوله : رسالة طلعت علينا من أفق المشرق لعظيم من عطاء الإسلام^(١) .

دخائل الصحافة

- (١) الهلال - جرجى زيدان م ١٩٠٧ و م ١٩١٠ .
- (٢) مصر الحديثة المصورة (١٩٢٩ - ١٩٣٢) .
- (٣) مجلة كل شيء : لعدد من الأدباء (١٩٢٩ - ١٩٣٥) .
- (٤) مجلة الجامعة (عمود كامل الهامى) مجلد سنة ١٩٣٢ .

يرى عديد من كتبتوا فصولا ومقالات عن الصحافة فى هذه الفترة ، أن الصحافة الشرقية وضعت فى الأصل لخدمة أغراض الحكومة أو موظفيها وأن أرباب الصحف كانوا يستميتون على نشر جرائدهم بنفوذ الحكومة ، وكانت الحكومة تشتري بئيات النسخ ، وكان بعض الوزراء يزود وكلاء الجرائد بكتب التوصية للديرية تأمرهم بمساعدة تلك الجرائد ، وكانت الجرائد آلة فى يد الحكام تسيح باسمهم ، وتترنم بأعمالهم ، وكانت الصحف فى عهد إسماعيل تقضى بإبعاد الوطنيين وتقريب الأجانب ولم تكن الجرائد تصرح بهذا النرض إما تزلها إلى إسماعيل أو خوفا من عصاه . وأشار جرجى زيدان إلى ما أصاب صاحب الأهرام وكيف كان حاله لو لم تقصره دولة أجنبية (يقصد فرنسا) .

فلما بدأ الرأيون حركتهم أنشأوا عدة جرائد للدفاع عن سياستهم أشهرها جريدة التفكيك التى سماها عرابى (لسان الأمة) وجريدة الحجاز والزمان والطائف وغيرها وأنجبت الحكومة إلى إيقاف هذا التيار وتقييد الأقوال ، فسنت قانونا للطبوعات عام ١٨٨١ يقضى أنه لا يحق للمطابع نشر كتاب ما ، قبل الإذن بطبعه من قلم الطبوعات .

وما أن مرت فترة قليلة بعد الاحتلال حتى أطلق للصحافة العنان وسمح بإصدار الصحف فصدرت صحف كثيرة وكانت الصحف فى هذه الفترة تبيش فى أزقة ومذهبات ، ولها ما كينات تدار باليد .

وكان راتب أعظم محرر يتراوح بين خمسة جنيهاً إلى ثمانية ، والأغلبية المطلقة للمصحفين كانت من السوريين واللبنانيين ثم كثر عدد الجرائد والمجلات ، واحترفت الصحافة كل من لاصناعته ولا حرفة ، وصارت الصحافة « مودة » وملهاة لأبناء الأغنياء والأعيان ينشرونها لجرد التسلية ، ولسكنها لم تجد سوقاً فأقبلها أصحابها . أما الأغلبية الساحقة من أصحاب الصحف في ذلك الحين ، فكانت جماعة ممن لا عمل لهم « يتخذونها وسيلة لابتزاز الأموال بالطمع على الممد والأعيان والتدخل في شؤونهم الخاصة بمباراة سمجة جافة » ولما كان أغلب أصحاب الصحف يبيدون عن هذه الصناعة فقد استخدموا جماعة من الكتّاب والمحررين ، وكان بعضهم يكتب إلى ثلاث أو أربع جرائد أسبوعية ، وكانوا يكتبون صحفهم في الأندية العمومية والقهوات وكان معظمهم يجلسون في قهوات ميدان باب الخلق والمقبة الخضراء ، وعمارة متانيا ، وميدان الخازندار . وفي هذه الأندية كانوا يكتبون النوافل (غلاف الصحف الذي يرسل به في البريد وعليه العنوان حيث لم تسكن الصحف كلها توزع مع الباعة) ومحاسبون وكلائهم ومعلمهم ويسارمون الذين يريدون الطعن فيهم ومن يريدون الدفاع عن أنفسهم ؛ ومن اشتهروا في هذه المرحلة :

(١) الشيخ الشربعل ، يكتب في جريدة (النهج القويم) ويكتب لصحف متعارضة ومختلفة في المبدأ والمذهب .

(٢) محمد توفيق صاحب (حمارة منيقي) وقد اشتهر بقدرته على التنسكيت والإخبارات وقد سبق غيره من الكتّاب إلى فن البارودي (المسخ) وتقليد عبد الله نديم في تدوين الحوادث البلدية ، وقد بلغ عدد ما يطبع من حمارة منيقي عشرة آلاف نسخة ، وامتاز صاحب الحمارة على زملائه بأنه لم يكن يتجدي غير أصحاب الشخصيات البارزة وقد أمرف في الطعن على الشيخ محمد عبده وصورة صوراً قبيحة منسكرة فحواكم وحكم بسجنه .

(٣) الشيخ الفجار صاحب الأرفول ، اشتهر بنظم الرجل البديع بلغة عامية عذبة متضمنة نكتاً بديمة رقيقة .

٢ - وكان حماد موارد الصحافة إلى ما قبل ثلاثين سنة قائما على الاشتراكات لضعف موارد البيع والإعلانات ، والاشتراكات كانت عادة تدفع مؤخرا ، ولكل جريدة سجل حافل بأسماء المشتركين وما في ذمتهم من متأخرات تربو أحيانا على ألوف الجنيهات يقبل صاحب الجريدة يبيعها بالثلاث .

ولسكل صحيفة وكيل يتجول في منطقة معينة من البلاد فيختص أحدهم بمديرية أو مديريات مجاورة ينتقل من قرية إلى قرية مطالبا بالاشتراكات ناشرا مقالات الدح والثناء على اللذين والمأمورين ورؤساء المحاكم ومماوى الضبط مقربين بهذا أو ذاك من الممد والأعيان « جرا لعم أو إرضاء لشهوة فرد أو جماعة ، وقد بلغ من (شطارة) بعض وكلاء المقطم في الأقاليم أنهم كانوا يوهمون الممد والأعيان أن مجرد الاشتراك في المقطم يحفلهم « حاية أنجلزى » وما عليهم لإثبات ذلك إلا الاحتفاظ بنلاف الجريدة المطبوع عليه اسم المشترك وإبرازه لرجال الحكومة وغيرهم وقت التوزيع » .

ويقول جرجى زيدان أن الصحف إنقسمت بعد الاحتلال إلى أقسام تحزب بعضها للدولة العثمانية على الإنجليز والبعض الآخر لفرنسا على الإنجليز ، وأول صحيفة ناصرت الإنجليز هي « الزمان » لصاحبها (عليكسان سرافيان) ، ثم المقطم فامتعض الوطنيون منها فأنشأوا جريدة المؤيد ، وأن ظهور المؤيد كان خطوة كبيرة في الصحافة لأنها أولى الجرائد الوطنية الكبرى ، وقال جرجى زيدان (في مقال له عام ١٩١٠) أما بقاؤها إلى الآن - أى المؤيد - وما نالته من الشهرة ونفوذ الكلمة فإنه راجع إلى أقتدار صاحبها وثباته ، وما لم يذكره جرجى زيدان إن إلفان بارنج (اللورد كرومر) قد اتصل به أصحاب المقطم عام ١٨٨٨ وأنه مهد لهم الطريق لإنشاء جريدة يومية ، صدرت عام ١٨٨٩ ، وقد أوعز مصطفى رياض (المعروف برياض باشا) إلى الشيخ على يوسف فأصدر المؤيد بعد ظهور المقطم بسنة أشهر فلما اشتد الخلاف بين عباس واللورد كرومر ١٨٩٢ اتخذت العمية جريدة المؤيد لسانا لحال الخديو .

٣ - صدرت بين ١٨٢٩ - ١٨٩٢ نحو ١٥٠ جريدة بين سياسية وعلمية وطنية وحقوقية وأدبية لم يبق منها حيا حتى عام ١٩١٠ إلا ثلاث هذا العدد .

ويقول جرجى زيدان : بلغت الصحافة منذ ١٨٨٢ ما لم يباينها غيرها ، وسبقت سائر الأمداء العربية . فقد انحطت الصحافة في سوريا قبل إعلان الدستور (١٩٠٨) فأصبحت مصر عطف رجل أبواب الأفلام وعشاق الحربة وطلاب الرزق ، ونحن نرى أن حرية الصحافة هذه كانت أسلوبا من أساليب كرومر في التنفيس بالسكامة ، وفي نفس الوقت فتح الطريق لكتابات السوريين للطمع على سياسة السلطان عبد الحميد خضم بريطانيا وفق خطة مرسومة تهدف إلى تمزيق الدولة العثمانية ، والسيطرة على مختلف الأنظار التابعة لها .

ويقول جرجى زيدان إن الفترة من تولى عباس ١٨٩٢ إلى ظهور اللواء ١٩٠٠ تمثل دوراً مستقلاً من أدوار الصحافة ويرى أنه خلال هذه الفترة نضج المقطم والمؤبد واشتد ساعداها ، وهي وطيس الجدل بينهما ، وأهمل قانون المطبوعات فأطلقت حرية الصحافة وتكاثر ظهور الجرائد الأسبوعية ، وأن الأهرام ثبتت في خطتها (أى مؤازره وجهة نظر فرنسا) ، كما تذهبت الطائفة القبطية في أثناء ذلك إلى الصحافة ، فأعادت جريدة الوطن وكانت قد توقفت ، وصدرت جريدة مصر وهي أكبر الجرائد القبطية ، ويرى جرجى زيدان أنها على الإجمال كانت احتلالية الخطية (وهي غير جريدة مصر التي كان يصدرها أديب إسحاق وسليم النقاش من قبل) .

ويجمل جرجى زيدان ما صدر من الصحف ١٨٩٢ - ١٩٠٠ فيقول إنه بلغ في العالم العربي ١٥٠ صحيفة منها ٨٩ صحيفة في مصر وحدها ، وقال إن أسباب كثرتها إطلاق سراح المطبوعات « فأصبح السكاتب لا يسأل عما يكتب ولا حرج على الناس في إصدار الصحف » .

وقد كثرت في هذه الفترة تحديث الصحف من العرش العثماني والخلافة الإسلامية لاسباب عديدة انتصار

الدولة العثمانية على اليونان ، ولما أعلن الدستور العثماني عام ١٩٠٨ « تملقت آمال المصريين بقرب نيته لأنفسهم وأخذوا يجاهدون لطلبه » فلما تولى بطرس غالى الوزارة أراد أن يخفف لهجة الصحافة الوطنية فأعاد قانون المطبوعات .

وكانت الصحف في هذه الفترة تتضمن : الإفتاحية ، بريد أوروبا ، بريد الاستانة العالية ، أخبار دواوين الحكومة والنضاء ، رسائل مكاتب الأقاليم ، وكانت تحوى مدح شيخ الخفراء ، أو شكوى من قلة المياه ، أو هجاء في أفلام كتاب المحكمة . أما المحليات فكانت تنشر دون عنوان ، والتفاريقات كانت قليلة مختصرة . وكانت تضم مقالات لعدد من الصحافيين . وكان يعمل بها : (الحرر) المقالة والإفتاحية و (المترجم) لترجمة بريد أوروبا (المخبر ، والراسل) لأخبار دواوين الحكومة والمحاكم (المصحح) لمراجعة التجارب (البروفات) (١) .

• • •

٣ - وبدأت في هذه المرحلة حملة على الصحف المنحرفة والضالة وقد استغل النفوذ الاستعماري هذه الحملة لتوجيهها ضد الصحف الوطنية فقد هاجمت (مصباح الشرق عام ١٨٩٨ ما استمته (الجرائد الساقطة) قالت : لا تزال هذه الجرائد الساقطة انماوية تهوى من مهاوى الدناءة إلى حضيقى العدم ، وأصحابها يسحبون من ضيق الحياة إلى ضيق السجن جزاء ما يسحبون فيه من أقدار التعرض للناس بالأنك والبهتان وأضرار الشتم والسباب صناعة اتخذوها لأكل العيش منموساً بماء حياتهم ، ووقاحة وجوهم ولعل تواتر صدور الأحكام من المحاكم عليهم وتشديد العقاب سد في أوجههم هذا الباب » .

(١) ألقى « يعقوب أرئين » خطاباً إحصائياً من الصحافة المصرية في المجمع العلمى للمصرى عام ١٩٠٥ جاء به إن الصحف عام ١٨٨٩ = كانت ٣٣ جريدة ومجلة وطام ١٩٠٤ = ١٧٦ جريدة ومجلة منها ١١٨ عربية (١١ عربية يومية) ٥٥ عربية أسبوعية ، ٣٠ عربية شهرية ، ١٩ عربية نصف شهرية منها ١٣٣ جريدة في القاهرة . وأبرز صحف القاهرة : الأهرام ، الجوائب ، اللواء ، للؤيد ، للقطم ، الوطن ، مصر ، الظاهر .

وقد أوردت مصباح الشرق هذا التعليق إشارة إلى حكم محكمة السيدة زينب الجزئية (١١ يولية ١٨٩٨) بحبس حسين شاكر صاحب جريدة الطالب مدة شهرين وبغرامة قدرها ألف قرش .

* * *

ومن هذه الناذج قضية الشيخ محمد عبده على أصحاب جريدة : النهج القويم والشيخ سليمان العبد كا ترويهما (مصباح الشرق ٧ يوليو ١٨٩٨ :)

قدم حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده بلاغا إلى النيابة العمومية بأن أصحاب جريدة النهج القويم نشروا في جريدتهم مقالة تحت عنوان (أدوار الأزهر) تضمنت طعنات شديدة في حقه ، وقد احتنت النيابة بهذا الأمر وابتدأت في صباح ذلك اليوم لتتبع الدعوى بمركز محكمة السيدة زينب الجزئية ، فاستحضرت الشيخ محمد الشريفي والشيخ محمد الخيمي بصفتهم متهمين ومحمد الفليوب وإبراهيم سعد ومحمد حسان شهوداً .

سئل الشيخ محمد الشريفي : مما إذا كان رأي في المقال تغييراً عن الأصل الذي كتبه فأجاب بالسلب إلا ما كان من بعض الخطأ الطبعي . ثم سئل عن حضور الشيخ سليمان العبد هل كان صباحاً أم مساء وهل كان يتردد على المطبعة وإدارة الجريدة قبل الآن ، فأجاب بأن حضوره كان في الساعة التاسعة قبل الظهر تقريباً وأنه لم يسبق له تردد عليهم إلا حينما كانت المطبعة بشارع محمد علي ، فلما انتقلت إلى محلها الحال حضر إليهم مرتين الأولى ليقص عليهم ما كتبوا المقالة في موضوعه ، والثانية ليقدم لهم الشكر على نشر هذه المقالة وكان معه في هذه المرة الشيخ حمزة فتح الله وشيخ آخر .

س : هل سبق أن كلفكم بنشر شيء في الجريدة .

ج : لا

س : قلت الآن أن الشيخ سليمان العبد أنك متشكراً على نشر ما قصه عليك

ففي أى يوم كان ذلك وهل كان معه أحد وهل كان أحد حاضراً وقت مجيئه .
ج : كان معه الشيخ حمزة فتح الله وكنت أنا موجوداً ومضى القليوبى رئيس جمعية المطبعة وعلى ما أظن جاء قبل الظهور من اليوم الخامس أو السادس بعد العيد ولم يجلس بل ظل هو ومن معه واقفين .

* * *

وهذه القصة كما ترونها جريدة مصباح الشرق : فكانت النيابة العمومية قد أهتم صاحب النهج القويم : الشيخ محمد الشريفي عن المقالة التي نشرها في جريدته عدد ٢٤٩ الصادر في شهر الحجة ١٣١٥ الماضي ونسب فيها لحضرة الأستاذ الشيخ محمد عبده مطاعن تتناقض بأعماله في الأزهر مثل عزيقه للكتب التي كانت في أيدي الأساتذة الذين يتلقون الدروس فيها وكذلك الإدعاء بأنه سبهم وأمر المشرفين بإهانتهم ونحو ذلك من الأباطيل التي جاءت في تلك المقالة بمباراة التشنيع ولما استدعى صاحب النهج القويم قال إن من روى له هذه الأخبار هو الشيخ سليمان المبدع فإنه حضر إلى إدارة جريدته وأمر بنشر تلك المقالة وما جاء فيها برمتها وأنه بقي عنده حتى كتب المقالة ووعد بترويج جريدته مكافأة له على نشرها ، ثم حضر إليه بعد النشر وتشكر له على نشرها وكان يصحبه الشيخ حمزة فتح الله .

ولما سئل الشيخ سليمان المبدع أنكر كل الإنكار وقال انه لا يعرف صاحب جريدة النهج القويم ولا يعرف محل إدارته ولا علاقة له به أصلاً ، وإن يئنه وبين حضرة الشيخ محمد عبده الصداقة التامة والوفاء الكامل وأنه يجمل مقام حضرة الشيخ عن أن يقال فيه ذره مما جاء في تلك المقالة وأن ما بينهما من الود لا يسمح له أن يأتي بأقل شيء يغير خاطر حضرة الشيخ . ثم استدعت النيابة شهود صاحب النهج القويم (محمد الخياي ، إبراهيم سمع ، محمد ، محمد المايوي حسان) وكلهم أجمعوا على أن الشيخ سليمان المبدع هو الذي ذهب إلى محل إدارة الجريدة وروى تلك الوقائع بصوت جهورى سمعه كل منهم لأنه

كان يتكلم بمدة زائدة واستدعى الشيخ سليمان العبد مرة أخرى حيث واجهه النيابة مع الفريقين ، فأصر سليمان على الإنكار وأصر الشريفي على اتهام سليمان وطلب من النيابة أن تستدعي الشيخ حمزة لأخذ أقواله ، فأجابت النيابة أن الشيخ حمزة أخذت أقواله وهو يذكر حضوره مع الشيخ سليمان في إدارة جريدته . وطلب الشريفي من النيابة أن تستدعيه اليين وقال : فإذا أنكر أيضا أفوض أمري إلى الله ولو كنت أعلم أن الشيخ سليمان العبد ينكر ما وقع وهو متصف بالعالية تركته وتحملت المسئولية كلها على عاتق فأجابت النيابة بأن الشيخ حمزة حلف اليمين أمامها فلا ضرورة لاستحلافه مرة أخرى .

س : حقيقة إنكم نصحتم الشيخ محمد عبده وبذل النصيحة يستلزم من النصوح حالة ذلك النصح فهل رأيتم في الأستاذ الشيخ محمد عبده حالة توجب تلك النصيحة .

ج : طريق السلف الصالح رضي الله عنهم أجمعين بث النصيحة للأخ متى اجتمع على أخيه ولو بدون شيء يستدعي ذلك ، وأنا ليس بيني وبين حضرة الأستاذ إلا الصداقة ولا أعرف إنسانا مستقيا مثله .

س : هل شكوت الشيخ محمد عبده لحضرة الشيخ حسونه كما ذكر في مقالة النهج القويم .

ج : كلا إنه من كبارنا فهل اشتكى كبير لكبير .

س : قلتم : إنكم لم ترو حضرة الشيخ محمد عبده يستعمل الفلظة مع المدرسين والطلبة فهل سمعت من غيرك أن حضرة الأستاذ المولى إليه استعمل تلك اللفظة .

ج : لم أسم من غيري ذلك ولو سمعته لسمعت نصحت الشيخ لأنه يقبل النصيحة .

وبعد ذلك اتفق حضرة الفاضل مصطفى بك بيرم إلى الجامع الأزهر إبراهيم لسؤال فضيلته الشيخ حسونه النواوي عما بملفه في هذه المسألة وقد بلغنا أن إجابة الشيخ المولى إليه كانت

قاصرة على أنه لم يسمع قط من أحد المدرسين أو الطلبة أدنى شكوى في حق الأستاذ الشيخ محمد عبده وإنما سمع بمثل تلك الإشاعات عنه فيما مضى وقد حققها حضرته بنفسه فتحقق من كذبها « ١٠٨ »

وفى يتصل بهذا الاتجاه ما بلغه التوسع في هذا النوع من الصحف فقد اشتهرت صحف الجمارة ، حمارة منيقي (أحمد توفيق) والسيف أحمد عباس وكان أصدر محمد توفيق الجمارة عام ١٨٩٨ واتفق في كتابتها أتر الشيخ سانو (أبو نظارة) وعبد الله نديم ، والشيخ حسن الآلاتي ، والشيخ محمد الفجار على نظام الأزجال والقسمات والمحدثات بين شخصين ، يدخلون في عباراتهم جملا وألفاظا ينفر منها الذوق السليم . كما قامت مجلة السياف على النقد الهزلي في جملة لا تزيد عن سطرين ، وعبارته محتوية على نكتة أو إشارة دقيقة لا يدركها إلا الواقفون على أسرار البلد ودخائل أكابرها .

وقد بلغ هذا الاتجاه مداه سنة ١٩٠٩ حين اضطر مجلس شورى النواب والجمعية العمومية إلى بحمه حين تلقى اقتراحا من (أمين الشمسي) عضو المجلس يتصل بمخاطر هذه الصحف . يقول التقرير : إننا نرى أسافل الناس يقدمون على إنشاء الجرائد ، وقد ملأوا الدنيا سفاها وتمديا على الأعراض ، على أن الجرائد ممرشد الأمة والحكومة والطبوعات هي ركن من أركان العمران ، فاقترح على الجمعية العمومية أن تطلب من الحكومة الاتفاق مع وكلاء الدولة على سن قانون حموى للطبوعات يقي الناس شر هذه الفوضى أو أنها تقرر معاقبة من يخرج عن حده . وعلق الشيخ محمد عبده في المجلس على هذا التقرير فقال : « إن القذح في الأعراض ونشر ما يخل بالأداب سواء كان بصفة رسائل مستقلة أو نشر مقالات بالجرائد ، قد كثر في هذه السنين بسبب إطلاق حرية الطبوعات ، وبما أن ذلك ممنوع شرعاً وسياسياً فنلفت نظر الحكومة إلى ذلك . »

٤ - وقبيل الحرب المالية الأولى سنة ١٩١٤ كانت الصحف الكبرى في مصر هي : الأهرام ، المحروسة . الوطن ، المقطم ، مصر ، الأخبار ، البصير ، الرقيب ، الأقدام (وذلك بترتيب ظهورها وأقدميتها) وقد رسمت إحدى صحف الحزب^(١) الوطني دور هذه الصحف في هذه الفترة على هذا النحو :

الأهرام (لسنة ٣٧) : سياستها عثمانية مصرية ، لا تتأخر عن عماية فرنسا ، والدفاع عن مصالحها في مصر سواء أكانت اقتصادية أو سياسية ، ومع ذلك لا تهمل المصالح المصرية غالباً إلا إذا كان الأمر متعلقاً بشركة من الشركات . وهي مع الحكومة في موقف الاعتدال ، تفر لها بالحسنة وتنتقد السيئات عليه وهي في وحدة مع الأحزاب الساسية ونجاملها كلها أو بعضها أحياناً وهي أكثر الصحف (الشامية) عناية بمصالح الوطنيين .

المحروسة : مكتوب عليها أنها في سنة ٣٧ (١٨٧٥) ولكنها لم تصدر إلا (٩٩٧ هـ) وهي مع حداثة هدها قد تطورت في مشربها مرات ، ولكنها الآن تسكتب بلهجة مصرية ، وهي في آرائها بالنسبة للعمية (عابدين) كالزبد وبالنسبة للمصالح الفردية وطنية صرفة .

الوطن : (السنة ٣٤) احتجبت ٢٢ عاماً بعد أن أبلغها ميخائيل عبد السيد ثم أعادها (جندي إبراهيم) بعد ١٢ عاماً ليتسنى له نشر الإعلانات القضائية ، وهو يرى العمد (يقصد محمد البلاد) هدفاً تراش له السهام فلا يترك في كتابته سهماً إلا وجهه إلى واحد منهم أو أكثر ، وسياسة الوطن العمومية ، احتلايه أكثر من المقطم حتى أنه كان يحرض الإنجليز على ضم مصر إلى المستعمرات الإنجليزية ورفع الراية عليها مستعملاً في ذلك سماجة لم تصل إليها جريدة قبلها ، ولا يخلو عدد من أعداده من طعن في المسلمين أو إيلام لمواطنهم .

(١) (جريدة الشعب ٨ مايو ١٩١٢) .

المفطم : سياسته انجليزية صرفة . لولا أنها تصكب بحروف عربية وكل أعمال الحكومة مدحوخة لديه . ولقد بلغت ثمة الاحتلال به حداً مقفاهياً حتى أنه يقوم بترجمة وطبع التقرير الذي يصدره المتمد البريطاني سنوياً فيكون علمه به أسبق بكثير من علم أعضاء البرلمان الانجليزي، أما مصلحة المصريين لديه فلا شيء ، وهو يتقدم مشروعات الحكومة يسطعها لجمهور و يرشح الأذهان لقبولها والتماس المفاير لكل أعمالها ، حتى لو كانت إرسال المشائق قبل عقد المحكمة (والمروف أن المفطم أعلنت في ابان التحقيق في حوادث دنشواي ١٩٠٦ أن المشائق قد أرسلت إلى مكان المحاكمة قبل إصدار الحكم بأيام) .

واصحاب المفطم أغنى الصحافيين مالا ، وأكثر أطياناً ، ورغماً من أن الصحافة في مصر مجلبة للخسارة ، فإنهم جموامنها ثروة يقصر عن حملها أكبر أرباب المشروعات وربما كان لديهم في كل شركة أسهم ، وهم أقدر الصحفيين على الضغط على عواطفهم ودس أشد المطاعن وأكثرها أفضالاً بالسموم في قالب نصيحة مبرقة .

مصر : قبطية بمعنى الكلمة ، واحتلالية بأوسع من ذلك . ومن مناقبها أنها وضمت عربضة وقدمتها للوكالة البريطانية تثبت فيها أن الدستور صار بمصر غير مفيد ، وقد أنشأت هي وجريدة الوطن السفارة القرياقصية في إنجلترا بمساعدة القسس البروتستانت وقد حبزت قانون المطبوعات عند سدوره لما علمت أن المقصود به هو الصحف الوطنية وحدها .
الأخبار : (يوسف الخازن) في سنتها (١٦) وهي جريدة لا مبدأ لها ولكنها تحافظ على عدائها للدولة العلية وسداقتها للاحتلال .

المؤيد : عاشت مهمة إلى سنة ١٨٩٢ ثم أصبحت منذ ١٩٠٤ جريدة احتلالية باطلاً وظاهراً .

(الجريدة) : أول جريدة أنشئت برأس مال كبير قدره ٢٠ ألف جنيه ، لما وقعت حادثة العقبة ١٩٠٦ وظهر للورد كرومر ، تأثر الرأي العام بجريدة اللواء ورفضها على كل

الصحف التي سارت طوع إرادته أو من صنع يد عربية وأفرنكية ، سورية وغير سورية ، فرأى كرومر أن تصدر جريدة مصرية بحقة ، تكون سياستها مصرية غير مرتبطة بالدولة العلية ، لذلك كاشف أخصائه والمترددين عليه من الأعيان أمثال : محمود سليمان ، حسين عبد الرازق ، عبد الرحيم الدمرداش ، فألفوا شركة من نحو ١٢٠ ذاتاً من أعيان الأردية عشر مديرية لتمثيل سكان البلاد وأرباب المصالح بمقدار ما يمثلهم مجلس شورى القوانين أربع مرات ، لأنه يؤلف من ثلاثين عضواً ، وألفت شركة الجريدة من أضعاف هذا العدد وكان مقدراً لها أن تسير على خطة رسمها لها اللورد .

وقد غيرت حدث دنشواى السياسية العامة للاحتلال فتضمنت أركان ذلك النرض الذى أنشئت له الجريدة . وكان هدفها هو اتفاق الأعيان (لا غيرهم) مع الاحتلال وتقبل كل شئ منه بالرضا باعتباره كسباً للأمة ، حتى تتوفر لها المكافآت للحكم الدانى ، وهى أول من أسمى المعتمد البريطانى صاحب السلطة الفعلية والحدويى صاحب السلطة الشرعية .

وتتمثل خلاصة هذه المراجعة فى هذه المرحلة حقائق واضحة :

- الصحف هى التى أنشأت الأحزاب .
- جميع الصحف كانت تطالب بالاستقلال والدستور مع اختلاف المفاهيم بينها .
- انتقلت الصحف الوطنية إلى أيدي المصريين بعد أن كانت فى أيدي السوريين .
- أدى تشارك الصحف الوطنية إلى تمكين الروابط الفكرية والروحية والاجتماعية بين الشرقيين والمسلمين ، وكثر الحديث عن الجامعة الإسلامية ، وأولت الصحف اهتمامها بأخبار العالم الإسلامى ونقلها من لغاتها الهندية والفارسية والروسية والتركية فضلاً عن الإنجليزية والفرنسية .

- إرتقى الإنشاء وارتفعت أجور الكتاب حتى بلغت ضعف ما كانت عليه .
- ظهر نفوذ الصحافة في مسألة (مد امتياز قناة السويس) فالصحافة هي التي ألزمت الحكومة عقد الجمعية العمومية لاستشارتها في هذا الأمر ، وقام الحزب الوطنى بدور ضخم رئيسى في هذا الأمر ، وقام الوطنيون بالمظاهرات ، يطلبون رفض المشروع .
- ظهرت الصحف في مختلف عواصم القطر : القاهرة والألكندرية وأسيوط وطبعا والفيوم والمنصورة .
- وكانت الجرائد العربية في أوائل نشأتها تطرح على المشتركين طرح الصابون . على حد تمييز جرجى زيدان فن اشترك عدد ذلك أريحية منه للأخذ بناصر صاحبها — ولا يمد دفع الاشتراك من جملة الحاجيات ، ثم أصبح القراء يطلبون الصحف وكثيرون منهم يرسلون البديل مقدماً .
- تألفت للصحفيين نقابة اشترك فيها أرباب الصحف .

(م — • تطور الصحافة العربية المعاصرة)

معارك ومساجلات الصحف

بين المؤيد واللواء والجريدة

جرت المداكر (١) والمساجلات بين الصحف الوطنية الثلاث التي تمثل الاتجاهات الثلاث في فترة ١٩٠٧ وما بعدها : المؤيد يمثل المدعو واللواء يمثل الحزب الوطني ، والجريدة تمثل حزب الأمة ولعل منها وجهة نظر .

١ - بين علي يوسف ولطفي السيد

كتب الشيخ علي يوسف عام ١٩٠٦ بعد إصدار (المؤيد) بسبعة عشر عاماً يشرح ظروف إنشاء صحيفته فقال :

أصدرت الآداب ١٨٨٩ مجلة أدبية أسبوعية ، وسفحت لي فرصة بعد ذلك ، تقدمت فيها إلى رياض باشا (رئيس الوزارة المصرية) فأشار إلى بعض المقربين من دولته ، أن استرخض منه لإصدار جريدة سياسية يومية ، ولسكني ترددت كثيراً في ذلك ، لعلني أن جريدة سياسية تصدر عن مصري مسلم ؛ بعد خلو القطر من جرائد مصرية مسلمة سبيع سنين ، جريدة قادرة على أن تعيش بين الصحف القومية التي كانت قابضة إذ ذاك على زمام آميال القراء اختياراً أو اضطراراً ، جريدة لا تتأثر بدسائس الدسائسين ووشايات الواشين الأوربيين وغير الأوربيين ، وتحتاج إلى رأس مال أكثر من مالي ، وإلى حول أكبر من حولي ، وإلى معارف جمة ووسائل عدة أنا خلو من كثير منها . ولكن جد دائم قو لي ، ذلك من إحسان دولة الوزير أو إشارته إلى نظارة الداخلية مسترخضاً بهذه الجريدة ، صدرت أول ديسمبر ١٨٨٩ في حجم أربع صحف قليلة المواد ، سار المؤيد

(١) المؤيد ١٨٨٩ اللواء ١٩٠٠ الجريدة ١٩٠٧ .

كالوليد ، وبينما هو يحبو حبو الطفل في مهده ، إذ عصفت به ريح خفيفة من مكائد مغايريه الذين كانوا يحشون أن تمش جريدة مصرية مسلمة ، فقتلوه على أميال المصريين وعواطفهم وقانون التنازع في هذه الحياة يحمل النضال أشد في زحزحة النير عن مكانه من هذا الوجود ، سفة الله في خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

ودب ديب الخلف بين مدير المؤيد (الرحوم الشيخ أحمد ماضي) وبين صاحب إمتيازهِ كاتب هذه السطور بسبب ما دس أولئك الدساسون ، وليس من حق هذا القلم أن يزيد الآن في التفصيل إكراماً لرفات صديق في عالم آخر ، ولكن نتج عن هذا الخلف احتجاج المؤيد عن قرائه من ٣٠ سبتمبر إلى ٢٠ نوفمبر ١٨٩١ .

وكانت اليد الحاسمة لهذا الخلف هي يد ذلك الثيور المضال سعد بك زغالول (وكان وقتئذ محامياً) إذ اختاره الشريك حكماً للفصل في موضوع النزاع ، فأنهى حكمه بترك المؤيد لصاحب إمتيازهِ بعد ما أرضى محكمة جمال من عنده ومن آخرين من فضلاء الشيبيّة المصرية . ويومئذ خاب سعد بك زغالول قائلاً : قد صار لك المؤيد بلا منازع فإن كفت كفواً لمملك فاجمل من همتك وثباتك فيه رأس مالك وبرهن على ثقة إخوانك به . »

وكانت هذه السكايب أشد تأثيراً على نفس من كل مشجع ومرغب في عمل ، وظهر « المؤيد » بعد الاحتجاج وكفت خالياً من رأس مال له سوى القلم والصبر والاحتمال ، وكانت رئاسة النظار في يد عطوفتو مصطفي فهمي والدسائس ضد المؤيد أقوى منهما قبل ، وقد هال أعداءه ظهوره ثانياً ، فوشوا إلى الحكومة بأن هناك جمعية سرية أخذت على نفسها الاتفاق على المؤيد والسكتابة فيه ضد الحكومة والاحتلال ، وكانت ربح الشر تؤذى أولئك الأفاضل الذين مدوا يد المساعدة لولا أن مقرباً من الوكالة الانجليزية ومن عطوفة رئيس النظار (ونمى به الرحوم محمد بك بيرم) تولى يومئذ تحقيق تلك الوشايات بنفسه فظهرت له الحقيقة ، وانتهى الأمر بمقابلة سعد زغالول امطوفة رئيس النظار ليدحض بالبراهين اللاحقة تلك الدسائس البالنة .

وأنا بين جواذب الأنصار ودوافع الأعداء أمل جمدهى لى بئيت المؤيد وبميش
فلا يكون المار على المصرى أن يسجل عليه الفضل كما شرع فى عمل . ثم وجدت اضطهاداً
من الحكومة ظهر بأفصح مظاهره حتى وصل إلى خد انتقال أبواب الدواوين فى وجه
صاحبه وكتابه وعبريه ، ولم ينتهى هذا الدور حتى جاءت وزارة رياض باشا فى يناير
سنة ١٨٩٣ ويومئذ أننى قلم المطبوعات التى أنشئ لمضايقة المؤيد ليس إلا ، يوم كانت
وظيفة البارودى دى مانوروى مدير قلم المطبوعات محصورة فى مطاردة المؤيد وصاحبه
فى كل ديوان . فلما تولى رياض باشا منحه أجازة لم يمد يدها إلى العمل وخلص المؤيد
من عوامل الاضطهاد الشديد واستقر فى طريقه . حتى كانت سنة ١٨٩٩ قضية التنازلات
المشهوره التى لم تنته حتى بلغ المؤيد بفضل اقبال الأمة عليه أضعاف ما كان قوة وانتشاراً .
ويوم كان عدد مشتركيه لا يتجاوز ٦٠٠ نسخة وعده ما يباع منه لا يتجاوز الستين
فى القاهرة كانت الآلة التى تطبع بها صغيرة جداً تدار باليد الواحدة وتطبع بالكبس ولا يزيد
عدد ما تطبع فى الساعة عن ١٠٠ نسخة وكان هذا من شأنه فى السنتين الأولين ثم ازداد
عدد ما يطبع منه رويداً رويداً حتى كان فى آخر سنته الرابعة ١٤٠٠ نسخة فاضطررنا إلى
شراء آلة من معمل الوزيه تدار باليد معاً وتطبع بكابس اسطوانى إلى ٦٠٠ نسخة فى
الساعة الواحدة (١٦ يناير سنة ١٨٩٤) حيث ظهر المؤيد فى أربع صحف كما كان ، ولكن
فى كل صحيفة ستة أعمدة . ثم تضاعف الانتشار حتى بلغ عدد ما يطبع منه خمسة آلاف
وكثر المواد والاعلانات حتى اضطررنا إلى جاب مطبعة ألمانية كبرى تطبع بكابس
اسطوانى وتدار بالبخار فظهر المؤيد فى ثمان صحف (١٦ يوليو ١٨٩٩) . ثم وقفنا لطبعها
على آلة طبع من أحسن طراز أخير من اختراع الخواجة مارينونى الفرنساوى ، ولما كانت
هذه أول مطبعة من نوعها أوصى بها فى مصر وجلبت إليها ، وتبدأ بعملها منذ اليوم
(٢ أكتوبر ١٩٠٦) فقد دعونا الكثيرين من حضرات العلماء والقوات والأعيان للتشريف
إدارة الجريدة وقت الشروع فى الطبع (الساعة الثالثة بعد الظهر) .

آلة روتاتيف تطبع بواسطة صناعة جديدة غير الحروف المعتادة وتنتج في الساعة الواحدة طبع اثني عشر ألف نسخة من الجريدة ذات النصفان صحف مقطوعة ملصوقة مطوية ممدودة .

٢ - من الجريدة إلى المؤيد

ساء المعتاد ما كتبه المؤيد أمس من الطاعن على أعيان الأمة ونوابها الذين يرجو كل مصري أن تكون لهم الكلمة العليا في حكومة بلادهم ، أن كل مصري يحب بلاده يعلم أن الأمم لا تقوم إلا بعقل هذا الحزب ، حزب الأمة الذي وقف المؤيد قلبه على مبادئه ، وأنه ليوعدده بأن يحاربه بالسلح السموم ، سلاح السمي بينه وبين صاحب السلطة الشرعية أيده الله . ويرى أن يفهم أعضاء حزب الأمة إذ يقول ما معناه أنها تنمض في قولها للسلطة الشرعية ، وأن حزب الأمة وجريدته براء من هذه التهمة . اشتهر^(١) المؤيد من زمن قلبه بالمعرب ، ومحاولة استبقاء الرجم الذي سرى في نفوس كثير من الناس ، أنه دون غيره لسان حال مسلمي مصر والغائب عن الأمة في بيان سياساتها والدعوة إلى مصالحها ؛ نعم الشيخ من حزب الأمة تسميته بهذا الاسم ، وأنكر عليه احتكار النيابة عن الأمة ، وحجته أن هؤلاء الأعيان الذين حضروا ليسوا هم أغلبية رؤساء التماثلات ونواب الأمة ، وما كان هؤلاء وحدهم هم المؤسسين للحزب بل معهم أكثر منهم من المشتركين في الجريدة وبناتهم هي ذلك أضاف أضافهم من غير المشتركين .

وقد ادعى حافظ عوض في لندره أنه يمثل أكبر حزب في الأمة ، ولا يفكر عليه رفيقه الشيخ على ذلك ، بل يقولون أنه قد كان هو الواضع الأول لعلامة حافظ أفندي الذي تربى في حجر المؤيد تربية السياسة ، وهو الذي لفته هذه الدعوى ، فكيف أحرقت سمادة الشيخ نيران الغيرة على الأمة عندما قام بثقلها أمانتها وأهياها ، إن هذه الغيرة ليست

(١) ٣ أكتوبر ١٩٠٧ (٧) ٥ أكتوبر ١٩٠٧ .

غيره على الأمة وإنما هي غيرة على (المؤيد) وخوف عليه من السقوط بعد ظهور الحق الذى يقوم به حزب الأمة وجريدته ، فإن بقاء الباطل تسكون في غفلة الحق عنه ، ولذلك بدأ الشيخ على في السعى والسكيد للحزب والجريدة .

٣ - من الجريدة إلى المؤيد

... أنشأ^(١) بعض أهل النيرة من الأمة جريدة (المؤيد) إذ رأوا من النار عليها ألا يكون لمسلميها وهم السواد الأعظم فيها جريدة يشغلون بآدارتها وسياستها . ولا أذكر وفاة الشيخ على يوسف أو كفوفه نعم الذين منحوه هذا الينبوع من الثروة والجاه ، فإن ذلك من تاريخه الشخصي . أنشأوا المؤيد وغذوه بعداد أعلامهم ونضل أموالهم حتى كان له من الشهرة ما كان باسمادهم وامدادهم وبوحدة بين الجرائد التي أنشأها أدباء المسيحيين^(٢) (السوريين) لا يعلم الشيخ على يوسف وسياسته ولا بدهائه وكياسته ، فالفطم علة من علل وجوده ، وسبب من أسباب بقائه ، فلقد تنكر منه بعض الذين أسسوه ودعوه قبل أن يبلغ أشده ، ويقدر على رميهم بسامهم وهجومهم بقوافهم . لا أنكر دهاء الشيخ على وحذقه في الحيلة على ما قصد إليه المؤيد من نيل المال والجاه ، وكيف وأنا ممن رأى كيف ثبتت قوادمه وحوافيه ، ورب البيت أدري بما فيه ، إنما حذق الشيخ على محصوراً في أمر واحد ، هو اختباره لحال البلد واختباره لأوسع أبواب الرخ فيها ، أموال نبذل ومقالات تنشر ، فاشتهر المؤيد بأنه جريدة المسلمين ولسان حالهم بمصر إذ لم يكن لهم جريدة أخرى تشاركه في هذه المزية وطنت أنهار المؤيد بالنموت والألقاب (الجريدة الإسلامية الكبرى) أكبر جريدة عربية وطن الشيخ على يوسف يمثل هذه الألفاظ أنه هو نفسه لسان مصلى مصر ويمثل سياستهم . ولو كان هو الذى تولى تحرير المؤيد منذ

(١) ١٣ أكتوبر ١٩٠٧ .

(٢) جرى العرف في هذه الفترة على أن تستعمل كلمة المسيحيين بمعنى أنهم السوريون .

أنهى بمارفقه التي خرج بها من الأزهر وهو لم يصل بدراسته فيه إلى شهادة العالمية ولا قاربها لما قيل أنه لسان أحد ، وكيف كان الأزهر على عهده بعد علم الجغرافيا والتاريخ مما يناق التعلّم الديني ويد عقبه في طريقه ، حتى ظل الشيخ على عهد قريب بطن أن مكة والمدينة (زادها الله شرفاً) في أفريقيا . ثم زالت ثقة القابضين بالمؤيد من جهة ، وتمدد الجرائد الإسلامية من جهة ثانية .

لهذا يتألم الشيخ على حين يرى لجريدة ما فوق ما يرضى أن تثبت بها وتدوم ، كما يرى من سمومه التي ينفثها على اللواء في مذاهب السياسة فإن خطبهما في الأصل واحدة . وقد كان ينشر في المؤيد لمصطفى أفندي كامل وقتئذ - أبلغ وأشد تأثيراً في تلك الخطة مما يكتبه الشيخ على نفسه ، ولكن لما صار لمصطفى أفندي كامل جريدة ونال بها الجاه والشهرة مثلما نال الشيخ على وأوسع ، صار مصطفى باشا كامل ذلك من أسباب ذنبه الشيخ على التي عرفها الناس كلهم وعرف رأيه في الظاهر والمخبر واعتقاده بأنهما لن يصلا إلى مساماة المؤيد ومنازعة احتشكار زعامة الجرائد الإسلامية والعربية .

ومن يعرف هذا كله ولو اجبالاً لعرف السر في وقوع تأسيس الجريدة على قلبه كالصاعقة في محاولة الإيقاع لها واسقاطها ، وحزبها مما يسمى فيه من السعاية ويدأب فيه من السكد كثيراً وبما يكتب قليلاً حتى قال غير مرة أنني أسقط هذه الجريدة بأربع مقالات .

وإذا نفر كثير من الناس أو نفروا من الجريدة لسوء ظلمهم في خطبها فالشيخ على يوسف هو الذي ينفر عنها ويسكدها ولأصحابها الحسن ظنه فيها واعتقاده بأن خطبها هي الفضل وأن طريقتهما هي المثلى وأنه مهما وصف نفسه بالاعتدال لن يستطيع أن يجاريها في اعتدالها ، لو كان الشيخ على قائماً بما نال من غفلة الأمة بمساعدة الحوادث والظروف غير كاملة في احتشكار زعامة الصحافة منها ، وإيهام تمثيل الرأي العام في مصالحها

ليرى وجود حزب الأمة وجريدتهم وأخذهم عوناً له ، وأن كانوا على غير خطئ وطريقته ، حفظاً لكرامة الأمة التي يتقرب إليها ، كبر على الشيخ على يوسف أن يدعى مشيرات من أعيان الأمة ونبائها ورجال الشورى منها أنهم يمثلونها ويتكلمون عنها لا أكباراً للأمة وتنظيها لها بل أكباراً لنفسه التي يراها أولى باحتسار ذلك بما ينطبق لجريدته من الشهرة أيام كانت الضرورة تلجئهم وتلجأ أمثالهم إلى نشر آرائهم فيها .

٤ - من المؤيد إلى الجريدة

شرحت^(١) كيف قدمت في نوفمبر ١٨٨٩ إلى (رياض باشا) وهو يومئذ ناظر الداخلية ، وطلبت منه إعطائي رخصة لإنشاء جريدة يومية باسم (المؤيد) وكيف وجدت من دولته مساعدة المشجع والناصح المفيد أشهراً لم تطل ثم تغيرت الوزارة ، وكيف اختلف بعد السنة الأولى من إنشاء المؤيد الشيخ أحمد ماضي مع صاحب امتيازها ، حتى احتجبت الجريدة عن الظهور شهراً ونيفاً وقام عشرة من الفضلاء وفرضوا على أنفسهم مائة جنيه يدفعها سعد باشا للشيخ المرحوم مقابل تنازله عن حقه في الشركة ، بعد أن تحقق أنه كان مدفوعاً ومؤيداً من الخلف من أشد خصوم المؤيد السياسيين .

وصاحب المؤيد يفخر بأنه ساعد مادياً وأديباً ، وأنه وجد من الكتاتيب الفضلاء خير الأهلان في نشر المقالات والطباعة والآراء النافمة ، والحقيقة أن المؤيد لم يغم إلا بصاحبه ، وأنه لولا ما وجد المؤيد في عالم الصحافة ، لعاد العار الذين كان لاحقاً بالمسلمين (بالوطنيين) لعدم وجود صحيفة لهم زمناً طويلاً .

إن اليد التي أوجدت المؤيد في أشد الظروف حرجاً على الصحفي المسلم هي يد صاحبه ، من شهر سبتمبر ١٨٨٢ إلى ديسمبر ١٨٨٩ (سبعة أهوام ونصف) لم يكن لمصرى

(١) ٢ أكتوبر ١٩٠٧ و ٨ و ٩

مسلم في بلاده جريدة ، لأنه كان قد قدر على أفلامه أن تسكر بعد الثورة المرافية وقضى على الجرائد الإسلامية أن لا يكون لها في مصر وجود ، خشية أن تثير فائز التمتع الديني كما كانوا يزعمون ، حتى أن صاحب المؤيد قضى نصف عام بطرق باب فلم المطبوعات وهو يطلب رخصة بإنشاء جريدة علمية أدبية فلم يبل الاختبار بها وتحقيقها إلا بعد شق الأنفس وما عرفه بعضهم إلا بتلك الجريدة الأدبية الصغيرة « الآداب » ، لم يعض عليها عامان حتى أخذت حظه من الانتشار وكانت الخطوة الأولى لجريدة المؤيد (هي) صاحب المؤيد على ما به من ضعف وقصور (فقد) قام بواجب كبير على الأمة الإسلامية في مصر لم يعم بمثله هذا الجمع من سرات القطار ولا أمثاله ؛ وسد نقصا كان واجبا على القادرين وفتح طريقا كان مسدودا في وجه كل علم وفاضل وأديب ، وقاوم من الصعوبات التي اعترضته في طريق عمله بالصبر والثبات والعمل ، ما لو حاول غيره مقاومته لتحطمت وتلاشى أمام القوى الهائلة . ومن تاريخ المؤيد أن جميع أصحاب الجرائد العربية قاموا قومه واحدة وكانوا كهم من السوريين وانفقوا وهم في أمرهم على بعضهم مختلفون ، على أن يزعموا روح المؤيد وليدا فصاروا يسدون عليه كل طريق ويتمقبون له كل أثر لشدة ما كانوا يخشون من قيام صحافة إسلامية تأخذ بزمام الرأي العام فلا يكون لصحافتهم بعد ذلك السلطان الذي كان لها وأعظم به من سلطان ، لطالما استعمان أو تلك الرصماء بسلطة القناصل ، وللضرورات أحكام وانمازق البقاء قرائن ، ولطالما استعملوا الصحافة الأفرنجية المحلية لتعريف أقوال المؤيد التي أوجفت القلوب ، وكانت التلغرافات تندو وتروح بين مصر وأوروبا قائلة حذار حذار مما وراء السقار .

والحكومة في أدوار كثيرة تساعد هذه الحلات وتضاعف مكائد السكاكين فارة بمضايقة البارون مالورتي التي أنشئت له وظيفية المرافية على المطبوعات المصرية لأجل المؤيد فقط ، وما رأت باقوال أبواب الدواوين دون صاحب المؤيد وغبريه .

وكان كثيرون من المميين والمطرشين يوارون وجوههم من بعيد وفي مقدمتهم بعض أعضاء مجلس شورى القوانين حتى لا يتهموا بإعطاء الأخبار ، أو الاتحاد في الأنكار مع المؤيد . وقصة التلغرافات ذبل من ذبول ذلك الاضطهاد ، كل هذا وصاحب المؤيد صار على هذه المكائد عتاط لها ساع ليل نهار لإحباط الساعى المضرة به حتى تنال عليها ، وبهذا تمهد السبيل لكل مصرى مسلم قادر أن يصدر صحيفة ولو يوما واحداً أن يصدرها . وإذا صح أن يقال أن المقطم فضلمها في وجود المؤيد واشتهاره ، قائماً مثله في هذا مثل البارز المغلوب في اعلان فصل غاليه . إن روح المناظرات التي قامت بين المؤيد والمقطم سنين عديدة كان أصحاب المقطم فيها من أكفأ المناظرين ، أى كانت منعصرة في تنازع أولية المقام في الصحافة المصرية . وقد انتهى ذلك التنازع وأخذت الصحافة الاسلامية مكانها اللائقة بها من الأمة ، وصار المؤيد لسان حال أرباب الأفلام . أما شأن المؤيد مع غيره فعلى عكس ما زعم . . .

زعم هذا الكاتب أن المؤيد ناهض الجرائد الاسلامية التي صدرت بنده ليحتفظ على ذلك الامتياز الذي انفرد به سنين عديدة ، إمتياز كونه جريدة المسلمين ولسان حالهم . والكاتب خصم ذو عرض مئى فلا يعتبر قوله حجة في هذا الموضوع إلا بالأدلة الدامنة والأدلة في هذا إنما تؤخذ من كتابات المؤيد وكتابات غيره ، والقضية قد تكون معكوسة ، فيقال أن الجرائد الإسلامية التي ظهرت بعد المؤيد ربما تظن أو يظن بعضها أنه ما دام المؤيد حائراً على مكاته الأولى ، معرظاً به عند العموم ، مختصاً بالثقة الكبرى فلا سبيل لزاحته وأخذ مركزه إلا بعمل يزعم تلك الثقة فيه ، ويعيل ييمض الناس عنه ، ومع الدأب من الاستمرار على ذلك وانشاز الفرص والضرب على نفمة التشهير به كلما هفا هفوة أو غاط غاطلة أو ارتكب خطأ (والمصمة لله وحده) . وقد بينت أن بعض الرساء وصل إلى أقصى ما يمكن الجرى فيه بهذا المضار إلى حد تصور الغلبة والفوز .

• - من على يوسف إلى اطلق السيد

قدر^(١) مدير الجريدة أن خطة اللواء والمقطم خطتان متطرفتان إحداهما تنجبه إلى سلطة قصر الدوبارة وتزيد أعمال المحتلين ، ولو كان ملؤها الحطل ، والأخرى تدعو إلى الاستقلال بالطرفة وخطتها عدائية ، والجريدة ترى أن الطرفة محال وعوائبها مضرة .

بقى أن مدير الجريدة بلسان حزب الأمة يقول : أن المؤيد يتجاز دائماً في سياسته العامة إلى إحدى السلطتين ، وقد قلنا في بيان أصول خطتنا أننا نتنصر للسلطة الشرعية دائماً ، كلما نازعها الاحتلال في حقوقها ، وقال هو عن سياسة « الجريدة » أنها لا تتحيز لجهة من السلطتين ، ومعنى هذا أن سلطة المؤيد الشرعية وسلطة الاحتلال الفاسية ، كاتاهما عند « الجريدة » سواء فلا تحيز لواحدة دون الأخرى ، إذا اختلفا وتنازعا . ولا ندرى كيف يوفق مدير الجريدة بين ادعائه خدمة الأمة بالصدق ، وبين قوله أن الجريدة لا تتحيز لإحدى السلطتين ، مع العلم بأن مصلحة الأمة في التحيز للسلطة الشرعية كلما قام نزاع بينها وبين سلطة الاحتلال التي ظل اللورد كرومر طول مدته في مصر يعمل على إحلالها محل السلطة الشرعية حتى تكون البلاد مستعمرة إنجليزية فعلا ولو لم تسكن كذلك امما .

أما خطة الجريدة فهي الخطأ المحض ، لأن السلطتين الموجودتين في مصر الآن لا يمكن أن يوضعا في كفتين متعادلتين ليقال أن مصالح الأمة بينهما .

رأى للمؤيد في حزب الأمة

وقال^(٢) الشيخ على يوسف : إن الحجر الأول الذي وضع في أساس عمل (الجريدة)

(١) (للمؤيد) ٨ أكتوبر ١٩٠٧ .

(٢) للمؤيد ٩ أكتوبر سنة ١٩٠٧ .

مقاومة الجرائد الوطنية التي تنضبط سادتنا المحتلين . والحزب هو شركة الجريدة ، والشركة هي الحزب ، وعلى أثر حادث العقبة إشتد سخط اللورد كرومر على جميع المصريين ، ورأى نفر من مقرى الوكالة البريطانية أن يشتغلوا بتأسيس جريدة تنزى إلى جماعة من كبار الأعيان ، يكتب فيها الدارفون بدخائل الأشياء وبما وراء الأمة حتى يتسنى لهم بعد ذلك أن يقولوا أن سرارة الأمة يقولون غير ما يقول أولئك الصماليك الذى لا ناقة لهم في هذه البلاد ولا جمل ، وأضيف أن للمشروع هو مشروع الشيخ محمد عبده وأنه مات قبل أن يتمه ، أو من فكرة المرحوم سلطان باشا قبل موته ، وهو المشهور بغيرته الوطنية (!) فيجب على سرارة الأمة الذين يقتفون أثره في خدمتها أن يبرزوا هذه الفكرة إلى الوجود ، وكان في مقدمة المشغلين بتأسيس شركة الجريدة جماعة من كبار موظفى الحكومة لما رأوا من فائدة هذا المشروع العمومية ، ولعلمهم أن خدمة الأمة بالصحافة عن طريق استرضاء الوكالة البريطانية واستعطافها على المصريين خدمة شريفة ، ولا تتناقى مع الأوامر التي تحظر على المواطنين مسكاتبة الجرائد والإدلاء بالأخبار ، ومحمود باشا سليمان رئيس الشركة كان أبعد الناس عن الاشتغال بالسياسة ونجله - يقصد محمد محمد محمود رئيس حزب الأحرار الدستورية من بعده - سكرتير مستشار الداخلية من أعضائها والداعى الذى يباشر دعوة العمدة والأعيان أى هذا المشروع المبارك ، وجرى توزيع الغذاء والنشرات بأسماء المسكتبتين .

وأن مستر روبرتسون أحد أعضاء الحزب العرفى البرلمان الانجليزى فى مصر قابل كثير من المصريين والانجليز ، وكان ممن قابلهم اثنتان من كبار مؤسسى الجريدة بإشارة من اللورد كرومر ، فقال كل منهما لذلك المصنو : إننى تمسكت من تأسيس جريدة وطنية ستسكون لسان حال المصريين بدلا من هذه الجرائد التي تتاجر بالوطنية (يقصد بالجرائد التي تتاجر بالوطن صحيفى اللواء والمؤيد) .

وكل ما كان حول العمل يحمل « الجريدة » فى واد وما تدعيه الآن من مجرد مبادئها على

كل تمييز لإحدى السلطتين في واد آخر ، لذلك قال الكثيرون أن خروج كرومر من القطر المصري أشاع دفة سفينة الجريدة أو غير وجهه ربابها ، لذلك اضطروا للإعلان من جديد بمبادئ جديدة ، المبادئ حسنة ، ولكنها محتاجة إلى التنقيح في الوضع حتى تذهب الريب التي خالطت النفوس فيها ومحتاجة إلى استكمالها ، لأنهم يريدون أن يكونوا لسان الأمة ، وليس لأحد حق أن يدعى خدمتها ، أما الحزب فهو مشكك لأن يكون قوة أمام الحكومة باسم الأمة ، وقد يضارها في الوجهة إلى حد تنازع السلطة .

رأى حسن موسى المقاد

قد ذاع قبل صدور الجريدة أنها احتلالية في صورة وطنية ، فيكون أنها احتلالية في صورة وطنية ، فيكون المقطم الثاني ، أو يحل محله لدمد تأثيره ، فقتادم الناس منها ، فقلت لهم على صفحات جريدة المبر ، مهلا حتى تصدر ، فإن كانت لصالح البلاد فرحبا بها ، وإلا فيصحبها ما أصاب المقطم من قبل فإكان غير يسر إلا وهي في الدنيا تقسم الأيمان أن لا تحيد عما فيه صالح الأمة ، فكيف أطماعها متأملا فيما تسكنه الضائر ، حتى بلغ منها أربون هددأ ، فاستقطعت عليها صبرا ، ففاجأتها رسالة أندده فيها على اعوجاج خطتها فاعتدلت في الجملة ولكن بصورة كان النرض منها ذر الرماد في الأعين ، ولم يفدها ذلك سوى انحطاط شأنها .

وما نشمر إلا وقد أعلنت عن تأليف حزب الأمة مبينة خطة مبادئه ، فقلت كما قال فيري : خيرا ، ودخل معه من أحسن الظن به مؤملا ، وما لبثت إلا أن أسفرت عن هدم أحقيتها للاستقلال ، حتى تعلم العلم الوافي ويكون لها معامل كعامل أوروبا ، مما أثبت لها الخداع الذي رماها به الأهرام وغيره حتى قام مساهموا برمونها بالإعوجاج وسوء الخطة نحو البلاد .

ولما كان محمود باشا سليمان هو الساعي والمؤسس لهذه الجريدة وله التأثير على سياستها حتى لنا أن نخاطبه في هذا الشأن فنقول ما الذي عمله على أن يسلك بها خطة الأضرار بوطنه العزيز .

(١) المؤيد ١٨/١/١٩٠٩ وحسن موسى المقاد من أبطال الثورة الدراية .

الصحافة الوطنية والاحتلال

كيف حارب الاحتلال الإنجليزي الصحافة الوطنية ، يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعي في تقرير له سنة ١٩١٠^(١) ، أن الصحافة السياسية في بلادنا كانت ولا تزال روح الحركة الوطنية فيها ، لما دخلت الجفود الإنجليزية مدينة القاهرة وقبض الإنجليز على أزمة الحكومة فوضوا على الدستور الذي نالته الأمة في عهد توفيق وأعادوا الحكومة إلى نظامها الاستبدادي واستعملوا منتهى القسوة والشدّة في أمانة الحركة الوطنية . ولم يبق في البلاد صحيفة وطنية تدبر عن لسان الأمة ، واستولى الرعب والنفور على الأثمة ، هنالك فسكر اللورد كرومر في إطلاق الننان للصحف الوطنية لا رغبة في الحرية ولكن على يقين من موت الحركة الوطنية ، توهم أن الصحف بمحملاتها لا تستطيع أن تزعم الثقة في سياسته ، وأنه رمى بإطلاق حرية الصحافة إلى الامتنان على الأمة بإطلاق الحرية لها وإعلان ذلك أمام العالم الأوربي ليؤمّمه أن الاحتلال الإنجليزي يقيم في مصر سياسة الإصلاح والحرية . لكن الصحافة الوطنية لما عادت إلى الميدان واسترجعت حريتها ، أعلنت على اللورد كرومر حرباً عواناً ، وأخذت تذيب القراء الوطنيين الفظائع التي ارتكبها الاحتلال .

استخدم اللورد كرومر في تلك الحرب الصحفية (جريدة المقطم) التي كانت تدافع عن سياسته وتجهّد في إكسابه ثقة الأعلوية من الأمة ، ولكن الصحافة الوطنية كانت بمحملاتها المتوالية تقصى القلوب عن الإدارة الإنجليزية وتنفرهم منها ، وثبت روح العداء للاحتلال في كافة الطبقات . ساعدها على الانتشار لقيف من رجال الحرب الوطني القديم الذين اضطروا بعد إخماد الثورة المرابية إلى الأزواء في منازلهم فساعدوا أولاً جريدة المؤيد التي كانت لسان حالهم إلى أن ظهر المرحوم مصطفى كامل في ميدان الجهاد الوطني وأنشأ

جريدة المؤيد ، وتذبذب المؤيد في خطة العداء للاحتلال فبهذه الأمة ، وأقيمت على (القواء)
وصار المرحوم مصطفى كامل يضم حول جريدته الأنصار والأنباء ، وبمجاهد في تكوين رأى
عام وطنى وجهته الاستقلال والتطرف في معاداة الاحتلال واستمرت الصحافة الوطنية تحت
كرهية الإدارة الانجليزية ونشرت فكرة الجلاء .

كان كرومر يرى أن الحرية الصحافية في مصر لا يمكن أن تؤثر على مركز الاحتلال
وسياسية جاهر في تقاريره بأنه ليس من مبداء تقييد حرية الصحافة وكعب في تقريره
سنة ١٩٠٤ فصلا عن الصحافة يهدى فيه من روح الانجليز من جهة وعين على الأمة
المصرية من جهة أخرى ويشير من طرف خفى ، إلى أن الحكومة قادرة على إسترداد تلك
الحرية في الوقت الذى تريده .

كان يعتقد أن مبدأ الضبط على حرية الصحافة ومنعها من إعلان شكوى الأمة من
سياسة الاحتلال ربما يفضي إلى اشتداد حركة العداء للاحتلال وكون نار الحقد في القلوب
فكان يرى حملات الصحف الوطنية كالبخار الذى يتصاعد من ماء في درجة الغليان لا يلبث
أن يتسكاف فيساقط ماءً بارداً لا ضرر فيه .

وظل كرومر على رأيه إلى أن حدثت حادثة دنشواى فظهرت الصحافة الوطنية فيها
بمظهر جليل ونالت مركزاً خطيراً ومترلة كبرى في ميدان الحركة الوطنية ، فقد كانت
الصحف قبل وقوع هذه الحادثة تحت في طبقات الأمة فكرة الاستقلال ، وكانت تتخذ من
مساوىء الادارة البريطانية حجة لها في نشر مبادئها ، ولكن صحف الاحتلال كانت من
جهة أخرى تضعف تأثيرها بتذكيرها الأمة بمظالم العهد القديم ومقارنته بحكم الاحتلال
البريطانى ، فلما وقعت حادثة دنشواى ضمت حجة الصحف المحبذة للاحتلال وارفع صوت
الصحف الوطنية وقويت شوكتها ورأت الفرصة سانحة للتشهير بالفظائع التى ارتكبها
الاحتلال ، وانتهم مصطفى كامل هذه الفرصة فأخذ حادثة دنشواى سلاحاً ماضياً في يده شهره
في وجه اللورد كرومر وسياسته ، وبذلك أصحح في تقوية فكرة العداء للاحتلال وتكوين
رأى عام قوى يحايقه تحرير البلاد ونزع كل نفة في السياسة الانجليزية تنوى مركز الصحافة

الوطنية بعد هذه الحادثة وصار لها صوت مسموع في البلاد، وألقت حولها الألوف من المضدين والأنصار، فقد كان طلبه المدارس قبل وقوعها منصرفين عن قراءة الصحف، وأهل القرى في فقرة عنها فلما تردد صدق حادثة دنشواي في الأذهان وصورت الصحف الوطنية فطائع الانسكاز بمباراة مؤثرة تلبثت أفسكار الطلبة إلى قراءة الصحف فأقبلوا عليها أفواجا، وصارت لهم من ذلك العهد مجموعة دروس وطنية كانوا محرومين منها في مدارسهم، لأن يد الاحتلال قد أنهت من قلب نظام التعليم، وإقامته على مبادئ المصلحة الانسكازية فأخذت الصحف الوطنية توضحهم ما فقدوه بين جدران المدارس التريبة الوطنية التي هي أساس نظام التربية والتعليم في مدارس أوروبا.

وبدا اللورد كرومر بعد حادثة دنشواي يتخوف من ترك ذلك العامل القوي، عامل الصحافة حراً يشهد بأعماله السيئة ويفسد عليه سياسة فتن الأمة، هناك بدأ بجاريها وجهاً لوجه فأفرد في تقريره سنة ١٩٠٦ فصلين خطيرين عن الحركة الوطنية وصحافتها ملاحظاً طعناً فيها وسباً في سياستها، وكان يرى بذلك إلى إضمار تأثير الصحافة الداعية إلى الثورة والتعصب الديني، وكانت كتابته في هذا الصدد دالة على شدة حقه على الصحافة الوطنية التي أخرجت مركزه وفضحت سياسته في مسألة طابه ودنشواي.

ومن ثم أبدى اللورد كرومر في الصحافة رأياً مخالفاً لرأيه سنة ١٩٠٤ فقد شمر اللورد بعد خادى طابه ودنشواي أن الصحافة الوطنية قادرة على إهانة الرأي العام عليه وعلى إخراج مركزه، وقد رمى السواد الأعظم من المصريين بأنهم من أعظم الناس تصديقا لمسا يقال، إلا أن اللورد كرومر لم يجسر على المجاهرة بتقييد حرية الصحافة وإن كان أشار من طرف خفي إلى ذلك.

وكان يتخذ من الحرية المطاة للصحافة في مصر حجة في يده، يومم بها الأمة المصرية أن إنجلترا تميل إلى الحرية في وادي النيل، وأنها تتمتع بفضل الاحتلال الإنجليزي بما لا تتمتع به الأمة النمائية تحت حكم عبد الحميد، لأن اللورد كرومر كان يتوخى دائماً في

سياسة تفجير المصريين من حكم السلطان السابق وبحسب ألف حساب لميلهم إليه ، فكانت الحرية الصحفية من ضمن الوسائل التي استعملها اللورد كرومر في سبيل هذه الغاية . ولذلك لم يجرأ على تقييدها . وزاد حرج كرومر بعد حادث دنشواي وبما زام احراج مركزه بإنشاء مصطافى كامل لجريدتين يوميتين إحداهما باللغة الفرنسية (الاتيندار اجبسيان) والأخرى بالانجليزية (ذى اجبسيان ستاندرد) فكانتا ترددان صدئ الحلات التي ينشرها اللواء وتنتشره في العالم الأوربي .

تغير مركز الصحافة بعد رحيل كرومر و قدوم اللورد غورست .

يظن البعض أن الضغط الذي لاقته الصحافة المصرية في عهد اللورد غورست يرجع إلى تمادى الصحافيين^(١) الوطنيين في شدة الالهجة والتطرف ويمتبرونهم الحبيب الذي الجأ الاحتلال إلى تقييد حرية الصحافة وإعادة قانون المطبوعات القديم ، والحقيقة أن ما لاقته الصحافة الوطنية من الضغط كان جزءاً مقمها لبروجرامه السياسى الذى أنبمه المتمد البريطانى الجديد فقد كانت مهمة (اللورد غورست) في مصر هي تهدئة الخواطر الفائرة ضد الإدارة الانجليزية وتثبيت مركز الاحتلال الذى زعزحته سياسة اللورد كرومر . وكان اللورد غورست يتوهم أن الحركة الوطنية ليست حركة استقلال بل حركة تدمير من تصرفات اللورد كرومر ، فبدأ عهده بالموافقة على الافراج عن مسجونى دنشواي ، حتى يقل هياح الوطنيين وانفعالهم بهذه الحادثة ، وبدأ يماطل الخديو معاملة لجنة تناقض تلك المعاملة الوحشية التي كان يماطل بها اللورد كرومر ، وكان يظن أن الخديو هو قوام الحركة الوطنية فإذا رضى الخديو عن سياسة المتمد الجديد وسار على خطه الوثاقى معه لم يمد هناك محل لبقاء الحركة الوطنية .

وقد أتبع المتمد البريطانى تلك السياسة مؤملاً ايجاد رأى عام معتدل يسكت عن الاحتجاج على الاحتلال في ذاته ويسير في سبيل الاتفاق والتفاهم مع السياسة البريطانية

(١) هكذا كانوا يكتبونها .

(م — ٦ تطور الصحافة العربية للناصره)

في وادي النيل ، وفلا جراه في هذا المضمار بعض الصحف العربية مثل المؤيد والمير ، فأخذنا نطمئن في سياسة الحزب الوطني المتطرفة وتدعوان الأمة إلى التفاهم مع الاحتلال ، ولكن صحافة الحزب الوطني وفي مقدمتها (اللواء) وقفت حجر عثرة في سبيل نجاح غورست في سياسته وإدراكه غايته وظهرت في تلك الفترة التي تفرقت لها سياسة أنجليترا في وادي النيل بمظهر جليل ضمن بقاء الحركة الوطنية واستمرارها ، ذلك أن (اللواء) الذي كان وقتئذ لسان الحزب الوطني المارض للاحتلال أخذ يفادي بالاستقلال والجلاء ويجدد إحتجابه على بقاء الاحتلال ويحذر الأمة من الركوب إلى سياسة انكسار فكانت خطة (اللواء) مقاومة الاحتلال في ذاته لا في سياسته ، لم تقو الصحافة المعتدلة الداعية إلى التفاهم والأنجليز على مكافحة الصحافة المتطرفة التي كانت مكونة في ذلك العهد ، من اللواء والدستور والاستعداد أجيسيان واجيشيان ستندارد ، كذلك لم يضمن تأثيرها الفعال في الرأي العام ذهاب وفود المندوبين إلى لندن وسعيهم في وضع أساس للتوفيق بين المصريين والاحتلال ، وتقهقرت صحافة المندوبين أمام الصحافة المتطرفة ، وأصبحت موضع سخط الأمة وظلت صحافة الحزب الوطني آخذة بقيادة الرأي العام المصري ، وأمكن فريد بك أن يحفظ سياسة الحزب ويحول دون نخود الحركة الوطنية وركونها للاحتلال حتى أداء ذلك الغرض الشريف إلى المجاهرة بانتقاد خط الحديو السياسية واستنكار اتفاقه مع المتمد البريطاني فأخترق الحزب الوطني في تلك الأثناء أزمة صعبة . لما رأى غورست ذلك ، حول على محاربة صحافة الحزب الوطني التي هي الحائل الوحيد دون نجاحه في سياسته ، واعتقد أن محاربتها ستقلل من حدها وتضعف من شوكتها ، (هنالك) عمد إلى تقييد حريتها والتفكيك برجالها ، وكان غورست يعتقد أن تحل الحديو عن الحزب الوطني وامتصاصه من حملاته على سياسة الوفاق واستيلاءه من مجاهرة (فريد) بأن أرادة الأمة شيء وأرادة الحديو شيء آخر ، كل ذلك مفض إلى أضفاف شوكة الحزب ، وكان هناك من رجال الحكومة من يمددون على صحف الحزب الوطني لحملاتها المفككة على

خياتهم فكانوا يمرضون المعتمد البريطاني على تقييد حرية الصحافة ، وقد فكر أولاً في محاربة الصحافة الوطنية بالحاكم ، وانتهاز فرصة كتابة اللواء مقالاً عن (فظائع الانجليز في السودان) وطلب أن ترفع الدعوى العمومية على الشيخ عبد العزيز جويش رئيس تحرير اللواء ، وانتظر أن تحكم المحكمة على الأستاذ حكماً قاسياً ولكن الحاكم أظهرت استقلالاً تاماً في تلك القضية ، فبرأت الشيخ من التهمة ، (هنا) بدأ يفكر في طريقة أخرى بمد أن وجد أن الحاكم ليست السلاح الفعال في محاربة الحركة الوطنية ، وقد أعرب عن ذلك في تقريره سنة ١٩٠٩ . لذلك فكر في إعادة قانون المطبوعات الصادر في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ ذلك القانون الذي يفقد الصحفيين كل ضمانات قانونية حيث يحملهم تحت رحمة الإدارة مباشرة فيستطيع أن يعطل أي جريدة بدون محاكمة ولا إبداء أسباب معقولة . وأهم موارده (المادة ١٣) وهي « يسوغ معاقبة على النظام العمومي والآداب والدين تعطيل أو قفل أي جريدة أو رسالة دورية بأمر من ناظر الداخلية بعد إنذارين أو بقرار من مجلس النظار بدون إنذار » وقال الدون غورست في تقريره ١٩٠٩ عن قانون المطبوعات ١٨٨١ : إنه الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها مراقبة الصحافة وأن تطبيقه بالحكم والحدابة لا يفتح باباً لتضييق الآمال السياسية كما يكون في محاكمة الصحف ولا يترك سبيلاً للمظاهرات وأنه فعال في منع وقوع الجريمة .

وصدر قرار مجلس النظار بإعادة هذا القانون في ٢٤ مارس ١٩٠٩ وهو يوم تعتبره الأمة من أيام حدادها المشؤم ، اليوم الذي قضى فيه على حرية الصحافة . وقد فهم الناس جيداً أن هذا القانون ما أميد إلا لمحاربة صحافة الحزب الوطني التي آلمت بمراحمتها كل من الاحتلال ورجاله . وأشار مجلس الوزراء في قراره حيث أن عدم تنفيذ قانون المطبوعات لم يزد هذه الجرائد (جرائد الحزب الوطني) إلا تمادياً في الاضطراب والخروج عن الحد حتى أدى ذلك بشكوى الناس بالسان الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين من هذه الحالة التي بالبلاد

ضرراً بليغاً . فقد قرر مجلس النظار (كذا) . . . والحقيقة التي حاول الاحتلال إخفاءها تنويراً بالعالم التدين هو أن الجمعية العمومية قد أظهرت تألمها من ترك الحكومة للصحف الساقطة تنهش أعراض الناس بلا رادع ولا زاجر ، ولا شك أن محاربة هذه الصحف الحقيرة أمر واجب لا شبهة فيه ، ولكن ذلك شيء . ومحاربة مبدأ حرية الصحافة شيء آخر . ولما أعيده قانون للطبوعات أصبحت الصحف الوطنية تحت رحمة الإدارة وكان السير غورست يفتقر أن تكون مجرد إعادة سببا في لقاء العرب في قلوب الصحفيين الوطنيين من جهة وانقضاء الجمهور المصري عن صحافة الحزب الوطني من جهة أخرى موهبا أنها كانت السبب في القضاء على حرية الصحافة ، ولكن مركز الصحافة لم يزعزع بل زاد ثباتا وارتقاء . واستمرت صحافة الحزب الوطني على خطتها بعد صدور قانون سنة ١٨٨١ ولكنها سارت مهددة بأن تصاب بضربات ، ولم تمر ثلاثة أشهر حتى نفذ القانون لأول مرة في اللواء . أُنذرت الحكومة (اللواء) وبنت إنذارها على أنه نشر مقال تأييد لنجرا ذلك الشاب الهندي الذي قتل السير كرزون وبلي في الهند وسبق الشيخ جاويش للمرة الثانية أمام المحاكم لها كته على مقالة نشرها إحياء لذكرى دنشواي وانتهت محاكمته بحبس ثلاثه أشهر ، وقيل أن يصدر الحكم صرح ناظر الحفانية في حديث له ان لابد من الحكم على الشيخ جاويش . وفي يوم واحد أُنذر اللواء وحبس الشيخ جاويش فسكانت الصدمة شديدة حتى خشي الكثيرون أن يزعزع مركز الصحافة ويخفت صوته .

وخشي الكثيرون أن يقرب اليأس إلى النفوس ولكن الجلد الذي أظهره الشيخ جاويش في الحبس وثبات الصحافة الوطنية على خطتها واستمرار الحزب الوطني في مقاومة الاحتلال وإعطاء الأمة مثال الصبر والثبات ، كل ذلك حفظ مركز الصحافة ووقاها شر التهمير أمام ضربات الاحتلال وانقلبت الحرب التي أعلنها الاحتلال على الحزب الوطني خيراً له وشرّاً على الاحتلال حتى كان يوم خروج الشيخ جاويش من الحبس يوم ابتهاج عظيم ، قلده فيه الأمة وسام الشعب إظهاراً لملعبها الشديد به ، وخفت صوت المعتدلين .

(٣) الصحافة ومسألة قناة السويس

ظهرت في ميدان المسائل السياسية حوالى شهر أكتوبر ١٩٠٩ مسألة سياسة خطيرة قامت لها الأمة وقدمت وظهرت فيها الصحافة الوطنية بمظهر جليل زادها قوة ورفعة ، هى مسألة مد امتياز قناة السويس . أخذ المستشار المالى مستر بول هارفى بفكر فى وسيلة يحصل بها على المال بعد أن بدده الاحتلال فى مجاهل السودان ، ورأى أن خير طريقة يصل بها إلى غرضه المفاوضة مع شركة قناة السويس لمد امتيازها أربعين عاما إلى عام ١٩٦٨ وقسمة الأرباح بمد هذا التاريخ مناصفة بين الحكومة والشركة ، وذلك فى مقابل (أربعة ملايين من الجنيهات) تدفعها الشركة للحكومة المصرية وجانب من الأرباح من سنة ١٩٢١ إلى ١٩٦٨ على طريقة اتفق عليها المستشار والشركة .

وظل المشروع تحت طى الخفاء زهاء سنة ، وكان فى عزم الحكومة إنهاؤه بسرعة حتى لا يزعمها احتجاج الصحف الوطنية ولكن فريد بك تمكن من الحصول على نسخة من المشروع ونشرها فى اللواء . وقد أظهر ما فيه من القبح الفاحش الذى يلحق بمصر إذا تم هذا المشروع ، وأخذت الصحف الوطنية بعد ذلك تتناول المشروع بالانتقادات المالية والسياسية المبينة على الآراء الناضجة والحقائق الثابتة ، وتكاثفت صحف الحزب الوطنى فى هذه المسألة الحيوية واتفقت جميعها على مطالبة الحكومة بعرض المشروع على الجمعية العمومية قبل البت فيه ، فقامت فى البلاد حركة أفكار كبيرة نورت رأى العام وارتفعت أصوات الأمة من كل جانب ملبية نداء صحافتها مطالبة بعرض المشروع على الجمعية العمومية . ولم يسمع الحكومة إلا إجابة مطلب الأمة ، تهدئة للخواطر ، وفلااحيل المشروع على الجمعية العمومية ، وكانت الصحف انتهت من درسه وإظهار ضرره بالمصالح المصرية من الوجهتين المالية والسياسية وأجمت الأمة على مطالبة أعضاء الجمعية برفضه بقانا وإقامة الحجة القومية على ذلك الرفض . وأقيمت فى خلال ذلك خطب عديدة فى أنحاء البلاد وعقدت جماعات جمة وأقيمت مظاهرات رهيبية ، كل ذلك لا بلاغ أعضاء الجمعية العمومية

رغبة الأمة في رفض المشروع وكانت هذه الحركة نتيجة كتابات الصحف في مسألة القننة وقد بلغ من قوة الصحافة في هذه المسألة أن هيأت الأفكار بالدليل والبرهان إلى مقاومة مشروع الحكومة وكونت رأياً عاماً قوياً هيأته الحكومة واحترمه أعضاء الجمعية العمومية لأنه كان يمثل إرادة الأمة فأنهت مذاكرة الأعضاء في المشروع برفضه بإجماع الآراء وفازت الأمة فوراً مبيناً وأكبرت صحافتها الوطنية (حتى أن) أعضاء الجمعية العمومية التي قدروا خدمة الصحافة في مسألة القننة قرروا الاحتجاج لدى الحكومة على إعادة قانون المطبوعات المقيد لحرية الصحافة فسكان قرارهم أعظم رد على الدعوى التي نسبت إليهم وهي أنهم كانوا البادئين بدعوة الحكومة إلى عارية الصحافة . أما المعتمد البريطاني فقد ساءم بلوغ أفترة الصحافة الوطنية إلى هذا الحد رغم إعادة قانون المطبوعات ، وأخذت الحكومة تمد المدة لاتخاذ وسائل أخرى أشد صرامة في مقاومة تأثير الصحافة المادية للاحتلال .

وحدث في أثناء حادث الورداني أن ألقى السير فورست مسئولية الحادث على الحزب الوطني فسكان ذلك إعلاناً للصحافة بحرب جديدة يزداد فيها الضغط عليها وفعلوا طوردت صحافة الحزب الوطني قبل أن يتم طبع التقرير وبعد ظهوره مطاردة عنيفة . وصدر قرار مجلس النظار بإيقاف جريدة العلم فلم يسكت الحزب الوطني بل أنشأ عدة جرائد جديدة لم ينقطع صدورها مدة الشهرين يوماً واحداً ، فسكانت الأمة تنهات على قراءة تلك الجرائد ولا يظهر الحزب جريدة إلا ويزداد إقبال الجمهور عليها وأثبت حادث إيقاف (العلم) أن الرأي العام قد تشبع بمبادئ الحزب الوطني وأصبح لايمه إلا الإقبال على صحفه مهما حاربها الاحتلال واشتد في عاربها وجرى التفسير في وضع نظام محاكمة الصحافيين بتقديم الضمانات التي كان قانون المطبوعات يخولها لهم وكان هذا النظام الجديد حلقة من سلسلة قوانين جديدة وضعت بعد حادث الورداني إرهاباً للأمة كانت محاكمة الصحافيين تجري على حسب القواعد المثبتة في محاكمة الأفراد فسكان لهم درجتان للحكم ، ابتدائية واستثنائية ، وفي ذلك من الضمان القانوني ما فيه لأن مرور القضية أمام هيئتين متعاقبتين فيه ضمان كافيه لظهور الحقيقة

وتقرير العدل فيها وقد ظهرت فائدة هذا النظام القضائي في محاكمة الشيخ جويش لأول مرة ، حيث حكمت (محكمة أول درجة) على الأستاذ بمقوبة (فرامة) على إحدى التهمتين اللتين أسندتهما إليه النيابة ، ولكن محكمة ثاني درجة ، بعد أن نظرت في القضية من جديد حكمت ببراءته من التهمتين . وكان هذا النظام من شأنه إطالة مدة المحاكمة فيزداد إهتمام الجمهور بالحركة الوطنية ويتشوقون إلى أنباء المحاكمة وما ينشر فيها من المرافعات والاجراءات والأحكام فكانت المرافعات التي تناق في القضايا السياسية عبارة عن دروس وطنية تستفيد الأمة منها فائدة كبرى ، ويتمثل فيها الفرض المقصود من سوق زعماء الحركة الوطنية أمام المحاكمة . وكانت كل محاكمة تضم إلى صفوف الحزب الوطني أنصاراً وأشياءاً تزداد بهم سولة ورفعه ولم يلبث أن ظهر في ١٦ يونيو ١٩١٠ قانون إحالة جفج الصحافة على محاكمة الجلبايات وقد قصد الاحتلال من ذلك أن تتم محاكمة جفج الصحافة بأقرب ما يمكن من السرعة حتى لا يترك القصد السكاني لاهتمام الرأي العام بالقضايا السياسية .

بين مصطفى كامل وعلى يوسف

(اللواء - المؤيد)

بدأ مصطفى كامل يكتب في المؤيد منذ ظهوره في ميدان الكتابة ، ثم أصدر اللواء ١٩٠٠ ، وكان اللواء والمؤيد تسيران في خط واحد أول الأمر ، وكانت الحركة الوطنية مؤيدة بالخديو ، ثم تغير الموقف ، عزل كرومر وجاء خلفه غورست بسياسة الوفاق وأدار الخديو ظهوره للحركة الوطنية ، واختلاف معه اللواء ، وسار معه المؤيد ، ثم جاء عام ١٩٠٧ فأعلن الشيخ على يوسف إنشاء حزب الإصلاح ، في نفس الوقت الذي أعلن فيه حزب الأمة عن نفسه ، وكان الحزب الوطنى مشككاً من قبل ولكن أعلن رسمياً في نفس العام .

وفي ١٩١٢ سجلت جريدة الشعب^(١) (إحدى صحف الحزب الوطنى) صورة للملافة بين مصطفى كامل وعلى يوسف ، والخديو ، تقول : يظهر أن صاحب المؤيد (على يوسف) كان قد وطن نفسه على أنه زعيم الصحافة الإسلامية (الوطنية) في مصر واطمأن لذلك ، فلما ظهر اللواء رأى فيه أكبر مزاحم ، فأخذ ينصب له الإشراف في داخل الممية « قصر عابدين » ، وخارجها ويمقد له كل مرصد أملاً في إسقاط اللواء (ليخاطب له الجو ، ولم يظهر اللواء بالمؤيد إلا بعد سفر صاحب المؤيد إلى لندرة عام ١٩٠٣ ووقوفه بين الإنجليز ذلك الموقف المعلوم ، وتسميته لوندرة (كنية المصريين السياسية) فلما التزم الصمت متوخياً مرضاة الاحتلال وتقبله وفاق ١٩٠٤ قبولاً حسناً كان ذلك مصرعاً لجريدة المؤيد

(١) ١٣/١٩/٢٦ مايو ١٩١٢ .

نفسها وفاز اللواء عليها وكان صاحب المؤيد قد حاول نسكت عهده الوطني بعد أن أصبح ذا مال ومعار ، فانسلك عنه مصطفى كامل وأنشأ اللواء سنة ١٩٠٠ حتى لا يلبس صاحب المؤيد بالرأى العام ، وكان أبرز أهداف اللواء : العقيدة الوطنية والدفاع عن مجد الإسلام ، وظهرت غيرته جليلة في غارة المسيو هانوتو على الإسلام والمسلمين ، ومع هذا كانت الحكمة العليا في عالم الصحافة للمؤيد لظن السواد الأعظم من الأمة في ذلك الحين أنه لا يزال الجريدة المخلص للوطن ، لذلك استمر اللواء جريدة ثانوية حتى سافر صاحب المؤيد إلى لوندرة في ١٩١٣ ووقف من الإنجليز موقفه المعلوم فيرمثذ عرفت الأمة طويته فنبذته ظهريا واحتلت اللواء المحل الأول وظل المؤيد جريدة التلون .

وكان للاقتدار الصحفي الفضل الأول ما جعل اللواء المنزلة الرفيعة ، وكان الحديث بين صاحبه وبين النازي مختار باشا (ممثل الدولة العثمانية في مصر) وفيه أنزل المؤيد منزلته الحقيقية فكان في ذلك القضاء عليه وردت إليه النسخ رزما حتى ضاقت بها نوافذ مصلحة البريد وتظاهر ضده الكثير من أهل القطر ، وأحرقت نسخته في الجهات على مقروعة الطرق وزاد اللواء رفعة بعد حادث « دنشواي » فقد رفع صوت مصر في أوروبا .

وهز كرمي اللورد كرومر هذا لم يسبق إليه مصري من قبل ، واجتمع لدى إدارته عدة آلاف من الإماءات بطلب العفو عن مسجونى دنشواي ، الذين كان يحكموا على بعضهم بالأشغال الشاقة أو المؤقتة وعلى بعضهم بالسجن ، فلما أضاف نسخيه الإنكليزية والفرنسية ، بلغ اللواء غاية لم يبلغها قبله جريدة في الشرق .

وقد ألف مصطفى كامل (الحزب الوطني) وهو طريح الفراش بعد إلقاء خطابه في أكتوبر ١٩٠٧ في مسرح زينيا بالإسكندرية ، وفي ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ طبع من اللواء (٢٩ ألف نسخة) وزعت وقت مرور جنازة صاحب اللواء ، وهو أكبر

رقم بلفته الصحافة إذ ذاك ، ثم انتقلت إدارة اللواء إلى يد الحزب الوطنى بواسطة شركة تألفت لهذا الغرض وقدرت رأس ماله بمبلغ أربعين جنيه وبلغ أوجهه بدآن تولى رئاسته الشيخ عبد العزيز جاویش ، فقد برأ القضاء جاویشا فى قضية الماملین وطمن المتمد البريطانى فى القضاء . ولما وقع الاعتصاب بین الحررين والكتاب ومجال الإدارة وجامعى الحروف والسباکین والطباہین والموزعین ، حتى آفة الطبع نفسها ، وصناديق الحروف امتدت إليها يد الإقتصاد ، صدر اللواء فى يوم عطلة تحديا ومحل الأعضاء بأنفسهم فى إصداره .

صحف وطنية وصحف معتدلة

لإلقاء ضوء كاشف على صورة المجتمع ، والحياة العسكرية ، وأثر الصحف فيها ، نختار فترة من أدق الفترات في هذه المرحلة ، هي فترة عام ١٩٠٧ الذي يعد من الأعوام الحاسمة ، حيث ظهرت فيه الأحزاب السياسية الثلاث الوطنية ، الإصلاح ، الأمة وكانت أهم الصحف فيه هي (الأهرام ، المؤيد ، اللواء ، الدستور ، الظاهر ، المنير) والسؤال هو : كيف كان موقف هذه الصحف من الحركة الوطنية ، ومن الرأي العام ، وكيف كان الصراع بينها جميعا .

يقول العلامة فريد وجدي : لم تظهر الحرائد السورية في مصر لمطالبة الحاكمين بحق مسلوب ، أو محاسبتهم على عمل مألوف بل بالعكس ، كانت تقترب إلى الحاكمين ، بالدبج والإطراء وتلبسهم شفوفا من حلل الثناء ، ولا تطلب إليهم إلا من طريق الاستباحة والرجاء ، و (الأهرام) التي لازمت الأمة في سائر أدوار تدرجها خفضت استبداد إسماعيل ولقيت منه ما لقي الناطقون بالحق أمام السلطات المطلقة ، وشهدت أول عهد توفيق ، تلك الأيام الهادئة الباسمة ، وبلغت فيها من الشهرة والانتشار غاية ما يمكن لحرية في تلك الأيام ثم شهدت حركة الأمة قبيل ثورتها (الثورة العربية) وبعدها في أول عهد الأنجلويز .

وظهرت (المقطم) بلهجة وطنية واستمرت على ذلك نحو العام حتى كان (المؤيد) يستظهر بأقوالها في كثير من الأحيان ، ثم تحولت إلى مشايمة الاحتلال وتسوى سيرة الدولة العلية ، ذلك لأن أصحاب المقطم ليسوا من أبناء هذه البلاد ، وهم مهما انتحلوا

لأنفسهم من صفات الوطنية فإن يكون منها إلا بقدر ما تحمته أفعالهم وأعمالهم ، وإذا كانت الأمم تقيرا من أبنائها الذين يذهبون في سياستهم غير مذهبها فهي تقيرا بالأولى من المتحقيقين بها إذا نهجوا في سياستهم غير منهاجها .

فالأمة لا تعتبر (المقام) جريدة وطنية ، حتى يصح أن تدور عليه جرائد مصر بالتأنيب لإجباره على أن يقول مالا يريد قوله ، ولو كان المصريون اكتفوا بهذا الإعلان كلما كتبت المقطع شيئا ضد مصاحبة البلاد لسكان المقطع اليوم لا يعرفه أكثر المصريون ، ولكنهم أخذوا يناقشونه الحساب ويبادلونه السباب فاشتهر بين الناس اسمه وذاعت مبادئه . أما (الجريدة (١)) . . . فليس تحت سماء مصر من يجهل المبدأ الذي تكونت من أجله الجريدة ، والأصابع السكرومرية التي أقامتها الإطفاء جذوة الشعور الوطني ، الذي أشعلها مصطفى كامل في أفئدة المصريين فقصت سنتها الأولى في نكران مبدأ الوطنية وتجهين الحزب الوطني ورجاله ، ثم دالت دولة كرومر ووجدت الجريدة نفسها بالمرء ، وسقط في يد مديرها الذي أجاد الدفاع عن مظلومي دنشواي .

ولم تبهن الأمة المصرية على حياة شعورها وبقطعة عاطفتها الوطنية في حادثة من الحوادث بأحسن مما فعلت بإزاء الجريدة ولن تزال الجريدة بما تأخذ كل يوم من دروس الأدب عن الأمة حجة حية على قوة الرأي العام في هذه البلاد . وقد اجتمعت طائفة من أعيان الأقاليم قبل نحو السنتين من الزمان وفكروا في التماون على تأسيس جريدة مستقلة من كل سلطة تجمع إلى علو تحريرها جمال الرءاء ، وأبهة الثراء ، فتجذب هذه الأمة المسكينة من بين غلاب هؤلاء المتحمسين (الحزب الوطني) همس بذلك بعض الأعيان فانصل خبر هذا العزم بالاوره كرومر فيمصر قصر الدوبارة إذ ذاك فوجدوا منه كل تشجيع وبلغ الناس هذا الشعور فقالوا : إن في الأمر لسراً وقد عمد الإنجليز بعد أن أعجزهم

(١) الدستور - ٤ سبتمبر ١٩٠٨ .

إمارة شعور المصريين بجراثيم الأجودة ، إلى تحذيره ، والتنوير به بواسطة هذه الحياة المجهية ، وكان الناس بين مكذب ومصدق حتى انتخبت اللجنة التأهيلية مديراً للجريدة عامياً لم ترض الأمة عن دفاعه في حادثة دنشواي (بقصد : لطفى السيد) فعزى ظن الطائين ، وزاد في الظنون السيئة ما تفضلت به جريدة التيمس على الجريدة من التفريط والإطراء قبل ظهورها ، كيف علمت التيمس خطة هذه الجريدة قبل نشرها إن لم تكن قد رسمت لها خطة السير في الوكالة البريطانية ولكن هذه الأحكام لمن تكن إلا ظنية لا يمول عليها المثبتون الذين يريدون بناء أحكامهم على الحوادث المحسوسة فظل هؤلاء مفتظرين حتى قرب إبان ظهورها وتعيين المحررين ، فكان في تسميتهم دليلاً حسيماً تمهيداً على مجاعة مشرب (الجريدة) لمطالب المصريين .

(جريدة الظاهر^(٢)) . . . ظهر للكافة عياناً تحامل الظاهر على الشيخ محمد عبده رحمه الله مشابهة لما اشتهر من مخطئ الجنب المالى (الحديبو) عليه إذ ذاك فارتسب (الظاهر) في الخط من كرامة ذلك الإمام الجليل والنفس من قدرة مالا يليق صدوره من هداة الأمم وأطباء هيئتها الاجتماعية ، لا سيما وراءة الشيخ مما كان ينسبه إليه ويمزوه له ظاهرة للعيان لا تحتاج لبرهان ، فآثر ذلك في قلوب المصريين أثراً سيئاً ، ولم يرد في (الظاهر) . ما يجب أن يكون في (الجريدة) التي يديرها رجل قانونى ، له موافق مشهودة في التفرقة بين الحق والباطل ، وظل الظاهر على غلوائه في حق ذلك الأستاذ الكبير حتى تحقق الناس سوء القصد في تلك المطاعن فكان ذلك أول ما شهدته النفوس له يالانقباض والمضاضة . وبينما الناس وإياه على هذا الحال من الشك وإذابة حالت به الحال

(١) جريدة الأهر لصاحبها محمد أبو شادى حصلت على نص فتوى أصدرها الأستاذ محمد عبده إلى جماعة من سكان فرنسا من المسلمين الذين رحلوا من الهند إلى جنوب أفريقيا ، هذه الفتوى خاصة بإباحة أكل المسلم اللحوم التي يذبحها أهل البلاد من المسيحيين من طريقة أسماها الظاهر ، الموقوفة ، ألتيا : جواز ليس المسلم بفتية نفاذياً من سخرية أهل البلاد من الفسامة والماريوتش .

إلى تقيص مبدأ جديد وهو مشايمة المحتلين ، والضرب على نعمة التالية في أطرائهم ،
والتدح بهم ، ظهر ذلك في لحن كلامه فتبين للناس سرعة نقله من غير ما سبب ظاهر ،
ولا حكمة معقولة ، وبدت بوادر خطيرة عليه بلا تدريج وأومحته أهواؤه أن من النكابة
يمن تقرب إليهم أولاً أن يناقض خطته السابقة مهمم فيمدح من كان يذمهم ويذم من كان
يعدمه ، فانتقلب بمدح الأستاذ المفتي (محمد عبده) ويطربه ويبنى له من صروح الثناء
ما ينقض سابق مطاعنه فيه ، حتى أنه سبغ نفسه بالسواد يوم موته حداداً عليه وشنع
ذلك بالطنن في (الشيخ علي يوسف) في قضية الزوجية وغلا في ذلك غلوا أخرجه
عن حدود المقول فتحققت الأمة عند ذلك أنه سريع التحول مفقاد لأهوائه ، يرمى
إلى حيث رمت إليه ، والأهم إن لم تأنس من خدامها الثبات والحزامة لم تحس من الصلابة
والشهادة تحضت طرفها عنهم .

(جريدة المنبر) : أصدر المدير حافظ عوض ومحمد محمود ، وكانا يملكان في المؤيد
وقد ظن الناس أن انفصال الشابين عن تحريره سيورثه الفاقة الكتابية ، وسيفضى عليه
بالسقوط الصحفيري ، فأصبح المؤيد أرق مما كان عليه تحريراً ومادة ، أحدهما ألم بالإنجليزية
والآخر ألم بالفرنسية ، فلماذا لا تكون جريدتهما في مثل (المؤيد) الذي لا يعرف
صاحبه ما يعرفانه من اللغات الأجنبية ، هذا هو الدور الأول للمنبر .

أما الدور الثاني فقد بدأ بعد ذهاب أحد صاحبيه إلى لوندرة (حافظ عوض) ونصريحه
لأحد مكاتبى الجرائد بأن في مصر حزبين مشاكسين ، أحدهما المتطرفون وهم قوم قليلو
العدد ، يطلبون الشهرة ليس إلا ، وليس لهم أقل تأثير في سياسة مصر ، وثانيهما
المتدلون وهم الذين يمثلهم حضرته ، وهم أكثر عدداً وأصحاب المصالح الحقيقية في مصر .
وذكر في عرض كلامه أن المتدلين لا يحبون الآن أن يتسككوا في الاستقلال ولا في نبذ
سلطة الاحتلال بل ولا هزل الموظفين الإنجليز ، وإنما هم يطلبون توسيع اختصاص
المجالس الانتخابية وشيثا من الإصلاح في التعليم ، وقال الناس : شاب خول نفسه

حق السفارة بين المصريين والإنجليز بدون أن يستشير في هذا الأمر أهل البصر عن الأمة التي ينوب عنها ، وذهب الناس في تحليل هذه السفارة الفعائية كل مذهب وقابلت الأمة هذه السفارة بالاستخفاف وأعرضت عن (المثير) استياء من هذا الدور الذي لعبه صاحبه بنير احتياط ولا تحفظ ، وزاد استياءها أنها أحست بتغير ذريع ظهر في سياسة (المثير) فبعد أن كانت تدعو إلى التآليف ونحث على التضامن أخذت تعمل على التفريق بفصول كتبها بخطى فيها كل من خالفه بلسان الساحر التتمير .

أما (المؤيد) فقد تحول عن خطته وتغير عن سابق طريقه ، كان اعتقاد الناس أن يقرأوا في المؤيد ظارات شمواء ضد الحكومة وسيرها ، خلف ذلك مسألة ظاهرة ، ثم اتفق أن ذهب صاحب المؤيد إلى لوندرة فاحتل به نغطب خطبة سياسية شفت عما في صدره ، من التحول إلى سياسة الملاينة والمخادعة فأكد للناس صدق ظنه في تحوله عن منهاجه الأول ، فكان جواب بعضهم أنه تابع في سياسته لبعض المصادر العالية فأشارت إليه بالصمت فأمتثل .

(الوطن ومصر) تذهب الجريدتان مذهب مسألة الإنجليز فهما ممن يعتقدون أن الإنجليز دخلا هذه البلاد لإصلاحها ثم تركها لأهلها حاصلة على كل وسائل الحياة الأدبية والاجتماعية ، وقد أدرعا بصراحة في القول تخرج عن حد التهور وتسامحا بلمجة ليست العادلين في شيء فهما لا يتأدبان بأداب طائفتهما .

(اللواء) (١) هي اليوم ترجمان الشعور الوطني ، تمثل في عبارتها وأسلوبها صورة الروح المصرية بكل دقائقها ، وقد كان هذا التأثير للمؤيد قبلها ، فلما تحول عن مذهبه الأول خلفه اللواء وهو لم يزل في خلافته إلى اليوم ولو تحول لتحولت الأمة عنه ، وبمبب العائون على اللواء نظرا في مذهبه وشدة في لهجته وينسى هؤلاء بأن الرجل الحي إذا شعر بفقد

(١) يلاحظ أن فريد وجدي كان مرابيا للحزب الوطني في هذه الفترة .

أمته للاستقلال ، وهو أكبر ما تصاب به الأمم من جائحات الحياة كان من أقل واجباته أن يقاوم ويظهر الله .

لا حرج على المطالب بحقوق بلاده أن يحتد في لهجته ، وأن يشتد في عبارته ، بذلك إنما يترجم عن شعور طبيعي ، هو أول علامات الحقيق ، وأوضح دلائل الصادقين ، وإغما الحرج والويل لأولئك الذين يظهرون بإزاء ضياع استقلالهم بادرين ، جامدين ، هل يصح أن يتكلم مصري عن شئون بلاده وحقوقها المسلوقة بشير تلك الهجة التي هي لهجة طبيعية لسكل متكلم مسلوب الحق ، ويبغى المؤيد ، على اللواء هذه اللهجة ويمدها أنا تطرفاً وطوراً تهوراً ، وحينما يسميها جينا وتهوسا ، ولو تذكر أنه بنى دوره وقصوره وركب عربقه بثمن مثل هذه اللهجة القديمة لما خط من تلك المسبات حرفاً واحداً ، ولقد كان مصطفي كامل مثالا من هذه الأمثلة الحية على هذا اللون فن نازعه في ذلك فقد نازمه في أخص أوصافه وصميم صفاته .

بين فريد وجدى ولطفى السيد

صدرت جريدة الدستور لصاحبها ومحررها العلامة محمد فريد وجدى في ١٦ نوفمبر ١٩٠٧
وفي ١٨ نوفمبر ١٩٠٧ استقبلت «الجريدة» : جريدة الدستور فقال لطفى السيد :

(١) ظهر العدد الأول من الدستور بمقال عن الحالة الإجتماعية والسياسية لمصر حمل فيها لأول يوم من ظهوره على آراء المعتدلين فسقمها بأدلة كأدلة (الواء) ولا مندوحة لمقرط الدستور من أن يقول بأنه من (الواء) بمنزلة (النير) من (المؤيد) لم يأت بخطه جديدة في إصلاح ذات البين ، وتقصير مسافة الخلف بينهما ، أو رتق فرجة الماكسة بل جاء على العكس يزيد في طنبور التفريق نعمة وينصح لشيوخ حزب الأمة أن يستمعوا بآراء بنهم وأحداهم من الشبيبة وبطالاب يجمع الأمة إلى زعامة مصطفى كامل .

* * *

وقال فريد وجدى : أما نحن فنقول أننا نعتقد أنه ليس في مصر في عهدها الحاضر فتنة أشد حلالا وابطنا وتفرقا لألفتنا ، ونسكننا للمستمرين من محتقنا بقصد إنقسامنا إلى معتدلين ومعتطرفين . نقول الجريدة : إننا ما جئنا بمخطلة جديدة للإصلاح ذات البين ، بل إننا جئنا بمحاربة فكرة التطرف والاعتدال ، وكفى بإزالتها مصاحبا لذات البين وجامعا للطرفين المتنازعين . إننا نعتقد أن أكثر الخلاف بين الجرائد منشؤه التنازع على الرئاسة ، فالؤيدهو أبو الجرائد الإسلامية (الوطنية) ومؤسسها الأول، يرى أنه أحق بقيادة الراى العام و (الواء) (م - ٧ تطور الصحافة العربية للحاضرة)

لا يرى (المؤيد) أهلا لذلك التحول الذي طرأ على لهجته في السنين الأخيرة ، فجاءت (الجريدة) نابذة للرئاستين محمية النفس يحيل الأمة إليها دون غيرها لاشتراك الأعيان في تأسيسها . لقد انتظر الناس ظهور الجريدة بلفظ يوم صدورها فما حال اليوم حتى برزت الجريدة مكتوب عليها . « من حقق النظر وراى نفسه على السكون إلى الحقائق وإن انتهى في أول صدمة كان اغتياباه بمدحهم إياه » فقال الناس ، يا لمعجب ، جريدة مصرية يقوم بإنشائها أعيان مصر لخدمة المصريين وإيقاظ عواطفهم ، تصدر بهذه الجملة الدالة على أنها ستحمل على المقائد الموروثة والمواطف المتأصلة في النفوس حملات منكرة حتى تخرج صدور الناس عليها فيوسمها الناس ذما ، ويشبهونها شتيا ، فتسكون بما راضت به نفسها على السكون للحنائق أفرح بدم الناس لها من مدحهم إياها .

هل نحن من الدين على باطل فجاءت الجريدة لمساخفنا فيه ، هل نحن من الوطنية على ضلال حتى أنت الجريدة لنازعنا فيه ، وقرأ الناس في الجريدة مقالات فلسفية ومباحث في الاقتصاد والتعليم ، مما اعتاد الناس مطالعته في المجلات الشهرية ، فهل مرت الجريدة بذكر الاستقلال ، هل مست موضوعا دقيقا بين المصريين والمحتلين ، هل ناضلت عن حقوق مصر بلهجة المصرى النيور ، هل علمت المصريين كيف أن الوطنية ، سياج الأمم ومساك الشعوب .

كلا ، لعلمنا على باطل في أمرنا ، وجاءت الجريدة لهدايتنا إلى الحق فيه ، فهل شئت في التوفيق بيننا وبين المحتلين ، هل دعتنا إلى تسلّم قيادنا إليهم ، إذن ما الجريدة ؟ فلا هى على مشرب الجرائد الوطنية تعب عن شعور المصريين وتقدم بالدروس المرفقة لمواطنهم ، ولا هى على هدى الهداة المخالفين ، فتستحق منا احترام المخالف المخلص فنقرأ لندرك وجه الحق من النقيض ، قال الناس ليست الجريدة على شيء فتركوها وكادت تصبح خبرا السكان لولا أن تداركها مجلس الإدارة فأعلن أن وراء الجريدة حزبا يقال له (حزب الأمة)

وأعضاؤه رؤساء المائلات السرية في البلاد وأنه ساع في نشر التعليم بماله وجاهه ونهيه
الأمة للاستقلال وحكم نفسها بنفسها .

فصفق الناس طربا ، وقامت الجريدة زاعمة أن الأمة طفلة قد غرر بها المتهورون ،
وأنها فاقدة الشعور قد ألهاها بالخيال الموهون ، فأتت على نفسها لتفصح تلك الجرائد
ولتتقن عليها عملها وأنها لن تصرح للأمة إلا بما يناسب حالها ويتفق مع قابليتها ، فلما
مارست الأمة وعالجتها تبين لها أنها بإزاء أمة ذات شعور حي وعواطف وطنية صحيحة .
فكانت أهمراً متعددة كفاها بهيج أن يسمى إنهما زائما ثم اضطرت لمشايمة الأمة في شعورها
فكانت النتيجة على عكس ما قصدت ، قصدت أن تجذب الأمة لجذبها الأمة ورامت أن
تهذبها فرائت أنها هي المحتاجة للتهذيب ، فكانت الجريدة بهذا الاعتبار أول الأدلة على قوة
شعور المصريين وعلى حياة وطنيتهم .

فالؤيد ومن محا نحوه يقولون أن الأمة لم تزل محتاجة إلى الإرشاد ، ولم تصل بعد
إلى سن الرشد الذي يسمح لها بانتخاب سياسة لنفسها ، بل لا بد للصحف من تعديل
رأيها والصبر على شطحها . وكلة (الجريدة) شمارها بشمر بأنها تمد خطه للحملة على
الرأى العام حملات منكرة حتى أنها توطن نفسها على أن ستلقى في ذمة وسخطه
مالا يطيقه إلا من راض نفسه على السكون إلى الحقائق .

أما (اللواء) فبدأ اعتبار الأمة راشدة عاقلة يجب إحترام شعورها ، فهو بعيد عن ذات
صدرها ، وهي عين الخطة التي كان عليها (المؤيد) قبل عشر سنين ، حتى بلغ التحمس به
إلى حد فقدت الأمة منه رشدها . أن زعم زاعم أن اللواء متطرف في خطته ، فالأمة
كلها متطرفة منه إذن ، فن تقم على اللواء فينقم عليها كلها ، وإذا تقرر هذا فإن مسألة
اختلاف الجرائد مسألة تنازع في الرئاسة وهذه الرئاسة من حقوق الأمة الطبيعية .

لقد بدأ^(١) لطفى السيد حياته السياسية ضيف الغاب خائر المزمة ، يائسا أو قريبا من اليائس ، وأدار جريدته على مبدأ بنابر مبدأ الحزب الوطنى كل المنايرة ، فإنا كان يقرأ الفارىء فى تلك الصحيفة إلا حملات عنيفات على الشورى الوطنى وطالب الإستقلال بحجة أن الأمة لا تزال مهيأ صماء بكاء ، وأن كل الذى فيها حركة مصطنعة أو جدها بعض السياسيين المتحمسين الذين لا ينظرون إلا لمصالحهم القاتية ، فلم يرض على لطفى السيد فى هذا الظن عام حتى توالى عليه من الضربات ما جعله ينظر غير النظرة الذى دخل به ممها فى معمان السياسة .

وتكلم^(٢) لطفى السيد عن (الوطنية) كلاما يعتبر فى علم الفلسفة اليوم من بقايا القرون المظلمة ، التى كان فيها أمر النوع الإنسانى قائما على مبدأ (المنفعة) المادية المحضة ، والحاجات الحيوانية الصرفة ، ولم يدرك أن العالم الإنسانى قد تدرج نحو السكالى ، فهو كل يوم يطالب وجوداً أرق وحالا عن حالات الحيوانية أبعد ، مما يظهر أن لطفى بك قليل الإطلاع على معارك الإقحام والمهم ، فى العالم الإجتماعى ، فهو من أمثال نظرية الوطنية والمنفعة فى دورها الأول . وما ظنك بخطيب يقوم فى القرن العشرين وسط أمة فى مضطرب الأمم ومزدحم المذاهب الاستعمارية تعتبر عطشى لسلسيل الدم الرائق لتحل به فروامض التناقضات التى تراها بين يديها ، ومن خلفها ، فلا يواتيها من نظرية الوطنية والروابط الإجتماعية إلا بأخس مما كانت عليه أيام كان الرجل يسلب جاره عاملا على « مبدأ المنفعة » . نعم ، قامت الوطنية على المنفعة كما يقول ، ولكن غاب عنه أن المنافع قد ارتقت فى ذاتها ، وفى نظر الأمم ، فبعد أن كان الإنسان يرى أن المنفعة هى أن يعيش على هيئة قبيلة ، وأن يطارد جميع مجاوراته من القبائل كما هى حال الوحوش الهائجة ، ارتفعت المنفعة فى ذاته واتسعت نظرية الإجتماع فى نظره فإل لتسكون أمة فالتساق لتوحيد قبائله ففعل فسكانت الأمم ، وكان من لوازم اتساع نظرية

(١) ١٨ / ٥ / ١٩٠٨ جريدة الدستور . (النس مع بعض التصرف) .

(٢) ٢٦ أغسطس ١٩٠٨ .

الوطنية ارتقاء شخص « النعمة » وكانت المقدمات هي التي تبذل للتمهيد لمصر تلك الحياة الاجتماعية التي يتسم معها معنى الوطنية فلا يقصر على أبناء البلد الواحد ونشر مبادئ الإخوة الإنسانية وقد بدت مقدمات هذا العصر الأوربي الجديد، فانشئت لديهم محكمة التحكيم في لاهاي وحلت مشاكل كثيرة قامت بين الأمم وتكلموا في توحيد اللغة لتوحيد المواطن ولتصبح الأمم كالأسر المختلفة في مملكة عامة هي أوروبا بأسرها ! فأين لطفي السيد من هذا كله ، أنه لا يزال من الوطنية في أدنى أشكالها ، فهو يقول المصريين إبقوا وطنيتكم على النعمة المجردة . وتقتضى هذه النظرية الخشنة أن لا يضحى المصريون أى مصلحة لهم ولا يكابدون أى تنازل كان في مصلحة أمة أخرى .

مذكرات صحفى . سليم مركيس

لم أجد بين ما قرأت من كتابات الصحفيين ما هو أكثر أحاطة وجرأة من كتابات سليم مركيس المبنية بين ثنايا مجلدات مجلته^(١) التي ظلت تصدر من ١٩٠٦ - ١٩٢٦ كان متقدما عصره في مفاهيمه للصحافة ومنهج تحريرها ، بدأ حياته الأدبية في صف الحروف ثم انتقل إلى تصحيح المسودات ، إلى تنقيح الرسائل ، فكتابة المقالات في المواضيع المختلفة ، تنقل بين سوريا مسقط رأسه ، فأوروبا (باريس ولندن) ثم عاد إلى مصر ، أصدر جريدة الشير وحمل على السلطان عبد الحميد ، واختلف مع قادة تركيا العثمانية ، ولم ترض كتاباته الخديو عباس فقبض عليه وحوكم فسافر إلى أمريكا وعاد بعد خمس سنوات إلى مصر ١٩٠٥ وعزم على الابتعاد عن السياسة ، وكان على ولاء كامل مع اللورد كرومر والاستعمار البريطانى وانضم إلى تحرير المؤيد ١٩٠٦ وعرف بـقالاته التي كان يكتبها تحت عنوان « الشيء بالشئ » .

صديق كنت أحرر الشير

يقول : في سنة ١٨٩٦ كنت أقيم في القاهرة أصدر (الشير) زارنى من يقول : مالك ولأبى الهدى ، وذلك على أثر حملة على أبو الهدى الصيادى في صحف مصر (كان أبو الهدى أبرز مستشارى السلطان عبد الحميد وهو حابى الأصل) التحدث هو الشيخ كمال الصوفى مفوض الاستانة الموفد لمصالحة الجرائد واسترضائها : قال : أنت تظلمن عليه ، وهذا خطأ ، أليس الأفضل أن يكون هذا الرجل العربى صاحب السكامة العليا في الاستانة فيستطيع العرب أن يصلوا إليه ، خير من رجل تركى .

(١) مجلة مركيس .

وكان قد علم أنني سأنشر صورة كاريكاتورية لأبي الهدى في الشهر في حالة منسكرة
(صورة الأخطبوط) في العدد الذي يصدر قدا .

فقال : اسحب الصورة وأنا انتدك أربعين جنيتها ، فأرسلت خادى إلى المطبعة ، وبعد
قابل عاد بالخشبة وعليها الرسم فدفعتمها إلى الشيخ ، ففقدني أربعين جنيتها الإنجليزية ، وانصرف ،
وسدر المشير بدون صورة هزلية . وفي العدد التالي نشرت الصورة وكفبت الحسابة وكيف
إشترى الصورة الأولى منى ، بأربعين جنيتها وقتل بما أن هذا المال مرصود لرشوة الصحافة
فاذا لم أخذه تفاوله سوى فقد أخذته وأعدت نشر الصورة .

الهير : ٨ يوليو ١٨٩٩

أعترف بأنى ارتكبت في هذين اليومين جريمة اللصوصية ، ولعل ذنبى لا يكون
أعظم من ذنب حواء وآدم فأنهما سرقا تفاحة ، وأنا سرقت مقالة من منزل الدكتور
شميل لأنه كان بخيلا بها . فاذا وصل هذا العدد من المشير إلى صديقى الفاضل ، وذهب
إلى مكتبة ، وفنئ على مكان فيه فلم يجده ، وتحقق ما أقول ، فارجوه أن لا يعاقب البواب
أو الخادم . بلنى أن الدكتور شميل مصاب بجدار (رومانزم) فمرولت إلى منزله العامر أعوده نحو
الساعة السادسة مساء ، فقال الخادم أن الطبيب خرج في عربة للترهة ، فدخات إلى مكتبة
الدكتور وجلست بين الكتب والأوراق التى تحيط حضرتها في غربته ، وأردت أن أسلى
نفسى بالقراءة ريثما يعود ، ثم حانت منى التفاته إلى مكتبه وإذا هناك أوراق مبثرة مكفوبة
فدلتنى سايقة الصحافى التى عندى أنها أصول مقاله يكتبها الدكتور وحلتنى الوقاحة المذمومة
فى كل انسان إلا الصحافى على الاطلاع عليها ونظرت إلى ماحولى فلم أرمن يراقبنى فأخذت
تلك الأوراق وقرأتها ، وإذا هى مقاله بدأ بها وكتب منها ثلاثة أوراق لاغير ، وبدأ بالرابعة
والفالى بيان مفاوضة بين الروح الاسمى والدكتور ، أما أنا فأخذت أوراق المقالة ووضعتها

في جيبي ، وخرجت قائلاً للخادم ، أن الطيب تأخر ، وأنا لا أستطيع الانتظار ، وكان للمقالة التي اختلستها من مكتب الدكتور شميل رنة وحديث بين الناس ، فقد علمت جريدة الأخبار يوم الجمعة بأمر السرقة وتلاها مكاتب البصير هنا ، وفي الغد نشرت الأخبار رسالة مني ونشر المقلم رسالة أخرى اعترفت فيها أنني السارق ، وما ظهر المشير يوم السبت حتى طاف الباعة ينادون ، محرر المشير حرامى ، فهافت الناس على قراءة المشير ليقيموا على جلبه الخير .

٤ سنوات و ٤ شهور و ٢٠ يوماً في تحرير المؤيد

عملت في تحرير المؤيد (يونيو ١٩٠٦) بعد أن اختالف (مع صاحبه) محمد مسعود وحافظ عوض وكان محرران المؤيد منذ اثني عشر عاماً على صاحب الجريدة أترك الإدارة ، وقد أدخلت إلى الصحافة العربية بواسطة طريقى المستحدثة في تحرير المؤيد .

(١) المحادثات على طريقة (الانترفيو) فسكتب في كل حادث خطر ، انتقل إلى مكان الحادث وأحادث الأعيان وذوى الراى . (٢) أدخلت إلى المؤيد طريقة العناوانات الواضحة وهى طريقة جرت عليها سائر الجرائد بعد ذلك . (٣) أدخلت : كتابه المقالات القصيرة وتقطيع المقالات والاكتثار من أوائل الكلام ، بل إن كانت المقالات أطول من لسان النعام . (٤) أدخلت المقالات الأمريكية .

وقد تأكد صاحب المؤيد من أننى أهيش لأكتب ، ولا أكتب لأعيش ، فسكان إذا تنيب في أوروبا أو سوريا أو الآسـتانة بضمن ما يرده لجريدته من الثبات على مبادئها لوجودى محرراً بها .

X حدث مساء ٢٤ يوليو ١٩٠٨ أننى كنت جالسا وإذا بالشيخ يوسف الخازن يقول : ورد تلفراف الأمة بإعلان (الدستور العثمانى) ، توجهت إلى إدارة المؤيد ففتحت الأبواب وراجعت ما فى مكتبتهما من المهورات السياسية والدولية وقضيت الليل فى الكتابة حتى الصباح ،

وكان (المؤيد) أول جريدة أذاعت هذه البشري ، ونشرت القانون الأساسى وتاريخ الدستور الأول والماهدات ، ثم أصدرت المؤيد مرتين فى النهار .

X أردت أن أكون أول من ينشر شيئاً عن كتاب كرومر (مصر الحديثة) فأرسلت إلى إحدى المكتبات فى لندن ، قالت المكتبة أنه من المستحيل ذلك ، غير أنها أرسلت بعض نسخ من إعلان صدر بمناسبة صدور الكتاب بصفة نموذج ، هى ورزمة من الأوراق مؤلفة من ٨ صفحات بحجم كتاب اللورد وهى الملزمة الأولى فيها الصحيفة الأولى والفهرسة ونصف المقدمة .

الشيخ على يوسف : كتب كان يحرر جريدته

على يوسف حرر المؤيد ٢٠ سنة ووصل بجريدته إلى حالتها الحاضرة ، وهو لا يعرف حرفاً واحداً من لغة أجنبية ، ومع هذا فإن من يقرأ مقالاته لا يصدق أنه هو الذى كتبها لأنها لا تختلف فى شيء مما يكتبه لطفى السيد ويعقوب صروف وما قد برما فى اللغات .

حدث ذات يوم أننى خرجت من منزلى وعرجت على القهوة وهى كالأنجمل مرجع الناس فى مصر كل ساعة من ساعات النهار والليل ولقيت منها عزيز خانى . قال « مقالة على يوسف عن المجالس الثيائية من يقرأها يتصور أنه يقرأ فصلاً من روح الشرائع لـ مونتسكيو .

ولشيخ على يوسف مزية مدهشة عرفتها فى كل هذه السنوات ، هى أنه أقدر كاتب على الاقتباس وأن له ذاكرة ليس أقوى منها فى استيعاب ما يمرض لها . ويدهشى من (على يوسف) مقدرة النادرة على الكتابة فى أى موضوع خطير مهما كانت الظروف المحيطة به ، وأعرب من هذا أنه إذا حدث أميراً أو وزيراً أو صحفياً أراد بعد أسبوع كامل أن بدون ماسمه من محدثه فإنه يستطيع أن ينقل ماسمه صحيحاً ، وقد يظن قوم أن كل الذى يفهمه الرجل أنه يكتب مقالة افتتاحية لجريدته ، وهذا خطأ فاضح ، فهو دون سواء من الصحفيين الذين أهرقهم يقرأ كل سطر ينشر فى جريدته قبل نشره وقبل تسليمه

إلى مرتبي الحروف ، حتى أنه ليقرأ إعلان « فقد ختمى » ورسالة فاقوس ، ولا يقرأها فقط بل يمر بقلبه على أكثر السكايات أيضاً لكتابها وتسهيلاً لمرتبي الحروف

عرفت صاحب المؤيد يكتب أفضل مقالاته وأكثرها أهمية والقيامه قائمته حوله والأصوات كثيرة والجلبة عظيمة ، وعنده أكثر من زائر فلا ينقطع فكرة ولا يقف تيار فريجه ، ورده على اللورد كرومر يوم استقلال ، أعجب ، ثما فرغ اللورد من إلقاء خطابه في الساعة الحادية عشرة ونشرت ترجمة الخطاب ليلاً ، فلما أصبح الصباح كان رد الشيخ بين أيدي المال ، ومقالات (قصر الدوبارة) كان يكتبها قبل الظهر وتصدر في المؤيد الساعة الثانية في اليوم نفسه .

كيف يمررون الجرائد في مصر ومن هم الذين يمررونها ؟

أننى طويل (١) اللسان بشهادة الحكومة الألمانية الماضية التي سبق لها أن رفعت على قضية بحجة إطالة اللسان ، والحقيقة أننى إذا لم أكتب فإننى أنكلم وإذا لم أكتب ولم أنكلم نصف ساعة فإننى أنتحر .

انتقلت من تحرير المؤيد رحمة بقراءه وبفيلوسه ، أن الذين يعيشون من شق النصبة (بقصد القلم) لم يدركهم الفن كما أدرك أصحابنا البالي فهم لا يملكون أكثر الأحيان وخصوصاً في الشهر ٢٠ ريالاً ولذلك أرسلت إليهم التذكرة بحمانا لوجه الله — استغفر الله — بل أرسلتها بحمانا طمعاً بما يكتبونه فدا من الإطراء والثناء عملاً ، أنهم يمررون الجرائد بطريقة شرعية محضة أى بدون أى قياس ولا قاعدة ولا ضابط . فيسكتليون الألقاب جزافاً على نسبة الفائدة . وإذا كتبوا من رجل أنه الوجيه الأريحي المهام ، فأعلموا أن صاحبنا مشترك جديد ، وأن اعتدوا على حقوق الخديوى فزادوا على اسم ممدوحهم «سماعة البيك» وما هو كذلك فأعلموا أنه مشترك جديد وقد دفع قيمة الاشتراك نقداً . ومتى ذكروا اسمه أكثر من مرة

في أسبوع واحد، فتأكدوا أنه عمدة ، وقد وعد أن يكتب عدد المشركون ، ولوكلاء الجرائد في الداخلية سلطة مفيدة فهم يكتبون رسالة عن افتتاح «كتاب» قد يكون أضيق من هذه اللوحة وعدد الطلبة قد لا يزيد عن مجموع الدنانير في جيبي وجيوب جميع المالبين وعلاؤ الوكيل نصف حمود في وصف الرجل وأطرائه . فأعلم متى قرأت ذلك أن الوكيل قد أرسل دفعه من التحصيل وأعلم أنه أيضا أبقى لنفسه دفعة أخرى .

أما أخبار أوروبا وأمريكا والهند والصين وسوريا وكل بلاد ماعدأ مصر فلا أهمية لها عند جرائدنا، والذين لا يقرأون إلا جرائد مصر يعيشون ويعوتون بعد عمر طويل وهولا يعلمون شيئاً مما يجري في العالم إلا ما ينقله إلينا أحمد زكي بك (يقصد العلامة شيخ العروبة) من حين إلى آخر ، بل يحدث أحيانا لجرائد ما أن تحذف تلفراف روتر عن الانتخابات في إنجلترا لتضع محلة إعلان « فقد ختمى » . أترفع إحدى مقالات (بيان لا بد منه) لنشر رسالة من سرياقوس ، بل أن بعض جرائدنا إذا جاءها تلفراف هافاس متأخرا وكان المحرر كسولا، تصدر (الجريدة) وفيها العبارة الآتية: (لم يرد شيء منهم في تلفرافات هافاس اليوم) .

ومن عادات جرائدنا أن الصحافي يقرأ في جريدة رخيصة خراجديدا لم يحصل عليه في وقته فينقله إلى جريدته دون أن يشير إلى مصدره بعد أن يغير لفته ، فإذا كان الخبر صحيحا (صحيح) وإذا ظهر أنه مكذوب ، يقول أن المهددة على الرصيفة الغلانية لأننا نقلنا الخبر عنها . وألطف ما في جرائدنا تقريب السكتب فإنها تقرظها ناظرة إلى المؤلف لا إلى التأليف فلو أن فتحي باشا زغلول وضع اسمه غدا على طرايع النورك لأصبحت تيمس مصر .

لما كتبت أحرر المؤيد رفع إلى صاحب المؤيد كتابا في الإنشاء لأقرظه فقرأته واستأث كثيرا لما فيه من الضعف والسخافة فككتبت في مؤيد ذلك اليوم ما معناه « وضع حفرة فلان كتابا في الإنشاء جمع بين الركافة والضعف وكان الأول أن لا يصدره للناس بل أنه ارتسكب جريئة في إصداره ولو علم القنبي وابن القنم أنه يقعداهما بمثل هذه السخافة

لاضطربت عظامهما في قبريهما» . . فلما أصبحت دعاني صاحب المؤيد وبصرت عند رجلا لا أعرفه ، قال الشيخ : أن الأستاذ ناظم عليك لأني كنت قد كتبت كتابه أمس فخذ به إلى مكتبك وانظر في الأمر ، فبقيت المؤلف عاتبا ناظما ، فبينت له أنني إن كتبت رأيي في كتابه وبعد مناقشة . قال : أنت لا تريد أن تسمى إلى فأرجوك أن تقرظ كتابي . . وأنت بارع وفي وسعك أن تحال على تقرظه ، فسكتت : « صكنا قد أيدينا رأينا أمس في كتاب فلان ثم علمنا أنه لا يريد الانتقاد بل يريد التفاء المحض فراعاه لإرادته نقول أهدانا (فلان) كتابا في الإنشاء لم ينسج على مفواله في بلاغته ويليق أن تردان به المسكتب » . وأسرعت إلى غرفة صاحب المؤيد وعرضت عليه التقرظ فأدهشه جدا ، وقال أنت تهزأ به . فقلت : لقد قرأ الفناء واستحسنه كثيرا ، فضحك الشيخ وقال : انشردل فيه هظة له .

تعريف جرائدها

- « مصر » مسيحية مثل كل شيء . « المؤيد » مسلم قبل كل شيء .
« الوطن » قبلي قبل كل شيء . « الأهرام » فرنساوية قبل كل شيء .
« المقطم » إنجليزى قبل كل شيء . « الجريدة » أمية قبل كل شيء . (نسبة إلى الأمة) .
« اللواء » جلاى قبل كل شيء . « مصر الفتاة » ديولفر (ممدس) قبل كل شيء .

« العلم » كل شيء قبل كل شيء .

كتاب الصحافة وأعلامها

- (في المؤيد) حامد إبراهيم — إسماعيل شكوى — محب الدين الخطيب — عمر منصور — هيد المؤمن عبد الحكم — محمود الباجورى .
حافظ عوض : (وصل إلى المية عن طريق الصحافة) ثم لا يزال يتناولها عجانا .

محمد محمود (انتقل من المنبر إلى قلم المطبوعات) فريد وجدي : (المستور) .
مصطفى لطفى المنفلوطى : خليل مطران :

المصنف وعمره وما

«الأهرام» : داود بركات . أنطون الجليل . X «القطم» : الدكتور نمر . يعقوب صروف .
سأى قصيرى . X «الجريدة» : لطفى السيد . نجيب شاهين . يوسف اليوتانى . (ى . ب)
صالح شاكر . X «الهواء» : فرج أنطون . عثمان صبرى . X «العلم» : عبد العزيز شاونى .
أحمد حلى . أمين الرافى . X «مصر» : نادرى شهوده . توفيق حنين . عوض واصف .
X «الوطن» : صبرى إبراهيم ، أسكند شاهين . جرجى طفوس . X «الأخبار» : يوسف
الخازن . توفيق حبيب . X «مصر الفتاة» : الحازن . X «الأهالى» : عبد القادر حمزة سليمان فوزى

تريف بالكتاب

سأبدأ بنفسى : واد حشرى ، كاتب يحاول معرفة ما سيعطيه ، يقول أكثر ما يعلم ،
مكثر فكيف يجيد ، لا يرى من يمدحه فيمدح نفسه

«الشيخ على يوسف» يمرر المؤيد بكل معانى الكلمة ، ولا يفوته فيه حتى إعلان حبوب
ولكنه لا يستعملها . يقولون أن المية احتكرته ولكن بالفاتحة فقط ، وهو طويل
النفى ، والصبر ، شديد التمز والتمز إذا أخرج .

«عبد الدين الخطيب» نابتة قومه فى صحافة مصر اليومية بينا جميع مواطنيه يتاجرون
بالبن البنى والصابون ، إذ به يداعب الدولة الثمانية على صفحات المؤيد .

«داود بركات» معجزة الأنباء ومعجم المعلومات . يستطيع أن يمرر محضر الجمعية
العمومية ولولم يحضر جلساتها . «أنطون الجليل» . خفة روحه تشفع لسكوته .
«الدكتور نمر» : شرس فى مفاظرته مراعاة لإسمه ، مولع بالسجع ولولم يكن صوته

• طاربا . « الدكتور معروف » : اغتالفت من كل بستان ثمرة حتى لقد تفلخبطت معدته فأصيب بتخمة ، فاستعان بالمعلوف .

« لطافى السيد » : صديق الفلاح ولكنه يخاطبه بالبادهوجوجيا ، لو كنت إياه لا تأخذت القامرة حرفة وأقت على طول في مونت كارلو . فإن يحنه يفلق الصخر ، ألا ترى كيف سخر الله له مائة وجيه غنى سلوه الجريدة ومطبخها ، كان (أفوكانو) يحاى الأفراد فصار الحماى عن الأمة ، كان يخطب في المحكمة فصار يكتب في الألواف .

« نجيب شاهين » . لو اهتم بمواد الجريدة اهتمامه بإلبسه لكانت الجريد آية الآيات . ما عابة القصر فهو طويل النجاد .

« يوسف البستاني » : اختصر اسمه إلى (ي.ب.)

« فرج انطون » : هو دخيل فيه مع أنه صاحب الجامعة .

« عثمان صبرى » / « السواء » . « سالى قصيرى » / المقطم .

« الشيخ شايوش » : مولع بزيارة دوائر الحكومة حتى لقد زار مصلحة السجون ، ولكن في سبيل ما يراه حقا ، وترك اسمه الثانى في السجن ، هو وأحمد حلى من زملائى في العطف على المسجونين .

« أمين الرافعى » : إذا كان موفقا في الهامة توفيقه في كتابه المقالات بشره بكرس النضاء . هو نجدة قسوبة للمصحات . يحب فيكتور «يمو أكثر من حبه لهادنون .

« مصر » : تادرس شنوده . توفيق حنين . عوض واصف .

« الوطن » : صبرى إبراهيم : أمم ما يشمله وضع عنوانات المقالات بمقتد أن المكتوب

يعرف من عنوانه . اسكندر شاهين : الوطن

« جرجى طنوش » : هو مكاتب وادى النيل في الإسكندرية ومحرر في الوطن بمصر .

الأخبار : يوسف الخازن : لو أن الشيخ يوسف الخازن في أجراج طربوشه لباطت الأخبار .

توفيق حبيب : كثير الحركة والنشاط والمعلومات والأخبار .

مصر القفاة : كبير محرمها (جراحى) في مضاء الميضع وحدة الفولاذ .

الأهالى : عبد القادر حمزة : هو الآن في أهالى اليوم محل إسماعيل باشا أباطة في أهالى الأمس ، ولكنه محل الحسام فقط ، وليست له اليد التى تضرب به عذرة في ذلك السن .

سليمان فوزى : لما فرغت الجوائب من ترشيحه للتحرير ماتت كما تفعل دودة الفز .
انتقل من المؤيد إلى الأهالى .

محمد مسمود : انتقل من المنير إلى فلم المطبوعات فأصبح يقتل نفسه بيده .

محمد فريد وجدى : تنازل عن الدستور للدولة الثمانية بعد أن قالت له تركيا القفاة دستورك بابك .

المنفلوطى : كان يعمل في المؤيد أسبوعياً فأصبح يعمل في المعارف ، يومياً هو في المسلمين توفيق حنين في الأقباط .

خليل مطران : حاول في جوائبه (يقصد مجلة الجوائب) أن يدرك منزلة أحمد فارس الهدايق ولكن مصر غير الآستانة . وإسلام مطران أصعب من إسلام الشدياق مع محاولة شوق وسعد .

لسان الحال واللكوئى

يشهد الله ومجلدات سبع سنوات من جريدة لسان الحال البيروتية أنني أول ما نالته

أساءت المراقبة الصحافية وأننى نكتب أكثر من أى صحافى آخر بالشديد والاضغط على حرية قلى وفكرى . كانت سوريا أقدم مكان ظهرت فيه الجرائد السياسية ، كان الحرية مطلقة لجرائد بيروت لا مراقبة عليها ولا سيطرة حتى بلغ من الخبر والجنان (بطرس البستاني) ومن لسان الحال أنها كانت تكتب بحرية لا تقل عن الحرية التى تمتع بها الآن فى مصر ، وفى عام ١٨٨٥ كنت أحرر لسان الحال ، وبدأت المراقبة فى بيروت . وكانت مسودة الصحف ترسل صباحاً وتعاد بعد الظهر فإذا رأى (مساعد الرقيب) أى عبارة يعرف أنها لا ترضى المکتوبى (الرقيب) حذفها بمجرأ سود ، ثم تعرض له أحياناً بعض عبارات لا يدرى ماذا يفعل بها فيضع عليها علامة مستطيلة بمجرأ حر ، ثم تقدم إلى المکتوبى الذى لا يعرف اللقمة العربية ، فيضرب على كل عبارة عليها إشارة حمراء ، ثم يؤثر بكلمة (كور لشدو) هذه كلمة الأجازه ، وتعاد إلى محرر الجريدة الذى يحل الحروف ويحذف ما حذفه المکتوبى ويضع مكانه مقالات أخرى ، وترسل المسودة ثانية إلى المکتوبى ، فيجربى ما جرى أولاً وهكذا إلى أن تطبع الجريدة ، فلما عجزت عن احتفال هذه القيود تركت بيروت ١٨٩٤ إلى باريس ومنها إلى الإسكندرية فأنشأت للشير ، ولم يكن فى مصر جريدة خاصة بالمباحث الحرة المثانية ، ومبالغة فى الحرص على سلامتى استعفت بصديق أنجليزى اسمه المستر فول فوضعت اسمه فى ذيل المشير بصفة مدير ، ولما وصلت أعداد المشير إلى (بيروت) صدر الأمر بإحراقها .

× إن حياة^(١) سليم مركيس من فضل الوكالة البريطانية ، ساعده اللورد كرومر على حفظ حياته ، فقد طلبته ولاية بيروت من حكومة مصر لها كته ١٨٩٥ وتسليمه ، وعرض الأمر على الوكالة البريطانية

× قال كرومر : أنك تظمن في حكومتك طمعاً جارحاً فأنى قرأت بعض مقالاتك ،
ثم قال : إذا طلبوك فأنت لا تترك مصر أن شاء الله .
وقال لى كرومر : أنت (بروتستانتي) ، ألا تذكر قول الكتاب والأنبياء : لا تقل سوءاً
في رئيس شعبك .

وكنيت كثير الطمن ، والشتائم تترى كل يوم ، وقالوا عني : سر كيس ابن ابليس
وفي ١٨٩٥ نقلت المشير إلى القاهرة ، ونشرت كتاب (سر لمسكة) الذي فصلت فيه كيف
قتل مدحت .

× منذ نشأت الجرائد العربية في الشرق لم يجتمع المال والعقل لصاحب جريدة
واحدة . نحن في حاجة إلى حالة وسط بين مجلة الضياء مثلاً ومجاعة ميثقي ، كانت المجارة تبيع
١٢ ألف نسخة من كل عدد ، وكان (الضياء) يمانى المشاق في الحصول على ٥٠٠ مشترك .

× أن الصحفي هو خادم «العرش التمريفة» لأنه يعتمد في حياة جريدته على إقبال القراء
خصوصاً غير المشتركين الذين يشترون جريدته كل يوم ، بقرش تمريفة ، فهو مضطرب أن
يرضى ألف شخص ، فانظروا إلى مركز الصحافي المخرج ، متى استاء واحد من جريدته
امتنع عن شرائها .

× جرائدنا العربية في وصفها وترتيبها وتبويبها وتحريرها وإعلاناتها لم تتقدم منذ
نشأتها حظوة واحدة ، بل لا تزال على حالها كما كانت في عهد آبائنا وأجدادنا ، وأريد
بالآباء والأجداد : الجفة ، الجنان في سوريا والجوالب في الآسيانة لأحمد فارس المهروسة
والمصر الجديد (أديب إسحق والنقاش) في مصر ، وتأخذ الجريدة العربية اليوم فتجدها
مثل الجنان والجفة منذ ٤٠ سنة ؛ الصحيفة الأولى للمقالة الافتتاحية ، وأخبار البريد ، والثانية
لأخبار الجهات والثالثة للأخبار المحلية والتلفرافات والرابعة للاعلان .
(م - ٥ تطور الصحافة العربية)

× كان البستاني ينقل لجرائده من الصحف الانكليزية فقرا اسم الجرائل مولتسكي هكذا ولا تزال حرائدنا حتى الآن تقول (موليك) وكان البستاني يترجم كلمات الاستحسان في خطب البرلمان ترجمة حرفية بقوله (استموا استموا) ولا تزال تترجمها كذلك حتى الآن .

المقالة الافتتاحية في الصفحة الأولى ، الصحف ٤ صفحات وبعضها ٨ صفحات ، لماذا لا نجعل مقالاتنا الافتتاحية في الصفحة الرابعة ، ومختصرة ومفيدة ، فيكون في العدد الواحد في مكان معين معروف ثلاث مقالات افتتاحية ، في ثلاث موضوعات خطيرة .

× نقش المؤيد تحت اسمه بحروف كبرى أنه جريدة يومية سياسية وتجارية ، وزاد عليها اللواء أدبية ، وزاد المنير علمية والمقطم كاللواء تماما وكذلك الوطن والدستور .

× اشترك المؤيد ١٧٠ اللواء ١٨٠ المقطم ١٧٠ كالمؤيد ، والجريدة ١٦٠ (قرشا) مع أن الجرائد جميعا تصدر في حجم واحد تقريبا .

× المؤيد تقول أن جميع المكاتبات ترد باسم صاحب الجريدة ومدير سياستها (على يوسف) وليس في المؤيد اسم آخر ، أما في اللواء فتجد أن مؤسسها مصطفى كامل باشا وأنها لسان حال الحزب الوطني وأن جميع الرسائل ترسل باسم رئيس تحريرها ومدير سياستها المسئول الشيخ عبد العزيز جادويش ، أما الأهرام فقد اكتفت بأن المكاتبات ترسل باسم إدارة الأهرام ؛ أما المقطم فقد اكتفى بأن تكون الرسائل باسم (أصحاب المقلم) واكتفى الوطن باسم صاحبه بحروف عادية كما فعل المؤيد والجريدة ومصر ، بينما كتبت أصحاب المقلم بحروف فارسية .

× يميل رؤساء اللواء إلى النفرة من إشراك المحررين معهم في الشهرة بل يريدون حفظها لأنفسهم . وصاحب الدستور يضع توقيمه في عدد واحد على أكثر من مقال ، أما صحف اللواء والجريدة والدستور ، فإن رؤساء تحريرها يوقعون دون سائر أصحاب الصحف .

نهاية المؤيد

يصور سليم سر كيس في مذكراته ماذا آلت إليه جريدة المؤيد في أواخر أيام منشئها
وبعد وفاته ؟ يقول :

ان سوء الادارة يرجع إلى أن الشيخ على يوسف جعل نفسه مديرها ومحررها فتم له
ما أراد من جهة التحرير وفسد أمره من جهة الإدارة ، ولما شعر بالتأخر سلم إدارتها إلى
أسكندر طراد المحامي ثم عبد الخالق مدكور ، ثم عهدوا برئاسة تحرير المؤيد إلى حامد إبراهيم
كل مدة حرب البلقان وحرب طرابلس والحرب الأوروبية الحاضرة .

فاذا جاء روتر بتلفراف « أن السير إدوارد جراي ألقى خطبة في (البرلمان) من الحالة
السياسية صدرت الأهرام وفي صدرها تعليق على ذلك بقلم داود افندي بركات رئيس تحرير
الأهرام ، وهو رجل قضى نحو الثلاثين عاما في مطالعة الصحف الأوروبية والوقوف على آراء
رجال السياسة ثم هو يطالع في الأسبوع ٢٠ جريدة ومجلة أوروبية ويستوعب ما فيها .

ويصدر المقطع وفي صدره تعليق على ذلك التلفراف بقلم الدكتور فارس نمر الدكتور
في الفلسفة والمارف باللغات السكتيرة والذي قضى نحو ٤٠ سنة في المطالعة والكتابة ثم يصدر
المؤيد وفيه تعليق على ذلك التلفراف بقلم الشيخ حامد إبراهيم وهو لم يقرأ أصل التلفراف
بل ترجمه ولا يعرف لغة أجنبية ولاقرأ جريدة أو مجلة سياسة وإنما اكتسب بعض معلومات عن
السياسة من مقالات الأهرام والمقطم .

سليم مكاريوس قضى شطراً من عمره في أوروبا لدراسة الصحافة وعاد إلى مصر ملاً
القاهرة من أولها إلى أن سفر حاراتها ببيعة المقطم حتى لقد نسمع نداء عليه مع نداء باعة اللبن .
وظل مشرفاً بنفسه على البيع .

X محمد رشاد القاضي وحفي ناصف : أنى أكثر الناس احتراماً وتقديراً لشاد بك وحفي بك ، الأول قاض نزيه وحفي منصف فيور والثانى علامة لنوى مفضل وشاعر رقيق ولكن تحرير المؤيد ليس قضاء ولا رحلة ولا رسالة لنوية ولا قصيدة عزاء ؛ تحرير الجرائد يستلزم معركة اللغات والهمة والثفاء .

X مدير إدارة المؤيد يجب أن يكون مسيطراً على التحرير متى كان قادراً خيراً يكون مسئولاً عن رواج الجريدة ويعلم أن قلم التحرير إذا أهمل أو أساء أو بالمصلحة المالية .

X لو كفت مديراً لإدارة جريدة لا أسمح لقلم تحريرها أن يجعل مقالاتها الأولى فى الصيام وواجباته أو أسقف اليوم . . فى نفس اليوم الذى تكون تلتراقات روتر قد هلت أبناء سقوط موناختير والاستيلاء على حصن كذا . « هذه خطرات صحفى حشرى » .

إطار لصورة العصر والمجتمع

من خلال الصحافة العربية في مصر

من الاحتلال إلى أوائل الحرب العالمية الأولى (١٨٨٢ - ١٩١٤)

الأزهر

كان الأزهر قد أبرز في خلال هذه المرحلة مجموعة من الأعلام ، بدأ ذلك بظهور : حسن العطار وتلامذته ، وفي مقدمتهم رفاعة رافع الطهطاوى ، ومحمد عياد الطنطاوى ، قصد أولها إلى باريس وكان له دوره الضخم في الترجمة والتأليف ، وقصد ثانيهما إلى روسيا وخدم اللغة العربية ، وأبرز الأزهر حسن الطويل أستاذ محمد عبده .

ثم كانت مرحلة اليقظة التي شارك فيها جمال الدين من خارج الأزهر ، ومحمد عبده الأزهرى الذى ظل يمدأ هن مفاسد الأزهر ، مؤثرا فيه ، قاشيا ومفتيا ، وكان عرابى قائد الثورة على الاستعمار البريطانى من الأزهر . وقد نقى محمد عبده بعد الثورة فأصدر مع أستاذه الأنفانى « العروة الوثقى » في باريس ثم عاد إلى مصر عام ١٨٨٦ فقاء الدهوة إلى تجديد الأزهر وكان هناك حزب مجامع المفتى ويمارض دعوته وعلى رأسه يوسف الدجوى ومحمد نجيت .

ومن الأزهر خرج أعلام برزوا في ميادين السياسة والصحافة: إبراهيم الحلباوى وسعد زغلول وعلى يوسف وعبد العزيز جاويش وعبد الله نديم والمفلوطى وعبد الله فكرى وحمة فتح الله وحفى ناصف ، وكان الشيخ عبده قد شارك في قانون تعديل أنظمة الأزهر عام ١٨٩٦ واشترك معه حسونه الفواوى ، وسليم البشرى ، وعبد الكريم سلمان وسليمان المبدوه والقانون الذى قدم في الأهمية مواد الأخلاق والحساب والجبر والتاريخ الإسلامى والمقدسة وتقويم البلدان

وكانت ثورة الأزهر ١٩١١ بـمد وفاة الشيخ عبده (١٩٠٥) من أبرز الثورات على تعديل أنظمة الأزهر . وكان أبرز مظاهرها الحمية المتجددة في الأزهر : « الزوايا المباشى » حيث كان الشيخ محمد عبده يلقى دروس التفسير وهى دروس جددت

مفهوم القرآن مرتبطاً بالحياة ، كان الشيخ يلقيها بعد المذب ، ويقوم عليها بعض الحراس فلا يسمح بحضورها لأحد إلا بإذن منه ، وقد إختار لها صفوة من الشباب المتفتح ، حتى أن (رشيد رضا) الذى كان قد اقترحها على الشيخ الفنى ، عند ما حاول تقديم (عبد العزيز جاويز) ليحضر هذه الدروس ، طلب منه الشيخ محمد عبده أن يسأل (جاويز) عن الفترة التى قضاها فى الأزهر ، وهل كانت طويلة أو قصيرة ، فلما علم أنه أمضى فى الأزهر عامين أو ثلاث ، قبله فى الحلقة ، وفى الرواق العباسى فى الصباح كان يلقى الشيخ سيد المرصى تفسير الحاشية ، أو تفسير المفصل للزخشرى .

* * *

(٢) وقد رسم إبراهيم الأويلهى صاحب جريدة مصباح الشرق^(١) صوره مجلس من مجلس العلم فى الأزهر الشريف قال : قال صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى حديث له مع العلامة المحقق أمام اللغة والأدب الشيخ محمد محمود الشنقيطى أن يحى ابن الامام مالك رضى الله عنه جاء إلى مصر ومات فيها ، فقال الشيخ الشنقيطى بل الذى جاء إلى مصر أخوة محمد فقال شيخ الجامع ويجوز أن يحى جاء أيضا ومات فيها ، فاجابه الشيخ الشنقيطى أن باب الجواز واسع جدا يدخل منه مالك نفسه وغيره فى الحجى إلى مصر ولسكن لا نقبل إلا ما أثبتته الثقة ، وأن كثيرا من الأخبار ينقل غير صحيح ، وقص عليه قصة أبى حنيفة وقتادة التى ذكرها الزخشرى فى الكشف وسها عن الغلط الذى فيها . وهى أن قتادة دخل السكوفة فالتف عليه الناس فقال سلوا عما شئتم ، وكان أبو حنيفة رضى الله عنه حاضرا وهو غلام حدث ، فقال سلوه عن عملة سليمان ، أذكرا كانت أم أنثى ، فسأله فأخبر ، فقال أبو حنيفة كانت أنثى ، فقيل له من أين عرفت فقال : من كتاب الله وهو قوله قالت عملة ، فلو كانت ذكرا لقال : قال عملة ، ذلك أن العملة مثل الحمامة والشاة . وأبو حنيفة رضى الله عنه أجل قدرا وأوسع علما من أن يفوته أن التاء فى قالت لا تدل على

(١) مصباح العربى - ١٢ مايو ١٨٦٨ .

تأنيث علة. لأن الفاء في علة للوحدة لا للتأنيث ، والقصة مكذوبة على الإمام الأعظم بدليل أن الاستدلال الذي يليق بالإمام بأنها أنثى موجود في قوله تعالى (فتبسم ضاحكا من قولها) فجأله بعض جلاس الشيخ جدالا قطعة انصاف العالم الموفق الشيخ محمد بن حنيت باستصواب ما قاله الشيخ الشافعي ، ثم سأل بعضهم عن حوت بونس أذكر هو أم أنثى ، فاستدل الشيخ الشافعي على أنه ذكر بالضمير في قوله (للبت في بطنه إلى يوم يبعثون) ثم قص الشيخ الشافعي قصة أخرى مكذوبة على الإمام الأعظم رضي الله عنه وهي ما نقله الإمام الحافظ في كتابه عقود الجمان في مناقب أبي حنيفة الفهماني الخ .

* * *

(٣) وفي مؤتمر القنات الشرقية الذي عقد في هيمبرج (ألمانيا) سبتمبر ١٩٠٢ أنقى معطفي بيرم « رسالة عن الدراسة في الأزهر قال فيها :

أن الدين الاسلامي الحنيف لا يمنع من تعلم أى علم من العلوم المعروفة الآن بين الأزهريين بالعلوم الحديثة . كالرياضيات والطبيبات والمقليات ، ومن كان في شك مما نقول فاعليه إلا أن يلقى نظرة على تاريخ القرون الأولى من الاسلام ومحافظتها على الدين مشهورة ، فيرى أن جيدها كان مزدانا بسكثير من غول العلماء الذين نبغوا في هذه العلوم وألفوا فيها المؤلفات العظيمة . كانت العلوم الفقهية من رياضية وغيرها تدرس في الأزهر ولكن المشتغلين بها نذر من الطلبة ، وأخذ القول بحجرة بعض العلوم العقلية يتسرب شيئا فشيئا إلى الأزهر كما تسرب إلى غيره من الجوامع الاسلامية حتى تركت هذه العلوم في الأزهر شيئا فشيئا .

ولكن بفضل الله وكرمه لم يطل الأمر كثيرا حتى قبض الله لنا من علمائنا الأعلام من تنبه لأسباب تأخرنا العلمي وأخذوا في السعى لإعادة تدريس تلك العلوم النافعة القوية للمملكة الدهنية ؛ ولحشية المفاجأة بإعادة تدريسها للجامع بمدارس في أذهان السكثيرين أن ما بها يبدو على الدين ، رأى ولاية الأمور أن يهدوا السبيل لإدخالها في الجامع الأزهر يأخذ رأى أفاضل العلماء الأزهريين ، فسكفوا والذي المرحوم السيد محمد بيرم (من مدرسي جامع

الزيتونة ومدير الأوقاف التونسية وقاضى محكمة مصر) بهانه المهمة العلمية، وبعد أخذ وعطاء بينه وبين الشيخ محمد الانبائى شيخ الاسلام بمصر، والعلامة محمد البنا مفتى الديار المصرية فى ذلك العهد، استقر رأى أن يكتب لهم استفتاء هذه صورته بعد الديباجة :

* * *

« ما قولكم رضى الله عنكم : هل يجوز تعلم المسلمين العلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعيات وتركيب الأجزاء العبر عنها بالسكيا، وغيرها من سائر المعارف لاسيما ما يبنى عليه زيادة القوة فى الأمة بما تجارى به الأمم الماصرة لها فى كل ما يشمله الأمر بالاستعداد ، بل هل تجب بعض تلك العلوم على طائفة من الأمة بمعنى أن يكون واجبا وجوبا على نحو التفصيل الذى ذكره فيها الامام حجة الاسلام الغزالى فى أحياء العلوم ونقله علماء الحنفية ايضا وأقروا، وإذا كان الحكم فيها كذلك فهل تجوز قراءتها مثل ما تجوز قراءة العلوم الآتية من نحو وغيره الراجعة الآن بالجامع لأزهر وجامع الزيتونة والقروين وغيرها؛ أفيدوا الجواب ولا زلتم مقصدا لأولى الأبواب .

* * *

فأجابه الشيخ محمد الانبائى بالفتوى التالية بعد الديباجة :

يجوز تعلم العلوم الرياضية ، مثل الحساب والهندسة والجغرافية لأنه لا تعرض فيها لشيء من الأمور الدينية . بل يجب منها ما تتوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وجوبا كفاثيا ، كما يجب علم الطب لذلك ، كما أشار الغزالى فى مواضع من الأحياء ، وإن مازاد على الواجب من تلك العلوم مما يحصل وزيادة التمكن فى التقدير الواحد فتعلمه فضيلة ، ولا يدخل فى علم الهيئة الباحث عن أشكال الأفلاك والكواكب وسيرها علم التنجيم المسمى بعلم أحكام الفجوم وهو الباحث عن الاستدلال بالمشكلات الفلسفية على الحوادث المستقبلية فانه حرام كما قال الغزالى وعلى ذلك بما حصله أنه يمتنع من ممارسته نسبة التأثير لكواكب والتعرض للأخبار بالمنبيات مع كون الناظر قد يخطئ خلفاء بعض الشروط ، أو الأسباب عليه لدقتها . أما الطبيعيات وهى الباحثة عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية إستحالتها وتغييرها كما

في الأحياء (باب العلم) فإن كان ذلك البحث عن طريق أهل الشرع فلا منع منها ، كما أفاده العلامة شهاب الدين بن حجر ، بل لها حينئذ أهمية بحسب أهمية ثمرتها كالوقوف على خواص المادن والنباتات للتمكن من علم الطب والمعرفة عمل الآلات النافعة في مصالح البناء ، وإن كان على طريقة الفلاسفة فلا شغل بها حرام لأنه يؤدي للوقوف على العقائد الخالصة للشرع .
(وعرض لمل تركيب الأجزاء المبر عنه بالسكيا فأنجزها) وقال : فعلم أن العلوم الرياضية لا بأس من قراءتها كما تقرأ علوم الآلات .

وكذا الطبيعيات وعلم تركيب الأجزاء حيث كانت تقرأ على طريقة لا يفهم منها مناقضة الشرع بحال كقيمة العلوم العقلية مثل المنطق والسكلام والجدل ، بل يجب كتمها من هذه الثلاثة ما يحتاج في الحجاج عن العقائد الدينية والله سبحانه وتعالى أعلم .

* * *

وكتب العلامة الشيخ محمد محمد البنا مفتي الديار المصرية في ذلك العهد بالفتوى الرسمية الآتية رقم ١٧١ :

« إفادة حضرة الأستاذ شيخ الإسلام موافق لمذهبنا ولما استظهره من أن الخلاف الجاري في علم المنطق يجري في علم الطبيعة أيضاً ، ولم يتقرر رسمياً إدخال هذه العلوم إلا في ٢٠ محرم ١٣١٤ فأصبحت العلوم التي تدرس في الجامع الأزهر الآن شاملة للعلوم الدينية والآنها ولبعض العلوم الدنيوية وغيرها من العلوم النافعة التي كانت غير متداولة في الأزهر كفارخ الإسلام وصناعة الإنشاء قولاً وكتابة واللغة فناً وأدباً ومبادئ الهندسة وتقويم البلدان .

ولتنشيط الطلبة على الاجتهاد في هاته العلوم الدخلة حديثاً أوجد أولو الحل والمعقد وتخص بهم العلامة الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية حالياً مبلغاً ماليا قدره ستائة جنيه سدواً يعطى مكافأة لتابعين في هاته العلوم .

(٤) حاول الخديو عباس حلمى الثانى فى مذكراته تصوير موقف الأزهر من وجهة نظره الخاصة قال : كان المشايخ من جانبهم يقومون لى بدور همزة الوصل بينى وبين الجنود ، ولملهم لم يكونوا كالأخرين فى تنزههم عن الفرض ، فان الإيمان لا يكفى دائماً لإطعام رجال الدين ومهما يكن إعجابهم بمسرات الفردوس فانهم لا يكرهون أن يقدموا العارق التى تقود إليها على خير ما يسمهم من رفاهة ورغد . إني ما حصلت من الأزهر على شئء دون أن أكون قد اشتريت مساهمة العلماء من أعضاء هيئة كبار العلماء المستولة عن إدارته بمنحه مالية .

(٥) وقال حاول تجديد الهواء فى ذلك البيت القديم : « الأزهر الذى لم يشأ أن يتطور مع الزمن فى الوقت المناسب والذى سيجد نفسه مضطراً ذات يوم إلى قبول نظم جديدة ثابتة من خارج هيئة كبار العلماء يوم تولد الثورة داخل هذه المؤسسة التى جحدت التطور » . ولا ريب أن ما ذكره عباس حلمى كان حملة حافد ، فقد كان الأزهر دائماً مصدر انثورات الوطنية والمقاومة للظلم والاستبداد ، وكان ملاذ الحرية والمقاومة ، ولقد كان عباس حلمى من كبار الداورين الناورين وكانت موافقة مع الشيخ محمد عبده تدل كلها على رغبته فى تأكيد سلطانه وتقوذه .

* * *

أشارت الصحف إلى (جرایة الأزهر) .

فى ١٩٠٩ أشار أحمد فتحي زغلول وكيل وزارة الحفائية فى تقريره إليها فقال : أنه يرد على الأزهر يومياً ٢٤٤٩٦ رغيفاً منها ٤٠٣٣ رغيفاً من ديوان الأوقاف ، ٥٢٨٩ من وقف عباس باشا الأول ، و ١٥٠٠ من وقف أحمد راقب و ٤٥٣٦ من وقف أوتوزير ، و ٢٤٩٠ من وقف زينب هانم كريمة محمد على باشا و ٥٢٨ من وقف راتب باشا و ٤٦٤ من وقف سلطان باشا و ٤١٤ من وقف الحاج عبده ، و ٥٥٥ من وقف جميلة هانم إسمايل ، و ٦٠٠ من وقف عمر لطفى باشا و ٣٤٥ من وقف الحاجة رشيدة ، وقدرت اللجنة ثمن

الأرغفة بمبلغ ١٥٦٠ جنيه في السنة يدفع منها ديوان الأوقاف ٢٦٠٠ جنبها .
وقد أشار مصطفى يرم في رسالته عن الجامع الأزهر التي قدمها إلى مؤتمر المشرقين بمدينة هامبورج ١٩٠٢ إلى ذلك فقال فقال : المستحقون من الطلبة للجراية محصور عددهم فلا يأخذ الطلبة كلهم جرايات بل الجراية لا تصرف إلا للمدد المدين في وقفية الواقف وما زاد على ذلك المدد يبقى منتظراً حتى يخلو محل « وعندئذ تعطى له الجراية » ، وأقل مرتب يأخذه الطالب نصف رغيف من الخبز وأكثره ستة أرغفة في اليوم أما العلماء فلا ينقص نصيب أحدهم عن عشرة أرغفة في اليوم .

X وأشارت الصحف إلى أن جراية الأزهر عام ١٩٢٨ (٥٢ ألف رغيف في اليوم) بلغ عنها ٢٢ ألف جنيه في السنة ، وأن أول عمل للشيخ محمد مصطفى المراغي بعد تولي منصب شيخ الأزهر أن تنازل عن الجراية المقررة له وأمر بتوزيعها على فريق من الطلبة ، وبدأ مهده بأبطالها . وقال الصحف : أن خبز الأزهر من أردأ ما يجيز في القاهرة وكثير من المحاورين يبيحونه بأنفسهم أو بواسطة النقباء بشمن بخس .

* * *

(٦) أشارت الصحف عام ١٩١٠ إلى علامة من رجال الأزهر استطاع أن يحوز درجة عالية في الطب هو « الشيخ حامد والي » أستاذ العلوم العربية بمدرسة اللغات الشرقية في برلين ، وقد أمضى امتحان الدكتوراه في علوم الطب بدرجة فائقة ، ونشرت الصحف الألمانية عنه فصولاً مطولة حيث لم يسبقه طالب في كلية الطب بماصمة ألمانيا .

وقالت جريدة العلم : أنه من متخرجي الأزهر ومدرسة دار العلوم : أحرز الدكتوراه في العلوم الطبية ، وهذه أول مرة أعطت جامعة برلين أعلى درجة شرف تمنحها السكليات لأزهري في العلوم الطبيعية وفن الطب منذ المصور المتوسطة .

أما الرسالة التي تقدم بها فتشمل على دراسة من كتاب تاريخ الأطباء لابن أبي أصيبعة

الطبيب الغربى المشهور ، وتاريخ أربعمائة طبيب عاشوا في عصور مختلفة وظهروا في أمم متعددة مع بيان مؤلفات كل منهم وبيانات ذات شأن من تاريخ الطب اليونانى .

وقد ولد حامد والى في ٢٢ ديسمبر ١٨٧١ في بلدة بيت أبو على (شرقية) ووالده الشيخ حسن والى كان مدرسا بالأزهر والمدرسة الخديوية ، وقد تعلم الدكتور الأزهرى في الأزهر ١٨٨٤ وفى عام ١٨٨٨ دخل دار العلوم ثم عمل مدرسا في المدارس الأميرية وفى ١٨٩١ أرسلته الحكومة المصرية مدرسا للغة العربية في مدرسة اللغات الشرقية ببرلين (٧) أولت الصحف إهتماما بالشيخ محمد نجيب (توفى في ١٩ أكتوبر ١٩٣٥) .

فقال عنه الأهرام : أنه كان من أشد الممارضين لحركة الإصلاح التى قام بها الشيخ محمد عبده ، وقد دفعه إلى تلك المعارضة شهوة المنافسة ونحريص أولى السلطان ، وكان في نفسه طموح إلى مساماة الإمام في منصبه وتفوزه وشهرته ، وهو من أعلم أهل جيله بدقائق الفقه الحنفى وأبسطهم لسانا في وجوه الخلاف بين الشافعى وأصحاب أبى حنيفة .

ولد ١٨٥٦ — واشتغل بالتدريس في الأزهر والقضاء وفى ١٩١٤ عين مفتيا للديار المصرية وأحيل إلى المعاش ١٩٢١ .

* * *

(٨) نعت المنار (م ٣٠ — ١٩١٧) أحد أعلام الأزهر وصديقا من أصدقاء الشيخ محمد عبده « عبد الكريم سلمان » فأشارت إلى صلة الصداقة بينه وبين الفتى ، وأنهما كانا يسكنان في حجرة واحدة ، وقال رشيد أنه كان أذكى من محمد عبده ، وقد هملا معا في الوقائع المصرية ، ثم خلف عبده بعد اعتزاله العمل ، وأنه ساعده في إصلاح الأزهر وألف كتابا في ذلك . وله مقالات مفهومة في الصحف كالوقائع ومجلة الآداب والمؤيد والمقطم . ينقل فيها ما هو موقع منه أو معزو إليه

(٩) وفيما يتصل بصلة الشيخ محمد عبده بالجريدة الرسمية «الوقائع المصرية» قالت الصحف^(١) .

(١) الانفاذ (٣٠ يوليو ١٩٤٥) .

أنه عين محرراً ثالثاً في الجريدة الرسمية وأن رياض باشا رئيس الوزراء إذاً ذلك هو الذي اختاره ، وكافه بتقديم تقرير صاف لترقية تحرير الوقائع المصرية ، عين بمددا رئيساً لقلم تحرير الجريدة الرسمية وسمى المحرر الأول ، وعمل معه : سمد زغلول وعبدالكريم سلمان وسمد وفا وإبراهيم الحلبي و كانوا جميعاً من تلاميذ جمال الدين الأفغاني وقد بدأت الجريدة في إنتقاد « ما تراه منتقداً في الأعمال والمكتوبات الرسمية » وأعطى لرئيس التحرير الحق في أن تخصص قسماً من الجريدة غير رسمي ينشر فيه لنفسه وزملائه ما يرى في نشره وأذاعته وسيلة إلى الإصلاح المنشود .

وقد كتب محمد عبده في شؤون الإصلاح كثيراً ، ومن ذلك كتابته في دعوة الفلاحين إلى عدم النفور من الأعمال التي يكفون بها ، وكتب عن الثقافة والتعليم مقالات طويلة .

المراة

أولت الصحافة في هذه الفترة اهتماما كبيرا للمرأة العربية: تلميمها وتحريرها وسفورها، وكان رفاعة رافع العلم طاوى هو أول من دعا إلى تلميم للمرأة^(١) في العقد الثالث من القرن التاسع عشر في كتابه الرشداأمين للبنات والبنين ، وقد حرصت الصحف والمجلات على تناول هذا الموضوع من بعد حتى صدر كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين عام ١٨٩٩ فأنار عجة كبرى ، بل ان الجبرتي قد أولى اهتمامه بالمرأة ، فقد أشار توفيق حبيب في هامش الأهرام إلى ذلك حين قال : إن الجبرتي أورد في كتابه تراجم كثيرة من سير النساء المروقات من حريم بعض الولاة والأمراء والسفاجق والعلماء وصور «السيدة المصونة والجهرة المكنونة» ، وأنها كانت من خيرة أهل زمانها ، ولم تخرج إلا من بيت أبيها إلى بيت زوجها ، ثم من بيت زوجها في نكحها إلى قبرها .

* * *

ويمكن القول بأن عالما بارزا من علماء الأزهر قد سبق أيضا قاسم أمين في الدعوة إلى « حقوق النساء » في رسالته التي تقدم بها إلى مؤتمر المستشرقين في استوكهولم عام ١٨٨٩ ، ذلك هو الشيخ حمزة فتح الله بمقوان « باكورة السلام على حقوق النساء في الإسلام » والشيخ حمزة إذ ذاك هو المفتش الأول لعلوم بنظارة المعارف والمدرس بمدرسة العلوم الخديوية قال : أشار على من إشارته أمر أن أكتب شيئا في شأن النساء في الإسلام مما يختص بالمنايا بهن وما توجهه الشريعة المظهره من حقوقهن ، وفقا لما يتوهمه بعض

(١) راجع كتابنا (الفسك العربي للعاصر) و (الدورق في بحر اليقظة) .

الأجانب من أن النساء في شريعة الإسلام كالبهائم أو النعم السوائم ليس لمن رعاية ولا بهن حفاية وكانت تلك الإشارة قبيل الرحيل بزمان قليل فكثبت ما يسره الله تعالى .

وقد أورد في رسالته بعض من نفع منهن في العلوم ، وأحرزن قصب السبق والمنطوق والمفهوم وأخذ عنها جهازة الرجال من الملاء الأعلام ، وقال « إن طلب العلم مشترك الوجوب بين الرجال والنساء ، وبناء على هذا الأصل الديني ، فقد طالما برع منهن كراتم آدبين في العلوم على ذوي البهائم ، وتوارخ الأمة عابقة بسيرهن ذكرًا ، زاهية بأخبارهن زهرًا ، بل قد خصهن بعض أئمتنا بالتأليف وبعضهم خصص به الحدوث منهن ، وبعض كذلك لكن بوجه مخصوص ألزمه كصاحب مسند النساء وهو مجلد ضخم ألزم فيه مؤلفه ذكر الأحاديث التي روتها امرأة عن امرأة ، من غير أن يكون في سندها رجل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أما تواليهن في الأدب والسفر والإنشاء وسرعة البديهة ، فهو بلا ارتياب عديد التراب أو قطر النمام أو زهر السكائم .

وقال : إن من أخذ عنهن الرجال الأعلام كريمة بنت محمد بن حاتم المرزوية ، وزينب بنت أبي القاسم ، وشهادة الكاتبة ، وزينب بنت عبد الله بن عبد الحليم « وقد لقي بحث الشيخ حمزة فتح الله اهتماما كبيرا حتى أن أحد مدحت رئيس الوفد النجاني في المؤتمر قال : إن العالم الشيخ حمزة بسبب مؤلفه المختص بشئون النساء المسلطات وواجباتهن وما لمن من الحقوق قد أحرز المجد وحظي بمزيد الشرف بحل هذا القنز وكشف ذلك المسمى والشور على تلك الضالة التي لم تزل منشورة لأوربا ولم يسبق لها حل مفضلها إلى الآن وكلهم يعلم أن أوربا لم تنجس أفسكارها لدرس ما يختص بالأمور الشرقية إلا منذ عهد قريب وإلى ذلك العهد لم تكن أوربا تحمل للشرق إلا صورة مجهولة أو شوه غير ذي مخرج ولهذا لم توجه عنايتها نحوه ولا أعدت نفسها في معرفة حقيقة .

وجملة القول أن المراء المسلفة على ما ذكرها ، قاصرة للرجل إلى شهواته لقضاء أوطار زوجها
(م — ٩ تطور الصحافة العربية)

أو سبها ولم يملوا أن المرأة السليمة لو كانت في حقيقة الأمر كما قالوا لم يكن العرق
البرى هو مطلع شمسها ومدرج عشمها جذرا بأن توجه إليه عنايتهم ولا أهلا لطموح
أنظارهم إليه ، وهل من المحتمل أن ينتج عن تربية امرأة بهذه المناسبة محبرة مما يظنون
من كل فضيلة سوى ذلك الفرض الشهواني ، فنون صالحون للخطط السنية والمناسب السلية
أو قواد ماهرين أو علماء نفاء أو شعراء ببناء أو جهابذة فضلاء .

وقد بلغ من عنابة العرب بهن أن شعراءهم يرون أن مدائحهم لا تحوز القبول
ولا تحظى بالصلوات ، ولا يصاح لها بالأستماع إلا إذا صدرت بالنسب واستهلكت بالنزل
وافتنحت بأبواب التشبيب . فيكون ذكر محاسنهن في الأماديج داعية إلى سماع القصد
بتمامه كإرفع الإسلام الواد وأشار إلى حديث الرسول : حبب إلي من دنياكم ثلاث
القضاء والطيب وجملت فرة عيني في الصلاة .

وقال أن مانعت إليه الشريعة من أن يغتربوا ولا تفضوا وحض الناشئة على ترجيح
ذات الدين على ذات المال والحسب ، وعلى أن لا يسكون الزوج من القرابة لئلا يخلق
الله تناوبا أى تخيلاً وعلى الرجال أن يراعين خصال الزوجات على حسن المطلق معهن ،
وأن يلفوا بتلطفوا في تأديب أولادهم ابته بالوعظ والتحذير .

وقال : إن التربية في الإسلام ليست قادرة على إصلاح الأجسام وتنقيف العقول بالعلوم
والمعارف بل التربية في شريعتنا أوسع نطاقاً ، والإسلام يعمد إلى ابتقاء المقاتل وإسطفاء
المكرائم .

X وفي عام ١٨٩٤ وضع مرقص فهمي الهاي كتاباً في قالب رواية بمنوان (المرأة
في الشرق) تحدث فيه عن تعليم المرأة ورفع الحجاب والاختلاط وضرر الزواج بأكثر
من واحدة وجعل حق الطلاق من حقوق الزوجين وأوجب طلبه من سلطة القضاء .

X وفي عام ١٨٩٩ بدأ المؤيد بنشر فصولا من كتاب تحرير المرأة لقاسم أمين، وسنح (الأهرام) مثل ذلك ، فقد كان قاسم أمين يلتقي بالصحفيين البارزين ويمرض عليهم خلاصات من آرائه يهد بها لنشر كتابه .

X وفي يوم ١٥ مايو ١٨٩٩ كتب الشيخ علي يوسف في المؤيد يقول :

ألف العالم الفضال والكتاب المجيد صاحب العزة قاسم بك أمين كتابا جليلا في أمم مواضيع الهيئة الاجتماعية بوجه عام ، باسم « تحرير المرأة » ، مثل فيه المرأة للسلطة أوضح تمثيل حينئذ أن الحالة السيئة التي سارت من مميزاتنا هي السبب الأول في تأخر العالم الإسلامي الحاضر وسأل كل الذين يهمهم شأن مستقبل الإسلام أن يملوا تصحيح حال المرأة وتحريرها من رتبة ما هي فيه جهد استطاعتهم .

قال المؤلف « قد طرقت بابا جديدا من أبواب الإصلاح في أممتنا واتحست وجهها جديدا من وجوهه في قسم من أفراد الأمة له الأثر العظيم في مجموعها وأنييت في ذلك بما أظنه صوابا فإن أخطأت فإني من حسن النية ما أرجو منه عفوان سيئة خطأي وإن أصبت كما أظن وجب علي أولئك المتعلمين أن يملوا للنشر ما أودعته في هذه الوردقات . وتأنيده بالقبول والعمل ... إننا نظن أن يكون ظهور هذا الكتاب مصدرا لتغيير عظيم في أفكار أمة ينشأ عنه فيما بعد تغيير أعظم في أخلاقها .

X وفي ٢٠ مايو نشرت المؤيد تحت عنوان : ترقية شأن المرأة وتحريرها بحثا قالت أن مؤلف تحرير المرأة يبحث في شؤون المرأة وما هو مركزها في الجمعية البشرية بالنسبة للرجل ووظيفتها في العائلة وما وجهت إليها التربيمة الفراء من تكاليف وأسندت إليها من وظائف .

X ثم نشر في ١٨٩٩/٥/٢٨ المقال الثالث تحت عنوان تربية المرأة وتحريرها .

X وصادت فترة صمت حتى جاءت افتتاحية المؤيد في ١٩ أغسطس ١٨٩٩ تحت عنوان : تحرير المرأة والحجاب وكان كتاب قاسم قد صدر فعلاً وأصبح في أيدي القراء . قالت : ما أكثر الذين نحرشوا للرد على حضرة الكاتب الفاضل قاسم أمين صاحب كتاب تحرير المرأة ، ولكن ما أقل المهذبين المتأدين منهم .

وقد وردت علينا عشرات الرسائل في الرد على مواضيع (تحرير المرأة) ولكن أكثرها كان شططا ولنظا أو مهارة ، وهذراً فضرينا بها عرض الحائط وتركنا كاتبونا يرموننا بالتحيز لحضرة المؤلف ، أما الآن فقد وافقنا الذين يفهمون القول فيقيمون أحسنه ويساجلون مناظرهم على شروط آداب البحث ، وقد نشرناها مسرورين ومؤملين . أن تلك الفسكرة الشريفة التي يمثت حضرة المؤلف على تأليف كتابه تأخذ بمنامة الخطأ خطها من التفتيح حتى تظهر فظهور الحقيقة وتمنى بها الحقيقة التي تصونها الشريعة الإسلامية النراء وتطلبها مصالح المسلمين مجردة عن لوث الأوهام .

X وفي ١٣ سبتمبر ١٨٩٩ تردد الكلام عن (الحجاب وتحرير المرأة) ونشرت المؤيد رسالة من (عبد القادر حزة - دمنهور - أحد طلبة مدرسة الحقوق الخديوية) وهو عبد القادر حزة صاحب جريدة البلاغ فيما بعد ونشرت في ١٤ ، و ١٦ ، و ٢٤ ، ردود . وقد وفي يوم ٢٦ مقال في فصل الخلاف في تحرير المرأة لكاتب من طمها ، وقد أشار إلى هذه الحركة (توفيق حبيب) فقال : بدأ قاسم أمين التحرير بالعربية مستترا ، ونشرت في المؤيد ١٨٩٦ ثم في سنة ١٨٩٧ فصولاً تحت عنوان « أسباب ونتائج » وأخرى تحت عنوان « أخلاق ومواعظ » وكانت هذه الرسائل جديدة في الأسلوب وفي طريقة التفكير وفي وصف الشخصيات فأحدث نجة في الأوساط الأدبية والسياسية .

X ثم بدأ (محمد علي كامل) والد الأستاذ محمود كامل الحامي والكاتب المعروف وصاحب مجلة الجامعة ، بجمع رسائل قاسم أمين ونشرها في كتاب واحد صدره بمقدمه ١٨٩٨

يوسف أنها لعاضل مصرى ، ولم يعرف الجمهور أنه لقاسم أمين إلا فى اليوم التالى لوفاته ، وفى مطبعة الترقى الصغيرة لصاحبها محمد على كامل بجوار محل سوثمان الساعاتى نشرت الطبعة الأولى من كتاب تحرير المرأة ١٨٩٩ ، ثم وسع محمد على كامل مطبعة الترقى وكانت فى مكان مجلات أورزى باك (عمر أفندى) فى شارع عبد العزيز ، وكانت مطبعة الترقى سنة ١٩٠٠ أكبر وأكمل وأغنى مطبعة عصرية مديرتها مصرى فى القصر المصرى وخرج بحضارة ألوف الجنيهاات .

X فى هذه الفترة كانت هناك مجلات شهرية تصدر فى مصر باسم المرأة ، وتصدرها نساء كاتبات شاميات ومصريات منها هند نوفل وألكندره أفرينو وليبية هانم .

غير أن هذه المجلات النسائية كان يحررها فى الأغلب رجال كما ظهرت كاتبات أمثال : زيب فواز الساملية (من الشام) وفى السنوات التالية ظهرت رحمة صروف التى كانت تكتب فى القلم وتترجم مقالات من اللغة الإنجليزية (١٩٠٨) وسارة الهيبه التى كانت تكتب فى جريدة العلم (١٩١٠) متعددة عن الحضارة والأخلاق وقد أصدرت من بعد مجلة نسائية .

وفى هذه الفترة ظهرت باحثة البادية (ملك حنفى ناسف) فكتبت فى الصحف وألفت محاضرات فى الجامعة ١٩١١ قالت فى إحدى خطبها : إن كان لثمة ما أن تجتمع وتبحث فى شؤونها فلا أحق منا نساء مصر وقتياتها أن نكون تلك الفئة ، فإننا على درجة من التأخر تؤلم نفس للتفكير فيها وترجع خطوات واسمات عن سبيل التقدم ، وللتربية عندنا إحدى طريقتين : أما القسوة وأما التدليل وكلاهما مضر فالقسوة ترهب الطفل وتمله القل ، والتدليل بطرحه فى مهواة الضرور وقد جمعت باحثة البادية مقالاتها هذه فى كتابها (النساءيات) طبع فى مطبعة الجريدة وقدم له (لطفى السيد) وكتب عنه عبد العزيز جاویش فى جريدة العلم مثنيا ؛ وكتب عبد الكريم سلمان فى تعريظ هذا الكتاب يقول : يمكن أن أذكر

شيئا سمعته من أن رجلا لقيته في حياتي وكانت سنة إذ ذاك تتجاوز مائة عام وسني سبعة عشر على التقريب . قال ذهبت إلى الأسواق ورجعت حائرا في أمرى ، رأيت امرأة في السوق وما عهدتها قبل هذا النهار إلا قعيدة البيت ، فابتن المرأة التي حدث عنها . حدثني هذا وزمانها لا يتجاوز المائة والمشرين سنة ، وقد كان مقرها كسر بيتها تخرج منه إلى قبرها وابن المرأة في هذا الزمان ، فقد نراها على وشك الاسفار حاملة قطارها ذاهبة إلى مجمع فيه كثير من النساء يمددن بالثلاث وفيهن كثير من المتعلمات فتقعد بينهن على مفير الخطابة (يقصد ملك صفى ناصف) فتأبى بلا مبالاة على خطبتك هذه وأحى أذنيك من لؤم اللغات ، وقال : لم تنس ما جرى يوم سافرت بنت المرحوم مهدي (أبو يافعة) لطلب العلم في الخارج ورأينا بناتنا ناظرات مدارس ثانوية ومفتشات .

وظهرت في هذه الفترة فريزة على فوزى (العلم ١٩١١) فهاجمت الاستعمار البريطاني .

لها بحث عن المرأة في جريدة العلم (١١ يوليو ١٩١١) تقول : ظهر لقادتنا السامعين أن من أمم البواش على انحطاط الشعب جهل المرأة . ولم يدرى أنهم أصابوا كبد الحقيقة ولكن أين الدواء لهذا الداء ، قد يقال أن المدارس الأهلية آخذة في (إعداد شعب راق) من نساء المستقبل ولكن الظواهر تدل على خلاف ذلك ، لأن البرامج التي أعدت لتعلم البنات تكاد تكون واحدة وواضحة واحد ونحن نعلم ما هي عليه من النقص المذموم . لا يخفى أن المرأة نسخة من الرجل ، وعندما أشرقت شمس الإسلام رفعت المرأة السلسلة من الوهد إلى النجد لأن الله منصفها من الحقوق وخولها من المراكز ما كانت تهتم به أو يخطر على بال .

ظهرت هذه الحقوق (الجديدة) لنا معشر النساء للسلمات منذ ألف وثمانمائة وعشرين سنة فقام رجالنا بما يجب عليهم إزائنا . ولم ير الرجال بدا من تعاليم النساء حق العلم مع الاحتفاظ بالمرض والفتان في الثيرة على ناموس الشرق ، فنبذت النساء نبوغا عظيما حتى سارت الرجال من الرجال تشد إلى بعضهن ليستقوا من نهر علومهن .

ولكن دالت الأيام وانتمكت آية الإصلاح وحل صواب الجهل عمل ضياء العلم ورجعت المرأة المسلة إلى حالتها ، وتنبه المسلمون فملوا أن من أسباب ما أصابهم تفریطهم في أمر النساء ، لأن فساد الرجال ما هو إلا نتيجة التزوية الفاسدة التي تلقوها على أمهات جاهلات من الصغر . هب رجالنا للأخذ بيد المرأة حتى تنجب رجالا يكونون مثال الصلاح والإصلاح ليترجموا لأنهم مجدها وهم قد رموها في بؤرة ضلال . إننا في حاجة إلى إنشاء مدارس للنساء على نسق يتفق عليه النيبورون والمسكرتون فيها وهناك بتحقيق الأقل في تخريج بنات يكن مثيلات عايله بنت المهدي وولادة بنت المستنكى وأمثالها ساجيات الزمن السالف .

X وفي ١٩١٢ بدأت (نبوية موسى) ناظرة مدرسة اللغات بالمنصورة تلقي محاضرات في الجامعة التي كلفتها تدريس تاريخ مصر : تقول في إحدى هذه المحاضرات أن كلا الأمتين المصرية والعربية قد بلغ الاهتمام بشأن المرأة فيها شأواً بعيداً حتى ساوت الرجل أو كادت .

وتحدثت عن أهمية الدراسة التي تقدم بها ومدى الرسالة التي تحملها : « كآني بسيدات القاهرة وقد بلغن هذا الدرر فقلن ميتهات ، عبثاً تنتم هذه الفتاة نفسها وتأت من مدينة بعيدة لتسرد لنا حوادث تاريخية لا يسكفنا الإطلاع عليها أكثر من تصفح كتب التاريخ ، ومن هي تلك السيدة التي تنسكف القهاب إلى إدارة الجامعة لسباع هذا الدرر وهي تحسن القراءة وفي منزلتها كثير من كتب التاريخ ، يقلن هذا وقد قلن أني سأبذل الجهد في جعل هذه الدروس أخلاقية نسائية ، فلا أترك فرصة تمر إلا انتهزتها في إظهار مهارة النساء في الماضي والحاضر ، راجية أن أشجذب بذلك همما نحن المصريين فنعرف ما وصل إليه فضليات النساء وكرمانهن فيقتدى بهن في حلو الهمة والشتم عسى أن تسرد شيئاً من ماضي مجدنا وسالف عزنا؛ أريد أن تحيا النساء ولو اسما لا حقيقة فيقال أنهن قد اجتمعن اليوم في دار الجامعة ليتناقش بعضهن بعضاً ، ولا يلبث هذا الامم

ان يصير حقيقة وقد يكسب الإنسان الطبع بمجرد التظاهر به فيمثله ، أريد أن نحيا نحن النساء ولا أرى من عائق في سبيلنا .

وقد أصبح من أنصارهم منعتنا عقلاء الأمة المصرية كما مد إلينا عظماء الاحتلال يد المساعدة ولم يمد في سبيلنا إلا الكسل والجزل ، أريد أن نحيا المصريات حياة حقيقية فيتلقي العلم ويسمعن إليه سمياً متواصل ، وقد آليت على نفسي ألا أتأخر عن الحضور إلى الجامعة كل يوم جمعة حتى يصبح معلوما لدى السيدات ذلك اليوم » .

× وفي هذه الرحلة ظهرت عائشة التيمورية وقد أشار «حسن الشريف» في مذكرات له نشرها في إحدى المجلات قال : كفت أحدث يوماً إلى المرحوم حفي ناصف وقد جاء ذكر عائشة التيمورية فقال لي رحة الله :

هذه السيدة ستقدم إلى الأجيال المقبلة بلقب شاعرة ، وسيضاف اسمها إلى قائمة إدياء القرن التاسع عشر ، نعم كانت تنظم الشعر إلى حد ما ، أما هذه القصائد التي تقرأها لها في كتب الأدب فليس لها فيها سوى فضل إختيار الموضوع وبعض شطرات ، فقد كانت عائشة تنظم شعراً ركيكا وترسله إلى (أي إلى حفي ناصف) لانتقحه وأصلح من شأنه فسكنت أجهد نفسي في التنقيح حتى أوتر أن أنظم القصيدة كلها من جديد وأعيدتها فنشرها باسمها . وقال حسن الشريف مملفاً : وأعتقد أن الرجل صادق ، فإ كان حفي ناصف في حاجة إلى إهداء شعر غيره ، وهو الذي بأدبه وشعره وشهرته عن كل ادعاء .

× وفي هذه الفترة قدمت (خالدة أديب) السكّانية التركية المسلمة المشهورة إلى مصر ، وصلت عام ١٩٠٩ من استانبول وانضمت إلى الحزب الوطني في مصر وألقت الخطب علناً ضد الإنجليز لأنهم كانوا يشجعون اليونان على احتلال أزمير وإنشاء ولاية أرمنية في شرق الأناضول .

× وفي عام ١٩٠١ أصدر قاسم أمين كتابه الثاني (المرأة الجديدة) رداً على العقود

التي وجهت إليه كتابة (تحرير المرأة) والمروف أن كتابه الأول الذي أحدث ضجة
عند اشترك في كتابته الشيخ محمد عبده بل كتب بعض فصوله وانهما كانا يراجعاها معاً ولكتاب
تحرير المرأة قصة تتصل بملاقة سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين بمالون نازلي فاضل^(١) .
وقد صدرت في مجال الرد على تحرير المرأة كتب ومقالات وصحف ومن أهمها كتاب:
لفريد وجدي وآخر لطلعت حرب ، وقد أيد المؤلفين دعوة قاسم أمين في تربية المرأة
وتعليمها واختلفا معه بالنسبة للسفور .

وكان قاسم أمين قد أيد في رده على دوق داركور حجاب المرأة المسلمة وقال أنه
ضروري للمرأة . وأنه خير ما تصان به الآداب العامة ، وقد نقل طلعت حرب هذا النص
إلى العربية في معرض الرد عليه بحسبانه رأياً ارتأه أولاً ثم تحول عنه في كتابه تحرير
المرأة وقال فريد وجدي في كتابه (المرأة المسلمة) : علينا أن نعمل كل ما يمكننا
لنقترب المرأة من كمالها وتدخل إلى حدود وظيفتها وأن نعتبر ان كل ما يبعدها عن هذه
الوظيفة داء اجتاعي يجب التألب على ملاشاته أو بذل الجهد في حصره في علة ، وأن
كل امرأة مهما قيل أنها مكتشفة لنجم أو باحثة في المكروبات هي ناقصة وعاصيته للطبيعة
. وخارجة عن حدود وظيفتها .

وقال : إن للمرأة كلاً خاصاً بها لا يتأق لها الحصول عليه البتة إلا إذا سارت زوجة
. وأما تلك وتربي وتدبر البيت ، وأن كل شيء يبعدها عن وظيفتها ينقص من كمالها ويؤثر
عليها تأثيراً سيئاً . وقال : أنا لا أنكر أن الحجاب شراً ، ولكني أعتقد أنه مانع من
شر أكبر فهو بهذا الاعتبار لا يمنع من التهذيب ، وقد غير فريد وجدي رأيه هذا
في الحجاب كما غيره بعد ذلك في أشياء كثيرة من شؤون المرأة .

(١) فتوسع في هذا الذي يراجع كتاب : « العرق في بحر اليقظة » لكتاب السطور .

ومما يتصل بالمرأة والصحافة نذكر مجلة (مرآة الحسنة) التي أصدرها سليم مركيس باسم «مريم مزهر» حتى يتمكن بها من إدخال آرائه إلى الشام والدولة العثمانية وكانت كقائمه وصحفه ممنوعة عنها ، أصدرها في أول نوفمبر سنة ١٨٩٦ ثم كشف النقاب عنها في مارس سنة ١٩٠٧ وقال : أردت أن تدخل بريد المالك العثمانية ، ولا أعرف لمريم مزهر مسمى حقيقى ، ولم يكن هذه أول مرة استعملت اسمها ونشرت به ، وكنت كلما سألت عن مكانها عمدت إلى الحيلة فإذا كان السائل من دمشق قلت له أنها من مصر وإن كان من بيروت قلت له إنما هي من حلب . وفي ذات يوم فوجئ سليم مركيس بخطاب عن قريب حقيق لمن تسمى مريم مزهر وقد ظهر فجأة ، هناك خشي مركيس أن يحضر لمحادثته على إيرادات المجلة ، قال مركيس : لقد هدم الخطاب المشروع الذى كنت قضيت وقتاً في إنشائه .

الرحلة

خلفت المصنف في هذه الرحلة بكتابات متصلة عن الرحلة والسفر وزيارة الممالك والأقطار وكان في مقدمة هؤلاء الرحالة: أحمد زكي الملقب من يدبشبخ المروية، فقد زار (الأندلس) بعد اشتراكه في مؤتمر المستشرقين ١٨٩٣ وكتب رسالة في الأهرام.

(مرفقة و ٢٣ يناير ١٨٩٣)

قال: لم أسل إلى تخوم أسبانيا إلا بعد أن أمضيت في القطار مدة أربع وعشرين ساعة لم تسكجل فيها هيني بأحد الكرى حتى أجهدي السير وأضناني السرى، ولكن تجددت قواي حينما شمت عبير الأندلس، واستنشقت نفعاته. وتحت بالنظر إلى سافى مائه وقد ترسمت بالدرارى. وحينئذ شجعت مع تيار الأفكار ولكنى مالبثت أن أقبض صدرى وعائنى السكابة وتولاني الانزعاج إذ أحنات في جيوش من اللوعة والأصف والحسرة والهمف لأننى تفكرت ماناله الاسلام من الدز والافتدار في هذه الديار أيام كانت تخفق فوق الأندلس أعلامه ونجول فيه أقوامه ناشرة ألوية الفخار والحضارة، رافدة رايات المجد والكرامة، أيام كانت خلافه القرب تفوق مفاظرتها في المشرق بما احتاطت به من أسباب البذخ والظلمة والرفق حتى كانت ملوك أوروبا تتزلف إلى الخلفاء وتلقم رعايتهم وحمايتهم، أيام ينبغ العلماء والمفترعون والمكتشفون الذين أفادوا العالم بأجمه ورفعوا كلة الاسلام وجادوا بأقوم برهان على إن الدين الحنيف يساعد بكايانه وجزئياته على البحث في أسرار الطبيعة وأنه يحض على اقتناء ثمرات المعارف بجميع أنواعها ومطالبها.

وقد كنت وأنا في باريس درست نحو اللغة الأصبانية للاستعانة به على غاطية القوم أو مبادلة لأفكار معهم مباشرة، فلما حضرت (إرون) وتكلمت مع أصحاب الفندق

تحقق لي أن درس النحو شيء ومعرفة اللسان شيء آخر ، وتذكرت أنني أكون أول من زار جميع الأندلس من المسلمين والعربيين خصوصاً من أبناء هذا الجيل وكتب ما آراه .

* * *

ونوات رسائل أحمد زكي من مدن الأندلس فكتب من «قرطبة» : رأيت فيها المسجد الجامع الذي لا نظير له في العالم الإسلامي وقد بقيت معالمه الرئيسية على ما هي عليه وانهم بالله أننى أكثر من البكاء المر حيناً درت في صحنه وبين عمدانه ووقف في محرابه وتأملت ما فيه من غرائب الاتفاق التي لا تخاطر على بال مع الفحامة والفضخامة ، وكل ما رأيته في هذا الجامع الذي يحتوي على اثني عشر ألف عمود من مختلف الصوان وكلها منقوشة : التاج والقاعدة بكيفية تخالف بعضها ، أما المحراب فهو مصنوع من أحجار دقيقة مختلفة الألوان متركبة مع بعضها على نظام الفسيفساء فتحدث منها أشكال متناهية في الجمال ، وآيات قرآنية وأحاديث نبوية وإذا نظر الإنسان من ذات البصيرة رأى الوانا وألواناً وأشكالاً وتراكيباً تخالف كل ما يراه لو وقف من جهة الشمال ، وكذلك الأمر فيها لو وقف في الوسط أو تقدم أو تأخر .

* * *

(٢) وحفلت جريدة «المؤيد» برسائل الزعيم محمد فريد - وهو كاتب ومؤرخ - من رحلاته إلى الأندلس والمغرب عام ١٩٠١ يقول .

قرطبة : وصلتها سبيحة ٢٣ أغسطس ١٩٠١ فلم يرقي منظرها لأننى وجدت الشوارع الكبرى الموصلة من المحطة لمداخل المدينة كلها مقربة وغير نظيفة لا بلاط بها ولا حصياء . أغلب بيوتها قديمة إسلامية ، لكل منها فناء تحيط به أعمدة الرخام وفي وسطه فساق الماء والأشجار وفي شبايكها قضبان الحديد فهي تشبه من عدة وجوه ، البيوت القديمة بمصر ، قصدت إلى الجامع الأموي فوجدت ما يدهش الأب ويخزع القلب حزناً ، رأيت مسجداً جامعا تطاولت إليه أيدي التمهيب المسيحي (الغربي) فملقت الأجراس في مناراته ووضعت النماثيل والصليبان في مدخله . لكن هذه الإضافات الحديثة لم تشوه من منظره بل هو لا يزال ناطقاً بأنه أثر إسلامي (وإذا وقف) الإنسان عند مدخل هذا الحرم الموسع لا يملك نفسه لا أقول من البكاء حتى لا أكون مبالغاً ، بل من الشموخ بانقباض النفس وضيق

في الصدر لما يرى هذا المسجد الجامع خاويًا من المسلمين ، خاليًا من الموحدين ، خصوصًا حينًا يرن في آذانه صوت الأذعن وترتيل المرتلين وصوت القسوس والرهبان بدل نداء المؤذن وتكبير المصلين .

• • •

ويقول : بعد أن تمتت الطرف بآثار الإسلام والمسلمين وتحسرت على هاتيك الدول التي زالت وعفت آثارها وردت غرناطة وصجراها وقرطبة وجامعها واشبيلية وقصرها ، أردت أن أمر بمدينة «طنجة» أضخم تنور الدولة المراكشية لأتحقق من الفرق الكائن بين مسلمي الدول النافرة ، ومسلمي هذه الدولة التي حافظت على استقلالها الآن ، رغمًا من اكتتاف الفرنسيين لها من الغرب والجنوب . وأقول بكل أسف أن من يريد أن يرى بيمه كيف تمتد الأمم ولا تبدى أى حركة لحفظ كيانه فليتوجه إلى مراكش ، خصوصًا بعد أن يزور أسبانيا .

• • •

من الجزائر : (٣ أكتوبر ١٩٠١) . كنت أظن أن ما تشره الجرائد عن أحوال المسلمين في الجزائر وغيرها من البلاد الإسلامية تحت سلطان الدول المسيحية (الغربية) مبالغ فيه أو أمثلة كراهية الفاع الأجنبي حتى قادني حب الإستطلاع إلى القطر الجزائري فرأيت بيمى وتحقق بالخبر ماسمه بالخبر ، وتأكدت أن مسلمي الجزائر في تامة ليست بعدها تامة ، فلا ضمانة للحرية الشخصية ولا الملكية المقاربة بل ولا الحقوق الشخصية ، أراضي تسلب وتنزع ملكيتها لتوزع على المهاجرين من الفرنسيين بلائمين ، وأوقاف خيرية تصادر مقابل ترتيب شيء زهيد للقيام بمجاهيات مابق من الجوامع والزوايا بعد هدم ما هدم منها ، وإبراء تزج في السجون بعد أن تحكّم الحاكم الفرنسي ببراءتهم .

ويعامل المسلمون في الجزائر بقوانين مخصوصة في غاية الشدة والصرامة ، فهم محرومون من حرية الكتابة وحرية الإجتماع وحرية السفر وحرية مطالعة الكتب والجرائد ، نعم يصعب على الذي يعرف حب الفرنسيين للحرية والمساواة أن يصدق ذلك ولكن من يتكاف

مشقة زيارة بلاد الجزائر يتحقق أن ما هو جائز في بلاد فرنسا غير مباح للمسلمين في المستعمرات فلا يجوز لهم أن يؤلفوا أى جمعية ولو لفتح المدارس ونشر التعليم المجرد ، وهذا الاذن لا يمنح مطلقا كما أنهم لا يجوز لهم تأسيس مطبعة أو جريدة ، ولا يوجد في جميع أقاليم الجزائر غير (جريدة البشر) وهى جريدة رسمية تكتب في فضل فرنسا على العرب والحض على القبائل بالولاء ، ولم أجدنى جميع مدينة الجزائر نسخة من اللواء ولا من المؤيد مع أن المشتركين فيها كثيرون ، ولا تصل هذه الجرائد إلا لإدارة البشر مبادلة وهناك تحفظ في حرز مكين حتى لا تخرج بعض إعدادها من الإدارة فتصل أخبار الاسلام والمسلمين إلى إخوانهم الجزائريين . وقد منعت الجرائد التونسية التى كانت تنشر أخبار العساكر الإسلامية على الأورام أيام حرب اليونان مع الدولة العلية ، ولما أرسلت إلى الجرائد المصرية أثناء إقامتى بمدينة الجزائر حيزتها إدارة البوسطة وأرسلت إلى جميع الجوابات فقصدت إلى السيوى مبرات رئيس تحرير جريدة البشر وطلبت منه بتوصيل جرائدى إلى أوروبا بإرسالها بعنوانى إلى باريس فأرسلها إلى بطريقة استثنائية :

ومن الغرب في بلاد الجزائر أنه لا يجوز للعرب أن يسافر خارج المركز الذى يقيم في دائرته إلا بإذن من البوليس . ولقد مضى على فتح فرنسا للأقليم الجزائرى سبعون عاما وجيشها الآن لم ينقص عن خمسين ألف محارب بكلفتها ٥٧ مليوناً من الفرنكات سفويا ، وما ذلك إلا لتخوفها من الأهالى وعدم اطمئنانها إلى جانبهم ولسكن لا يمكن استمالتهم بهذا الضيق وتلك المماثلة المخالفة لقوانين العدالة .

ويقول : بعد اقت بهران يوما وبمضى يوم سافرت إلى تلمسان ، أغلب الأراضى مزروعة كروم ، وأغلب أسماء المحطات أفريقية محضة ، وقد زرت القاضي شعيب بن عبد الله ، وهو يجيد الكلام بالفرنسية ، وله إلمام تام بكل ما يخص بأحوال بلاده وله مواقف في فلسفة

الديانة الإسلامية قدمه إلى مؤتمر المستعمرات في باريس ١٩٠٠ حيث كان الحلم الوحيد به .
وقال محمد فريد : من أراد الوقوف على درجة إمتحان الفرنسيين العرب وإذلاله
وتحقيره علنا ، فليطلع على جرائمهم وبالأخص جريدة المسيو كاريفتر الذي هو أشهر
الفرنساويين عداوة للحرب إذ لا يخلو عدد من مقالته في هذا الموضوع بتألم لها فضلا
التونسيين .

* * *

(٣) زار (أمين الرافعي) فرنسا والمغرب ١٩١١ . وقابل الطلبة المصريين في أوروبا
(٢٠ أغسطس ١٩١١) يقول :

يذهب الطالب إلى أوروبا فيخضع بالفتن من مدينتها وممراتها ما يقع في شركه فتراه
ينفض يده من العلوم ويقبل بكل جوارحه على الملاهي .

وبعد أن صور هذه الظاهرة قال : وصفوة القول أنه لا يجوز إرسال أحد إلى أوروبا
للتعاطي إلا بعد التحقق من إستقامة أخلاقه وقوة إرادته التي تمكنه التغلب على عوامل
الفساد الفاشية هناك ، أما من ليس لهم وازع من دين أو عقل فكل خطوة بخطوة
في أوروبا لا تقربهم من العلم وإنما تقربهم من الهاوية التي أبلعت منهم الكثيرون .

* * *

ومن باريس كتب يقول :

ذهبت إلى باريس للمرة الثانية ومكنت بها ستة أيام زرت فيها بعض الآثار والشاريع ،
وأحث المصريين الذين يكثر من زيارة تلك المدن على مشاهدة ما تحتونه من الأشياء
النافعة ، ففي ذلك عبرة لنا إذا أقمنا النظر فيما نحن فيه الآن ، وما سيكون غدا ، ذلك خير
من قصد الشهوات وركوب اللذات والانسكاب على الملاهي شأن كثير من المصريين
الذين يزورون باريس لا لشيء غير ارتكاب المنكرات ، وليكن لنا أسوة حسنة في الوفد
الجبشي الذي زار باريس ، فانهم عوضوا عليهم مشاهدة الملاهي فرفضوا وأثروا رؤية
الأشياء النافعة . وفي مقالات متعددة تحت «عنوان مذكريات سائح» لأمين الرافعي نشرها في جريدة

للعام ١٩١١ كتب عن جولانه المتعددة وزيارته لمزول فكتور هيجو ، وغيرها من المواقع التاريخية كما كتب عن زيارته لمدينة بنزرت في تونس .

* * *

أما رحلة شوق إلى الأندلس فقد كانت عام ١٩١٥ ، ولم تكن في حقيقتها رحلة بل كانت إقامة مغترب فرض عليه النفي خارج وطنه بأمر السلطات الحاكمة في مصر لأنه هاجم سلطة النفوذ البريطاني في تعيين السلطان حسين كامل . وقد شرع شوق بمجرد وصوله إلى برشلونه ، في تعلم اللغة الأسبانية ، ثم زار الأندلس بعد عقد الهدنة ، ولما عقدت الهدنة ١٩١٨ لم يسمح له بالعودة إلى أواخر ١٩١٩ وقال حسين شوق في كتابه « أبله شوق » أن أشبيلية هي التي أوحى إلى شوق رواية أميرة الأندلس .

الصحافة

واجهت الصحافة في خلال الفترة إهنا ما كبيراً من المتندين البريطانيين ونورد هنا نموذجين : أحدهما للورد كرومر سنة ١٩٠٣ والآخر للسير ألدن هورست سنة ١٩٠٩ .

(١) يقول كرومر في تقريره : كان في بدء الاحتلال الإنجليزي ما يسمونه بمسألة الصحافة فإن كثيرين من ذوي الآراء الحقيقية بالاعتبار من الأوربيين والوطنين سواء كانوا موفقين أو غير موفقين رأوا أن إعطاء الحرية التامة للجرائد في مصر موجب للضرر .

وقد ظهر لنا أن منح الحرية التامة للصحافة قد لا يخلو من الضرر ، على أن هناك إعتراضين على تقييد حرية الصحافة (الأول) هو أن وجود حامية إنجليزية في القطر يضمن أن الكتابات المهيجة لا تقضى إلى الإخلال بالأمن إخلالا عظيما و (الثاني) أنه من البت سن قانون خصوصي للجرائد الوطنية ما لم يتمشى ذلك القانون على الجرائد الأوربية أيضاً ، لأن كل صاحب جريدة وطنية تخشى طائلة القانون بنقل حقوقه وامتنازه إلى رجل أوربي فعلا أو اسما ، أما أنا فسكنت مخالفا لتقييد حرية الصحافة منذ أول الأمر ، ولكني لم أحول كثيرا على الاعتبارات فإني رأيت أولا أن الحجج التي تقوم على تقييد حرية الصحافة لا تماثل الحجج التي تقوم على إطلاق حريتها وثانيا أن كبار رجال الحكومة كانوا يقومون على احتمال انتقاد الجرائد لهم بل على قبل أن يؤثر الإصلاح ، تأثيره المطلوب .

وقد أبدت الحوادث هذا الرأي فمرت سنون كثيرة ، والجرائد المصرية تامة الحرية

(م — ١٠ تطور الصحافة العربية للعاصرة)

ولكن الحكومة اضطرت إلى إقامة بعض القضايا على بعض الجرائد لطمعها على اللوك الأجنبي والندوى وأعضاء المائدة الخديوية . وكان الرأي العام مؤيداً للحكومة في تلك القضايا القليلة ولم تكن إقامة القضايا سياسية ، ومع أن القانون يخول الحكومة الحق في أن تطلب من كل صاحب جريدة أن يحصل على رخصة قبل إصدار جريدته إلا أنها لم تعمل بهذا الحق منذ مدة طويلة . وبالإجمال أن النتيجة جاءت على ما يرام ، على أن الجرائد المصرية من أجنبية ووطنية كثيراً ما تنشر أخباراً غير صحيحة . وكثيراً ما تنتقد انتقاداً قانونياً مفيداً ولكنها تفتحم فيه أحياناً آراء على غاية من الجهل والطيش بلغة شديدة الإهجة وتنشر أحياناً مطاعن شخصية لا تنشرها الجرائد التي هي أرق منها .

ولا أظن أنه يمكن ذكر حادثة واحدة في العشرين سنة الماضية تدل على أن حرية الجرائد الثامنة أغرت بالبلاد ضرراً عظيماً أو أخرت سير الإصلاح الحقيقي يوماً واحداً وزد على ذلك أن الجرائد الوطنية الساقطة التي تكتب لفئة من الأهالي قليلة العلم كثيرة التصديق وتحاول إضرام نار البغض الجنسي لا تؤثر أقوالها كثيراً . إذ لا نمنح لها فرصة تبني عليها أقوالها وأنه ليسهل القضاء على الجرائد المصرية من باب رسمي أو على قسم منها على الأقل وإذا فرضنا أن ذلك القضاء في محله ، فإن المسألة وجهاً آخر وهو أنه فضلاً عما لحرة الجرائد من الفائدة القطعية فلا ريب أن الجرائد تمنع بعض الضرر فإن خوف التثمير على صحتها يمنع كثيراً من الشرور ويقلل الميوب التي تصور نظام الحكومة المصرية .

وفي السنين الأخيرة انجمت آراء الطبقة العليا من الوطنيين إلى أنه يجب أن يكبح جماح الجرائد في كلامها على الأفراد وقد بحث هذا الموضوع فوجدت أن القانون الحالي المطلق بالقذف وإف بالمراد من حيث مراميه ، على أن يظهر عين الانجيزي أن الأحكام التي تصدر هنا في دعاوى القذف وما يحكم به من الدطل والضرر أخف مما يلزم ولكي يستصوب اتصال بعض التنفير في القانون المتعلق بالقصب ، فإن القصب جرم شائع في هذه البلاد وهو يزداد يوماً فيوماً فيجب معاملة الفسايين بالشدّة أو القسوة .

(٢) يقول الدون غورست : إزداد قسم من الجرائد العربية في مصر قدما وكلاما عارضا ازدياداً عظيماً في السنوات الأخيرة وجعل ينشر الأراجيف والأخبار السكاذبة وينشئ مقالات المضللة . وترى الشبان المصريين الذين لا يزالون يتلقون العلوم في المدارس الابتدائية والثانوية والمالية يتهافنون على مطالعة تلك المقالات وأمثالها حتى لقد أفسدت ضباب الأحداث المصريين الذين إنما تعلق بهم الآمال في بلوغ مصر الحكم القاننى بكثرة ما تلقى على مسامعهم من أقوال الحماقة والجهال ، يوما فيوما .

وحقيقة الحال أن الجرائد المصرية التى أصحابها ومديروها من رعايا الحكومة المحلية قد سن لها بعض المواد فى قانون المطبوعات حيث عرفت الجرائم التى تحاكم الصحف عليها وقص على عقوباتها من غرامة وحبس وقانون المطبوعات الذى سن عام ١٨٨١ أما قبا يختص بقانون المطبوعات فقد تبين فعلا أن المواد الحالية فيه لا تمنع الشطط الذى هو موضوع التشكوى فأفضل طريقة للتعلم على هذه الصمومات إنقاذ قانون المطبوعات الحالى وهو يقتضى بوجوب الحصول على رخصة إصدار الحريدة أما قبا يختص بمراقبة الجرائد فقد أشارت المادة ١٣ إلى أنه يسوغ محافظة على النظام العموى أو الدين أو الآداب تعطيل أو قفل أى جرنال أو رسالة دورية بأمر من ناظر الداخلية بعد إنذارين وزد على ذلك بأن معظم الجرائد التى تصدر باللغات بالأوربية لا غيار عليها وإرتقاء قرائها المقلى ضمان كاف لعدم تجاوزها حدود الاعتدال .

أما في فترة الحماية فقد كان في التمليمات الموجهة إلى الصحف أنه لا يجوز نشر أى فصل أو فقرة يراد بهما الإشارة تلميحاً أو تصريحاً إلى عدم اعتراف بمض الدول بالحالة السياسية الحاضرة في القطر المصرى . وكانت التمليمات سرية ولا يجوز لأصحاب الصحف أن يملئوها أو يذيعوها .

ومن التمليمات السرية التي صدرت لأصحاب الصحف ٣١ أكتوبر ١٩١٧ أنه لا يجوز نشر أى ما في الصحف ما لم يعرض على الرقيب وتصدر إجازته له ويسقثنى الأحوال التي تكون المواد الأصلية للجريدة منها قد سبقت مراقبتها ، ومن الواجب أن تعرض المقدمات الكبيرة الآخذة بجانب الصحيفة وغيرها من المقدمات على المراقبة قبل نشرها مرفقة بنص التلغرافات المتعلقة بها وكذلك الإعلانات المتعلقة بغير ماسلف ذكره من الشؤون ، لا مانع من نشرها بلا مراقبة ، ولكن تلقى على مديري الصحف مسئولية ما يمكن وقوعه بسببها من المخالفة .

وتقدم صورتان من المواد إلى الرقيب للتوقيع عليها ، وتبقى أحد الصورتين عند الرقيب . لا يجوز ترك بياض في صلب الفصول أو الفقرات التي يحذف الرقيب شيئاً منها بل ينبغي ضم الأجزاء الباقية بعد الحذف بعضها إلى بعض بحيث لا يظهر البياض إلا في آخر الفصل^(١) . أو الفقرة المحذوف منها والفصول التي تمدل الصحف عن نشرها بعد مراقبتها يجب حذف عناوينها وتحت نشر البلاغات الرسمية في الصحف بنصها .

لا يجوز نشر أية مادة بوصف كونها تلمرافية ولو كان إطلاق الوصف عليها بطريق الاستنتاج ما لم تكن تلمرافية فعلاً . من الممنوع نشر الأخبار الوهمية أو الباعثة على الانزعاج ومما ينبغي صرف الالتفات إليه بنوع خاص كل ما له علاقة بالتسائر الناجمة من حرب

(١) البلاغ ١٧ نوفمبر ١٩٢٣ .

«النواصات أو الحالة في روسيا ، أو بفلاء الميمنة في بلاد الحلفاء ولا يجوز قطعا نشر المواد الآتية أو الإشارة إليها : تنقلات الجيوش + حركات السفن الحربية في البحر المتوسط والأحمر والمحيط الهندي وقناة السويس + كل خبر من الأخبار التي تقوى السلطة العسكرية داخل الأراضي المصرية + كل خبر عن الجيوش المسكرات .

أما الحكومات التي تدعو إلى تكدير صفاء الأمن والسلامة في القطر يجب حذفها حتما كما يجب نحاشي كل كتابه من شأنها أن تثير الأحقاد الدينية أو الجنسية أو السياسية .
(صدر في ٢٩ أكتوبر ١٩١٧) .

محاضرات الصحافة

محاضرة عبد العزيز جاويش

كانت سياسة اللورد كرومر فيما يتعلق بالصحافة الوطنية أن يطلق لها العنان ويسمح بظهور صحف أخرى تردد وجهة نظره وتدافع عنها وتندبرى للصحف الوطنية كما كانت تفعل المقطم والوطن ، وكان يطلق على هذا الإجراء كلمة رفع النطاء عن البخار المتجمع ليذهب في الهواء غير أن « غورست » الذي خاف كرومر غير هذه الخطوة فقد تضام جانب القصر والاحتلال لمقاومة الحركة الوطنية التي كانت قد فتحت صفحة جديدة من المقاومة العنيفة للاحتلال بزعماء فريد وقلم جاويش ، وقد وفقت صحافة الحزب الوطني حيز عثرة دون نجاح غورست حيث ركز اللواء على مقاومة الاحتلال في ذاته لافي سياسته ، ولم تنو الصحافة المعتدلة الداعية إلى التناغم (المقطم - الأهرام - الجريدة) على مكافحة الصحافة المتطرفة ، ولما رأى الاحتلال أن اللواء لم تهدأ ورأى صحف الحزب الوطني بقلم جاويش الفاري تواصل حملتها بدأ في محاربة الصحافة الوطنية ، فأنجبه إلى محاربة جاويش وكان يستبعد أن تكون المحاكم مستقلة إستقلالا بحول دون تأثير الاحتلال عليها .

فما أن نشرت مقالة فطائح الإنجليز في السودان حتى طلب ممثل الاحتلال رفع الدعوى العمومية على « جاويش » ، ولكن المحكمة برأته ، فكانت البراءة سبباً في تأكيد مركز الصحافة الوطنية ، وما أن نشر مقال تأييد « دنجرا » الشاب الهندي الذي قتل السير كرزون وبني الحاكم البريطاني حتى وجه إنذاراً إلى اللواء ، وكانت مقالة « ذكرى دنشواي » سبباً في رفع الدعوى على اللواء وتقديم جاويش إلى المحاكمة بتهمة إهانة بطرس غالي ناظر النظار ونقصي زغلول وكيل الحفانية وبرى عبد الرحمن الرافعي أن « الجبلد »

الذى أظهره جاويش في المحاكمة والسجن ، وثبات الصحافة الوطنية واستمرار الحلة على الاحتلال ، وخروج جاويش من السجن أشد عزما وقوة ، كل ذلك دفع الشعب إلى تقايده « وسام الشعب » وكان موافق اللواء في كشف مؤامرة مد امتياز قناة السويس بالغ الأهمية ، فقد استمرت الحلة من أكتوبر سنة ١٩٠٩ إلى مارس ١٩١٠ ، حتى أسقطت المشروع وألقي « غورست » تهمة حادث مقتل بطرس غالى على صحف الحزب الوطنى فصدر قرار مجلس النظار بإيقاف الملم شهرين . . .

وانجبه الرأى فى دوائر الاحتلال إلى إعادة قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ ، وكان القانون يفقد الصحفيين كل ضمان ويحماهم تحت رحمة الإدارة مباشرة بحيث يمكن تعاقب أى جريدة بدون محاكمة . وتنص المادة ١٣ على أنه « يسوغ محافظة على النظام العمومى والآداب والدين تعاقب أو تغل أى جريدة أو رسالة دورية بأمر من ناظر الداخلية بعد انذارين ويسوغ إضافة غرامة من خمسة جنيهات إلى عشرين جنيها لكل إنذار يصدر ، وإذا استمر صدور الجريدة أو الرسالة بعد تعطيلها أو قفلها يعاقب كل من محررها وصاحب امتيازها بالترامة ، وتناقى المطبعة التى طبعها بأمر من ناظر الداخلية » . وبذلك ألغيت الضمانات التى كانت تتمتع بها الصحافة أمام المحاكم وأصبحت فى يد الحكومة ، وقد أشار غورست فى تقريره عن ١٩٠٩ إلى أن هذه هى الطريقة الوحيدة التى يستطاع بها مراقبة الصحافة ، وأن تطبيقها لا يفتح بابا لتضييق الآمال السياسية كما يكون فى محاكمة الصحف ، ولا يترك سبيلا لمظاهرات ، وأنه فعال فى منع وقوع الجريمة . وقد بدت البوادر لهذا الاتجاه كوسيلة لإيقاف حملة جاويش فى اللواء والملم على الاحتلال . وتبين أن القانون أعيد لهدف واحد .

ولم يكتفى بإعادة قانون المطبوعات بل انجبه الرأى إلى وضع نظام لمحاكمة الصحفيين يقدم الضمانات التى كان قانون المقنونات يخولها لهم ، وكانت محاكمة الصحفيين على درجتين

أبتدائية واستثنائية ، وقد ظهرت فائدة ذلك النظام في محاكمة جاويز حيث حكمت محكمة أول درجة بتفريغه عن أى إحدى التهمتين ، وفي محكمة ثانی درجة رفعت التهمة وحكم بتبرئته من التهمتين ، وكان من شأن هذا النظام إطالة مدة المحاكمة فيزداد اهتمام الجمهور بالحركة الوطنية ويتطلعون إلى أنبائها ، وكانت المرافعات التي تلقى في المحكمة بمثابة خطاب وطنية ، فظهر في ١٦ بونية ١٩١٠ قانون إحالة جنح الصحافة إلى محكمة الجنایات للحكم فيها حكماً انتهايياً .

ولا شك أن بث قانون الصحافة القديم الذي صدر في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ وإعادة العمل به ٢٥ مارس ١٩٠٩ كان عملاً له أهمية ذات خطر ، وقد هاجت الآراء الهدف من التقييد ، واتهمت الحكومة بأنها تخشى ثورة الناس لسوء تصرفها وأن الهدف من إعادة القانون هو أن الحكومة الموالية للاحتلال إنما ترغب في إحداث مسائل جسام لا يجرؤ عليها والأفلام حرة ، وقد حاولت صحف المؤيد والجريدة أن تصم اللواء بأن خطتها المبنية على الجراءة والنفى هي السبب في بث القانون القديم . ولم يلبث « جاويز » أن واجه الموقف بسكته الخالدة « أيها القلم » ..

« أيها القلم : لو كنت سيفاً لأخذتك في صدور من يحاربونك ، أو سهماً لأخذتك إلى أحماق قلوبهم ، ولو كنت جواداً لوجدت لك في ميادين النزال مجالا . . لسكر والفر ولكنك ذلك العدو الذي أبصر ما ينال منه عدوه أن يبالجه بالبراه فيشققه أو بالأصابع فيكسره أو يحطمه ؟

أيها القلم : استلنا عريكتك ، واستهاننا بقوتك ، وأمننا جانبك ، فدوا إليك يدا مجرمة ، ما كان أولها أن تقطع ، مدوا إليك أيديهم فأغاضوا من معيئك ، وأسكنوا من صربك ، وأوقفوا من حركتك ، وفلوا من حدثك .

كفروا بدميتك التي طالما منحتهم ، وضلوا عن حكمتك التي كثيرا ما أفادتهم ،

كَمْ بَلَّتْكِ اللَّيَالِي بِالْأَرْقِ ، وَالْأَيَّامُ بِالْفَلَقِ ، وَكَمْ رَمَتْكَ الدُّنْيَا فِي سَبِيلِ هَدَايَتِهِمْ بِالْحَنِّ وَالْفَنِّ ،
وَأَنْتِ جَمِيلُ الْفَرَضِ ، نَبِيلُ الْقَصْدِ ، تَسْهَرُوهُمْ نَائِمُونَ ، وَتَجْرِي وَهُمْ قَاعِدُونَ ، لَمْ يَزِدْهُمْ
نُورَكَ إِلَّا ضَلَالًا ، وَلَا عِلَاجَكَ إِلَّا اِغْتِلَالًا ، وَلَا هَدَايَتَكَ إِلَّا خِيَالًا ، وَلَا اِسْمَانِكَ
إِلَّا وَبَالًا ، اقْتَرَبَتْ مِنْهُمْ فَأَبْعَدُوكَ ، وَانْطَلَقَتْ أَلْسِنُهُمْ فَأَخْرَسُوكَ . وَحَاولَتْ سَلَامَتَهُمْ
فَكَسَرُوكَ ، وَصَفَوْتَ لَهُمْ فَكَدَرُوكَ ، وَأَحْيَيْتَهُمْ فَأَمَاتُوكَ ، . . . وَأَنْشَرْتَهُمْ فَقَبَرُوكَ .

أَيُّهَا الْقَلَمُ : أَتَسْكُنُ بَعْدَ حَرَكَةٍ ، أَصَمْتَ بَعْدَ إِرْشَادٍ ، أَلَمْ تَكُنْ أُمًّا لِنَفْسِهِمْ ؟ وَعَلَيْكَ
خُرُوجًا أُمًّا عَلَى وَطَنِهِمْ وَأُمْتِهِمْ ؟ وَعَنْكَ انْصِرْفًا أُمًّا عَنْ رَشْدِهِمْ . . . ؟

أَيُّهَا الْقَلَمُ : أَهَذَا آخِرُ عَهْدِكَ بِالْقِرَاطِيسِ ، أَهَذَا آخِرُ عَهْدِكَ بِأَنَامِلِ السَّكَاتِينِ ؟ أَهَذَا
آخِرُ أَيَّامِكَ بِالْدِّفَاعِ عَنْ بِلَادِ سَقَاكِ نِيْلَهَا ، وَغَذَاكِ طَيِّبِ تَرْبَتِهَا . . . ؟

أَيُّهَا الْقَلَمُ : تَشْمِيكَ الْيَوْمَ أَنْفَذْتَ أَيْقَظَهَا ، وَهَمَّ أَعْلِيَّتَهَا وَوُطَنِيَّةَ أَوْدَعَهَا قُلُوبَ
الطَّاهِرِينَ مِنَ النَّابِئِينَ . فَلْتَسْكُنْ أَيُّهَا الْقَلَمُ كَمَا شِئْنَا لَكَ ، أَمَا نَأْمُو إِلَى حِينٍ ، أَوْ مَيِّتَا أَبَدٍ
مَلَايِدِينَ . فَقَدْ تَرَكْتَ بِمَدِّكَ هَيُونًا لَا يَأْخُذُهَا النَّوْمُ ، وَقُلُوبًا لَا يَمْلِكُهَا الْيَاسُ ، وَأَيْدِيًا
لَا تَخَافُ السَّلَاسِلَ وَالْأَعْمَالُ ، وَأَرْوَاحًا تَعْدِي الْحُرِّيَّةَ وَالْاِسْتِقْلَالَ .

وَأَنْتِ يَا رَبَّ الْقَلَمِ : أَسْبَرُ عَلَى مَا سَيَنْزِلُ بِكَ وَأَنْتِ رَابِطُ الْجَأْشِ ، قَوِي الْفُؤَادِ ثَابِتِ
الْعَزْمِ ، فَلَا تَرْعِجِيكَ نِيرَانَ اِلْاِسْتِبْدَادِ وَلَا تَرْهَبِيكَ حُكُومَةَ الْاَفْرَادِ ، فَسَكِّمِي اِبْطِلِي قَبْلَكَ
الْمُصْلِحِينَ ، وَكَمْ أَعْنَتْ فِي سَبِيلِ بِلَادِهِمُ الْمَامِلُونَ ، وَلَا يَصْرَفُكَ عَنْ تَأْيِيدِ مِبَادِيكَ ، وَالِدِفَاعِ
عَنْ عَزِيرِ وَطَنِكَ مَا يَرْجِفُ بِهِ الْمَرْجُفُونَ ، فَيَدُ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي كَيْدَ
الظَّالِمِينَ (١) . ١٤٠ هـ .

٢ - وَقَدْ أَشَارَ أَحْمَدُ شَفِيقُ بَاشَا فِي مَذَكِّرَاتِهِ عَنْ هَذِهِ الْمَخْطُوتَةِ فَقَالَ أَنَّ « جِرَاهَامُ »

(١) القواء : ٢٦ مارس ١٩٠٩ .

نائب غورست قابل الخديو، وتحدثنا عن الصحف المصرية وأنها تحدثت في الطعن وأشار إلى ما نشرته اللواء من فصول مدحت فيها « دنجرا الهندى » قاتل اللورد كرزون في إنجلترا واعتبرت عمله وطنيا خالدا وحضت على التشبه به في وطنيته وأن « جاويش » نشر مقالا شديد اللهجة طعن فيه في حق بطرس غالى وفتحن زغلول مما أدى إلى أن لوح بطرس باشا بالاستقالة إذا لم يندد اللواء وأشار شفيق باشا إلى أن جاويش أثار عاصفة من النقد على كلمة « روزفلت » وخطابه في الجامعة .

وقد كان واضحا أن عودة قانون المهرجات إنما قصد بها محاربة صحف الحزب الوطنى وقد أشار (جاويش) إلى أن الصحف الاحتلالية تخرج طائفة بسبب الصحف العربية والطعن في كرامة أصحابها ومحرميها ، والتعطف في نسبة كل ما أصاب ويصيب هذا البلد إلى سياستها وإغراقها في إثارة نفوس الأمة ، ورد على ذلك بأن الجرائد العربية التي يمنونها لم تكن الكاذبة ولا الخاطئة ولا المتطرفة ولكنها تمودت الجهر بالرأى والمصراحة بالنصح ، ولم يطعم أصحابها في مال ولا جاه .

ولم يفت الأمر عندهذا بل أثير في عام ١٩١٠ بأن هناك قوانين جديدة لتغيير الصحافة ، فتصدى لهم جاويش بقوله : « إن غاية ما تستطيع الحكومة أن تسلك من الكلام ، وتمنع الأقلام عن الصريح ، والأشخاص عن الاجتماع ولكنهم لا يستطيع أن تمنع القلوب عن التفكير ، والنفوس عن الانفعال . » ولقد أشار « جاويش » إلى أن بعض الصحف (لا كل الصحف) هي التي يطبق عليها قانون المطبوعات ، وأوأمأ إلى أن القوانين المقيدة جميعها إنما تستهدف قص أجنحة الأفلام الوطنية وحدها ، وهذه ميارته « بينا إحدى الصحف (يقصد المقطم) لا تحاسب على ما تنشره في العالم مما عسى يكدر السلام ، بينا نرى في السكفة الأخرى صحفا ربما أؤخذت حتى على غير المسطور ، وعوقبت حتى على وساوس الصدور^(١) .

(١) ١٣ يونيو ١٩١٠ (العلم) .

ولم يتردد في أن يكشف الصحف التي اتهمت جاويزا بأنه السبب الأول بكتابتها في هذه القيود فقال « ظهر قانون المطبوعات فوجدنا بعض الصحف تصبح هلما فكتبتنا نعلمهم وأرناهم أنه لا خوف إلا على الذين وقفوا حياتهم على خدمة بلادهم وصحهم على ارشاد أمتهم وعاسبة حكوماتهم . أما الذين اتخذوا صحفهم أشراكا لمنفعة أو شفعا بين يدي سلطان أو أمير فمؤلاه في سباج من مقاصد لا يهدمه قانون المطبوعات ، وقد عاش هؤلاء يسرحون ويمرحون بينما تأخذ الحكومة بتلايب غيرم فتعاسبهم على ما يملون ومالا يملون وتأخذهم بما يقصدون وما لا يقصدون » .

ولم يقف الأمر به عند مهاجمة الصحف العربية غير الوطنية ولكنه كان المرصاد دائما لكل الصحف الأوربية والأجنبية التي تصدر في مصر ولم يدع كلمة لجريدة التيمس أورانيا منصرفا إلا عارضها فيه ، ورد لها الصاع صاعين . . وهو يرى أن الصحافة الأوربية على العموم ناقصة العلم بما يسع في جرائدنا ، وإذا تعرضت بنقل بضعة أسطر من كتاباتنا فإن مترجميها يسخون في الدالاب ما ينقلونه أو تسكون الجمل متقطعة متناهية في القصر وغير متتخبة بطريقة عادلة تمكن الفكر من التفهم لآرائنا ومبادئنا^(١) .

وقد كان إيمان « جاويز » بذهبه في الكتابة القائم على مقاومة بريطانيا كدولة محتلة أساسا والكشف عن مؤامراتها ، وتوجيه الضربات إلى عمدائها وأعاونها في مصر ، واستحالة قبوله للأمر الواقع في الإعتراف بوجود الانجليز ، ونقل المعركة إلى تصرفات بريطانيا في مصر ، كل هذا عرض « جاويز » لتأعب لأحد لها ، تمتثل هذه التأعب في ثلاث دوائر : المراقبة الشديدة ، والمحاكات ، والسجن .

فقد وضع تحت رقابة شديدة في بيته ومكتبه وأصفاره ونفقلاته على نحو مثير ، بحيث كانوا يتعرضون له ويهددونه ، ثم وضعت كتاباته تحت مراجعة دقيقة غوكم ثلاث مرات .

(١) ، أغسطس ١٩١٠ (« العلم ») .

«سجين مرتين . وما كانت تحدث في مصر حادثة من بعد إلا كان هو في مقدمة من يحقق معهم أو يسجنون ، وفي يوم حادث مقتل بطرس غالى أجرت النيابة معه تحقيقا دقيقا ، ومن أجل مقالة عن دنجرا أنذرت اللواء ، ومن أجل مقالة عن حادث السكاملين في السودان قدم للمحاكمة الأولى ، وقدم مرة ثانية عن مقالة « ذكرى دنشواى » وسجن ثلاث شهور ، وفي المرة الثالثة كانت محاكمته وسجنه من أجل مقدمة ديوان على الناباى «وطليتى» .

وفي المواضع الثلاثة والمحاكمات الثلاث كان رائعا ، نفس الطبيعة النقية بالشجاعة والمقدرة إلى حد المنف الذى يكتب به ، والجرأة التى يحملها على سن القلم ، كان يعرف تماما الجو حوله ، وكان مؤمنا بأنهم يريدون أن يتخلصوا منه بالسجن أو النفى أو أى وسيلة أخرى يقاوم الاستعمار بها ، الأحرار « أحرار القلم » ولكنه كان مؤمنا كبير الايمان بالله ، قادرا على أن يواجه الممارك ، وقد روى لى الدكتور محمد فهمى الفولى صهره وقد عاش معه هذه الفترة كيف كان يعرف بأنه مقدم للمحاكمة وأنهم يطلبونه غدا أو يفتشون منزله ، أو يدبرون المؤامرات ويرتبون له خطط الانتقام ليحكموا عقوبته ، فلم يكن يصرفه ذلك عن برنامج الطيبى ، ينام ملء عينيه ، ويؤدى واجباته كما هى ، ولا ينزع من عاداته شيئا ، فإذا كان خارج المحكمة وعلم بالحكم ، أسرع من فوره فسلم نفسه لأقرب قسم بوليس ، لا يتردد ، ولا ينتظر حتى يخطروه أو يرسلوا له من يهلته الحكم . وكان أمره في سجنه ، كأمره خارجه ، لا يفتيق بشىء ، يقرأ في كتابه أو يصلى أو يتأمل ، دون أن يفارق وجهه إبتسامة وهدوء ، وهو أبنا يحمل تسكون شخصيته موضع المهابة والتكريم . .

٧ - قضية الكاملين

الإيمان : عام ١٩٠٨

للسكان : القاهرة

أطلق على حاكمه الشيخ جاويش الأولى « قضية الكاملين » وكان عنوان المقال (دنشواي
أخرى في السودان : ٧٠ مشفوقا و ١٣ سجين) كتب في الموضوع مرتين يوم ٢٧ و ٢٨
مايو ١٩٠٨ ولم يكن قد مضى على توليه رئاسة تحرير اللواء خمسة وعشرون يوما . وكان
(عبد القادر إمام) زعيم ناحية الكاملين إحدى مناطق السودان قد أدعى النبوة في هذه المنطقة
وتبته الكثيرون . فاعترضت حكومة السودان وحاولت القضاء على نفوذه ، وسيرت إليه
قوة يقودها المستر مونسكريف المفتش ، ودارت معركة بين قوات بريطانيا وقوات عبد القادر
أمام انتهت بمقتل مونسكريف ومن معه من الجنود ، فلم تلبث حكومة السودان أن أسرعت
بإرسال قوة كبيرة بقيادة وبكسون مدير النيل الأزرق وانتهت للمعركة بهزيمة عبد القادر
وقتل بعض الضباط من المصريين والإنجليز .

ووصلت بعض المعلومات بوسيلة أو بأخرى من السودان إلى جريدة اللواء ، فكتب
جاويش منتقدا تصرف حكومة السودان معلما أن تصرفها هو الذي أدى إلى استفحال الشر
وإراقة الدماء ، وأن السياسة البريطانية إنما تهدف من إثارة هذه الفتن منع الاستقرار الذي
من شأنه أن يدفع مصر إلى المطالبة بحقوقها في السودان . وذهب جاويش إلى أن الإنجليز
هم الذين أوقدوا الفتنة ، ودفنوا عبد القادر إلى هذا السبيل الذي انتهجه ومنوهة بمجد يسوقونه
إليه وغايتهم أن يبعثوا بحالة الاستقرار التي أوشكت أن تسود السودان ، وليخلقوا لهذه
الفتنة أسبابا يبررون بها استيلائهم عليه ، والحيالة بين المصريين وبينه . وأن الخبر الذي وصل
إليه هو الحكم بالشنق على ٧٠ رجلا من الأهالي ، أعدم منهم ٤٠ ، وحكم على ١٣ آخرين
بالسجن . وكانت أخبار السودان تصل إلى مصر عن طريق بريطانيا فتقدمها ببلاغات من
وزارة الحربية أو أخبار تسوقها (جريدة السودان) التي كان يولاهها أصحاب المقطم وهي جريد

شبه رسميه ، أما جريدة اللواء فكانت ممنوعة من دخول السودان ولا سبيل لأن يرسلها أحد . وقال جاويش أن هذا الحكم مخالف لقواعد الانسانية ، ولم يكن ما نشره جاويش مبالغا فيه أو بعيدا عن الحقيقة المبثورة في الصحف الأخرى ، فقد نشرت جريدة المقطم في ٢٩ مايو أن المحكمة العليا انقضت ، وأن الحكم لم يصل ، ورجح أن يكون بالاعدام على ٧٠ شخصا ، وذكرت جريدة السودان أن عدد المحكوم عليهم أكثر من مائة . وأسرت حكومة السودان فجعت أعداد الجريدة وحرقها أثناء محاكمة الشيخ جاويش وحالت دون حصول الدفاع على نسخة منها حتى لا يجد الدليل على صحة ما ذهب إليه . وقد بدأ واضحا من سرعة تقديم جاويش للمحاكمة ، وتحديد جلسة سرية وعدم وجود أدلة أكيدة ، ومحاولة اخفاء المستندات التي تؤيد رأيه إنما يراد ضربه بشدة منذ الشهر الأول لتولية رئاسة تحرير اللواء بعدما بدأ من عصف مقالاته وجرائده ، حتى أن جريدة « الجريدة » وهي المعتدلة الرأي كشفت عن هذا الموقف حين ذكرت (٣١ يونية سنة ١٩٠٨) اتهام الحكومة « اتهامات شديدا بتحقيق قضيتهم على الشيخ جاويش وأنها أسرع في تحديد جلسة لها على خلاف المادة المألوفة في قضايا النيابة وقالت : « أن ذلك يشمر بأن الحكومة لا تنظر لهذه القضية بنفس النظر الذي تنظر به جميع الدعاوى العمومية بل بنظر صاحب الحاجة ، ولكن لا خوف فإن في مصر قضاة » . وأضافت « أن النيابة لم تصل في تحقيقها إلى دليل يثبت أن الكاتب كان يعلم كذب الخبر وقت نشره بل كل ما في القالة من المعاني والبارات تدل على أن الكاتب كان يجهل جهلا تاما أن هذا الخبر كاذب » . وكذلك دافعت عنه « المؤيد » . وقال الشيخ جاويش الذي كانت سنة إذ ذاك (٣٦ سنة) عبارة واحدة حاسمة أمام القضاة « إنى رويت خبرا بغير سوء قصد » .

وكانت النيابة العامة قد وجهت إليه تهمة « تكدير السلم العمومي » بسبب الابهجة الشديدة التي حرر بها المقال ، وأبرز الدافعون عنه « محمد فهمي حنين - أحمد لطفي »

أهم وجوه الضعف في الاتهام . وهي أن النيابة عمدت إلى عدم استحضار أوراق قضائياً السودان والضعف التي نشرت عدد المحاكين ، وقالت أنها هي الركن الأول في الجريمة . وإنه إذا كانت حكومة السودان ساذقة فيما بلفته إلى نظارة الحربية، فلتبادر إلى إرسال محضر هذه القضية . . . وأشاروا إلى أن تسكير السلم العموى بالنسبة للسودان مستحيل لأن «الواء» محظور عليه الدخول في بلاد السودان ، فضلاً عن أن جريدة المقطم لسان حال الاحتلال قالت بمد ما ذكرته اللواء أنه خبر محتمل الوقوع ، بل ربما كان عدد الذين حكم عليهم أكثر من أولئك المشتبهاء ، إذ الجريمة ظاهرة ثابتة ، وقانون البلاد واضح جلي . ومعنى هذا أن ما نشره «الواء» ليس موجهاً لتسكير السلم العموى ، بل أن هناك ما يثبت أن ما قاله اللواء صحيح ، وأن عدد من حكم عليهم يفوق المائة كما قال حاكم السودان في مخاطبته الرسمية . وقال أحمد لطفى : « إن القانون اشترط لتطبيق عقوبة الخبر السكاذب أن يقترب على النشر تسكير السلم العموى بالفعل ، وقد طالب المشرعون إلغاء هذه المادة محتجين بأن نشر الأخبار السكاذبة ، ليس من الأمور الجنائية التي يصح العقاب عليها ، ولكن سياسة الحكومة قضت ببقائها دون التمديل . وأشار أحمد لطفى إلى ما ذكره الاسفاد جاروا المشرع الفرنسي من أنه يكفي وجود هذا النص في القانون لتتمكن حكومة لا تراعى القدمة أن تحاكم عند الاقتضاء خصومها في السياسة وتقضى عليهم بالعقوبة وأن تمحو وتهدم حرية الصحافة . وأن « جاويش » دخل ميدان الصحافة تحت سيطرة هذا القانون بجنون ثابت ، وقلب ظاهر يلتهب حبا في « خدمة الأمة وإرشاد الحكومة » .

وما كاد يضع قدمه في إدارة اللواء حتى حفت خدمته بالمسكاره واعترضته الصعوبات ، ولكن الرجل القدى ملأ قلبه حب أمه لا يقف كفاحه عند حد بل يتلذذ بالمعارك ولا يحفل بالمسكاره ويركب كل صعب وأشار النقاد إلى أنه لم تمض بضعة أيام حتى وقعت تلك الحادثة الكبرى التي روحت القلوب ورملت النساء ، وبادر « جاويش » إلى ذكر ما وصل إلى علمه مطالباً ببيان أوفى ، وقال أن التفاصيل التي أبلغتنا إياها الحكومة رسمياً لم تكن كافية

للقوف على الحقيقة والبصيرى بين السطور أن الحادث على النحو الذى بدأ به لا بد أن يستفعل أمره ، وهى حالة مطلوب منها من أن تجلى الحقيقة بكل إيضاح ، وأن جاويش أورد الخبر مورد القى لم يتحقق تماماً من صحته وعاق عليه تمليفاً أغلط فيه القول للحكومة ونهى عليها التصويت فى نشر أخبار الحادث ، وأسرت الحكومة فبلت الصحف أن الدين قدموا للمحاكمة ٢٣ برى منهم ٣ وحكم على ١٢ بالإعدام والباقي حكم عليه بالسجن . وأشار إلى أن جاويش إمتنع من إبراز الخطاب المتضمن للرسالة السودانية ومركز واسم الوجييين الذين استشارها فى نشر الرسالة ، وقد عد هذا دليلاً على سوء القصد . وقال : إن الاتهام يحاول إغراء التهم بارتكاب فعل منابر لبادىء الشرف . . . والواجب الصحفى ، وأبدى دهشته من أن يطالب الصحفى بذكر أسماء الأشخاص الذين أئتمنوه ووثقوا به ، فأرسلوا إليه أخباراً ، وأضاف بأن شراح القانون أباحوا للصحافى والسياسى الحق المطلق فى كتمان اسم الكاتب أو المرسل .

وقد صور القاضي « محمود رشاد » كيف كان حكمه براءة « جاويش » مصدراً للمتاعب فى حياته فقد جعلها من بين الأسباب التى حملت الإنجليز على الوقوف عقبة فى سبيل ترقيته ، بعد أن قضى سنوات طويلة رئيساً لمحكمة مصر ، فقد عين كثير من رجال المحاكم السككية مستشارين دون أن يكون هو واحداً منهم .

وروى موقفه من قصة جاويش وكيف أنه لما برأه فى محكمة ثانية درجة قامت القيامة عليه وهاج الإنجليز هياجاً شديداً ، واستدعاه المستر برايتون نائب المستشار القضائى وقال : سترفع نقضاً عن حكمك ، قال رشاد له : ائتملوا ما شئتم ، ولم يكسب المستر برايتون القضية فى محكمة النقض إذ أيدت المحكمة حكمه براءة الشيخ .

وقال محمود رشاد : لقد وجه إلى المستشار القضائى سهام اللوم والتقريع ، وقال له برونيوت : أنت تقف لنا دائماً فى الطريق ؟ ثم شطب اسمه بعد أن رشح رسمياً لوظيفة مستشار فى الاستئناف .^(١)

(١) محمود رشاد : ٧ مايو ١٩٢٤ جريدة المحروسة .

وقد أشارت الصحف إلى أن تبرئة جاويز كانت مثار إعجاب الجماهير التي استقبلته بالهتاف وحسن التكرم ، وبلنت الحاسة مبلتها . وتقدم إلى العرب التي كان يركبها نفر منهم أبوا إلا أن يحملوها على أعناقهم ، وقالت اللواء^(١) أن المركب سار غترة الشوارع فلما وصل شارع المدايق كان الزحام قد تضاعف عن انضم إلى المظاهرة ، وكاد الطريق ينسد بالتيار الزاخر ، وحين وصلوا إلى قهوة جورج أمام جريدة الأهرام وكان البوليس يزاحم الناس ، وفتح عن ذلك أن تسكرت بعض المناضد . وعلقت الصحف على البراءة فقالت أنه يستنتج منها أن التهم لم ينشر الخبر باعتباره صحيحا وأن الخبر نفسه لم يثبت كذبه .

وتوات برقيات التهئة ونظم الشعراء عشرات القصائد وقال أحمد نسيم :

يا عاف الانام نفسا وذلا وأجل المباد بين المباد
إن يوما خرجت فيه بريثا هو عيد من أشرف الأعياد
إن من يحمل السباكين مقنا لكثير الأهداء والحساد

وقال إمام المبد في قصيدة طويلة :

أنت علمتنا الحيسة فسرنا يا فتى الدهر تحت ظل اللواء
وبين نشر النقال في ٢٨ مايو ١٩٠٨ وحكم البراءة في ٤ أغسطس ١٩٠٨ وبين استئناف الحكومة للقضية وعرضها أمام محكمة الاستئناف في ٣٠ أغسطس ١٩٠٨ وتبرئته تبرئة تامة من تهمة نشر الخبر الكاذب ، وتهمة إهانة نظارة الحرية كان الشيخ جاويز يكذب ولا يكف عن مهاجمة بريطانيا ، ومن أم كتاباته مقال « يد الانجليز في مقدونيا » نشر في ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٨ .

(١) ٢٩ يوليو ١٩٠٨ (الصحف)

غير أنه لم يلبث أن عاد إلى مهاجمة الأنجليز بنفس القوة والعنف في ٢١ سبتمبر ١٩٠٨ دون أن يكون لما لقيه من متاعب أثرا في تخفيف لهجته وهذه عبارته : « يقول الخبيريون بمجريات المواليد الطبيعية بأن السكان الحى لا يدمو إلا من باطنه ، فاللبات مثلا لا يدمو بإضافة أفرع عليه من الخارج ، ولا يمد مورقا إذا ألصق به شيء من الأوراق الطبيعية أو الصناعية ، وكذلك الشأن فى باقى الأجزاء لا نكون فى اللبات إلا إذا تولدت فى ذاته تولدا ، وبرزت منه بروز الأجزاء المكونة ، من لنا أن نكون مع الأنجليز كالفبات بالإضافة إلى مواد النفاذية ، وهم يريدون أن يفتنوا بقرنا ، ويقولوا بضمفنا ، ويخلدوا بزوالنا ، تقتحمنا عيونهم ، وتحققنا نفوسهم ، يريدون أن يأمرؤا فتمقتل ، ويكلفوا فنعمل ، ضيقوا رداء أفسكارنا ، ومسرح أفسارنا ، حتى لا نكاد نجد مجالاً لحركة ، ويقدوا أرادتنا ، وهواجس نفوسنا ، حتى خيل لكثير منا أى منهم رقباء حتى على خواطر النفوس ووساوس الصدور . : »

ولم تلبث القضية أن حولت إلى « القفض والإبرام » فأيدت حكم البراءة فى ٢٨ سبتمبر ١٩٠٨ ، وما زال هو خلال ذلك يكتب دون توقف مهاجما الأنجليز ناقدا كل تصرف غير وطنى .

٢ - ذكرى دنشواى

وقع حادث دنشواى ١٩٠٦ فى مصر واهتز له الرأى العام العالمى ، وكان للحركة الوطنية وسعها وكتابات مصطفى كامل بالذات فى صحف أوروبا ، أثر بعيد المدى الذى فى زعزعة مركز بريطانيا ، مما جعلها على سحب ممتدها دكرومر ، من مصر بعد أن ظل ممثلاً لها ربع قرن . وأصبح يوم ذكرى دنشواى من الأيام الخالدة التى يحتفل بها ويستعاد الحديث عنها ، ومفاسدة وطنية لا يقاظ الوعى والتفديد بالإنجليز . وقد سادت ذكرى دنشواى عام ١٩٠٨ وجود بطرس غالى رئيساً للقطار ، وكان إبان الحادث ناظرًا للحقانية ورئيساً للمحكمة المخصوصة التى هلفت المشائق قبل نظر القضية وإصدار الأحكام . وكان فتى زغلول عضو محكمة دنشواى إبان هذه الذكرى قد رق وكهلاً لقطارة الحقانية .

وكان لابد أن يتناول « عبد العزيز جابوش » هذه الذكرى بقال ، غير أنه على طريقته فى العنف والشدة لم يتردد فى أن يوجه لبطرس غالى ولفتنى زغلول أسى عبارات القوم والتفريع والانهام ، ولا شك كان تولى بطرس غالى لرئاسة القطار بعد انقضاء مصطفى فهمى قدواجه روحاً من السخط من قبل الشعب واستقبل بحملة غابة فى العنف من الحزب الوطنى لارتباطه فى نظر الشعب بحادث دنشواى والمحكمة المخصوصة . كما تجدد التذكير بحوقفه من توقيع معاهدة ١٨٩٩ من أجل تسليم السودان إلى الإنجليز . وفى هذا يقول جابوش :

« حاربت الجلود المصرية السودان وفتحتة بسيفونها وما قدمته من أرواحها العزيزة ، تلتا فتحت فى أوجهم أبوابه ، ادعى الإنجليز أنهم شركاء فيه بالصف وعرضوا الأمور على الحكومة المصرية فهمت نفس عطوفة رئيس القطار بالبحث فى المسألة ثم رأى أنه ربما

أرغفه هذا المم شيتا من النصب والقعب' الملجأ إلى أهل الأمرين ضررا وأخفهما احتيالا .
وقد كمل مول على وضع اسمه الشريف في عقد الاتفاق بين مصر والحكومة الإنجليزية ،
أو بين الحكومة الإنجليزية ونفسها ، ثم وضع اسمه الشريف على كل ميزانية سفوية قدد
الإنجليز منها للسودان ما قددروا من أموال الحكومة المصرية المثقة بالدين .

هذا موقف « جاويش » في مايو ١٩٠٨ قبل أن تحمل ذكرى دنشواى ، فلما حل
موعد الذكرى استقبلها « جاويش » بشيء من الحفاوة ، وجعلها فرسته لتتديد بأعوان
الاحتلال ، ولم يرهبه أن يكون أحدم في مركز رئيس الحكومة أو « ناظر النظر »
كما كانوا يسمونه إذ ذاك ، والآخر وكيل وزارة الحفاوية . ولا يمكن فهم هذا الموقف
على حقيقته إلا بإيراد سطور من هذا القال التاريخي القى أودع جاويشاً السجن
ثلاثة شهور ، ووضع على رأسه أكليل النار بعد خروجه السجن ، ودفع الوطنيين
إلى التجمع في ساحة فندق شبرد ، أمام حديقة الأزبكية ليحملوه بمرته على أكتافهم
بعد أن أهدوه « وسام الشب » .

« سلام على أولئك الذين كانوا في ديارهم آمفهن معلمين فنزل بهم جيش الشؤم والمدهوان
فأزهب نفوسهم ، وأحرق حصادهم ، فلما هموا بصيانة أرزاقهم التي عملوا في سبيلها بأجسامهم
وذايتهم وأرضهم ، وقاموا عليها نحو حول يمهدون بها بالسق والحفاوة ويقربونها في الهكرة
والشئ قيل أنهم مجرمون ، فسيقوا في السلاسل والأغلال ، ثم سلبوا على مرأى ومسمع
من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وميالمهم وأسدة قاتهم وجيرانهم .

سلام على تلك الأرواح التي انتزعتها بطرس باشا غالى رئيس المحكمة المخصوصة القضائية
من مكانها في أجسامهم ، كما تنزع السلوك الحرير من خلال الشوك ، قبضها بيده فقدمها
قربانا إلى ذلك الجبار الظالم المناضب القاهر ، القائم في بلادنا بظافنا وضمة مقاسدنا »

نالسبده بالأمر فبنا بسبب تفرقنا وضعف هزأعنا ، السيطر عليها بنفر ما يحشون الأنجليز
أكثر مما يحشون الله ويرغبون في المال والرقى ولو شقيت في سبيل ذلك بلام
واصبحت حرمانهم .

سلام على أولئك الذين وقف هلباوى بك فغار فيهم ثوران الجبارين ، ثم إننى
على رقابهم فقصمها ، وعلى أجسامهم فزقها ، وعلى دماهم فأرسلها تجري فى الأرض تلفن
الظالمين وتتوعد الأتقين .

نم قام هلباوى بك مقامه المشهود ، وطلب من قضاة تلك المحكمة الظالمة بذلك
القلب المضطرب واللسان المتلعجج أن يحشر أهل دنشواى فيقدموا قرايين إلى هيك
الاحتلال ، الذى هو مبد الخائنين ، وقرة أعين المارقين ، فالبت رئيس المحكمة المخصوصة
وزميلة قاضى دنشواى أحمد نصى باشا زغلول أن استهوتهما الآمال ، واستغوتهما المناسبات ،
واسترعتهما عظمة الاحتلال فأنطقتهما بذلك الحكم الجائر ، لأرب فى الألقاب والمناسبات
وعوز النفس إلى الشهور بالواجب .

أوعز اللورد كرومر ما أوعز ، ففتت الوجوه ، ونسيت القمم ، واعوزت القلوب
الراحة ، فضيحت الحقوق ، وأزهقت الأرواح ، وأبغت النساء ، وتيتمت الأطفال ، فاجنى
أولئك الذين خالفوا الله بأطاعته وهزموا الحق بنصرته ، أولئك الذين طمسوا معالم العدل ،
وأقاموا منار الجور ! لقد أصبحوا يشق وجودهم على الأرض ، ورؤيتهم على الابصار ،
وسوتهم على السامع ، وذكرهم على الألسن ، وذكرهم على الصدور .

أما أولئك الذين بكتهم الأدض ، والسباء ، ورئى لظلمهم العالم ، وانخلع لصاحبهم
قلب الانسان فى كل مكان ، فهم شهداء عند ربهم يرزقون ، وشهود سكتنق أيديهم
وأرجلهم ورقابهم ودمائهم بما ظلمهم به قضاة المحكمة المخصوصة ، وقصر فى الدفاع
عن حياتهم الحامون يوم يؤتى بهؤلاء فلا ينطقون ولا يؤذن لهم فيمتدرون .

فلتذكر الأمة هذا اليوم الذى أيقظها من سباتها ، وبصرها ببدائها ، وملأ - قلوبها بالعلظة والعبرة ، ونفوسها بالحمية والغيرة ، هذا اليوم الذى كشف أسرار المنافقين ، وفضح كبير الخائنين ، وأظهر حقائق المارقين الذين أشباحهم مع الأمة ، وذممهم مع المحتلين . هذا اليوم الذى أرى المحتلين أنه ليس معهم من الأمة إلا نفر بأعوار بلادهم وذممهم . وخسروا دنياهم وآخرتهم ، وأنه لا يرضى الأمة إلا أن تخلص من احتلالهم ، وتسلم من عدوانهم واغتيالهم ، ألا فلتذكر الأمة الثامن والعشرين من شهر يونيو .

ولتذكر أن للاحتلال أمواتا من بينهم يجب محاربتهم بالبنفس ، ومعاملتهم بالحقد وصورة للظن . اذكروا هذا اليوم ، واذكروا معه من أخذ بأيدي الأمة إلى النهوض ، اذكروا اسم « مصطفى كامل باشا » أمام الحركة الوطنية ، واسقاذ الأمة المصرية ، وانقدوا به لبلدكم ترشدون .

* * *

ولم تحض أيام حتى قدم « جاويش » للنيابة العامة متهما بأنه - حسبما جاء فى قرار الاتهام « أهان بطرس غالى رئيس مجلس النظار ، وأحد فتحي زغلول وكيل الحفانية ، وأنه ضمن مقالة قد طعن فى « عطوفة الباشا » بأن نسب إليه انتزاع أرواح بريئة بقضائه ليقدمها قربانا للورد كرومر . والظن فى عطوفة الباشا وسماة فتحي باشا بأن الذى انطلقهما بهذا الحكم الجائر هو رغبتهما فى المنصب ، ورهبتهما من مظنة الاحتلال ، وتقص شعورها بالواجب ، وغير ذلك من ألفاظ السباب ، والفحش ، كرميهم بخيانة بلادهم ويصمهم ذممهم » .

وكانت الحكومة قد أفادت من تجربة المحاكمة الأولى ، فوضعت القيود التى تسلك

أولا المحكم بالادانة ، وسرعة المحاكمة ، واعتبار المحكم نهائيا منذ النطق به ، كل هذه الإجراءات قد وضعت لها أنظمة بحيث أصبحت نافذة المفعول .

وأعلنت جريدة « المقطم » قبل صدور المحكم ، بأن المحكمة لن تتمكن القوم من اثبات الوقائع التي ذكرها ، وجاء قرار المحكمة وفق ما أعلنت « المقطم » وطالب وكيل النيابة « عبد الحميد بدوي » بالمقوبة الشديدة لوقف مثل هذه الأفعال « الجامعة » وحتى تعود إلى النفوس طمأنينتها ، وذكروا أن مقال « جاويش » إهانة ولم يتضمن ذفا ، ودافع أحمد اعاني وإسماعيل شيمي الحمانيان ببيان الاتهام ، وأدلى رشدي باشا في ٢٧ يوليو ١٩٠٩ قبل نظر القضية بيومين باعتباره ناظر المحاكمة إلى إحدى الصحف الأجنبية بتصريح قال فيه أنه سيحكم على جاويش بكل تأكيد .

وعندما صدر المحكم استقبل أسوأ استقبال ، وانتهت البرقيات والاحتجاجات حتى فتحت جريدة « اللواء » بابا أطلقت عليه باب استياء الرأي العام ، استمر أياما طويلة وكانت عباراته مثلا طاليا للوفاء والمطافة للتبادلة بين الكاتب وقرائه على هذا النحو :

ملا المحكم قلوبنا حزنا ، وزاد نار الوطنية اشتعالا ، إن المجاهدين لخلاص أوطانهم من رقة القل والاستعباد لا يبالون بما يلاقون ، نزل المحكم علينا نزول الصاعقة ، ربات المجال يهتفن الشيخ جاويش ، صحنك مبدأ حياة جديدة ، مكانك في القلوب وذكرك على الألسنة ، لست في السجن بل في سويداء القلب ، لا يقصدنكم المحكم من الجهاد ، كما زادوا في اضطرادنا ثبتنا في جهادنا ، زدت في قلوبنا مقاما يا حامل لواء الحرية ... إلخ .

وانقد كان لهذه الكلمات أثرها من ناحيتين ، الأولى في نفس « جاويش » الذي لم يتأثر بالمحكم واستقبله راضيا باسم : وعاد منه أشد صلابة .

أما بالنسبة للحكومة فقد اهتزت لهذه الحملة العنيفة ، فاضطرت أن تتيج «لجأوش» بعض الامتيازات ، فسمحت له بتناول الطعام من منزله ، وأن يقيم في غرفة خاصة ، وأن يتريض في بناء السجن مرتين في اليوم ، كما أباحت زيارة أهله له .

* * *

كتب جأوش مقالة عن دنشواي يوم ٢٨ يونية ١٩٠٩ ، وسدر الحكم بسجنه يوم ٢٥ أغسطس ١٩٠٩ ونشرت « اللواء » يوم خروجه من السجن (٢٢ نوفمبر ١٩٠٩) أولى مقالاته « أين كفت ثلاثة الأتھر المنسلخة » كشف فيه عن موقفه من الحكم .

« كفت ما كفت بذكرى دنشواي فرأت الحكومة (والله أعلم بيد من أمرها) أن ما كفته استحق عليه العقوبة ، فكان مما كان مما لا حاجة له كره ، فلما بلغ الحكم وقد كنت في منزلي تلقيته بما عهد في نفسي من الجلد والصبر ، ثم خرجت مسرعا إلى ذلك المنزل « نزل المجاهدين والمخلصين . » وقال : لقد يظن بعض الناس أن قد نال أعداؤنا مني غزوا ، وانهم أنصاري من حولي فزهوا ، أن ذلك الحكم نعمة من الله أرسلها ليجمع أشقات القلوب ، ويوقظ بها نيام الميؤن وينبه بها الغافلين ، ولقد طالما نادينا بحاجة الحكومة إلى الإصلاح فقليل متهورون ، وكثيرا ما أسأنا الظن بكثير من تصرفاتها فقليل متهورون ، نشرنا لهم ، قاومنا تصرفاتهم فخورينا وطوردنا ، وأخذنا باكتظامنا إلى السجن ، فإن زعموا أنهم بذلك يشقون غليل صدورهم ، وينفتون على حفيظتهم ، فقد وهموا ، فبماذا ليت شعري يشمقون ! إنما أكسبونا من رمة الذكر ونباهة الشأن ! وبماذا يفتخرون ، أبعاربتهم من أقامهم في مراكزهم وعقوبتهم من أيديهم في مناسبتهم أم بإسائتهم إلى من قسوا عليهم من رحمة ، وأغلظوا لهم من إخلاص ، حتى لا يجرؤ هذو على اتخاذهم مضنة في فته .

ثم غلام يسفرون معا وقد جهدنا واستراحوا ، وجاهدنا وتخلفوا ، وتقدمنا وتقهروا ،
وتحمررنا واسترقوا ، أغرام وهج الذهب فآخذوه أطواقا لرقابهم واصفادا لأرجلهم ، وأغللا
لأيديهم ، وخلت أبصارهم زخارف الدسوت ، نخطبونها بمروءتهم وشممهم ، وطلبوها بالهم
وذممهم ، ثم سمروا - ملابسهم فيها حتى لا يفارقوها مختارين ، ولا يجرمونها مقهورين » .

ومضى جاويز يشكف عن أثر السجن في نفسه : زمرا أن السجن ينل من قلبى ،
ويضنف من حمى ، ويخمد من نار غيترى ، لقد وهما : فا كان أجدرهم أن يعلموا أن في ضيق
السجون أوسع مجال للأفكار ، وأن في ظلمتها نورا للبعائر لا الأبصار ، لقد آخذت
السجن في تلك الأشهر مدرسة زادتنى بصيرة بتصرفات الحكومة ، وعلمنا واسعا بأخلاق
هذه الأمة » .

* * *

وكانت الحكومة قد آخذت الحيلة حتى لا يستقبله أحد عند خروجه من السجن
فأخرج فجأة ، في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل ، وقبل أن يشرق للصباح
حيث الألوف تستعد لاستقباله في موكب ضخم ، ثم حمل في عربة تحت جناح الظلام إلى
بيته ، فأن طلع الفجر ، وتجمعت الجموع في ساحة المحافظة في انتظار خروجه حتى علمت
أنه قد أفرج عنه منذ الليل ، هنالك قصدت إلى داره وقدمت تحيتها إلى صاحب « القلم
المر » الذى لا يثنى السجن عن كلمة الحق التى يعتقد .

وكان ذلك اليوم الذى نشر في صباحه مقاله ، هو يوم تسكريه (٢٢ نوفمبر ١٩٠٩)
الذى أقيم في المساء في فندق شبرد .

وفى خلال أيام السجن كانت قد اقترحت فكرة إهداء « وسام وطنى » من الشعب
« لجاويز » واشتركت طوائف الشعب المختلفة من أقصى القطر تساهم في حمل الوسام ،
الذى صنع على نحو رائع ، فهو مؤلف من ثلاث قطع من الذهب ، الأولى منقوش عليها

رسم الاهرام وقد كتب تحت الرسم : « تذكر الشعب إلى عبد العزيز جاويز اعترافا بوطنيته الصادقة » والثانية رسم على نبات كان يتخذها المصريون الاقدمون رمزا للظفر . وقد كتب عليها الآية السكرية « ولعلوكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم » ، والثالثة هلال في وسطه نجم . وقد نيطت هذه القطع جميعا بوشاح من الحرير الأبيض والاحمر مرصعة كل منها بالحجارة السكرية ترصيما بديما ، وقد صنعه « محمد علي افندي » الجوهري الشهير بالصاغة وأبي أن يأخذ لصنمه ثمنا ، وقدهلته على صدره « أحمد لطفي » وكيل الحزب الوطني . »

كما أهدى طبقا من فضة عليه عبار من خالص اللجين وممها أدواتها وهي قلم مقشط وختامة من الفضة المدهة بالذهب . وأشارت الصحف إلى أن الطراقات الموصلة إلى الفندق كانت مزدحمة بمشترات الألوف من المتحمسين (جريدة الاجيشيان مورنيغ نيوز) .

وقد وجه إليه زملاؤه كلمات التقدير ، ودارت السكبات حول اعتبار السجن في هذه الظروف مما يغيظ عليه الإنسان ، وهو أقل ما يلاقى الحر في طريقة من العقبات ، وأشار بعضهم إلى أن « جاويز » قد عرف جميع أطوار العاقبات العام والوسطى ، وما كان يعرف أخلاق الاشرار والمجرمين من المسجونين « فهو عالم من كبار علماء الاخلاق ، يرشد الامة من خبرة ، ويخدمها بأضاف ما خدمها قبل أن يكون في سجنهم سجيننا » .

* *

وكانت فرصة ليصور « جاويز » مشاعره في هذه المرحلة من حياته ، مفذ تأق في صدر اللواء كاتبا جريشا يهز دوائر الاحتلال والحكومة . ويدخل السجن ويخرج منه . ويواجه جوا حادا من المقاومة والصراع ، وقد أعطى في خطابه ملامح نفسية صريحة تكشف هذا الجانب من حياته ، فهو يتمثل بقول الشاعر :

بلادى وأن جارت على عزيزة وأهل وأن ضنوا على كرام

ويقول : « إذا رأيت من هذه الأمة التى أنشرف بالانقسام إليها هذه الحفاوة والاقبال والمظاهرة والتأييد ، فما ذلك لأننى أنيت فى عهدى بخدمة شيتا من المعجزات . وخوارق العادات ، فإن أفعى ما أنيت فى قصير همدى بالصحافة هو أننى كتبت الكتب غير متعصب تلك المناصب ، ولا حاسب حساباً لأصحاب الأبهة والهيبة . ما داموا على الباطل ، يمرض على الباطل فلا ألبث أن أضربه بسنان قلى ضربة يخر بها صريداً مجدلاً دون أن أبالى بأهله وأنصاره ، ولو اتقنهم الأوسمة ، وحجبتهم عن الناس المناصب ، وكثرت ما قيل أنى ما حوكت إلا لأننى عدت إلى تاز من الكبراء فوخزتهم بأسنة قلى حتى أنأت تقوسهم عن الراحة وجنوبهم من المضاجع . ومن الناس من كان يستحق تلك الخطة ضناً بذلك الفخر من أن يقال منه أو خوفاً من أن يصبه من ذلك ما نزل به من عذاب السجون ، وما ظلوا إلا لأن الحق لا وزن لمن لا يطلبه . ولا نجا لمن لا يمتصم به . »

وهاجم اتباع الاحتلال بعنف « إذا عز أهل الخاسرة تفر من أهل اللق والدهان يعضوم بالنجيلة والامظام ، ويؤمنون بأمرانهم عن الحق قائما هم عبدة الميول والأهواء . وإذا عز أولئك من يرتلون آيات مدحهم ، ويقطعون الأيام والليالى بتسبيحهم ، ويعطوفون بقصودهم طواف الحجاج بالكمية المكرمة ، فهل ند عن عقولهم المتفتة ، ونفوسهم المهذبة ، ودراساتهم الواسعة أن كثيراً من الناس عبدوا ضم الحجارة » .

* * *

وأعلن أنه ما كان يتقبل الوسام إلا لأنه يعتبره منهم « كرامة » وأنه لا يأبى الكرامة إلا لئيم ، إعترافاً بجزءه وقصوره « فأين أنا من جاهدوا بأموالهم وأنفسهم ؟ وبلغوا ما بلغوا من المجد والرفعة ؟ حتى إذ همت أمهم بتكاثرتهم راوا أنه « لا جزاء على فريضة ، ولا شكر على واجب » .

فهو قد تلقى الوسام لا لأنه « فتن بذهبه الوهاج ، وماسه الآخذ بالأيصار ، ولا لأنه أتى ما لم يأت الأوائل ، ولكن لأمر واحد ، ما هو هذا الأمر ؟ نظرت فأبصرت قيد قلوب الأمة فيه تنفض عن أنفسها غبار الموت ، وتنزع عنها أكفان الخوف والجبن ، مستقبلة حياة الحرية التي طالما تمتعت بها الأمم » .

وعاود إنذاره لمن أسماهم أدياء الوطنية وطفيلها ، بأنه لن يتردد في مهاجمتهم ، « أننى لا يقعدنى عن الصراحة وإعلان الحق وجل ، ولا يصرفنى عنهما شئ من الأمل ، كما لا يقرب من الباطل رغب في مال أو منصب ، ولا يفسى حدود الفروض الوطنية المقدسة الزلى من وزير أو أمير » .

وعاهد مواطنيه على أنه لن يألو جهداً في سبيل الكفاح « ولو أطم جسمه للبلاء وروحه للفناء » ثم قال « فإن رأيتم منى نقضا لهذه البيمة أو انحرافاً عن هذه الشريعة فأنتم في حل من دى فأريقوه ومن جسدى فزرقوه » .

ثم أشار إلى ما قدمه له المواطنون خلال سجنه من مال وهدايا وكيف رفض ذلك ترفها عن أن يجعل عمله الوطنى موضع الجزاء المادى « لو كنت ممن يتقدمون عند المفعة لما رددت تلك الأموال التي قدمها إلى أهل الحمية والرومة وأنا سجين ، ولعل بعض الحضور يرفون مقادير ما قدم إلى ، وأنى كنت أردتها رداً جميلاً . فإذا تبيح أولئك السفهاء بأننا لا نكتب إلا لنشهر ، ولا نخطب إلا لنحلي صدورنا بأمثال هذا الوشاح فليعلموا أنه سواء أهلك صدرى وضع هذا الوشاح أم على نمش ، وسواء على سمدي في سبيل الحق أم شقيت ، وقتلت أم حييت ، وسواء على ظمئت أو رويت ، فأزبت أم اغتفيت ، وسواء على أفى إلا كواخ سكنت أم فى القصور ، وبجلد البعير ارتدبت أم بجميل الحرير ، وشبهى الصعاف تنديت أم بطمام الشمير ، ذلك عهد الله بينى وبينكم ما حييت ، لا أبتنى عنكم مالا ونشبا ، ولا أقبل منكم إلا صفو قلوبكم وصالح دعاكم : أن الدنيا بما لها وبما لها وكبرائها ووزرائها ، لا تمدل عندى

أن أكون معافى في بدن ، معافى في وطنيتي ، معافى في إخلاصى لأمتى وخدمتى لدولتى .
ودعا الدين كأنو بيبكونه أن تكون دموعهم في قلوبهم لا في مآقيهم « ما أجدر دموع
الشجعان أن تكون على قلوبهم لا في مآقيهم » .

وعنده أن هذا السجن البسيط ليس إلا أول مراحل الكفاح وليس أعلاها : « لست
أول من أودى من أهل هذا الجيل في سبيل الحق والصراحة إلا أنه ما دام للحق أنصار
يؤيدونه فسوى الناس أن السجن (البسيط) هو أول المنازل ولا بد لهم بعد تكرار
الحوادث ، أن يأنفوا كل كارث مهما عظم وفضع » . ودعا ألا تكون الأحداث
والسكوارث مناحات أو مآتم ، ولكن « دروسا يمتن فيها المفاطر فسكره ، ويمهد في
إدراكها نظرة » .

واستشهد بقول الشاعر :

ومن ظن أن سيلاق الحروب وإلا يصاب فقد ظن عجزا
ووجد الشراء مجالا لتحية جاويز مرة أخرى : فقال أحمد نسيم :

إذا أمرؤ منع الأوطان مهجته رى بها في غمار الحنف والمطب
وقال على الناي :
عادت إلى القلم المشهور شيرته ولاح بدر «الوا» من بعدما احتجبا

وقعت (١) قضية التلغرافات عام ١٨٩٦ حينما كان الجيش المصرى زاحفا مع الجيش البريطانى لاسترجاع السودان ، كان قائد الجيش فى السودان أرسل إلى السردار البريطانى تلغرافا بالأرقام بواسطة المشفرة ، وقد سلم التلغراف للإنجليز ولم يبلغ لفاطر الحربية ، ولما سألت (هابدين) عنه قيل لها أنه لم يصل ، وظهر المؤيد وفيه نص التلغراف حرفيا ، ومعناه : أن قذفت عواصف شديدة إقنعت خيام الجنود وألقوا إلى مسافات بعيدة وقتلت البعض منهم ، وكانت إحدى الجرائد المنافسة للمؤيد (يقصد المقطم) لما رأت ما فعله المؤيد شنت الفارة على السردارية (بقصد مقرر السردار) وقالت أن للمؤيد جواسيس فى دور الحكومة ينقلون إليه الأخبار ، وقامت نظارة الحربية بتحقيق دقيق ، وكذلك النيابة ، وبعد التحقيق وجهت التهم إلى مصلحة التلغرافات واتهموا (توفيق كيرلس) بدعى أنه هو الذى سلم الإشارة منه إلى التلغراف والشاب لا يعرف رموز هذا التلغراف وقد أدانت المحاكمة الشاب وبرئت المؤيد ، وفى الاستئناف برئت أنتلغرافجى ، وظل على يوسف طوال حياته حتى توفى فى أكتوبر ١٩١٣ بدفع من ماله الخاص مرتبا لتوفيق كيرلس الذى فصلته مصلحة التلغرافات على أثر صدور الحكم بإدائته .

وهناك إضافات إلى هذه الصورة التى رسمها هامش الأهرام هو أن المؤيد واسم نشر التلغراف ٢٦ يوليو ، ٢٨ يوليو ، ٣٠ يوليو وأن توفيق كيرلس قد قبض عليه وهو يبلغ إحدى هذه التلغرافات وسالت النيابة الشيخ على يوسف عن مصدر التلغرافات فأجاب أنه لا يستطيع أن يوضح به لأن هذا مر الصحفى ، وسأل عن معرفة كيرلس فأجاب أنه يعرفه معرفة سطحية . ولم تصل النيابة منه أو من الآخر إلى دليل قضائى على اشتراك المؤيد .

(١) هامش الإهرام : الصحافى المجوز (توفيق حبيب) ١٩٣٨/١٢/٨ .

وقال إبراهيم الهلباوى أن القضية هزت الرأى العام وكشفت حقائق كان يحجبها ، وكان محمد فريد رئيس نيابة الاستئناف حاضرا الجلسة ، وكان عبد الخالق ثروت ممثل النيابة فلما صدر الحكم ببراءة الشيخ على يوسف لم يتألم محمد فريد نفسه من إظهار سروره بهذا الحكم ، ولم يكف بالتصفيق بين المصنفين ، ولكن التفت إلى ثروت وقال له :

قل لصاحبك (أى مستر سكوت المستشار القضاى) أن الحكم صدر بالبراءة فلما اتصل الخبر بمستر سكوت سأل عن ثروت باشا فلم يستطع الإنكار فغضب المستشار القضاى على محمد فريد ونقله إلى بنى سويف فرفض فريد تنفيذ الحكم واستقل^(١) .

٢ - ومما يتصل بالقضاء والمصحافة أن مقالا لإبراهيم الهلباوى نشره عام ١٨٨٠ كان سببا بعد ذلك فى تمييزه محرراً فى الوقائع المصرية . قال الهلباوى مصوراً الحادث : « أنه كان لرياض باشا ناظر النظار ستون فدانا فى جزيرة على النيل على مقربة من قريتنا استأجرها منه أحمد فايد قبل قانون التصفية ، فنشرت مقالا فى جريدة التجارة بالإسكندرية لصاحبها سليم نقاش فى أغسطس ١٨٨٠ ألقده فيه هذا التصرف فقبض على وأرسلت إلى القاهرة للتحقيق معى وجابهى رياض باشا وسألنى عن الدليل الذى أملكه ، وقال له رياض : هل أنت من تلاميذه جمال الدين . أرسلوه إلى السجن ، وبعد سبعة أيام استدعانى رياض وعينى محرراً فى الوقائع مع عبد الكريم سليمان وسعد زغلول والمسيد وفا زغلول بمرتب قدره خمسة جنيهات فأرسلت إلى رياض أشكركى من أن المبلغ قليل .

قال لى رياض : قلت أنا أنتاضى خمسة جنيهات ، وأن سعد وأبو الوفا يأخذان ثمانية جنيهات قال : أليساهما علماء الأزهر ، قلت : ليسا من علماء الأزهر أصلا وسعد تلميذى ، فقال : سأحدث فى ذلك إلى الشيخ عبده ورفعوا مرتبى إلى ثمانية جنيهات .

(١) مجلة القباب م ١٩٣٦ .

٤ - محاكمة أصحاب القنصل

من المحاكمات التي كان لها دوى محاكمة المقطم عام ١٩٠٧ وهو نصير الانجليز
ولسانهم التحدث باسمهم وقدم للمحاكمة : شاهين مكاريوس وفارس نمر ويمقوب صروف
وشاهين الخازن وجندى ابراهيم وطنيوس عبده في ٧ أغسطس ١٩٠٧ وصدر الحكم في ٢١
سبتمبر ١٩٠٧ ، وكانوا قد اتهموا مأمور كرموز بالرشوة في صحيفة المقطم والشرق والوطن
في وقت واحد ، ولم يستندوا في هذا إلى دليل أو شبه دليل ، فقد ظهرت يوم ١١ مايو
١٩٠٧ ثلاث مقالات إضافية في الصحف الثلاث بمعنى واحد وأسلوب واحد هاجمت مأمور
المطارين ونددت بتصرفاته وتضمنت وعيداً ، وأسفر التحقيق عن كذب الاتهام لحفظ
لعدم الصحة ، وفي ١٧ مايو نشرت جريدة المقطم والشرق والوطن كلاماً تنهم فيه حسن لطنى
مأمور كرموز بأنه يقتضى رشوة من أصحاب القهاوى وعينت مقدار الرشوة ، وأبانت النيابة
التي تولت التحقيق وثبتت برائته ، ذلك أن دائرة قسم كرموز ليس فيها قهاوى ، وتحول
التحقيق مع هذه الصحف بتهمة القذف ، ودعت النيابة المتهمين فقرر أن المعلومات التي
وصلتهم من (يوسف نصر) وأنسكر يوسف ما نسب إليه وقرر أن أصحاب المقطم استدعوه
وطلبوا إليه أن يحمل المسؤولية عنهم وأحيلت القضية إلى محكمة الأزبكية التي حكمت على
كل منهم بفرامة بخمسين جنيتها ، وحبس شاهين الخازن واسكندر صالح وبراءة طانيوس
عبده ، ولم يكذب بصدور الحكم حتى ندد به أصحاب المقطم في صحيفتهم وأعلنوا أنهم
ضحية لخملة مدبرة تريد القضاء عليهم وهاولتهم الصحف الأجنبية (١) .

• - قصيدة قدوم

ومن القضايا التي هزت الرأي العام قضية «قصيدة قدوم» التي كتبها مصطفى لطفى المنفلوطي وأتهم السيد توفيق البكرى بالاشتراك في نظمها، ذلك أنه في يوم ٤ نوفمبر عام ١٨٩٧ ظهرت «الصاعقة» وحمل صدرها قصيدة لاذعة «تهنئة مرفوعة لسمو خديو مصر لمناسبة عودته من ثغر الاسكندرية» جاء فيها :

قدوم ولكن لا أقول سميد وملاك وإن طال المدى سيبيد
تذكرنا رؤياك أيام أنزلت علينا خطوب من جدودك سوء
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا مصوب سهم بالبلاء سديد
فلما توليتم طنيتم وهكذا . إذا أصبح . . وهو عديد
فكم سنسكت منا دماء بريئة وكم ضمت تلك الدماء لحود
وكم ضم بعان البحر أشلاء حجة تمزق أحشاء لها وكبود
وكم صار شمل للمباد مشتتتا وخرب قصر في البلاد مشيد
وسيق عظيم القوم منا مكبلا له تحت أنقال القيود وثيد
فما قام منكم بالمعالة طارف ولا سار منكم بالسداد تليد
كأنى بقصر تلك أصبح بأندا من الظلم والظلم المبين سبيد
ويندب في أطلاله اليوم ناعبا له عند ترديد الرثاء نشيد
أعباس ترجو أن تكون خليفة كما ود آباء ورام جدود
فياليت دنيانا تزول ولينتنا نكون ببطن الأرض حنود

ونجحت الأوساط والمخاض السياسية ، وذاعت القصيدة وذكرتها صحف لندن ، وقام القصر وقعد ، فأمر ناظر الحفانية باعتقال صاحب الجريدة أحمد فؤاد ، الذي اعترف (م - ١٧ تطور الصحافة العربية للامامة)

في التحقيق بأنه ناظم القصيدة وأنه كان ينوى طبعا ثانية وثالثة ورابعة حتى يعم نشرها . وأنه بأسف لتأخره في طبعا فلم تنشر إلا في اليوم الذي عاد فيه الخديو . وحارت النيابة العامة وكان على رأسها الأستاذ يوسف سراج الذي صار فيها بعد رئيسا للوزارة ، ثم اعتقل صاحب المطبعة ، فاعترف بأنه أحد فؤاد هو الذي جاءه بالقصيدة ، وكان رفيقه الشيخ مصطفى لطفى المفلوطي الذي تولى بنفسه تصحيح التجارب ، فقبضت النيابة على الأخير أيضا .

وذاعت القصيدة في كل مكان ، وكان الطلبة ينسخونها ويبيعونها ، ولكن النسخ ما كان ليثنى غلة طلابها ، مما جعل الصحفي سليم مركيس على إعتباط حيلة صحفية لنشر القصيدة ، فسكف الشيخ عثمان الموصل بأن يشطرها بحد الخديو ، فيحقق رغبات طلابها ، ويكون بآمن من الانتقام . وشطر الموصل القصيدة ونشرها مركيس في مجلته « إعجابا بذكاء الشطر وإعلانا لدأخ الخديو » وقد جاء فيها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد (على فاجر هجو الملوك يريد)

(لاخرابه بيت من اللؤم عامر) وملك وإن طال المدى سيبيد

وأحيل المتهمون الثلاثة إلى القضاء ، بتهمة العيب في الذات الخديوية ، وكانت أول قضية « عيب » تشهد لها المحاكم المصرية ، فمسجل أحد فؤاد في أثناء المحاكمة أجرا وقفة وقفها محقق في ذلك العصر ، إذ قال :

— ليس في هذه القصيدة قصد سيء ، ويدل على ذلك أنها خالية من كل سبب وطعن تحاول النيابة الصاقه بنا ، ولكنها تتضمن موضوعات طالما رددتها الصحف من قبل . فهل قولى أن الرعية لم تسر بقدم الخديو جنابة عظمى ، كلا . . إن محبة الرعية للملكها أمر اختياري . وما من ملك إلا وله من ينقد أعماله ولا يسر بقدمه . والملك ليس بوسمه أن يرغب الناس على حبسه لأنه ملك ، فهو ملك الأجسام لا ملك القلوب .

واستشهد أحمد فؤاد بأمثلة من الديمقراطية في الغرب ، وتساهلها جبال حرية
«الفكر ، فقال :

- أن ملك سيام لما زار روما سأل ملك إيطاليا : ألا تعاقب الدين تراهم من رعيته
لا يحترمونك ؟ فأجاب : كلا . لا أستطيع ذلك ، وكل ما أفعله هو أن أستميلهم بأعمال
الطيبة ، وأن ملكة إنجلترا وهي أعظم جدًا من الخديو سلطانا وملسكا ، لم يرفع أحد الناس
قيمه لها في أثناء سير موكبها ، فأهانته أحد الإشراف ، وأقام عليه دعوى ، وفي المحاكمة
قال المتهم : أنا لا أحب الملكة ، ولا أريد أن أحترمها ، فتركته المحكمة وشأنه .

وبعد فإذا فعلنا نحن . هل عملنا عشر ممشار ما أتاه سكان أروندا الذين ساروا بالندمش
والرايات السود في عيد ميلاد فسكتوريا . ثم أنى لست بأول من قال بظلم المائة الخديوية ،
فلئن أشهر صحف مصر نشرت مرة أن الخديو سميد أراد يوما أن يجرب مدفئا جديدا ،
فقتل له أحد رجال الحاشية : هل يأمر مولانا بأن تتهمل ريثما يمر الناس ؟ فأجابهم : إن ضرب
النفار . نحن لم نستلم الناس بالعدد .

وحاصر الخديو إسماعيل إحدى قرى العميد وضربها بالدافع لنفضيه على رجل واحد
وعلى هذا أقول أن القصة التي أحاكم بسببها خالية من أى مطعن بماق عليه القانون .
ولكن المحكمة حكمت على أحمد فؤاد بالسجن عشرين شهرا ، وعلى المنفلوطى بسنة أشهر .

٦ - الهجوم على أسرة محمد علي

ولقد استطاعت الصحف في هذه الفترة أن تحمل على أسرة محمد علي وأبرز ما عرف في هذه المرحلة مقالاته : مقال الشيخ محمد عبده في الوقائع المصرية بمناسبة مرور مائة سنة على مولد « محمد علي » ومقال أحمد فؤاد في جريدة القطر المصري في ٨ يناير ١٩٠٨ وهذا أهم ما جاء به .

(جريدة القطر المصري - أحمد فؤاد - ٨ يناير ١٩٠٨)

لا شك ولا ريب أن سبب شقاء المصريين وتأخرهم وعدم تقدمهم هم عائلة محمد علي . سوام كان ذلك أدبيا أم ماديا . أما من الجهة الأدبية فمشهور بأن مصر من اليوم الذي رمتهم إليها فقدونيا إلى الآن مائة عام كانت كافية لأفئ تبلغ خلالها ما بلغت فرنسا من الإندام والرق والاستعداد لحكمكم نفسها بنفسها . لكن سوء قصدكم حال بين المصريين وبين التقدم لأنهم يملكون أن مصر متى بلغت رشدتها لا تقبل ذل حكم الأجنبي ولا ترضى بأن تسلم زمام أمورها ومصالحها للتراب لأن صلاحها في فسادها وتقدمهم في تأخرها .

وقد اشتهرت عائلة محمد علي على العلم والفنل حربا عوانا . أما المدارس التي زعم المفاقدون أن محمد علي أسسها لغير مصر فقد كان غرضه بها الحصول على عدد من الضباط ليستخدمهم في مقاصده أما كان عازما على الخروج على الدولة صاحبة النعمة عليه وقد يتم أولاد المصريين ورمي نساءهم في حروبه التي لم تنل مصر من ورائها خيرا غير إدهاء حنيفة اليوم أن الإمتيازات التي حصلت عليها بدمائها له لا لها . وقد اتقى أثر محمد علي في قبح فعله وسوء سيرته أولاده وأحفاده من بعده فأزهقوا روح العلم وضنوا على المصريين ولم يجودوا عليهم إلا بالقدر اليسير لطائفة مخصوصة من ممالئكم اصطفوا دون غيرهم فقرّبوا منهم كل منتشر لا يعرف أحد مسقط رأسه ولا ملقط جسمه وسلموه الوظائف واستعانوا بهم على بقاء المصري في حالة الجهل حتى لا يطمح ببصره إلى الاستقلال وسلبوا الضياع وأفقوا ما تنله على شمولهم لتبقى مصر إلى الأبد وقفا عبوسا على كل ولد تله نساؤهم .

ليس الغريب هذا . إنما الأدهش والأغرب أن طائفة من عباد السلطة المطلقة يكذبون على التاريخ ويدعون من وقاحتهم أن العائلة الحمديّة العلوية خدمت مصر . ويستدلون على ذلك بوجود بعض مدارس أنشأوها ليعملوا الناس في أوروبا كي يكون بأيديهم الحجج الدامنة على خدمة العلم . وما أنشأوها إلا خداعا وغشا حتى لا يتسنى لأحد أن يذكر قبيح أزم وسوء تاريخهم في مصر . ولأن عائلة محمد علي هي التي بتبذيرها وغيره سلمت مصر إلى الإنجليز ولأنهم ينفضون المصري ويكرهونه أشد البغض ومن المار أن يسلم عفته لمدوه . .

ثم باى حق مشروع تأخذ عائلة محمد علي من الخزينة المصرية ثلاثمائة وخمسين ألف ليرة . سقوا وأى شر دفعوه عنها أم أى خبر جليوه لها حتى يكال لهم المال جزافا .

المجتمع

من خلال الصحافة في هذه الفترة نستطيع جذاذات مختلفة أن تتجمع فترسم صورة حياة المجتمع في مجالات كثيرة وأول مظاهر الحياة الاجتماعية في هذه الفترة ندوات جماعة الحفاظ والرواة ، يقول توفيق حبيب :

عرفنا وأدركنا من هذه الجماعة أحد مفتاح وأحد سفير السيد وفا وعبد الكريم سليمان وعبد الله نديم وحفي ناصف ومحمد حافظ صبرى ، أولئك الذين كانوا يحفظون القرآن والأحاديث الصحيحة وبروون أشعار الجاهليين والمضمرين ومن تبهم من شراء العصر الميامى وما بعده ، كان لا يزل ما يحفظه الواحد منهم عن عشرة آلاف بيت من الشعر وحدث ولا حرج مما كانت تميمه صدورهم من الروايات والحكايات والقصص كاذبة وصادقة عن القدماء والمحدثين بروونها مسكة الواحدة برتبة الأخرى ، ولا يكاد أحدهم ينتهى حتى ينطلق الآخر فيروى ما يحفظ مازجا الرواية البارة والقفشة الفارحة .

* * *

ويتحدث محمد هاشم عن الفنانين والمثقفين فيقول :

رحم الله عبد الجوى وعثمان الشنتورى ولانيلوى وتلاميذهم ومدارسهم أولئك المساميح الذين كانوا ينشرون على الناس رسالة الفن الجميل ، وقد رزقوا الخطوة في قصور الملوك ودور الأدماء مالا مطعم وراعه لأحد ، وكانوا يهبون فمهم للشعب ويوتقون على مضارب أمانيه ، ورحم الله شوق إذ يقول في رثاء عبده الجوى :

يامفئشا بصورته في الرزايا ومعنيها بحاله في المكارم .

ولقد حدثني الثقة أن عبده غنى ليله لحفه في مذهب (أنا من هجرك أحكي خصرك) فرسم الناس في مجالهم كما تأخذهم على غرة آلة التصوير فكانوا الغالبية بين واقف بهم بالجلوس سمع أول اللحن فتجمد في مكانه لا قائماً ولا قاعداً وواضع يده على جنبه يسكنه ، ترك يده مكانها ومتفاد يرسل النكتة بنفسها .

وكانت أحياء القاهرة القديمة دائماً مأجبة بالطبقات المختلفة من عشاق الفن ولكل واحد من رجاله شيع يتعصبون له ويقدمونه ويروون غناءه وكثير منا من لا يزال يذكر مذاهب الفناء القديمة في خفة ظلها ومهولة تناولها وجمال تلحينها وقوة مطابقتها لتذوق المصري الطريف وبذكر شميرات المثنويات كألظ والوردانية وغيرها إلى الرحومة أمينة المرافقة وقد كن على جانب من الفطنة وظرف البادرة حتى عد لبعضهم أوابد من قوة ما عرفت أنذبة الأدب والصحف القبايلي وحافظ رحمه الله عليهما ولقد حفلات بيوت الأعيان ومجالس الخواص والتمهوات البلدية بهذه الأدوار والموشحات حتى كادت تميد إلى الأذهان ذكرى المدرسة القديمة في بغداد أيام إبراهيم الموصلى وأبنة اسحق وهو العصر الذهبي للدولة العربية .

* * *

٢ - أما « المسرح » ، فقد كانت الروايات أجنبية ثم تعرب ، كيف كانت تعرب ، هذه مثلاً رواية هرناني لفيكتور هيغو كيف تحولت إلى رواية « حمدان » يقول الصحفي المجوز : قرأها نجيب الحداد وأراد نقلها إلى العربية فأخذ منها هيكلها وام وقائمها وأبدل أشخاصها الأسبانيين بأشخاص من رجال تاريخ العرب في الأندلس وأطلق عليها اسم « حمدان » وهو بطل الرواية الذي يمثل دور هرناني ومثلت حمدان لأول مرة على مسرح اسکندر فرج في شارع عبد العزيز يوم ١٨ مايو ١٨٩٧ مثل الشيخ سلامة حجازي دور حمدان ، السيدة ليبي مالحى في دور شمس وأحمد أبو المدل دور نصر الدولة ابن حمدان ، وحسين حسنى في دور ملك الأندلس عبد الرحمن وورده ميلان دور المجوز .

وكان في الرواية قصائد غنائية ينشدها الشيخ سلامة حجازي ومقطوعات شعرية .

يردها أفراد من الجوقة في إفتتاح بعض الفصول وختام الرواية . وفي رواية هرناني يقسم الدوق روى غوميه على سورة أبنائه وأجداده بأن يميز هرناني ولا يسلمه إلى دون كارلو ولما كانت التصاوير والرسوم غير معروفة من العرب ولا يصح القسم عليها ، أبدلها نجيب حداد بالأعلام وأجرى على لسان الأمير قسماً بليناً تضمن أسانيد تاريخية فأخذ تقول :

هذا سلاح الأمير ناصر أول أجدادي الرجل العظيم الباسل الذي ولي قيادة الحرب ثلاث مرات ، هذا سلاح الأمير كذا . . . الخ ومن أهم التنويرات التي أدخلها نجيب الحداد على رواية هرناني أنه لم يدع حمدان ينتحر يشرب السم كما فعل فكتور هيجو بهرناني ، بل أبقى على حياته بأنفاق الأميرة شمس والملك عبد الرحمن على اقتاذه وتخليصه من قسمة الذي وعد به الأمير نصر الدولة .

* * *

٣ - و « الأعياد » بصورها صاحب الهامش كما كانت في هذه الفترة : ذهبت أيام الساحات والميادين تملأ أنحاء العاصمة ونصبت فيها مراجيح الوزة والوالى ويمتلئ بالصبيان والصبايا ، وتعموج بالمشرات والثلاث من أعيان الأقاليم الذين يأتون لحضور التشريفات والتبرك بزيارة أهل البيت ، كانوا يأتوننا وراء كل واحد الخدم والحشم والبنون والبنات ، وكل واحد منهم يكون بمجاعة ترحم رصيفاً برمته وتملأ الجيوب بما ينشره من المال باليمن والشمال ، أين الأفران البلدية تصادم منها الصواني بما تحمل من طلائع الشريك الذي يخرج من النيران ويوزع في المقابر على المقربين والفقراء والمعوزين : (رحمة ونور) .

أين الميال من سفار أبناء البلد يرفلون في الأسفر والبرقالي والفيروزي من ملابس زاهية وفي أيديهم أطباق وسواني (على نور) يتصايحون وبغادون وأولاد البلد المتر يعللون الدنيا بهجة وحبوراً بلاساتهم المنابي وقداطيمهم السكوية المكندره ، وقد جلسوا وأمامهم سحب الورد والشموع الموقدة وفي أيديهم جوزة الحلي يتصاعد دخانها .
والفتيات والفتيان يركبون عربات السكرارات قصين مطيلين وراكبين الخيل .

٤ - أما المحاكم الأهلية فقد كان لها أهميتها . كانت المحاكم الأهلية وسيلة لخدمة القنة العربية وترقية الانشاء الديوانى وتحرير المذكرات والخطابة على منبر القضاء بفضل من انضم إلى القضاء والحاماة والتدريس فى مدرسة الحقوق ومن خريجى الأزهر ودار العلوم .

فن كبار الأزهريين محمد عبده وسعد والمهلباوى ومحمد أبوشادى ومن دار العلوم حسن جلال المصرى ، أبو النعمان عمران ، عبد الفتاح بيرم ، عماد اسماعيل ، حفى ناصف ، محمود أبوالنصر ، أحمد أبو الفتوح ، محمد فريد ، وكان رجال القضاء الأهلى والحاماة الفضل الأول فى كل الحركات والتطورات الفكرية والسياسية : محمد عبده : الإصلاح الدينى . قاسم أمين : تحرير المرأة . سعد زغلول : الحركة الوطنية وكان لمبد العزير فهمى وعبد الحميد بدوى وعبد الحميد مصطفى ، القدر الملى فى الرد على برويت وتحرير الباحث القانونية .

وكان للمصحافة ورجالها نصيب من خدمة رجال القضاء فن رجال القضاء عشرات كتبوا الفصول الزانة منذ أربعين سنة مستترين وجوبا وأصدروا أحكاما نزيهة عادلة لرفع منار التفكير الحر .

* * *

وروى حافظ ابراهيم كيف سجن المهلباوى المحامى عام ١٨٨٥ قال :

كانت دار عبد السلام المويلحى فى تلك السنين منتدى الأدب فى مصر يؤمها عندئذ الأدباء والكتاب والشعراء ويتخذونها مقرا لهم يقيمون فيها كثيرا من ساعات النهار والليل ، ومن يتردد عليها ابراهيم المهلباوى وفى يومه ما دخل على الحاضرين الحاج حسين وهو رجل مقاول كان يقوم بأعمال بناء وترميمات خاصة لمبد السلام المويلحى وأخبره أنه متهم فى قضية بسبب أنه تعدى على مهندس كان يلفت نظره إلى عدم شغل الطريق بالأنربة والأحجار ، وكانت أول قضية يتزافع فيها شيخ المحامين وجاءت الجلسة وانتظر عبد السلام المويلحى ومن معه ، الشيخ المهلباوى ليصرفوا ماذا تم فى القضية ، وإذا بالذى حضر هو الحاج حسين المقاول .

قال: إن الهلباوى بدأ مرافقته وكان القاضى محمود سالم فتدريج إلى ضرب الأمثلة فقال :
وأن حضرة القاضى المحترم الجالس الآن فى مجلس القضاء وهو على ما هو عليه من نفوذ
وسلطة لو أنه كلم فى طريقة شخصا ما بأمر أو نهى لاعتبر دخيلا متطفلا ، ولتمدى عليه
الناس بأكبر من السب - لماذا - لأنه غير معروف ، ولأن القاضى لا يلبس طرطورا
حتى يعرف به . واستمر فى ذلك ، غير أن القاضى لم يحتمل أن يكون موضع التمثيل على
هذه الصورة الساخرة ، واعتبر ذلك تمديا على هيئة المحكمة وحكم على ابراهيم الهلباوى
بالسجن ٢٤ ساعة وذهب المويلحى إلى منزل محمود سالم القاضى بمحلولان يرجوه أن يفرج
عن الهلباوى فقبل بعد أن أبان لهم طول لسانه واحتياجه إلى الإيافة فى التعبير .

* * *

أما حافظ ابراهيم (١) فقد كان يسكن طوال سنى الحرب إلى سنة ١٩٢٠ فى منزل
فى الجزيرة فى الطريق المؤدى إلى محطة السكة الحديد وكان أخوانه أمثال البشرى وفؤاد كمال
كانوا يزورونه فى تلك الدار قائمين : نحن طالعين هذا اليوم حافظ ابراهيم؛ قياسا على
طالعين حلوان ، أو الهرم أو القرافة ، ثم انتقل بعد ذلك إلى حلوان ثم إلى الجزيرة ثم إلى
المادى والزمالك والثرثيون . كانت تساكفه أمينة هانم زوجة خاله التى ربهه والتى توفيت
قبله بعام وكانت شهرتها مستقبضة فى الطبخ لورق المنب الذى كان يقول أن الحلة الواحدة
فيه تنسكف جنبها مصريا كامل لأنها تعمل على مرقة ديك رومى ، وكذلك عرقت براءة
صناعة الأرز بالحمصة ، والبصارة .

يقول المحرر : كنت فى زيارة للمرحوم فى ليلة من ليالى الصيف ١٩٢٩ وكان يشمر
بالمرض ، قال: الليلة آكل لقمة خفيفة لأنى تمبان : صحن بصارة ، نخذ أرنب جبلى ، ماذا

(١) مجلة الجامعة سنة ١٩٣٣ م .

تعمل مادماتهدمتنا، الأكل الخفيف قبل النوم أحسن، وكان خادمه رجلاً أسوانياً اسمه حسن ظل في خدمته أكثر من اثنين وعشرين عاماً وكان له في بعض الأوقات خادمة تسمى فاطمة: خفيفة الروح، وكان حافظ يحب أفاطها وتميراتها ويطرب لأغانيها الدامية وكان أثاث بيته بسيطاً غاية البساطة، طعم عادي في غرفة الاستقبال وفي غرفة النوم سرير وكنبه، ولم يكن في منزل حافظ بك كتاب واحد ولا ورقة ولا قلم ولا دواء، وكان ينظم شعره ويحفظه ولا يدونه إلا عند النشر في الصحيفة. وكانت عنايته منصرفة إلى الطعام، كان يقضي وقته أما جالساً في فرائدة منزله أو مستلقياً على السكفة ومستنداً رأسه على عدة مخدات والسيجارة الهافانا في فمه، ويحفظ في منزله بالسيجار الهافانا والكرونا وزجاجة كولونيا. وكان يحب المنب والتفاح واللوز، ويترنم بأفضال الفول المدمس ولطالما تمشي بالفول المدمس في الأوبرا في ليالي كثيرة، وإذا اعتز بشيوف أحضر لهم طير السمك. أنه يعتز بهم لأنه يطعمهم سمكاً مشمساً واحداً، وروى أنه تزوج معذ ثلاثين عاماً فتاة معربة في حي السيدة زينب كان أبوها من نجار الحلي، آية في الجمال طلقها بعد العشرين يوماً من زواجها، وعال حافظ ذلك أنه قضى عمره قبل الزواج بين خلان وندمان من عجاس أنس إلى مجلس سمر، فلم يستطع أن يتزوج الحياة الزوجية، وبدأ الملل في اليوم الثالث وأخذ يتوأمى بالصبر، في اليوم العشرين بلغ الملل منتهاه، فانطلق إلى أبيها يسلمه مؤخر الصداق ويتنازل عن ملكية الجهاز..

اشتغل حافظ بالحمامة الأهلية وتفرغ في مكتب سعد زغلول، وكان أبو شادي في نفس المكتب وكانه أبو شادي بالحضور في قضية أمام محكمة ابتدائية لطلب التأجيل فذهب حافظ وهو معتز بقوة في القنة وفصاحته، وكان رئيس الجلسة قاضياً تركياً لا يفهم العربية، فلما جاء دور القضية وقف حافظ بصوته الجمهوري:

أنا حاضر مع اللهم؛ محمد حافظ إبراهيم عن عميد أبو شادي عن الأستاذ سعد زغلول.

وأطلب... وهنا قاطمه الرئيس ايه تأجيلات ، ايه تأجيلات ، ايه حافظ إبراهيم عن أبو شادي
هن زغلول ، الحاكم مش لهبات ، حكمت المحكمة بتأييد الحكم المسأف وشطب اسم
الحامى من جدول المحامين . كان حافظ وفيا لأصدقائه سعد زغلول عمده ، محمد محمود ،
الشيخ المراعى ، محمود عبد الرازق ، قضى مع سعد العهد الآخر فى بساتين بركات . كان
ميمره ونجى خلوته ، كان سعد يقضى وقته بتسلى بلعب الورق مع أصدقائه فى مسجد
وصيف وبساتين بركات ، وكان الالمب يجمع سعد وحافظ . . وكان الدكتور عجوب يهيم
بمستغلل طبيعه فى الالمب باستمرار ، شكك سعد مرة أنه لا ينام فى الليل وزادت شكواه من
الأرق وقت النوم فقال له حافظ على الفور : مستمجل على النوم ليه ، ياما راح تشبع نوم
طول بالاك ، فسرت هذه الإجابة هن سعد ، ومرة فى مسجد وصيف وبساتين بركات كان
حافظ جالسامع سعد وفتحت مناقشة عن أنواع الأطعمة وجرى الحديث طويلا ، وفى أثناءه
ذكر سعد أنه أكل مرة منذ أمد طويل فى بيت عبد الله أباطة طاجن من نوع خاص وأنه
كان شهيا ولا يزال يذكره ، فاقترح حافظ بسرعة على أباطة أن يحضر لهم بضمة طواحن
من هذا النوع لىكي توضع على المائدة يوم الجمعة ، وقبل أباطة بك وهو متهلل هذا الاقتراح
وانصرف الجميع .

٧ - وما يتصل بصورة المجتمع ، هذا الخبر : كان الدكتور شبلى شميل قد قام بفتح
عيادته فى طنطا قبل أن يتخذ مدينة القاهرة مركزا له ، لم يكده يستقر فيها بزاول صناعته
حتى قام بعضهم فى وجهه وحرصوا الزبائن والنساء فى مقدمتهم على مقاطعته وعدم إدخاله
بيوتهم أو زيارتهم فى عيادته ، ولعل ذلك يرجع إلى كتاباته عن الفلسفة المادية ، فانتهل إلى
العاصمة وكان قد حضر مع أصحاب الفتطف من بيروت عام ١٨٨٥ وكان يكتب فى الفتطف ،
ثم أصدر مجلة الشفاء . وقد أصدرت إدارة المطبوعات إنذارا لجريدة الشفاء .

كانت لحمير دولة

وكانت لحمير دولة : أسست الأهرام في ١٨٨٩/٧/٢٩ إلى صدورلائحة الحماره وعلق توفيق حبيب في هامشه عام ١٩٣٩ على هذا الخبر فقال : في هاتيك الأيام كان لحمير دولة وللحماره صوله ، وكانت هناك حبر الأجرة والحبر الملاكي . وتل أن كان يخلو بيت من بيوت أهل الطبقة الوسطى والعليا من حواصل لحمير وخادم أو خدم لتنظيفها وتركيب المدة عليها . وكان عبد الحميد صادق باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهلية يأتي إلى عمله وهو راكب حماراً . وكان الأعيان يتباهون بزينة حرمهم ، فالبرادع من الحرير ، والرشنة والترويسة من الفضة ، وأحياناً من الذهب ورحم الله عهد زيارات الحمدي وتسابق الوطنيين إلى حضراته وهم على حرمهم يسابقون بها الترام وينسكتون على ركابه ، وحدث ولا حرج عن مواقف الحبر وشيوخ الحماره ومعلمها المشهورين ، وأذكر منهم المعلم على بطيخة شيخ شويقة السباعين ، وكان تحت يده نحو خمسين حماراً وله صله بالأعيان وأرباب الأعمال ، يوصونه على الركاب الخاصة لأنفسهم ولحريمهم . وفي الخطل التوفيقية للمرحوم علي باشا مبارك بيان بعدد الحبر والحارين ومن يتبعهم وما تأخذ الحكومة من الفردة (الضريبة) عليهم ، وقد قضى الدهر الخؤون على دنيا الحمار أصبحت سير الحبر المشهورة في خبر كان ، وخلا بروجرام السنة التوجيهية من تواريج حمام بلعام وحمار القديس بطرس إلى حماره منبئي وحماره القديس .

وارتاج جوال المدينة من صباح الحماره : يمينك شمالك ، وشك ظهرك ، وكان للحرب المظلمى (١٩١٤) عملها في القضاء على البقية الباقية من حمير القاهرة إذ ساقطتها السلطة العسكرية للعمل في الدردنيل كما أخذت القروء إلى فلسطين وحل الشوفيرات محل الحماره وأصبحت لهم مثل حماره زمان لأئمة وامتحانات ورخص ، وكانت هناك أيضاً صحيفة اسمها (الحماره) أصدرها محمد توفيق الذي اتخذ منهج عبد الله نديم في المحادثات واستخدم الاقتباسات وتحدى السجع بلا تسكف وكان له أسلوب خاص في قلب القصائد القديمة والنسج على منوالها . وقد أرى قراء الحماره على عشرة آلاف قارىء ، كما بلغت مجلة الأرغول هذا الرقم أيضاً وكان يصدرها الشيخ محمد النجار (١) .

قصة الترام : (فات الأهرام ١/١/١٨٨٩)

«اللجنة المصاطبها مخطوط الترمواى اجتمعت ورأت أن تعد خطا يبتدىء من شارع مصر العتيقة ميدان قصر النيل إلى شارع الترعة الاسماعيلية حتى كوبرى الليمون وهناك يمر فى شارع النجالة وينتهى إلى العباسية ثم يمر خط آخر يبتدىء من كوبرى أبو العلا ماراً بشارع بولاق ويمتد فرعان من كوبرى الليمون إحداهما إلى شارع شبرا والآخر إلى السيتية ومنه إلى بولاق ، ثم فرع آخر يبتدىء من قصر النيل ماراً بشارع الجزيرة حتى الأهرام وفرع يصل إلى محطة بولاق المذكور» .

وعلى توفيق حبيب على ذلك فقال : وقد جعل ميدان العتبة الخضراء مركزاً لمخطوط العامة، ولما تأت سنة ١٨٩٥ حتى سير الخط الأول من كوبرى أبو العلا إلى القلعة مجتازاً شارع بولاق (فؤاد الأول) وكانت الترعة الاسماعيلية تمتد من عند دار الأناض المصرية مجتازة شارع الملحة نازلى عدد الاسماف فسكوبرى الليمون ممتدة إلى غرة، حيث يتلاق بالخليج المصرى إلى النيل . وكان خط المطرية يبتدىء من ميدان قصر النيل (ميدان الاسماعيلية الآن) مسابرا الترعة الاسماعيلية حتى كوبرى الليمون وكان حى التوفيقية قضاء شرع فى تقسيمه وكان المتر فيه بعشرين قرشا . وكان للمرجعية صولة ودولة ، فأفزعهم الترمواى وردد صوتههم محمرد خاطر بك ، وكان عام ١٨٩٥ شابا تمخرج من الخديوية فنشر قصيدة مهيبة بلسان الخيل لعله لا يبعهل باعادتها اليوم ، وأخذ سليم سر كيس ينشر ورقة بعنوان (الكهربائية) مكبرا فيها حوادث الترمواى ومن تدوسه أو تصدمه من حيوانات باطنة وبكاء ، ويقول العامة «الكهربائية سيرها عجيب لما تبرطع على القضب » وطالب أعيان شبرا من الحكومة منع تسيير الترام فى شارع شبرا حتى لا ندوس أولادهم وهم ذاهبون إلى المدارس وأن يسير الترام فى الضواحي فقط » .

طرائف الصحافة

١ — الامضاءات المستعارة

من أبرز الحوالب الجديرة بالكشف عنها موضوع الامضاءات المستعارة ، وقد حصلنا على بعض التوقيعات التي كانت تستعمل في هذه الفترة : اسماعيل أبظه يكتب في الأهرام بتوقيع (هلم) . محمود نغرى يكتب في اللواء بامضاء (محمود المقاصد) ، أنطون الجليل يكتب في مجلة الزهور بتوقيع : فؤاد ، سعاد ، ربيعة . ح . ي ، اسماعيل صدق كان يكتب بتوقيع (مستقيم) ، داود بركات كان يكتب في الأهرام ١٩٠٨ ، ١٩٠٩ بتوقيع (هـ . بن . ي) وقد ترك حافظ عوض صاحب جريدة كوكب الشرق فصلا طريفا عن الامضاءات المستعارة قال : كنت أعمل محرراً في جريدة محرراً ومترجماً حين أرسلت روسيا بأسطولها الضخم إلى مياه الصين فلم تسكد تصل إلى ميناء بورت آرثر حتى أدركه الأسطول البريطاني (وزنتة زنتة السكاب في الطاحون) ثم ظل يفر به حتى سقطه سحقاً ، وكثبت في ذلك الحادث مقالا ناريا جمعت عنوانه (كس . مات) ولعل الذي أوحى إلى بهذا العنوان أني كنت من المفرمين بلمية الشطرنج ، بل كنت أبيع اللاعبين المصريين ، وأشفقت أن أوقع المقال باسمي ، فوقعته باسم مستعار هو (شطرنج) وذهب القراء إلى أن كاتب المقال هو ابراهيم المويلحي ، ولم يتعرف الزملاء والأدباء إلى كاتبه إلا بعد أن أفشى إليهم بذلك صديقي محمد مسمود ، والرة الثانية التي كتبت فيها بتوقيع مستعار ، كانت حين أعلن قاسم أمين رأيه في تحرير المرأة وكان رأيا جديداً قامت عليه مناقشة الكتاب ، وأحجم أصدقاء قاسم أمين والمحبون رأيه عن مناصرته ومنازله خصومه الأقوياء ، ولم أستطع يومئذ أن أفهم مكتوف اليدين بينما رأي يتفق مع قاسم واعتقد أن السور إذا لم يتناب بحكم الرغبة فيه فإنه سيقناب

«من غير شك فيما لسنة التطور ، ولكنى كنت أشفق من معارضة التيار الجارف من سخط العلماء والامة واستنكارهم للرأى الجديد . ووفقت بعد تفكير فى الأمر إلى الطريقة التى أستطيع أن أدايم بها عن الرأى الذى أراه ، فنشرت فى المؤيد مقالات متتابعة تحت عنوان «وهل كان الحق مع الأغلبية دائماً » وذكرته فيه كثيراً من الفتى التى لقيه الرسل والأنبياء بامضاء (متشكك) وكان لى ما أردت ، إذ بهت الذين كانوا يمارضون الشعور وبحاربه وراحوا يتخبطون فى ردودهم على هذه المقالات ، وبما يذكر أن الأستاذ الهلباوى ناله كثير من الأذى بسبب هذه المقالات ، إذ حسب كثير ممن قراوها أنه هو كاتبها .

وحين بدأت ثورة الرجعيين على حركة التعليم فى الهند وزعمهم أن تعليم المسلمين الهند اللغة الانجليزية لا يتفق مع تعاليم الاسلام أنشأت مقالا مطولا فى الرد على هؤلاء الرجعيين وذيلته بامضاء مستعار هو (خان بها دور) ونشر المقال فى صدر المؤيد حيث شغل أربعة أعمدة وتلقاه القراء بشىء من الإعجاب والافتناع بالحجج التى تضمنها وذهب كثير من إلى أن كاتبه لابد أن يكون أحد أمراء الهند المسلمين وكنت إذ ذاك أتناون مع محمد فريد فى إصدار مجلة (لوسوعات) فكشفت له سر هذا الامضاء ، وحدث إن اختلفنا إلى منزل على بهجت مدير الآثار العربية فتلقينا هناك المرحوم محمود سالى البارودى ، على يوسف ، عبد العزيز القمالى ، فسأل البارودى صاحب المؤيد من يكون (خان بها دور) صاحب الافتتاحية فلم يشأ الشيخ أن يفشى سر المهنة ، ولكن المرحوم محمد فريد بك سارع إلى أخبار البارودى بما يعرف من حقيقة هذا الأمر فقام هذا - وكان قد مكف بصره - وأخذ يشمرق بقبلائه ويهتئى على ما صادف فى هذا المقال من توفيق .

توقيع محمد بن بلنت نظر محمد زغلول :

وللأحب الأسماء المستعارة التي ذيلت بها مقالتي هو اسم « محمد بن » الذي بدأت
إستعماله في السكاكيت القصيرة ذات الأسلوب الانتقادي اللاذع الذي كنت أكتبها في
جريدة النظام . وما أزال أذكر إلى اليوم أولى هذه السكاكيت وقد جمعت عنواؤها (سيف
المز وذهبه) أشرت فيها إلى الانعامات والمكافآت التي كانت الوزارة القائمة حينئذ
تسكيلها لأنصارها من النعميين والوسوليين ، كانت موضع إعجاب محمد زغلول ، حتى
أطلع عليها في مساء اليوم فأرسل إلى سيد علي صاحب جريدة النظام يسأله عن كاتبها ، فلما
أخبره ، استعداني إلى بيت الأمة وهنأني على التوفيق .

المقدمات والتقاريف

أثارت المصحف موضوع كتابه مقدمات الكتب والتقاريف بمقابلة مصادرة « ديوان وطيطى » للشيخ على الناباى عام ١٩١٠ فقد قدم المؤلف إلى المحاكمة كما قدم محمد فريد وعبد العزيز جاويش بوسفهما قدما للكتاب بمقدمتين فيها تعريف للكتاب ، هنالك ثارت فى المصحف معركة حول مسئولية أصحاب المقدمات من ما يرد فى الكتب .

وكافت النيابة قد سالت الشيخ جاويش عن مقدمه ديوان وطيطى فأجاب بأنه كتب المقدمة قبل أن يطبع الديوان .

س : كيف قضى اسمك على شىء لم تتحقق إذا كانت فيه مسئولية أم لا .

ج : إن هذا أمر هادى بين الصحفيين والكتاب وغيرهم ، وهذا الشيخ على يوسف يضع اسمه فى أسفل جريدة العلم (التى هى جريدة الحزب الوطنى) دون أن يطلع على شىء فيها ، مع أنها معرضة لأن يأتى فيها شىء من المسئوليات أكثر مما يصيب مثل هذا الكتاب ، وإنى لوائق من أنه لم يطلع حتى على نفس الأعداد التى نشر فيها إعلان كتاب « وطيطى » .

س : ألم تطلع على القصيدة التى نظمها الناباى فى ناظر الحفانية بخصوص تصريح بالحكم عليه .

ج : اطلمت على تلغراف فريد بك وسافرت وفتشذ إلى الاسكندرية حيث كان أهل مرضى .

س : ألم تعلم أن قصيدة الورد كان يقصد بلفظ الورد : إبراهيم الوردانى (وكان إبراهيم الوردانى قد إغتال بطرس غالى ناظر النظار) .

ج : يسأل الناظم عن ذلك ، أما أنا فلم أبحث فيها ولم أر فيها غير ما تؤدبه عبارتها .
وقال الشيخ جابوش : هل من المقول أن أهل بآن شعر الناياني يقع تحت طائفة
القانون واضح اسمى عليه .

س : قلت في كلمتك : أن اشعار الناياني تنهض المهم ، فهل كنت تعتقد عندما كتبت
هذا التقريظ أن هذه الأشعار حقيقة تنهض المهم .

ج : إنا هي كلمة كتبتها من قبيل المجاملة ولا يخفى على الخبيرين بأساليب اللغة العربية
أن كل ما يكتب في المدح والرثاء والذم ليس حقيقة وأغلبه مبالغ فيه .

س : هل قلت أن شعر الناياني شعر عادي أى يؤثر التأثير المطلوب منه .

ج : إنما هناك فرقا بين الشعر العادي والشعر السهل ، فالشعر العادي الذي ليس
في طبقة من البلاغة بحيث تدفع الكتاب والرواة والحفاظ إلى العناية به والاهتمام بأمره ،
أما السهولة ولا سيما المتقدمة ، فإن هذه طريقة لا يبلغها من الشعراء والكتاب إلا القليل .

س : ألا تعرف أن الناياني يقصد « إنهاض المهم » .

ج : يسأل الناياني نفسه في هذا الأمر ، أما قولي الذي جاء في المقدمة فهو من قبيل
المبالغة أو المجاملة أو التوسط ، ومثلي في هذا مثل إسماعيل صبرى في تقريظ ديوان نسيم .

لك في الشعر يانسيم معان
كل بيت بطل منه على أفهام أهل النهى عيا جميل

فلا أظن إسماعيل صبرى إلا معتقدا أنه مبالغ في هذا القول ، ومثل آخر هو أن الشيخ
علي يوسف عندما قرظ جريدة البلاغ المصري لم يطلع على كل ما فيها مع أنها صحيفة
أوردية واحدة ، وبعد أن كتب التقريظ لفته أحد الكتاب إلى مجلة كتبها إسماعيل شيمي ،
أخذ منها أنه يقول بصلب المصيح ، فإذا كان الشيخ علي يوسف لم يضطر إلى قراءة

صحيفة واحدة لتقريبها ، فكل من العقول الحكم بأنه كل من يكتب كلمة عن كتابه أن يقرأ ويستوعبه ، أضف إلى هذا أن حافظ إبراهيم وشوق وهما من أكبر الشعراء اليوم لم يستطعا إنباس الهمم بشعرهما خصوصا قصيدة شوق عن الدستور الثاني ونشرتها المؤيد وفيها :

والشعب إن رام الحياة ككيرة خاص الفار وما إلى آمال
فإن كان شوق ومتراته من الأمة العربية معروفة ككحل أحد يدفع بهذا البيت
الدموى وأمثاله إلى خوض غمرات الدماء في سبيل تحقيق آمالهم فكيف لي أعتقد
أن الناباتي بشعره الذي قلما عرفه إلا نفر قليل يستطيع فعل ما ترمى إليه النياية .

* * *

وكتب رئيس تحرير الإيجبت « رمعون كولز » أن الشيخ جاويش يقول أمام
النياية عن إيضاح ما جاء في قصيدة جديدة من نظم أحد رفعت المحرر بالعلم (يونيو ١٩١٠)
وهذه القصيدة عنوانها قصيدة الورد ، وفيها يزعم الناظم أنه يودع الربيع وينتظر ظمور
ورد الربيع الجديد ، ولكنه بما أنه يوجد تقارب لفظي بين لفظ الورد والورداني فقد
عنيت بهذه القصيدة بعض الجرائد العربية وعلى الأخص الأهرام والأخبار .

وقال : أن النياية أدخلت هذه القصيدة بحرى التحقيق لأنها وجدت في وافتة تحت
المسؤولية بما احتوته من المعنى المزدوج ، لأن الناظم وضعها في سيفة مهمة بطريقة
تجيز لتأريخها إذا أنشدها أن يرونها إعلانا لجهد الورداني ، وأثارت هذه القصيدة المناقشة
بين جريدة العلم وبين الصحف الأخرى ، وقالت جريدة الأحيثيان جازيت : إن الدلائل
تدل على أن النياية لا تعمل بمفردها في تحقيق قضية الناباتي بل تمت يد إنجليزى من وراء
ستار لإدارة التحقيق .

* * *

ولم تتوقف « جريدة » العلم من بعد عن نشر فصول إضافية عن المقدمات والتقاريف .
وبما جاء قول (سهيل) الجاملة في المقدمات والتقاريف مقالة نوابنا الرسميين وغيرهم في امتداح

حوادث الذين يسولون الثناء وغش العاس به وعدم اطلاع ساداتنا المقرئين التي يشهدون زوراً بكاملها وعبرية أصحابها وذلك ثقة برجاجة عقل المؤلف أو رغبة في الخلاص من لاجبة أو قصد الإحسان إليه أو لتضييق الوقت ، ولا يمر يوم إلا يطلعنا السكتيون على المؤلفات المشحونة بالتقاريط من كبار العلماء ورجال الدين بالرغم ممن احتوت عليه من الآراء المناقضة للدين وأحكامه ، هذا (خواطر في الإسلام) لمؤلفه عطا حسنى ، قرظه للشيخ سليم البصرى والشيخ حسونة النواوى وفيه أخطاء لم ينظر إليها الشيخ سليم والشيخ حسونه .

* * *

وكتب آخر يقول : بخيل إلى من لا يعرف شيئا من أمر التقريظ عندنا أن الغابنة للعلم منا لا يكاد يطلب منه طالب أن يضع تقریظ الكتاب ، أو المقدمة حتى يتناولها من يد المؤلف قبل أن يقدم للطبع ثم يقطع لمراجعتة بابا بابا يتدارك ما يلزم به من التآخذ ويرجع بما اشبه عليه منها على مراجع العلم ، ولا يزال حتى يقتله بحثا ومحررا ، ثم يقول فيه كلمة مراعيها مطابقتها للواقع ، ويأذن للمؤلف ببدء أن يخرجها للناس كتابا سويا على ألا يفارقه ساعة قبل أن يطبع ، وما هذا من الواقع في شيء فإن أغلب المقرئين عندنا لا يتمكنون من الاطلاع على التأليف التي يطلب منهم أن يقرطوها .

ومما يتصل بهذا أن الشيخ محمد عبده كتب مقدمة لرواية «البؤساء» التي ترجمها حافظ إبراهيم وقد نقده العلامة مصطفى الغلايينى وقال أن الشيخ محمد عبده يقرأ الترجمة .

المواقف الحرجة

بصور « حسن الشريف » أخرج موقف مر به في سلته بالصحافة : يقول في أوائل ١٩٣١
شرع البنك الأهلي في إصدار طبعة من أوراق البنسكنوت ذات شكل جديد بدلا
من الطبعة القديمة التي كانت تحمل صورة الفلاح المصري ذي اللحية البيضاء . ومن عادة
البنك أن يرسل عند إصدار طبقات جديدة كميات منها إلى وزارة المالية لتوزيعها على
الوزارات حيث تعرض على مرافق الخزائن فيطالعون عليها ويمرّون شكلها وخصائصها
وأمرار علاماتها حتى يسكنوا على علم بها فلا تختلط عليهم الأوراق الصحيحة
والأوراق الزائفة وكانت إذ ذاك مدير إدارة مكتب وزير الحربية والبحرية ، وفيما أنا منهمك
في فحص المسكبات السرية إذ بي أجد كتابا من وزارة المالية ارفقت به ثلاث ورقات
بنسكنوت من فئة المئة لم أر مثلها من قبل ، وقد كتب على جوانبها ووسطها بحروف
منحرفة : كلمة « لاغى » بالعربية والانجليزية والفرنسية وليس عليها إمضاء البنك .

وقابلت في مصر اليوم صديق إميل زيدان أحد أصحاب دار الهلال فلما أريته الورقة
أعجب بها وطالب في أن أصبح له بنشر صورتها الفوتوغرافية في مجلة المصور فأعطيته
الورقة فنصورها وأعادها لي شاكرا ، وقد ظننت أني بذلك قد أسديت خدمة إلى صديق
تسمه كثيرا ولا تصكاني شيئا ولم يخض يومان حتى ظهرت صورة الجنيه الجديد
في المصور . وفي نفس اليوم استدعاني الوزير : محمد توفيق رفعت وزير الحربية وقال :
لقد وقع حادث خطير ؛ كان محافظ البنك يتحدث معي في شأنه الآن ، ذلك أن بعض
الجلات قد حصات بطريقة لا أعرفها على ورقة البنسكنوت المزعم إصدارها قريبا .
ونشرت صورتها وقد أزعج البنك الأهلي من هذا النشر ، أيا إزعاج لأنه يعتقد أنه

فيه معاونة للزيفين على زيف أوراق شبيهة بها بحيث تصدر الأوراق الزائفة والأوراق الصحيحة في وقت واحد ، فلا يستطيع الجمهور أن يفرق بينها ، ولقد عزم البنك على إعدام هذه الطابعة التي بلغت نفقات رسمها وتلوينها وخبرها وطبعها وورقها مبلغاً كبيراً من المال .

كان الوزير يتسكك وكانت إمارات العرب قد بدأت تدب إلى مفاصل ، وقد غطى وجهي حرق بارد واسفرار خفيف فقلت : وماذا علينا من ذلك ، قال : إن عافظ البنك قابل صدق باشا رئيس الوزراء ، واتضح أن الورقة المنشورة في الجملات تحمل رقم إحدى الورقات الثلاث التي أرسلت إلى وزارتنا : وزارة الحربية ، ومطلوب إجراء تحقيق سري سريع ، لتقديم الموظف إلى النيابة العمومية ، وعند هذه النقطة من كلام الوزير خيل إلى أن سوابي قد تمطل أو أن عقل قد أصيب بشلل مفاجئ . فقلت في نفسي : لقد وقعت ، وقال الوزير : عليك أن تقوم بالتحقيق بطريقة سرية وتصل إلى نتيجة . وكان في استطاعتي أن أكتب الحقيقة وألقى المسئولية على موظفي الخزائن وكان في استطاعتي أن أقوم بتحقيق شكلي لا يسفر عن نتيجة . ومن الحال أن نحوم الشبهات حولي وأنا أعلم أن صاحب الهلال لا يستطيع إذا سئل أن يفشى سر المهنة . ولكن ضميري لم يسول لي اتهام غيري ولا التفتل بالكذب ، ورأيت أن المروءة والصدق يقتضي أن أجهر بالحقيقة . قلت للوزير : لا ضرورة للتحقيق فأنا أعرف الفاعل ، وانفجرت أساور الرجل وقال : حسن جداً ، من هو ، قلت أنا ، ولو أن قبيلة انفجرت بين قدي رفعت باشا لما أزعجه انفجارها أكثر من وقوع هذه الكلمة على أذنيه وقد نظر إلى كالمشده عملاقاً وصاح : أنت .

قلت نعم أنا ، وشرحت له ما حدث ، فاعتمد رأسه برهة بين يديه وهو يقول أنت ، أنت مجنون . وأحسنت أن ألما نفسي عميقاً قد استولى على الرجل ، فأنا مدير مكعبه وزوج ابنته ، وقال إلى أكتب لي تقريراً . . . وخرجت من مكتب الوزير وأنا أترنخ في مشيتي وجلست في مكتبي أنكر وأبحث عن مخرج وركبت السيارة إلى البنك

الأهلى ودفنت بطاقتى إلى حاجب محافظ البنك . فلما دخلت عليه قلت : أنا الموظف الذى أعطى سورة الجنيه الجديد للمصحف . وهانمت عن نفسى وقلت : أنه ليس بينى وبين المزيين صلة واشتملنى الرجل بنظرة فاحصة ، وأخذ يدق بلور مكتبه بقلمه دقائق خفيفة وقال لى أن المزيين سيقلدونها ولا بد من إعدام هذه الطبعة . قلت : أن المزيف لا يكتب برسم الورقة وخطوطها بل لا بد له من رؤية الألوان المختلفة التى تقطعها والصورة الفوتوغرافية سوداء ، فضلا عن أن الورقة لا تحمل إمضاء محافظ البنك ، وإمضاء المحافظ الجديد لا تزال مبهمة فى مصر فكيف يثبتها المزيون . قال : هذا كلام معقول . قلت : إذا كان كلامى هذا ممتولا فلا عمل إذن لتلك الأهمية للمسألة الثقافية . قال : تستطيع أن تريح بالك من هذه المسألة وأنا مسرور من ذكائك .

الصحافة بين ١٨٩٨ - ١٩١٤

(١٠) من مذكرات أحمد حافظ موسى .

كنت قد وضعت رواية باسم « اليتيم » فلما أطلع عليها الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد أمر بطبعها فطبعها فعلا والتحق بتحرير المؤيد ١٨٩٨ واشتغلت بوظيفة مترجم بمكتب قدره أربعة جنيهاً في الشهر ، وهذه كانت بداية مهدي الاشتغال بالصحافة . وكان اشتغالي بالصحافة على أثر ما جرى بيني وبين الإنجليز في وزارة المعارف واضطهادهم لي بسبب بسبب علاقتي بمصطفى كامل ، عرض علي صاحب المؤيد أن اشتغل عنده مترجماً عن اللغة الإنجليزية ، ومحرراً مقابل أجر ضئيل . كان المؤيد يطبع في أربع صفحات ولا يتجاوز الأخبار في عمودين ، وبه مقالة أو اثنتان في الصحيفة الأولى وشيء عن الصحافة الخارجية والباقي إعلانات .

كان صاحب المؤيد نحيل الجسم ضئيلاً ، دائب الحركة ، وكنت وأنا ومحمد مسعود نشغل في ترجمة أخبار الصحف الأجنبية ومحررين بعض المقالات ، وكان محمد بك فريد صديق للرحوم مصطفى كامل عام ١٨٩٨ بعد أن اشتهر بانتصاره لصاحب المؤيد في قضية التلغرافات المشهورة وكان قد استقال من وظيفته في النيابة وانخرط في سلك الحمامة واتخذ له مكتباً في شارع عابدين بمكة راتب باشا أمام المهارة التي كانت تشغلها الدائرة السنية ، واشترك معي في العمل على ما أذكر للرحوم حسن عبد الرازق الذي قتل في حادث النزاع الحزبي أمام دار حزب الأحرار الدستوريين واشترك معنا بعد ذلك محمود أبو النصر ، وفريد بك ابن أحمد باشا مدير الدائرة السنية .

فلما أظهر ما أظهره من المواطف الوطنية في قصة التلغرافات وعرف أمره وكان يعمل كثيراً عن الاشتغال بالسياسة كما كان يحب الكتابة في المسائل الأدبية والعلمية

والتاريخ لنوع خاص - إذ أن له في التاريخ مؤلفات قيمة مشهورة منها تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ العائلة الخديوية - لذلك فسكر محمد فريد في أن يصدر مجلة عربية أدبية علمية يشترك في تحريرها كثيرون من كتاب اللغة العربية .

وكان إسمي قد ظهر في المؤيد على مقالات وبحوث كبيرة مما أوجد فكرة حسنة عن شخص الصحفي عند الكثيرين من ذوى الفضل والمكانة في ذلك الميدان من أمثال المرحوم الشيخ محمد عبده والسيد توفيق البكري ومحمد فريد .

فلما فسكر محمد فريد في إصدار المجلة خيل إليه أنني أصلح لأن أتولى إدارتها على أن تكون ملكاً له ويكون الاتفاق عليها من ماله الخاص ، فاستدعاني إليه في مكتبه وتحدث معي في هذا الشأن فقبلت مع أنني كنت إلى ذلك الوقت أحرر في جريدة المؤيد .

وكان ظهور العدد الأول (١٥ نوفمبر ١٨٩٨) وقد فسكر فريد وأرد أن تجارى المقطع والجلال اللتين كان يصدرانهما اخواننا من الأدباء السوريين . وحرر فيها كثير من رجالات مصر البارزين : الشيخ محمد عبده ، ومحمود أبو النصر (وكان في ذلك الحين مقبلاً في باريس يدرس اللغة العربية في مدرسة تعليم اللغات الشرقية) واشترك مع محمد فريد في مكتبه في الحمام وتولى تحرير الموسوعات وإصدارها بعد أن تخلت عنها كما كتب بها على بهجت (مدير دار الآثار العربية) صهر أحمد فهمى العمروسي المفتش بالمعارف :

وقد كان لهذا الرجل فضل على ، ولأنه من أهل العلم والفضل وله في الموسوعات بحوث كثيرة ، وقد وضع فيها بعد كتباً عديدة أهمها (كتاب القسطاط) الذي بعد حجة في التاريخ الإسلامى .

وقد نشر في العدد الأول موضوعاً تاريخياً طريفاً عن « زواج الجنرال منو » أحد قواد نابليون في الحملة الفرنسية بالقناة المصرية زينت الرشيدية في رشيد واعتنائه الاسلام وتسمية نفسه « عبد الله منو » .

وقد نشر صورة العقد الذى عثر عليه على بهجت فى محكة رشيد الشرعية . وكان يعقوب أردتین وكيل وزارة الدارف الأرمنى (من بيت أردتین ومنها تسكران باشا) هو الذى مهد السبيل لى بهجت للعمل مديرا لدار الآثار العربية التى شيدت بمحوار دار الكتب .

* * *

لما جاءت الحرب واعتقلت فى الاسكندرية ، حدث أن أنقیت قنبلة على السلطان حسين فى أثناء زهابه إلى رأس التين فداخله اضطراب كبير وتوجهت التهمة إلى كثير من الناس وكان من لحقهم رشاش من هذه التهمة كاتب هذه السطور لأنه كان من رجال الخديو السابق فصدرت الأوامر بتفتيش المنزل الذى كنت أسكن فيه بالاسكندرية .

* * *

كانت أول مرة وقع فيها نظرى على المرحوم الشيخ محمد عبده وكنت قد تركت مدرسة المعلمين العليا واندمجت فى تلك تحریر المؤيد عام ١٨٩٨ وحدث حادث إطلاق الأمير سيف الدين الرصاص على أحمد فؤاد الذى أصبح بعد ذلك سلطانا فليسا ، وبدىء فى محاكمة سيف الدين وكان الشيخ عبده إذ ذاك قاضيا فى محكة الجنایات مع أحمد فتحي زغلول شقيق سعد . وكأني الشيخ على يوسف أن أحضر القضية وأخلص المرافعات وانمقدت المحسمة فى سراى صارت بعد إدارة لجريدة الأخبار وكان محمد عبده هو وحده القاضى الذى يلبس عمامة وذلك قبل أن يتولى الإنفتاء .

بعد ذلك بنحو عام نقل الإمام إلى وظيفة الإنفتاء وكان يلقي دروس التفسير فى الرواق العباسى وأنا لا أزال محرراً فى المؤيد أكتب المقالات بإمضائى ، وسادف أن كنت أقیم فى منزل صغير فى جهة هابدين .
كان من آداب الشيخ عبده ومكارم أخلاقه أن يعطف على سديقه الشيخ محمد عبدالمهاد زید .

(وابن هم والدتي) وكان زميله في الأزهر ، قال زيد للشيخ أن ابن أخي حافظ عوض القدي تحرر في المؤيد قال له الإمام : أحضره لأراه .

حدث إلى المنزل فوجدت الشيخ عبد الهادي ينتظرنى لنذهب إلى الشيخ الإمام كضربة لازب فذهبت معه إلى عين شمس وكان بدء معرفتنا وبدء عطف الشيخ الإمام على طيلة حياته حتى كنت معدودا عند الناس من أتباعه . وكان ذلك سببا في إيصال عيش كثيرين من فوى قرباى ومن أهل بلدنى ، ومن هنا تبدأ ذكرياتى الحقيقية عن علاقة الشيخ عبده والمستر بلنت المروف القدي كان يقيم فى حديقة كبيرة بهزبة النخل على مقربة من منزل الشيخ محمد عبده (وقد اختصه مستر بلنت بجزء كبير من كتابه التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى) رسم فيه صور قديعة للشيخ الإمام أثناء شبابه .

وكانت تلك العلامات من الوسائل التى يمكن بها الشيخ الإمام خدمة بلاده . وكان الإمام يتعلم الفرنسية التى كان يتكلم بها مع بلنت وبالربية أيضا لما كان يزوده كثير من الإنجليز والارلنديين ، وكان هذا داعيا للشيخ عبده حين عرف أنى أجيده الإنجليزية وإنى أحسن الترجمة بها حديثا وكتابة ، إحتضنى بأن أكون رسوله ووسيطه بين الإنجليز والارلنديين .

وقد عثرت فى الأوراق التى بقيت عندى على خطاب المرحوم الإمام يطلب فيه إلى مقاتلة المستر ديون من زعماء الحزب الارلندى المشهورين .

ولذا العزيز

كتب إلى المستر بلنت يقدم إلى صديقه المستر ديون من رؤساء الحزب الإبرلندى ورغب إلى أن أمره ووعدته بأن أراه يوم الثلاثاء الآتى الساعة أربعة بعد الظهر فأرجو أن تذهب إليه على الوكائدة التى يقيم بها وواصله إلى الأزهر وأكون شاكرأ .

محمد عبده

الأحد ٢٢ مارس ١٩٠٤

« العلاقة بين الإمام والخديوي » ، ١١ أغسطس ١٩٣٢

وقد بان عندي أن أصل الشيخ محمد عبده من أصول تركانية أو كردية ، وكان ذلك ظاهراً في ملامح وجهه وفي تصوراته ونفسيته لأنه كان على أنه من الفلاحين وكان طالباً في الأزهر وناشئاً في بيت لأتربى خلق الشجاعة والإقدام ، كان على عكس ذلك من الشدة والصلابة والمناذرة فيما يتصوره تصويره وبعثه ، قال لي مرة ونحن نتحدث عن الصحافة ومن جريمة المؤيد « أنا أحب أقول لك كلمة بصفة خاصة لأني من الشبان الذين أحببتهم ولأنك ترتبط معنا بملافة قرابة ولا أحب أن تنقل هذا الكلام عني ؛ أنني لا أستطيع أن أنحمل من الذين أصولهم من أواسط آسيا كالأتراك والحكام والماليك ومن تناسل منهم ما يعاملون به المسلمين أو المصريين بصفة خاصة من الاحتقار ، وأنا أحب الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ولكن لا أحب منه ما أراه من التذلل والخضوع لما يصدر من السراي أو عن عباس (بهذا اللفظ كان يتكلم دائماً عن الخديوي في ذلك الوقت) .

ولم يكن حين قال لي هذه الكلمة قد وصل إلى دور الخلاف الذي وصل إلى حد المناذرة والسكرابية والمقاومة الشديدة بينه وبين الخديوي لأن ذلك كان أول توليه وظيفته الإفتاء .

وكان الخديوي باجاً إليه ويستعين به في حل بعض المشاكل ولكن الدسائس اشتدت بين الطرفين ، حتى وصل الحال بينهما إلى السكرابية الشديدة والحقد ، والرغبة من جانب الخديوي بنوع خاص إلى القضاء على الشيخ الإمام وإخراجه من الإفتاء والأزهر ، فلم يكن في وسع الشيخ الإمام احتفاظاً بما يعمل له لخدمة الأزهر والإصلاح ووطنه إلا أنه يعتمد على من يكون في مكانه صد اعتداء الخديوي عليه ، ومن كان في مصر يستطيع ذلك غير اللورد كرومر . لهذا توصلت بين اللورد كرومر وبين الشيخ الإمام دعائهم مودة وتقدير متبادل بين الطرفين ، وكان الشيخ في كثير من الأحيان لا يسلم للورد كرومر

بما كان يرمى إليه في أمر من الأمور إلا بعد أن يقتنع الإمام بأن المصلحة في ذلك ،
أو أن هناك عوائق سياسية لا تستطیع دمجها .

وأنا أعتقد شخصيا أنه قد كان للشيخ محمد عبده سلطة على كرومر آتية من طريق
الثقة بما كان يعتقد كرومر في الشيخ الإمام من الاخلاص والسكفاءة والرجولة .
وبنوع خاص بترفة عن النابات والأمور الصغيرة . قلت أن الخديو كان في أول أمره
ميلًا إلى الشيخ الإمام ، وهو الذي ساعد على إصدار المفو عنه بعد الثورة العرابية
حتى يستطيع أن يحضر إلى مصر ، وكذلك فعل عباس في أمر عودة عبد الله نديم . وكانت
المرحوم الإمام لياقة طريفة وابتهامة أظرف ، ووجه صوب وروحانية مؤثرة على كل
من اختلط أو اتصل به ، ولولا الخلاف الذي وجد بين الخديو والإمام ، ما وجد ذلك
العريق الذي تألف من حزب الأمة ، ولا كانت الجريدة التي يمررها (أحمد لطفى السيد)
ولا كان عزل الخديو . .

والذي يدلنا على أن الخديو عباس كان شديد الميل أولا إلى الشيخ محمد عبده وأنه
كان يركن إليه ، أنه طلب إليه أن يكتب كتابا عن تاريخ الثورة العرابية التي اشترك فيها
المرحوم الإمام اشتراكا فمليا حتى لا تضيق حقائقها التاريخية .

ويقول السيد رشيد رضا أنه من سوء حظ مصر والمصريين بل الشرق أن الإمام
لم يتم تأليف هذا الكتاب ، فقد صار تأليف الكتاب للأمير مشكلا لأن الأستاذ الأمام
كان يلقى تيمة الثورة على الخديو توفيق مباشرة وجعل لما كان من إسراف الخديو
إسماعيل وسوء إدارته لبلاد أسبابا مبهدة لها .

ولم يكن الإمام ممن يقبلون الرضوخ لسيطرة الرأي أبدا وكان همه ومجهوداته متوجهة
إلى بث روح الاستقلال النفسى عند المصريين فكان يحتقر طلاب الوظائف وطلاب
الرتب والنياشين .

وقد اشتهر محمد عبده مع علمه ، بأنه كان يحب التفككة ويقرب إليه رجال الفكاهة حتى كان يرسل كثيرا إلى المرحوم الشيخ الباقلي ويجمع بينه وبين المرحوم حافظ إبراهيم الشاعر حيث يتألف من جماعتهم مجلس فكاهة يأنس إليه الشيخ ويستروح .

وكانت (إحدى الصحف) وقد نشر فيها مقال من السياسة ، وأظن أنه كان هو الشيخ الشربل القى كان يكتب في عدة صحف ومنها الظاهر التي اشتهرت بمحله عنيفة ضد الشيخ محمد عبده أيام فتوى للوقوفة . وقرأ الإمام المقال وما فيه من خلط ، وكان الشيخ يضرب به المثل بين الصحفيين بخطله فإذا هابوا مقالة ما ، قالوا هذه مقالة شربلية ، وقرأ الإمام المقال وقال ، ومعه عبد الكريم سليمان وحفي ناصف وقاسم أمين ؛ أنا أدفع جعيتها لمن يقول لي مما في هذا المقال من أغراض ومقاصد .

وكان الشيخ على يوسف يفتح لي كنهه بأن احاط ولا أكثر من الاتصال بالشيخ محمد عبده وكنت أنضل أن أطلع علاقاتي مع جريدة المؤيد ، حتى لا تتأثر علاقاتي بالشيخ الإمام ، ولكن الشيخ رحمه الله كان يحب أن ترداد صلتى بالمصفاة ، وتجاري فيها ، ولم يكن هناك وسيلة للاشتغال بجريدة أخرى .

على يوسف في مذكرات المديو عباس

كتب أريد أن يكون لي صحيفة قادرة على أن تنير الشعب وتقوده شيئا فشيئا إلى إدراك أكثر وضوحا للفرص والواجبات الوطنية فدهوت كاتبها من كتاب الفنة العربية، كنت قد سمعت عن صفاته ومزايه هو الشيخ على يوسف، وكان قد تردد على مدرسة المعلمين وخارجا من الجامعة الأزهرية ، وكان قد لفت إليه الأنظار إن لم يكن بانساع أفقه الفكرى ، فبحماسة في المناقشة وعزيمة مجادل حقيقة ، ومقدرته المشهورة على هضمه المائل ، وخاصة إذا ذكرنا أنه لم يكن يتكلم لغة غير العربية ولم يدرس إلا في المساجد . وكان الشيخ على يوسف وهو من أهل الصعيد يعرف عقلية مواطنيه ومطامعهم ،

وكان رغم أنه تربى في بيئة دينية يعرف كيف يفرق بين واجبات الفرد نحو بلاده والاحترام الواجب للدين وكانت سياسته تستند أحيانا على نفوذ الخليفة ولكنها لم تكن على الخصوص تركية أو إسلامية .

هذه ألوان قد زادت من تأثير الشيخ على يوسف على الشعب وكان الشيخ على يتخذ أحيانا مظهر مدافع عن الإسلام أكثر من محركا للشعور الوطنى ، وكان النرض من هذا التسكيك هو أن يجمع كل القوى المشتقة حول فكرة واحدة عامة وقوية .

كان الشيخ على في بداية نشاطه يتخذ على الأخص ستارا لكثير من الشخصيات البارزة التي كانت تحمل إلى الجريدة ثمرة ملاحظاتها وخلاصة تجاربها في حياة كرمست للإدارة أو لسير العدالة ، كان أكبر رجال البلاد اقتداراً وأعلام نجبراً يساهمون في عمله ، وكان ممروفا أن القصر يؤيد ذلك ، فكان قارىء لسان حال التحرير يقطع من أعمدته زهرة الفكر المصرى ومرهان ما غدا المؤيد بفضل هذه الوسائل إحدى الصحف العربية الرئيسية يقرأه الناس من طنجه إلى الهند ومن تركيا إلى زنجبار .

وقد كان المؤيد في الواقع يحفل بالمقالات المنظمة بأسلوبها البارح وأفكارها العميقة ، وكان الشيخ بأسلوبه اللاذع وبلاغته التي لا تقدر ، قد غدا أستاذاً بفضل إيماله اليوم بالشخصيات البارزة في كل علم وفن .

كان على يوسف بارها في إستخدام الرباط الطيبى القوى الذى يربط المصريين منذ عهد بعيد ، وفي تأسيس وطنيته على أساس من تلك الماطنة القوية الجذور . ولم يكن تعليمه الدينى يؤثر إلا قليلا في زعاماته التحررية .

الحق أن على يوسف لم يكن يوما ما رجل تركيا ، وإذا كان في بعض الأحيان قد أبد الخليفة ، فإنه ما كان يبنى سلطان التسططونية وإنما زعيم الإسلام ، كان مصريا قبل كل شيء ، ولقد نجح أيا ما كان شخصه أو كانت أراؤه في أن يستميل الرأى العام وبجممه وبمله التفكير ، وكانت مقالات المؤيد تقرأ وتشرح في أبعد القرى النائية ، وكان المتعلمون أنصار الجريدة وكانوا يعملون على رواجها وكان انتشار المؤيد ونفوذه يعزاید بفضل عطف الذى لا ينقطع عن الشيخ .

النقد الاجتماعي

إبراهيم المولى ومصباح الفرق ١٨٩٨

كان إبراهيم المولى يمثل أرق نماذج الأسلوب المصري في أواخر القرن التاسع عشر وهذه باقة من كتاباته تمثل إراثه في الصحافة ونقد المجتمع .

(١) يسافر أصحاب السعادة مصطفي فهمي باشا إلى إيشي وأحد مظلوم باشا إلى فيشي وإبراهيم فؤاد باشا إلى كارلسباد وبطرس غالي باشا إلى مريميات ، ولا يسافر سعادة محمد عبّاشي باشا إلى كبريا بل يكتفى بالاعتساف في حمامات سان اسيفيانو للتجرد والراحة والخلود من عناء الاشغال في الحكومة ، ولنظارنا المظالم الذر البين في مهاجرة الديار المصرية في هذا الأوان ، أوان الحر وشدة القبط وخابو الحكومة مما يشغل خاطر ويهم الناظر ، فإن الحلة السودانية وما يتبعها من فتح الخرطوم واسترداد السودان كلها أصبحت في عهده سعادة ككتشتر باشا ، وعمل الخزان والنظر في تدارك أخطائه في كفاية المستر ولسون ، وبمع الدائرة السنية وسكة الحديد السودانية وما وراء ذلك من المواقف المجهولة في وصاية المستر ألون بالمر . (١٦ يونية ١٨٩٨)

(٢) ما الجرائد شهد الله — إلا وسيلة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وذريعة إلى إقامة الحق ، وعق الباطل ، فهي عصا حاكم ذي الحلم ، ودرع عمر الفاروق (وهي الصانع المحكي للتنمية والاتماظ) بالوم والعتاب ، وما شرفت أمة ولا صلحت جمعية ولا انتظمت حكومة إلا بهذا الانتقاد .

ولعلنا أن الانتقاد المطلق العام لا يؤثر في النفوس ولا ينبه الأذهان ممدنا إلى التمييز والتفحص . والتشخيص ، فإن الانتقاد وتوضيح الحقيقة في هيئة معينة وصورة معينة وذات مقصودة أبلغ في النفس وأدعى إلى اجتنب ما يفقد في ذلك التوضيح ، من أجل (١٤ م — تطور الصحافة العربية للماصرة)

النقد فتحنا حديث (عيسى بن هشام) وجربنا عليه متخصصين في موضع التعميم وممهمين في موضع التخصيص .

(٣) أما استئصال المال ففاجله كثيرة وبكفى له (الأزبكية) رقصها وقمارها ونجسها وخمارها وغطائها ومناياها وبنائها ومباياها ، قال لي أحد الأدباء أن في مصر خمسة ملايين من الأفدنة يأكلها فدان واحد ، هو محلات الخمر والميسر وغيرها في الأزبكية .

(٤) أيها القارىء : احقق ماء وجوهنا من تلك السجاسة ، سماعة إعادة الجريدة مراراً لمن يرفضها ويردها وطهر صفاعة التحرير من إدارتها فقد انحط قدرها في أمم الغلاء ؛ القراء سمعون للكذب وأصحاب الصحف أكاون للسحت ، وقد دخل في رفقة المحررين أميون لا يعرفون الكتابة ، وأصبحت الصحف المنتشرة في مصر — إلا ذات الشأن منها — كالجراد المنتشر .

وفي هذا الزمان — زمان الفضائل — يأتي صاحب الجريدة إلى أمير في بيته ، وهو لم يره طول حياته فيقول له قد جائتني رسالة كها مطاعن فيكم وجمل لي مبلغ وانر من إدراجها في جريدتي ؛ ثم يتشم ويقول : من رجل لا أحمية وفاء يشرف القول ، ولكن عن يتظاهر لكم بإصدافه ، فيأخذ الأمير حينئذ في التفتيش من هذا الصديق في ذكرائه حتى يكاد يحتفلن فيه ، ويشرع في مجاملة صاحبنا ليكشف له ذلك الاسم ، ولا يقوم حتى يأخذ منه جائزة ثم يترك الرجل يشك في جميع أصدقائه .

(٥) الطغراء السلطانية (٧١ يوليو ١٨٩٨) .

سيكون ورق النقود الذي يضمه البنك المصري في الماملات ، مكتوب باللغة الإنجليزية واللغة العربية ، ولا يعلم أحد أن كانوا حولوا على وضع (الطغراء السلطانية) في أهله أم لا ، فإن تلك الأوراق سكة للتعامل بها بين الناس مثل النقود ، والفرامانات السلطانية نشترط أن السكة (أى العملة) تضرب في مصر باسم السلطان مزينة بالطغراء

«السلطانية فإن لم يفعل البنك الوطنى مقتضى نص القرارات فى المعاملة بتلك الأوراق
إشكال .

(٦) عيد جلوس السلطان أول سبتمبر ١٨٩٨

يوم البشرى بحلول العام الثالث والمشرين لجلوس سيدنا ومولانا الخليفة الأعظم
أمير المؤمنين وحامى شريعة سيد المرسلين على عرش الخلافة الإسلامية وتحت السلطنة
العثمانية ، فأخذت كل بلد زينتها وأعلنت الأمة الإسلامية سرورها وبهجتها وتجلت ليلة
الاحتفال بهذا العيد السعيد فى أبهى مطارف الجمال وأزهى مظاهر الأبهة والجلال ،
وكانت مصر من أعظم الممالك الشاهانية قياماً بهذا الواجب فالتأمت لجنة من سرائرها
ووجوهها وأعيانها ، وأقامت زينة باهرة فى حديقة الأزبكية جمعت من معدات المسرة
والاحتياج ما تشرح له الصدور وتبهج به النفوس .

(٧) البنك الوطنى عام (١٨٩٩) .

لا تتكلم فى هذا البنك بأكثر من قولنا أنه مشروع قديم فإن جماعة سمعوا فى إنشائه
أيام الثورة العرابية ونظم أنهم تسكلموا مع أحد المشهورين من أعضاء مجلس النواب فى ذلك
الوقت أن يحصلوا مبلغ خمسة عشر ألف جنيه من أسهم الشركة حتى لا يمارض فى إنشاء
البنك المذكور فتوقف فى هذا ولم ينتج المشروع .

الاصطلاحات الصحفية

لمرفة كتابات هذه الفترة لابد من مراجعه للاصطلاحات الصحفية والمباراة الشائمة الذائمة ، مثال ذلك (السرى الأمل) يوصف بها الرجل الثرى . وكلمة « الأسولى » فلان يوصف بها رجل القانون وكلمة (عطوفتو أفندى حضرتلى) يلقب بها الوزير و (سيدنا فهرست السكال) يوصف بها جمال الدين الأفغانى .

ومن العاوين الذائمة (نفته مصدور) وهى عبارة عن كلمة عتاب أو نقد ، ومن الكلمات الكثيرة الاستعمال (برج الخفاء) أى انكشف المستور أما (المكوف) فهى تعنى بلاد الروس ودار الخلافة العلية : هى عاصمة الدولة المنيانية وكلمة (لاحق لسايق) التى تعنى بها الآن (بقية مانشر) . وفى النهاية يكتب (سابق للاحق) إذا كانت هناك بقية .

وكانت أغلب المناوين مسجوعة فإذا كانت القصة عن فتاة خرجت عن طاعة والديها وتزوجت دون رغبها كان العنوان (النار خير من هذا المار) وإذا كان الخبز عن تفوق مدرسة ما قيل (التبريز بين التلاميذ) .

وقد كانت بعض أسماء الكتاب تختلف عما عرفت به من بدمثلا: خليل المطران ، (خليل مطران) ، باحثة فى البادية (باحثة البادية) أعنى : ملك حفنى ناسف ، وكان الأستاذ مصطفى صادق الرافعى يوقع مصطفى الرافعى (الطرابلسى) وكذلك كان أمين الرافعى (الفاروق) وأنطون جيل هو (أنطون الجليل) أما جورج زيدان فقد حرفت (جرجى زيدان) .

وكانت نماذج (عقد القرآن) على هذا النحو « عقد قران الشاب النقيب فلان على صليبة الشرف وربة المصاف فلانة كريمة فلان من أعيان بلدة كذا وقد وزعت المربطات وحشف الأسماع أبو خليل الحياتى وخرج الجميع يلهجون بالثناء » .

أما في باب الوفيات فهناك نماذج مختلفة :

X قصت يد المنون غصنا رطيبا هو الشيخ فلان عن ٧٨ سنة قضاها في البر
والإحسان ، بمداء أعيا نطس الأطباء فلم يحمله ، وكان المشهد زهيبا مشى فيه ملاحظ
البوليس وشيخ البلد .

X رجل مات والرجال قليل .

اليوم تبنى مصر وعلماء مصر وأطباء مصر الخ . . .

X انطفأت اليوم في القاهرة شمعة ذكاء ، وغاب من عالم الأدب والنبيل نجم تلامذ
فيه ٦٥ عاما فأكند وجهه تنير السباحة وتماريها الغادرة : محمود صاى البارودى
الشاعر الطيوع الذى يستمد من بحره الطافى كل ناز وشاعر (الأهرام - ١٩٠٤) .

X رجل مات والرجال قليل ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

أكبر مصاب مصر في هذا الزمان وهى فقيرة من الرجال العظيم ، أن تفقد
عن أبنائها مثل من فقدت اليوم ، وقلما تلد مثله في كل عصر، مصاميا نشأ بصفاته المالية
ودل على نفسه بفضله الباهر كما تدل الشمس على وجودها بضوئها المميم .

مات المرحوم « حسن عاصم » مات هذا الرجل الذى كان نبراس الأفكار في حوالت
الحوادث ، وهدى العقول في معضلات الأمور ، مثال العقل مجسما ، والحزم مصما ،
والرأى عكما ، إذا فقد الناس صوابهم فى علم كبير .

مات هذا الرجل الكبير فبكته الميرون والقلوب ، بل فرقت عليه الأئدة الحبوب ،
فهرج الناس زمراً وأفواجا من الطبقات المختلفة إلى منزله بابدين ، وكلهم كاسف
جزين . (المؤيد - ١٩٠٧/١١/١٠)

× تالله لو أعطيت بلاغة سبحانه وائل ، فأنا بكاتب أكثر مما كتب ، ولو سبقت ابن هانيء في الشعر فأنا قاتل أحسن مما قيل ، ولو أمارتنى الخنساء حزنها على صخر من جديد ، فأنا ببالغ حزن الأمة على الفقيه ، فعليك يا مصعاني كامل ألف رحمة ، وعلى روحك الشريفة ألف ألف سلام ، لقد كنت فينا ذلك الصائح المحسني وغيرك الصدي ، فأصبحنا لا نسمع غير البكاء والنحيب ، لقد كنت ذلك الدرع الذي ندره به عن أنفسنا مهام العدو ، فامسينا بمدك عزلاً لا نملك غير الوجيب (مجلة الأستاذ - ١٩٠٨)

× ما غربت شمس حتى غربت على أثرها شمس علم وفضل ، وما خيم الظلام على عالم الطبيعة حتى خيمة ظلمة الوحشة على عالم المروءة والنبيل .

× وكتب أحمد تيمور في مجموعة قصاصاته نيا للشيخ البجيرى . قال :
في يوم الجمعة ١٦ ربيع الأول ١٣٢٩ في النصر توفى إلى رحمة الله العالم الكبير الشيخ محمد موسى البجيرى ، شيخ الشافعية بالأزهر ، وكان يستمد الصلاة الجمعة فأحس بضئف قوته ، فلم تخض ساعات قليلة حتى أسلم الروح ، وكان في نحو الستين من العمر ، وشيعت جنازته يوم السبت من داره بالمطوف ، ومضى خلق كبير من العلماء منهم شيخ الأزهر سليم البشرى وشيخه السابق الشيخ حسونة النواوى ، والفقى الشيخ بكرى الصدفى ووكيل الأزهر السيد محمد شاكر وغيرهم . وكان رحمه الله متواضعا ضحوكا حسن الماشرة تفتده الله برحمته .

طرائف الصحافة

من خلال مراجعات واسعة لتطور الصحافة في مرحلة ما قبل الحرب العالمية الأولى نجد لمحات سرية طريقة تسكل صورة الصحافة والمجتمع .

المؤيد : دام المؤيد من سنة ١٨٨٩ إلى نهاية سنة ١٩١٥ وقد تركه الشيخ علي يوسف ١٩١٢ وتوفي سنة ١٩١٣ ورأس تحريره : الدكتور سيد كامل وحافظ عوض ومحمد أبو شادي وحامد ابراهيم ، وقد أصبح المؤيد لسان الخديو منذ ١٨٩٩ .

وقد وصف الشيخ علي يوسف من بعض القين عرفوه بهذه العبارات : « لقد لبس الشيخ لسكل زمن لبوسه وأخذ حيال كل ذي سلطة من الوسائل والحالات ما يؤدي لنجاح خطفه بحكمة وحصافة » وعند ما توفي علي يوسف كتب عباس العقاد في مجلة عكاظ ينمي الشيخ فقال : ليس الشيخ علي يوسف صحفيا كبيرا ، كلا ولا هو بالرجل الكبير ، وإن كنا لانسى أنه ولد خاملا فأت شميذا ، ونشأ نشأته الأولى متفريا ثم قضى نحبه مسموع الكلمة وجيها ، والشيخ علي قد أفاد بعض الناس ، ولكن قائدة لا صلة لها بحب الخير ، فلم يجمع الموت فيه صديقا غلصا ، ولا ينكر علي الشيخ ذكاهه ولكننا لا نستطيع أن ندعوه شيوخا في اللب أو سمه في القهن ، وإنما هو عندي أشبه بالخزق في حرفة من حرف الكسب ، ولو كان الرجل ساي اللب واسع القهن لكان تقديره لفظمة اسمي وأكبر من تلك الناية التي نصبها غرضا له في حياته . كان الشيخ يقرض الشعر لبديح به السراة والأغنياء كما كانت وظيفة الشعر في تلك الأيام ، فلما حصل من الكتابة على ما يننيه عن طرق هذه الأبواب ، رأى أنه لم تعد به حاجة إلى الشعر فتركه ومضى في الكتابة .

وقد عنت بهمهم عليه لا تقلاه على رياض باشا ، ونحن لا يهمننا نكراته جميل هذا
الانسان إذ ذاك بل قد نرى له بعض المذر ، فلقد ساعدوه وهو فقير خامل فلما أصبح من
اهل الرتب والوجاهة أبوا أن يعرفوا فيه إلا ذلك المجاور القديم .
وأني ليشق على أن لأجد لي عذراً عن نقيصه غير هذه وأن لا يكون في نفسي ميل إلى
احترامه ، ولست أعلم لماذا يمحو الموت السيئات ويكبر الحسنات ، ولماذا يبقى الحكم للتاريخ
البعيد ونحن أقدر على أن نرى الحقيقة عن كذب ولو تفاضينا عن المتعاضبات وللصائب لبطلت
حكمه الذكر .

وقد عرض المقاد لهذا الأمر من بعد في مذكراته فقال :

قلت في تأييد على يوسف (في مجلة هكاظ) أن الرجل كان قاضياً راراً لكنه كان ينفع ويعمر
لنسكين تفرقة واستصلاح الأعوان في مشكلاته وقضايا ، فن وصلت إليه يد من أبيه لم يكافئه
عليها بالحب والخوص النية ولكنه يحس أنه مدين لمطالب يدين يوفيه في يوم من الأيام فلا جرم
يشيمونه غير محزونين وعضون في جنازته متعدين متشاغلين ، لأنهم في حالة نفسية أشبه
بجالة المدين الذي أعفاه موت الدائن من الوفاء له بما عليه .

× لمار الملك جورج الخامس بالقطر المصري في يناير ١٩١٢ قدم له (محمد محمود)

طاقة من الزهر وناب لطفى السيد عن الصحافة المصرية في استقباله .

× ترجم أمين الريحاني قصيدة حافظ إبراهيم عن دنشواي التي استهملها لقوله : « أيتها

القائمون بالأمر فينا » إلى الإنجليزية على هذا النحو :

You who are holdeng now the seins of power.

× نشرت جريدة الظاهر في (٨ أكتوبر ١٩٠٦) رأياً لقاسم أمين مارض فيه رأيه

في تحرير المرأة قال :

لقد دهشت كثيراً مما كتبه مسيو تييرلوني في شأن حرية النساء الأتراك لأنهن على

ما أرى هنا وفي الاستانة المالية متعمقات بحرية تامة ولا يحجبهن ما يحب نساءنا من ظلم المقاصير واستحكام الأبواب والنوافذ ونجوع الأستار والخوف .

هذا ولقد كنت أود المربين قبل الآن إلى انتقاء أثر الترك بل الأفريج في تحرير نسائهم وغاليت في هذا المعنى حتى دعوتهم إلى تمزيق ذلك الحجاب وإلى إشتراك النساء في كل أعمالهم ومآذبهم ولا أعلمهم ولكني أدركت الآن خطر هذه الدعوة بما اختبرته من أخلاق الناس . فلقد تقيمت خطوات النساء في كثير من أحياء العاصمة والاسكندرية فرأيت من فساد أخلاق الرجال بكل أسف ما حدثت الله على أن خذل من دعوتى واحقنفر الناس إلى ممارستى . أنه قد تصح الدعوة في الاستانة ولكن لا تجوز الدعوة من هذا القبيل في مصر (١) .

× نشرت الصحف هذا الخبر : في عهد وزارة مصطفى فهمى أطول وزارة احتلال في تاريخ مصر (١٨٩٥ - ١٩٠٨) ظهر كتاب « رجوع الشيخ » مطبوعاً في المطبعة الأميرية فذهل الناس ، وتساءلوا كيف تبيع حكومة الاحتلال طبع كتاب أباحي كهذا ويبيع علناً بالسكاتب . استقدم مصطفى فهمى مدير المطبعة الأميرية وكان إيطاليا فقرر إحالة موظفى المطبعة المسئولين لمحاكمتهم .

قال رئيس المطبعة : إنه رجل أجنبي لا يفهم من العربية حرفاً واحداً ، وأن جميع المطبوعات العربية منوط بوكيل المطبعة حسن بك أمر الاشراف عليها ، وقرر أن الشيخ عبد الطلب رئيس قلم التصحيح في المطبعة هو المسئول ، فقد جاءه أحد الكتفة، فسأله عما إذا كان يرضى بطبع هذا المخطوط فأفتى له بجواز طبعه بحجة أن الاسلام يبيع لكل من الزوجين أن يحيط بيمض هذه الأمور علماً ، وإن كان رئيس المصححين من رجال الأزهر فقد صدق على مقاله وأمر بأجازه طبع الكتاب .

× لما أصدر مصطفى كامل جريدتيه الأفرنكيتين بمد إصدار الاواء ، قال أحدهم : لقد كفل القورد كرومر طمامه في الصباح ، يقطر بالاجبين اسكندر ، وفي الظاهر يتنذى بالاراء ، وفي المساء يتمشى بالاستقدار .

(١) تردد أن هذا الرأي كان مدخولاً عليه .

× كتب سلامة موسى في مجلته «المستقبل» ١٩١٤ عن طه حسين بمناسبة حصوله على الدكتوراه «نصارحه بأن شهادته منظور فيها ضعفه ونسبته في نظره أكثر مما نظرت فيها كفاءته» .

كما كتب عن العقاد سنة ١٩١٤ يقول «العقاد لا يتقن كنهات الأدب الأوربي ويرجمها لنا بوساطاتها كما يفعل السباعي أو لطفي جمعة ولا يصف ألفاظ كالأفندي والمنفلوطي، أبي النفس صلب العريكة في كل ما يمس شرفه الشخصي» .

× في سنة ١٩١٥ طرأ تغيير على الصفحة الأولى من مجلة المقتطف حيث كتب ما يأتي:
«المقتطف: مجلة عربية علمية يحررها الدكتور يعقوب صروف» وعلفت الصحف:
كان يجب أحداث هذا التغيير منذ عشرين عاماً، لأن الدكتور فارس نمر قد انصرف إلى خدمة المقطم منذ ذلك الحين .

× كتب أحمد فؤاد صاحب الصاعقة عام ١٩١٢ .

أنا الآن أحاكم على انتقادي سمع باشا زغلول ، وأنوقع الحكم على وكفي فارغ وكيسي أفرغ منه ، وليس عندي مدخر لمثل هذا الموقف ، فذهبت إلى إدارة المؤيد لأفترض من سمادة الشيخ جنبها (يقصد الشيخ علي يوسف) والشيخ له سوابق في ذلك فهو يقرضني ما أطلبه منه وينسي وأنسى معه ، فلما قابلته لم أجده إلا ٤٠ قرشاً فأخذتها وخرجت عنه!

× اشترى مستر ويلسكو كس المهندس الإنجليزي مجلة «الأزهر» في فبراير ١٨٩٣ وشاركه فيها الشيخ أحمد الأزهر ، وبدأ يكتب فيها مدافعا عن اللغة العامية .

× قال توفيق دياب : كان المقطم هو الجريدة التي يشترك فيها أو يشترتها العدد والأهيان وكل راقب في التسريح بجاء الإنجليز منذ أوائل الاحتلال إلى ثورة ١٩١٩ ، وكان العدد الذي يقرأ ويكتب يجلس كل مساء في حلقة من أسرته وأخوانه في الدوار بعد المشاء ثم يقرأ مقالات المقطم .

وفيات الأعيان

كيف كانت الصحف تتناول رثاء الشخصيات البارزة في هذه المرحلة .

× تقول جريدة المؤيد في وفاة رياض باشا ناظر النظار وكان الرجل من أخلص أصدقاء صاحب المؤيد . (١٨ يونية ١٩١١) .

مات الرجل الذي كان أعظم الرجال همه ، وأعلام نفسه ، وأصدقهم وطنية . مات رياض باشا الرجل الذي خدم الأمة المصرية في سرائها وضرائها فكان مثال الحزم ، مثال الاستقامة ، مثال الشجاعة الأدبية في كل أدوار حياته .

ولما توفي مصطفى فهمي - رئيس الوزراء الذي تولى أطول وزارة في عهد الاحتلال قامت جريدة المقطم (لسان الإنجليز) برثائه فقالت : (١٥ سبتمبر ١٩١٤) . الوزير الطاهر لارحوم مصطفى فهمي ، على أثر ما احترى عطوفته من الضف التوالى بعد الشلل الأخير ، وقد وصفه اللورد كرومر في خطبته الوداعية فقال وهو أدري رجال السياسة (٤) بأقدار الرجال : ما ذا أقول من صديق الدريز على السامى المقام في عيني عطوفة مصطفى باشا فهمي ، فقد قضينا السنين الطوال بالهمة والصدق والإخلاص ، في أيام تفاقمت فيها الخطوب وكثرت المشاكل ، قضى من خدم وطنه بالعقل الراجح والإخلاص التام ولكن زمانه كان زمان إطلاق العنان للألسنة والأفلام فأساء فصيرو الفطر الظن فيه وانتقد أعماله الذين يطلبون ما لا يستطاع وغمطوا فضله وحسبوا حسناته سيئات . . . » .

والمقطع يقصد الإشارة إلى رجال الحزب الوطنى الذين كتبوا في نقد مصطفى فهمي .
أطناً من الورق . .

* * *

X وعندما غرق لورد كيشنر فأتى السودان ومندوب بريطانيا في مصر أنذرت له جريدة الأهرام صفحة كاملة يوم ٨ يونيو ١٩١٦ وقالت : الطود العظيم يختلف وصف مناظره باختلاف وجهة الناظر إليه ، والرجل العظيم كالطود العظيم له من السجايا والزايا والأفعال العظيمة والأخلاق الكريمة والآثار النافعة ما يحيط قلبه البليغ المقالات المديدة في وصفه ولا يستوفى مع ذلك غير القليل في شرحه وقد ننمى إليها البرق أمس رجلا عظيما ولا كالرجال وبطلا مقداما تمنو لهيبته الأبطال وطوداً منيفاً تخزل سطوته الجبال .. الخ.

X ولما توفى السلطان عبد الحميد في ١١ فبراير ١٩١٨ وكان قد عزل في عام ١٩٠٩ قالت الأهرام : توفى وهو سجين في (بورصة) بعد أن جاوز السبعين ، وبعد سجن جاوز العشر ، إنه لم يكن رجلا سلطانا فقط ، بل كان كل السلطة التركية ، كما كان مالها ماله وأرضها أرضه وشعبها عبيده ، فلا تقال في أطراف اليمن كلمة بغير إذنه ، ولا تجول بعذر البدوي بصحراء ليبيا خاطرة ، ولا ترسم على خاطره ، ولا يسير السائر في جبال الأناضول تحت حنق الليل الدامس إلا ومرى عيونه في مناقل خطوه ، مطلق الإرادة ، مطلق اليد ، نافذ الأمر ، لا إرادة إلا ما أمر ، وتنفذ أوامره فلا يسأل عما يفعل ، لا قانون ولا نظام ولا قيد ولا شرط ، لما بنى ، وإن كان بنيا وظالما حتى إذا ما ظلم قالوا في ذلك الظلم إنه عدل ، وإذا ما عدل قالوا في العدل إنه فوق العدل ، شافت عبارات اللغات عن تقديسه وتمجيده فأخذوا الوصف من صفات خالقه ، فهو سلطان البرين وخالق البحيرين وظل الله في الأرض : بادشاه وشاهنشاه ، مجتمتع الفضائل والكمالات . جعل صحف السلطة كلها ترانيل وأناشيد تسبح بحمده ، جعل نصف الناس عيوننا على النصف الآخر ، أزل الملك من نفسه منزلة المزرعة من صاحبها .

أما المقطم وكانت أكثر عداء لسلطان عبد الحميد فقد قالت (١٣ فبراير ١٩١٨) .

استعمل حكم عبد الحميد بالآمال وختم بالآمال ، فكان نصيب السلطة خيبة الرجا.
فى الحالين ، فى سنة ١٨٧٩ كان المبانىون يمتقدون أن عبد الحميد يتم عمل أخيه مراد ،
وكان مدحت وأنصاره يملون النفس بأكال مرص الدسكور فهدم عبد الحميد ما بنوا وشتت
شملهم ، فقتل منهم من قتل ومات بعضهم مقلدا فى الطائف ، ومهما قيل من سوء سياسة
عبد الحميد الداخلية التى أورت السلطة المبانىة الضعف والقانة ، وحطت قدرها ومنزلها
بين الدول فلا خلاف فى أن سياسته الخارجية وقت السلطنة شر الطامع الأجنبية ، وحذق
السلطان سياسة التفريق بين الحكومات الأجنبية كما برع بالفريق بين طوائف رعيته
وشعوبها :

نقد الصحافة والمجتمع

عقدت مجلة المحيط سنة ١٩٠٦ فصلاً تحت عنوان «السكنير المبتذل في الصحافة المصرية»
جمعت فيه المباراة التي طال ترديدها على السنة السكتاب حتى أصبحت مبهمة
ونقصتها فيما يلي :

عادت المياه إلى مجاريها - استأثرت رحمه الله بالبسكي عليه - براءة القذوب من دم
ابن يعقوب - هل أثر داء لم تنجح فيه حيل الأطباء - الحاجة في نفس يعقوب - مات
مبكيا عليه من الجميع - ناهيك عن - أنسنا باتقاء الوجيه الأمثل - فأكل المدعرون هنيئاً
وشربوا مريئاً - وكانت الدهام النارية تشق كبدا الفضاء - سبقنا فذكرنا - كما
أول من أذاع هذا الخبر - لم يخطئ ظننا فيها قلناه .

ثم قالت المحيط :

إن كثرة ما يكره في الصحف المصرية أن تضرب على نغمة واحدة في وصف الأفراح
والحفلات وذكر الوفيات ، أن تنشر من أخبار التوديع والاستقبال ما لا يهم غير المودعين
والمستقبلين ، أن تعقب الوصف في بعض الأفراح بذكر أصناف الطعام وآكلها وأنواع
الهدايا وأسماء مهديها ، أن لا تدقق في تقريب السكتب المهداة إليها وتطيل في مدح
كل منها على السواء ، وأن تذكر من أخبار التقلات والترقيات بين الموظفين ما لا يهم
واحد من القراء ، أن تسرف في ذكر الألقاب ، أن تسكيل المدح والقبح جزافاً ، أن تنشر
كل إعلان وغير إعلان يجيشها ما دام عاجوراً بنفس الفطر عن صحته ونتائجه ، وأن تفضل
بالقراء في ذكر شركات معينة إسماعجرتها لترويج أسمهم السكادة ، أن تكرر التهينة
لذين أنتم عليهم بالرتب والنياشين عدة مرات ، أن تخلط الخصوصيات بالعموميات ،
أن تذكر الأخبار المتعلقة بتمزيق ثوب الصراف بكيفية لا تصلح للمائلات ، وأن تنشر

من أخبار الانتحار ووصف كيفية الإقدام عليه ما يمكن أن يكون قدوة لدوى الاستعداد له ، وأن يتعزب كل منها المنصر معلوم فقداً عيوبه وتساعد على التماذى فيه ، إن تعظم أصحابها مع أنها عمومية للشعب ، وأن تفسر كل ما يحس به (وكالات أنباء) روتر وهافاس وأن يكن فيه ما لا يهم واحداً من الناس ، وأن تسرع إحداها إلى تكذيب الأخرى في خبر من الأخبار لا لشيء إلا لأنها سبقتها إلى نشره ، أن لا تسرع إلى تغيير حروف الطبع في مطبعتها متى تلفت . وتمذر على القراء قراءتها ، أن تعلم القراء ما لا يعلمون من ألقاظ الشعاع والسباب وشوارد التنكيت ، أن يبتذل إدارتها في إرسال نسخها إلى من لا يطلبها .

وإن تجارى مشتركاً وجبها في نشر كل ما يرغب لا لشيء إلا لأنه مشترك وجبها ، أن لا تسرع إدارتها إلى حججها عن رفضها أن تعرض عن الخوض في مسألة عامة مفيدة لأن إحداها سبقتها إليها ، أن يتخذها بعض أصحابها ومكاتبها سلاحاً لقضاء أغراضهم الشخصية الدنيئة . أن يحسبها ذووها آلة كافية لتخويلهم الحن في تمدى حدود الآداب العمومية .

نقد المجتمع

أحصت مجلة المحيط عام ١٩٠٥ وجوه النقد للمجتمع في مائة مسألة : (بلغة ذلك المعصر) .

الماشيات . ضرائب التخيل . الامتيازات الأجنبية . نقص السلك الزراعية . قلة الفضة في فصل الشتاء (النقد) النداء بالسال في القرعة المسكوبة ، عدم وجود ملجأ منظم للقطاع ، عدم وجود محاكم شرعية للمسيحيين ، ضرب العملة المصرية في غير مصر ، بقاء تسجيل العقود في المحاكم اختيارياً ، عدم تميم السككبارى بدلا من المديات ، عدم ردم البرك والمستنقعات ، حصر الوسائل الصحية في المدن دون الأرياف ، عدم وجود أماكن المجزومين ، قلة ما يتفق على التلميم ، الاهتمام برصف الأحياء الأوروبية في العاصمة وإنارتها دون الأحياء الوطنية ، المضاربات .

تزايد الجرائم والجنايات ، تكاثر عدد الشحاذين ، قلة ملاجئ الفقراء والمدميين ،
عدم وجود رقابة للصحة ، ضعف مرتبات الموظفين الأساغر (أى سنار الموظفين)
فى الحكومة ، عدم مراقبة الفنادق والمطاعم والحمامات ، تسهيل إخراج الحاجات الضرورية
إلى خارج القطر ، قلة رواتب حفظة الأمن ، عدم استغلال قاضى التحقيق بإزاء النيابة
العمومية ، عدد بيع الأراضى الأميرية بجزأة للأهالى وببعضها بجملة للشركات الأجنبية ، حلول
للموظفين الأجانب محل الوطنيين فى الوظائف التى يستطيعونها ، جعل كل الضرائب على
الفلاحين دون أهل المدن ، أمانه الصفائح الوطنية ، عدم وجود نظارة للزراعة فى مصر ،
عدم ضرب رسوم على الخمر ، عدم ضررها ، احتكار الملح ورفع ثمنه مع ضرورته ، تنازع
الإدارة والقضاء ، تقاعد أرباب الماشات ، حرية الفقاعرين ، الحشيش ، النلاء ، نظام
الفاووات ، المزاحمة فى المزايدات ، قلة مساعدة الكتائب ، عدم وجود كليات أهلية ،
قلة المدارس الصناعية فى البلاد ، استعمال الحرية الشخصية فى غير موضعها ، ضيق صكة
حديد قنا وأسوان ، عدم تميم المجالس البلدية المختلطة فى البلاد ، عدم وجود مصاح
خاصية للمصابين بالسل ، المادى ، ضريبة النخل ، تباغض العناصر الوطنية ، إهانة الإنجليز
مع المصريين ، احتقار الأجانب للوطنيين ، اختيار الممد بدون شهادات مدرسية ، عدم
وجود مدارس وملاجئ للعميان ، عدم تأييد الملاك الصغار من الوطنيين ، عدم وجود محل
خصوصى لتقيد المواليد والوفيات ، عجز مصر من إنقااص الضرائب إلى أقل من ٤ ملايين
جنيه بدون مصادفة الدول .

صحافة ما بين الحربين

تطور الصحافة في الأسلوب والمضمون بين ١٩١٩ إلى ١٩٣٩

(م — ١٥ تطور الصحافة العربية المعاصرة)

مدخل تاريخي للفترة

ترتبط صحافة ما بين الحربين بشرة ١٩١٩ ونتائجها السياسية والاجتماعية ، كانت أبرز مظاهر الصحفية السابقة مقاومة النفوذ الاستعماري البريطاني في جهات مختلفة ، بعضها تؤيد القصر ، وبعضها تمالئ الاستعمار ، وبعضها تخادم القصر والاستعمار ، وتباينت هذه الحركة الصحفية التي قادها الأهرام والمنظومة من ناحية واللواء والتؤيد والجريدة من ناحية أخرى إلى ظهور ثلاث مراكز للقوى :

(١) الأولى : تدعو إلى محاسبة الاستعمار مادام لا سبيل إلى اخراجه وكسب كل ما يمكن كسبه منه ، وهذه كانت تحمل طابع « مصر للمصريين » وطابع « التثقيف » .

(٢) الثانية : تدعو إلى مقاومة الاستعمار مقاومة لا هوادة فيها وكشفه في كل خطواته ومواقفه ، والجملة العنيفة عليه في طابع حماسي عاطفي ثار .

(٣) الموالون للقصر : في ظل امتداد حكم عباس الثاني ، وفي تقلاباته من تأييد الحركة الوطنية إلى التنسكح لها ، ومن موالاته الدولة العثمانية إلى الخلفاء معها ، وقد امتد حكم عباس الثاني من ١٨٩٢ إلى أوائل الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ .

أما بالنظر إلى الصورة العامة للعالم العربي ومهولة الخسارة ، فإن هذه المرحلة التي بدأت ١٨٨٢ بالاحتلال البريطاني لمصر ، كانت مجال صراع ضخم بين بريطانيا وفرنسا إنتهى عام ١٩٠٤ باتفاق ودي بينهما تطلق فيه بريطانيا لفرنسا يدها في الغرب مقابل إطلاق فرنسا يد بريطانيا في مصر ، وكان هذا خربة للحركة الوطنية التي كانت تحاول أن تمتد على فرنسا في مقاومة بريطانيا ، ودلالة أكيدة على أن الاستعمار مهما اختلف في تقسيم مناطق النفوذ فهو متفق

في السيطرة على الأمة العربية والشرق الإسلامي ، وقد امتد هذا الاتفاق الودي إلى نهاية الحرب العالمية الأولى حيث انقسمت بريطانيا وفرنسا : العراق والشام بين الدولة العثمانية في الحرب ، وكانت الجزائر قد سقطت في قبضة فرنسا ١٨٣٠ وعدين في بريطانيا ١٨٣٢ وتونس في يد فرنسا ١٨٨١ ثم سقطت ليبيا في يد إيطاليا ١٩١١ والمغرب في يد فرنسا ١٩١٢ . وكانت هذه الأجزاء من العالم العربي داخلة في نطاق الدولة العثمانية ، وقد عاشت الصحف العربية في هذه الفترة ثلاث قضايا كبرى :

(أولاها) دستور ١٩٠٨ الذي أصدرته الدولة العثمانية وعلى أساسه فسكت قيود الصحافة العربية في الشام (بأجزائه) والعراق ، وقد استقبل هذا الدستور في مختلف أجزاء العالم الإسلامي والأمة العربية باهتمام كبير ، وفي مصر أولته الصحف الوطنية اهتماما كبيرا ودعت إلى دستور مصري . وأصدر فريد وجدي صحيفة يومية باسم «الدستور» لتسكون نبراسا على هذه الدعوة ، والمعروف أن الأحداث في الدولة العثمانية لم تلبث أن اضطربت وانتهت بإسقاط حكم السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٩ وقيام حكم الاتحاديين ، وقد أحس المصريون والعراقيون الذي كان بعض كتابهم يرون في السلطان عبد الحميد حائلا دون الحرية — أحسوا بالنبطة وهللاوا للثقل ، وظفوا أن جرا جديدا قد أشرق . غير أن حكم الاتحاديين لم يلبثوا أن واجهوا الأمة العربية بأقصى ألوان الاضطهاد ثم وقعت سوريا في خلال الحرب العالمية الأولى تحت نفوذ أحد قادتهم أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح فقاوم الحركة العربية أهف مقاومة .

وفي معركة إيطاليا مع طرابلس قام للعالم الإسلامي والأمة العربية بمواجهة صريحة للنفوذ الغربي واستطاعت صحافة مصر أن تحمل لواء المركة سياسيا وماليا ، فقد فتحت أبواب الاكتتاب حرضت عليه وأيدت المجاهدين ، ولم يقف شاعر من الشعراء أو كاتب من الكتاب عن التنظيم والكتابة في موازاة الثقاتين ، وفي السكف عن ظلم الاستعمار وحق العبيدين في أرضهم .

وقد وجدت مؤازرة هذه الحركة من دعاة مصر المصريين إعتراضاً وخصومة ، باسم «الافليمية الضيقة» ، وكان لطنى السيد هو قائد هذه الحملة إعتراضاً على التضامن العربى الإصلاحي مع جارة مصر .

(ثالثاً) من أبرز أحداث هذه المرحلة قيام حركة الوحدة العربية والدعوة إلى الامم كزبية ، بعد أن إنتهى حكم السلطان عبد الحميد الذى كان يحمل طابع الجامعة الإسلامية ، والواقع أن الحركة العربية فى مقاومة السيطرة العثمانية كانت قد بدأت قبل ذلك ، ولكنها لم تلبث أن ظهرت بعد عام ١٩٠٩ ، فقد بدأ الأنحاديون يدعون إلى الجامعة الطورانية وإلى تبرك العناصر الداخلة فى نطاق الدولة العثمانية ومن بينهم العرب ، وجرى محاولات للقضاء على اللغة العربية فى المدارس والمحاكم والدواوين . وأحس العرب بضرورة اتخاذ موقف حاسم ، وكانت « الشام » بأجزائها (سوريا ولبنان وفلسطين) موئل الحركة لارتباطها مع العراق بالدولة العثمانية . وقد اتخذ العرب خطوة حاسمة لمقتضى المؤتمر العربى الأول فى باريس سنة ١٩١٣ وفى هذا المؤتمر حدد العرب موقفهم من الدول العثمانية وأعلنوا عن وجود أمة عربية داخلة فى نطاق الدول العثمانية وطالبوا بنظام لامركزى يحقق لهم استقلالاً داخلياً مع حماية اللغة العربية ومقومات الأمة العربية من أن تقطع فى حركة التفرق التى كان الأنحاديون يحملون لواء الدعوة إليها باسم الحركة الطورانية أو القومية التركية . ثم وقع الصدع بين العرب والترك ، خلال الحرب العالمية الأولى ، وأوقع أحمد جمال باشا الملقب بالسفاح زعماء العرب بعد أن انفصل بهم ، وفى مقدمتهم من تصدروا المؤتمر العربى الأول وعلقهم على أعواد المشائى ، وكانت الدول العثمانية قد دخلت الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا وجرى بين بريطانيا والعرب بقيادة الشريف حسين والى مكة قدمت فيها تأكيدها لإقامة دولة عربية بعد انتهاء الحرب فى مقابل تأييد العرب لها ومؤازرتها ، وقد أوفى العرب للعهد خلال الحرب وحاربوا تركيا فى الجزيرة العربية

وفلسطين وسوريا ولبنان ، غير أن بريطانيا وفرنسا كانتا قد تماقدا على إقتسام هذه الأجزاء العربية باتفاق وقع باسم « سايكس باكو » .

وكان كتاب العرب وزعمائهم قد اتسموا ، فأزرد بعضهم هذا الانحياز وحذر بعضهم الآخر من تكاثر بريطانيا على العرب في سبيل تمزيق الوحدة العثمانية العربية ، وأسفرت الحرب العالمية عن سيطرة بريطانيا وفرنسا على الشام والعراق ، وأعلن في نهاية الحرب « وعد بلفور » بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين ، وبذلك سقطت آخر وحدات العالم العربي تحت طائلة الاستعمار مع نهاية الحرب العالمية الأولى . أما مصر فقد أعلنت عليها بريطانيا الحماية بمجرد إعلان الحرب العالمية ، في نفس الوقت الذي أعلنت خلع الخديو عباس الثاني وتولية السلطان حسين ثم تولية السلطان فؤاد من بعده . ووقعت مصر في نفس لحظات إعلان الحرب العالمية سنة ١٩١٦ تحت الحماية فجدت كل مقدراتها في سبيل خدمة « الحلفاء » .

وقد كان الاحتلال الإيطالي ١٩١١ لليبيا والاحتلال الفرنسي للغرب ١٩١٢ وصلاية للمقاومة الليبية العربية إزاء الاحتلال الإيطالي العنيف لطرابلس ، كان ذلك من مقدمات الحرب العالمية ونذرها ، هذه النذر التي ظهرت في آفاق السياسة المصرية حيث بدأت بريطانيا تطارد رجل الحزب الوطني وتدبر المؤامرات لهم مما دعا كثير منهم إلى الهجرة ، وفي مقدمتهم عبدالمزیز جويش ومحمد فريد ، حتى لقد خلت البلاد قبيل الحرب العالمية الأولى من أصحاب الأعلام الوطنية الصادقة ، فبما عدا مجموعة أخذت تعمل مع أميين الرافضين في جريدة الشعب ، غير أنه لم تسكد تظهر « نذر الحماية » حتى أغلق أمين الرافضين جريدته كي لا يضطر إلى نشر مراسيم الحماية بالقوة ، وتعرض من أجل ذلك وطائفة من الدين معه إلى الاعتقال خلال الحرب الأولى .

وبذا خلا الجو خلال الحرب ومن بعده لجماعة المتدلين الذين كلن يقردهم لعاني السيف

وجريدة الجريدة ويضمهم حزب الأمة ، ومن هنا بدأت الحركة الوطنية بعد الحرب في هذا الجو في جو الاعتدال والتفاهم والالتقاء مع بريطانيا في منتصف الطريق ، وتكشف من خلال مقابلة المتمد البريطاني للباشوات الثلاثة (عبد المزي فمي وعلى شراوى وسعد زغلول) طابع الحركة التي قادها سعد زغلول من بعد ، حين قامت منظمة باسم الوفد المسافر إلى أوروبا للدفاع عن القضية المصرية في المجال الدولي وأمام مؤتمر الصلح ثم أخذت تجمع التوكيلات ذلك ، فقد كان أغلب البارزين في هذه المنظمة من رجال حزب الأمة ، غير أن تمت بريطانيا حتى بالنسبة لمؤلاء الموالين لها ، واعتقال سعد زغلول ، قد أوقد شرارة الثورة المصرية ، التي كانت تعيش في حضنة أنسكار الحزب الوطني ودعوته الحارة قبل الحرب إلى الجلاء والحرية . وقد كشفت ثورة ١٩١٩ عن أسالة هذه الأمة ، وأدهشت أوروبا والعالم الغربي ، مما دعا بريطانيا إلى ادخال مصر في بحر زاهر من التويبه باسم المفاوضات ، فأطلق سراح سعد زغلول وأرسل وصحبه إلى باريس ، حيث لم يكن باب مؤتمر الصلح مفتوحا أمامهم ولا أمام وقود العرب من الشام وتونس الذين أخذوا تنس الطريق ومولواة فصالين ، واضطر سعد زغلول إلى قبول المعاوضة مع بريطانيا ، وبدأت في مصر حياة جديدة بعد الحرب العالمية قوامها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ الذي أعطى مصر الاستقلال مع تحفظات ، وبذلك بدأت مصر في إنشاء الحياة الدستورية وإقرار الدستور ومن بعده الانتخابات التي جاءت بالأغلبية الساحقة للوفد الذي كان قد انقسم إلى وفد وأحرار دستوريين ، وبدأت حياة برلمانية سياسية وفق النظام الغربي . ومنذ اليوم الأول للحركة الوطنية بعد ثورة ١٩١٩ أخذت الصحافة طابعا جديدا ، فقد ظهرت صحافة تؤيد الوفد المصري ، وتواز زغلول باشا ، ثم نشأ حزب الأحرار الدستوريين ١٩٢٢ بعد أن انفصل عن الوفد فأنشأ صحيفة «السياسة» ، هناك بدأت صحف البلاغ وكوكب الشرق وهما موالين للوفد والأخبار يحررها أمين الرافعي ، والسياسة لسان الأحرار مع صحيفتي الأهرام والمقطم وعدد من الصحف الأخرى من الدرجة الثانية تواجه

حياة صحفية سياسية جديدة إنصلت فيما بين الحربين وامتدت في ظل تشكيلات سياسية تسكونت خلالها أحزاب الاتحاد والشعب والسمديين ، ثم ظهرت في الثلاثينات جماعات سياسية واجتاهية مختلفة باسم الأحزاب أو الهيئات كان في مقدمتها مصر الفتاة والإخوان المسلمين وحزب الفلاح وغيرها .

ومع هذا فقد ظلت الأهرام والمقطم والبلاغ والسياسة وكوكب الشرق أبرز الصحف وأضيف إليها من بعد الجهاد والأساس ، هذا بالنسبة للمصحافة اليومية أما الصحافة الأسبوعية فقد ظهرت صحف متعددة كان أبرزها : الكشكشكول وروز اليوسف وآخر ساعة والسياسة الأسبوعية والبلاغ الأسبوعي والمرحلة ومصر الفتاة . وكان أبرز كتاب هذه الفترة :

داود بركات ، خليل ثابت ، محمد حسين هيكل ، عبد القادر حمزة ، حافظ عريض ، عباس محمود العقاد ، أمين الرافعي ، إبراهيم عبد القادر المازني ، طه حسين ، توفيق دياب ، محمد التايبي ، فكري أباطة ، محمود عزي ، وأحمد حسين ، انطون الجليل ، وعبد الله حسين وأحمد نجيب . ولقد تطورت الصحافة في هذه المرحلة ، تطوراً بعيد المدى ، وبلغت ذروة الفن ، والأناقة في الطباعة ، بما استحدثت من آلات وبما تقدمت تقدماً بالغ المدى من حيث الإخراج والتصوير ، ومع سبق في مجال الخبر والترجمة ، كما تطور أسلوبها الكتابي إلى نحو دقيق أنيق ، سهل ميسور ، مع مرونة في الأداء ، وقد بلغ ذلك غايته في المجلات الأسبوعية من حيث المناورة والعبارة الملفوفة والرمز والإيماء ، كما تقدمت السكاريكاتير وصحافة النقد السياسي الساخر الذي أصبح « فناً » له صحافته الواسعة الانتشار المديدة الاتجاهات .

وكان قوام الصحافة الأساسي هو « الحزب » الذي تقيمه ، أو الحكومة القائمة في مجال الحكم ، وظلت الصحافة بحاجة إلى مونة الحزب والحكومة خلال هذه الفترة ، ومن هنا كانت تميمتها العسكرية والسياسية لفرد أصحاب البيوت التجارية والأحزاب وكبار الاقتصاديين والسياسيين .

الصحافة خلال الحرب الأولى

ما كادت تدلج الحرب العالمية الأولى حتى أعلنت بريطانيا أن حمايتها لمصر ضرورية حربية . قالت إنها ستحتفظ بالبلاد في يدها ودببة تردّها إلى أهلها وفرضت على مصر موقف الحياد ، وقد باهر لطفى السيد بمناذرة القاهرة وأقبل الجريدة وسافر إلى قريته وانسحب من المعركة . وصدرت الأوامر العسكرية إلى مختلف الديريات بجمع شباب مصر العامل وصوقه إلى « السلطة » العسكرية بأنعامه ومواشيه ، وزج بهم في خط الفار ومنحت الحكومة المصرية أنجلترا ثلاثة ملايين جنيهات ذهباً وكونت فرقاً من الجيش المصري تحت الراية البريطانية ، وسدت الجنود المصريين غارة الأتراك على قناة السويس وزحفت بهم خلف أعدائها في صحراء سيناء . وقد أخفيت كل هذه العمليات والتعركات عن الصحف فلم يكن مسموحاً خلال سنوات الحرب إلا بأخبار انتصارات بريطانيا وحلفائها ، وكانت الرقابة المفروضة غاية في العنف .

كيف كانت صورة هذه الرقابة : عندما^(١) شبت الحرب العالمية في أغسطس ١٩١٤ كان عدد الصحف المصرية اليومية لا يكاد يتجاوز أسابع اليد الواحدة وكان حجمها أقل من حجمها الآن من جميع الوجوه ، وكانت أكثر مادتها مقالات طويلة مما قد يمل قراء المصر قراءته ، غير أن الحرب لم تسكد تنعم حتى دب النشاط في الصحف المصرية لذلك التقيد ، وأوقدت بعض مندوبيها إلى ميادين القتال المختلفة ، كما نشطت شركات الأنباء البرقية في إذاعة كل صغيرة وكبيرة من تلك الحرب ولم يكن الرأي العام في مصر قبيل الحرب السكبرى يميل إلى تأييد قضية الحلفاء (الإنجليز ومن معهم) وكان الإنجليز يعرفون ذلك بلا ريب ، أضف إلى ذلك أن الروابط السياسية التي تربط مصر بتركيا لم تكن قد فصمت بعد . لذلك رأى الإنجليز أن يمهّدوا

(١) من فصل مطول عن الرقابة نشرته للصور سنة ١٩٣٥ .

للرقابة الفعلية على الصحف المصرية تفادياً من العسكرة التي تحدث من جراء فرض تلك الرقابة دفعة واحدة . وقد رأوا أن يكون ذلك التهديد في شكل كلمات أو مقالات تنشر في الصحف يشار فيها إلى الأخبار الكاذبة والأضرار التي تنجم عن إذاعتها وانتشارها بين الجماهير .

وكانت أول كلمة موعز بها لتحقيق ذلك الغرض مقالة صغيرة نشرت في إحدى الصحف في ٢٢ أكتوبر ١٩١٤ بعنوان « الأخبار الملفقة : أين مصادرها » ضرب كاتبها على نعمة المتنفر من تلك الأخبار حتى انتهى إلى الغاية المنشودة وهي « كل المراد هو منع الأنباء الكاذبة والأخبار الملفقة التي يعنى إليها الجمهور أكثر من إصافه إلى الأخبار الصحيحة ، والناس مولعون دائماً أبداً في كل زمان ومكان بمعرفة السكوت واكتشاف المجهول . وفي ٣١ أكتوبر ١٩١٤ نشرت جريدة الإيجيبتيان جازيت الإنجليزية مقالا عنوانه (حول مراقبة المطبوعات) نوهت فيه بانتشار الأخبار الكاذبة وطالبت بفرض الرقابة على الصحف لمنع نشر الأخبار الملفقة التي يخشى منها على اضطراب الأمن والنظام .

وفي أول نوفمبر ١٩١٤ صدر الأمر بفرض الرقابة على الصحف وعرض (بروفاتها) قبل الطبع على المراقبين . والظاهر أن الضغط على بعض الصحف المصرية كان شديداً فراحات تحبذ هذه الرقابة الشاذة التي لم تستطع الحكومة البريطانية فرضها على صحافتها في بلادها ، وساعدها على فرضها في بلادنا ضمناً . فقد نشرت جريدة الأهرام (١٩١٤/١١/٢) خبراً يقول : صدر أمر قائد جيش الاحتلال بمراقبة الصحف المصرية وما يكتب عن الحرب قبل طبعه ، ولم تكن هذه المراقبة موجودة حتى الآن ، لكن نوقن أن إيجادها لا يراد منه غير منع ما يضر ويضلل الرأي العام مع احترام الحقائق والحرية الممتدة . والأهرام التي ورثت منهج الاعتدال عن مؤسسها وورث صاحبها خطة الدفاع عن مصلحة مصر الحقيقية من أبيه . وعنه لا تدخر ولا يدخر صاحبها وسماً في مواصلة السير في تلك الطريق القديمة التي

انتهجت لها من يوم نشأتها فسكانت أقوم السبل الموصلة إلى الخير والمبعدة عن الصبر .
هذا ولم يمان الحكم الدرقى إلا في ٢ نوفمبر في اليوم التالي لتقرير الرقابة على الصحف .
وبدئ نفا في تنفيذ الرقابة على الصحف قبل طبعمها ، وكان على كل جريدة أن ترسل
بروفتين من كل ما تزمع نشره إلى المراقب المختص فيراجعهم ويقر منه ما يشاء ويحذف
ما يشاء ثم يوقع على إحدى البروفتين ويحتفظ بالأخرى للمراجعة بعد صدور الجريدة .

وبدأت الصحف تظهر في صورة لم يكن الجمهور يألفها من قبل فسكانت المقالات
تختطفها مساحات بيضاء من أثر قلم الرقيب ، وأول بياض ظهر في جريدة الأهرام كان
في العدد ١٩١٤/١١/٣ وكان من الأشياء التي تسكتها السلطة العسكرية إنشاء إحتفال
طائفة من المصريين والأتراك الذين أشتهروا بالعداء لأنجلترا وإعلان ذلك والدعوة إليه
فسكانت الصحف تحيقا لنشر تلك الأخبار بحيل لطيفة .

ولعل أطرف حوادث الرقابة أن جريدة (الجريدة) صدرت في ١٩١٤/١١/٨ ومقالها
الافتتاحي محذوف برمته ، وكان الرقيب قد ضرب بقلمه الأحمر على جسم المقال دون
عنوانه وإمضاء كاتبه ، وكان ذلك المقال في عمودين كاملين فظمرت الجريدة في ذلك
اليوم وليس فيها من المقال الافتتاحي إلا عنوانه « موقفنا الجديد » وتحت رقم واحد دلالة
على أن المقال مسلسل ، وأن هذا أول فصل فيه ، ثم ظهر في ذيل العمودين الأيمنين توقيع
كاتبه وهو الأستاذ عبد الحميد حمدي . ولم يكذب يظهر هذا العدد حتى بادرت السلطة
بإرسال إنذار إلى مدير الجريدة وقد أمرت بتعطيل الجريدة يوماً وهذا نص الإنذار :

« بأمر جناب المفتفت جنرال ج . غ . مكسويل قائد جيوش جلالة ملك بريطانيا
العظمى بالقطر المصري أبلغكم أنه طلب منكم حذف الفصل الافتتاحي من عدد جريدتكم
بتاريخ ٨ نوفمبر الجاري ، استبقيتم هذا العنوان وإمضاء الكاتب له ، فقد تقرر توقيع الجزاء

على جريدتكم بتمثيلها عن الصدور يوماً واحداً إنذاراً لـكم لعدم العودة إلى ذلك في المستقبل . وينشر هذا في صدر العدد الآتي وبناء عليه لا يصدر عدد يوم السبت المقبل من جريدتكم » .

وتصور جريدة « الإيجيشيان ميل » جريدة الأهرام أيام الحرب الأولى وبعدها . فتقول : منذ ظهور الأهرام وهي فرنسية تركية . ويشاع أنها تكافأ على خدماتها مكافآت راجعة لانتهابها كرامتها وتفصلاً ، ويعلم الجمهور أن سياسة فرنسا أن تسخر الصحف وحينما يشغل وطيس الحرب اتخذت الأهرام سياسة معتدلة ، انفجرت الصحيفة في هذه الظروف عبر سياسة أخرى فأنشئت بخطة عربية كلة « جريدة مصرية للمصريين » وربما جعلت افتتاحياتها بأفلام قرائها ، حتى يظن بالطبع أن الحزب الوطني اختارها أو أجزها ، وفي هذا الوقت ارتفعت سوقها فصارت توزع ٢٢ ألف عدد . وهي لا تفتأ تثبت في أعمدها الاحتجاجات الطويلة ضد الاحتلال .

الصحافة في ثورة ١٩١٩

ما كادت الحرب أن تنتهي ، وما كادت ثورة ١٩١٩ أن تبدأ ، حتى صورتها الصحف بأنها حركة اضطراب بعض تلامذة المدارس ، ونصحت للطلبة بالعودة إلى مدارسهم . ولم تنشر أخبار ثورة ١٩١٩ إلا بعد سنوات طويلة من وقوعها ، وقد كان مقر الثورة الأول هو الأزهر الشريف ، وقد قام على رأسه رجال مجاهدون حملوا لواء تنظيم تحركات الثورة في مقدمتهم : مصطفى النحاس وأبراهيم أبو الميoun ومحمد عبد الله دراز . وأعلنت بعض أجزاء القطر المصري الاستقلال ، فني النيا أعلن الشيخ أحمد حنّانة قيام الجمهورية ، وفي زفتى أعلنها يوسف الجندى . وشارك الفن في المعركة وبرز اسم سيد درويش وبديع خيرى ويونس القاضى ، وكان محمود الميى ينظم القطع الصغيرة التي يرددها المتظاهرون ومنها في مقاطعة لجنة ملتر قوله :

لجنة التاميز أنا قد أنبىا الوفد عنا
فأسألوا سعاداً يجبكم لا جواب اليوم منا

وكان زكى مبارك في مقدمة خطباء الثورة ، وكان يخاطب بالفرنسية للوفود الأجنبية التي تقدم إلى الأزهر ومن شعره في المعركة :

لمر الهبالى ألدنم وهى شواهد بيأس القى أودى بماجئن من عز
أن لم يبد طوطا عن النيل غاصب نرى لبته فينا أحر من الكفر
لاستمطرن الشعب سخطا ونقمة على ما جفت بماء في مصر من نكر

وبما يذكر في هذا الصدد أن رجلا من دمنهور اسمه « حسن ثابت » أرسل برقية لجريدة الأهرام على أثر مجيء لجنة ملتر إلى مصر وطالب بمقاطعتها ، وكانت هذه البرقية

بمخاطبة الشرارة التي اشتعلت ، وتحديد موقف مصر منذ تلك اللحظة من هذه الاجبة .
وقد استطاع بعض الذين كانوا ثورة ١٩١٩ أن يقدموا عن طريق الصحف صوراً
من مذكراتهم ، وهذه إحدى تلك الصور : بقلم واحد من أبرز المشاركين فيها ، الراحل
الشيخ محمود أبو الميoun :

كانت سنة ١٩١٩ نقطة تحول خطيرة في تاريخ مصر الحديث . في ٩ مارس ١٩١٩
قامت مظاهرة طلبة المدارس المالية التي مهدت لانفجار الثورة . . . حتى إذا وصلت إلى
باب الخلق أطلقت القوافل الإنجليزية الرصاص على المتظاهرين النار من كل شارع ، وقد أضر
في نفسى هذا الاعتداء الوحشى الفاهر على أبناء وطنى فقصدت في صباح اليوم التالى إلى الجامع
الأزهر وأعلت المبر وخطبت في الطلبة أحضهم على الثورة .

وما أن انتهت من إلقاء خطبتي حتى خرجت الجماهير من الأزهر في مظاهرة كبرى
تهتف للاستقلال ، وما كادت تصل إلى المشهد الحسينى حتى أمطرها الجنود برصاص بنادقهم
فكان أول شهيد طالب سنير اسمه مصطفى ماهر وأتبعه كثيرون وأذكر أن امرأة كانت
تطل من نافذة مسكنها تشهد تلك المصارع الدموية فمصبوب نحوها أحد الجنود الإنجليز
رصاصه أصابها في صدرها . وأذكر أن الجنود الإنجليز حاصروا مسجد الحسين أثناء
صلاة الجمعة في ذلك اليوم ، وكما خرج واحد من المصلين أطلقوا الرصاص عليه فكان
يوماً مشهوداً . لهذا جثت بمطواه وحفرت تاريخه : الجمعة (١٤ مارس ١٩١٩) على الباب
الأخضر المشهد الحسينى تخليداً لتذكراه .

وفي اليوم التالى ١٥ مارس ١٩١٩ عمت الثورة جميع أنحاء البلاد وفتح الأزهر أبوابه
للوافدين من رجال الثورة يخبطون في الجوع الحاشدة . وأذكر أن أول مظاهرات ليلية
في الدنيا هي التي خرجت من الأزهر في ذلك الحين . ومن التدابير التي لجأت إليها أنى
أنشأت جمعيات سياسية ثورية في كل أنحاء القاهرة وكنت في كل مساء أجمع رؤساء

هذه الجمعيات وأذيع عليهم التمليات والأنباء وأعذبتهم بالمسائل التي يجب أن يتناولوها في خطبهم، وفي أوائل مايو سنة ١٩١٩ اعتقل زميلي مصطفى الفايّان وعندئذ توقفت القبض على وأخذت أنسكرك فيمن يخلفني في تنظيم حركة الخطابة في الأزهر . ووقع اختياري على زميلي للشيخ محمد عبد اللطيف دراز وأعلنت وقتها « جنون الثورة » وقلت أن الثورة مجنونة وخطابوها يجب أن يكون مجانين . فلما قبض على في ١٢ مايو ١٩١٩ خلفني في الحركة الشيخ دراز وقال في أول خطبة ألقاها بعد اعتقاله : الحمد الذي جعلني أجن خلف لأجن سلف ، واحتمر يدير حركة الخطابة حتى اعتقل بعدى بتقليل ثقله غيره وغيره من إخواننا .

وإذا خافت السلطات الإنجليزية ذرعا بالأزهر وأحاطته بقوات عديدة مسلحة ، لتمتع الناس من دخوله ، ولسكننا لم يميزنا ذلك بل احتلنا عليهم ورحنا نرشد الأهالي والطلبة إلى طريق آخر يسلكونه عن طريق زاوية الميمان وبذلك يجتمعون في الأزهر ليتلقوا من خطبائه الوحي والإلهام واحتلنا حتى لقنا الجنود الإنجليز عبارة « زاوية الميمان » فكانوا إذا شاهدوا أحدا من الأهالي طردوه وأبدوه عن الباب الرئيسي للأزهر . ويقولهم : « جون زاوية الميمان » فينحرف إلى طريق زاوية الميمان ويدخل الأزهر في هدوء وسكون . وفي ١٧ مارس قامت أول مظاهرة جامعة لسائر طوائف الشعب ، وقد خرجت كما هي العادة من الأزهر ، وسارت متجهة نحو المنصورة ، المغربيل ، هابدين ، ولما اعترض الجنود المسلحون طريقها صمما على إختراق نطاقاتهم مهما حدث .

وفي ١٧ أبريل خرجت من الأزهر مظاهرات اشتركت فيها جميع طوائف البلد من موظفين وعمال وطلبة وشمس ودهبان ونجار وحمادين وأطباء ، حتى النساء البلديات سرن في المظاهرة وهن يركبن العربات الكارو ، ويترعن لرسام واعتداءات الإنجليز ، وكنت في هذه المظاهرة أحمل وزميلي مصطفى الفايّان « العلم المصري » وأيديا في أيدي إخواننا القسيس الذين كانوا يتقدمون المظاهرة معاً كدليل على اتحاد الهلال مع الصليب .

ورسم « حسن الشنتاوى » سورة ثورة ١٩١٩ كما شاهدها^(١).

فقال : الذين يريدون أن يرسموا صورة شهر مارس الطالب من ١٩١٩ يجب أن يعتمدوا باحساسهم إلى شهر الثورة وهناك يدخلون معاهد العلم قبيل اشتغالها فيصممون أسانديتها يشككون هنية في فنونه وهنية يتلون فيها على مسامع تلاميذهم مبادئ ولسون ويتواعدون جميعا على يوم العصر والخلاص ، فتسرى في حجرة الدرس موجه عميقة من حشرة القلوب . وللقلوب بأس إذا انتشم ذاب أمامه الجديد .

واقبل يوم ٩ مارس والفاس حلقات على جنبات الطريق ، إعتقلوا سمداً واتصفت النهار فاذا الناس لا ينصرفون إلى بيوتهم وإنما تنوع الأخبار فتحدث يحكى عن ثورة في الصعيد وآخر يتكلم عن الطلبة وإستعدادهم ، ثم أقيمت الساعة الرابعة بمد الظهر واتسمت الحلقات ، وإذا كل حركة حادث ، وكانت الثورة قد بدأت تصبح حقيقة ملموسة في خيال الناس وفي لحظة انتقاها القدر ، أقبل طالب من مدرسة الاعدادية وجذب (سبعة) ترام غمرة في وسط ميدان باب الخلق ، حادث بسيط ، ولكنه كان كافياً لأن يخرج الناس جميعاً من الترام ويقفوا حول هذا الرسول المجهول ، وزاد عدد الطلبة واختلطت الصيحات : أين سمعوا الثورة أبها المصريون ، وفي دقائق معدودات كان جمع عمتش في باب الخلق ورجال البوليس يبتسمون ويبتعدون ، ثم سار الحشد في طريق « تحت الربيع » وهناك أصبح يجري متدفقا من الأنف ، وتوالت الصيحات « الاجتماع في مسجد المؤيد » في المؤيد ، ونهض على المنبر خطباء يقذفون النار وكانت الساعة حوالي الخامسة ، وأقبل الانجليز بحيلهم ورجالهم ، ولكن الثورة كانت قد بدأت ، والنار لا تخيفها ولكن تغمسها ، وسارت المروجة حتى الأزهر ، وفوق هذا المنبر الخشبي القوي يراه الداخل من الباب وباليته يحفظ إن كان لا يزال موجوداً ، أعلنت الثورة ، وبمد برهة سمعنا طلقات نارية ، ولكن سمعنا في الوقت نفسه نداء كالأرعد « فلتحى الحرية » . . فليحى الاستقلال .

(١) الأهرام ١٨/٣/١٩٣٢ .

وفي منتصف الساعة السابعة أشعلت مصابيح الطرقات ، وبعد دقائق كسرت ثم هشتت ، وهنا أقبل الفرسان الإنجليز ، والبلد كله ظلام ، وكنت تسمع طلق النار يأتي من هنا وهناك ، على أبواب الأزقة والحارات ، وفي منتصف الساعة الثامنة كانت الثورة في كل مكان وبات الناس أما سائرا في الطرقات ، وأما مستيقظا يتسقط أخبار الثورة .

ثم أقبل الفجر وقال قائل في الأزهر عقب الصلاة : « إلى فتشلاق الإنجليز » إحدروا من المرور على كوبري قصر العيل لثلاث محاصروا في الجزيرة ، موعدنا عند باب سميراميس وأضعف الناس لصوت لا يعرفون مصدره ، إيمان الثورة ووحيا ، وفي الساعة الثامنة كان حوالي عشرة آلاف عن باب سميراميس وما بدأوا يسرون بهذه الظاهرة الكبرى حتى كان هدم قد أربى على الخمسة عشر ألفا ، وقبل أن يلحقوا بميدان الاسماعيليه لحق بهم من شارع « الشيخ المبيط » بجوار سراي كمال الدين ضابط من كبار ضباط الجيش البريطاني ، قيل حينئذ أنه أحد قواده ، واختلط بالمتظاهرين الذين تواصلوا بمسألته ، وعدم التمرض له : فقال : ماذا تريدون . ولأى شيء هذه المظاهرة فليقبل منكم فريق أن تنفاهم معه قالوا : كلا . كلا : تفاهوا مع زملائنا . سنسير في مظاهرتنا حيث نشاء وماذا الرجل سالنا أمينا ، ولكن على وجهه علامات الجد وسارت الثورة إلى ميدان الاسماعيليه ثم شارع سليمان باشا والأجانب يلوحون ويهتفون وبعضهم يثير الزهور . وبعد ذلك تناقبت الأيام والأهوام .

وقد أشار : (م . ت . خ) عام ١٩٣٢ كيف حالت الرقابة عام ١٩١٩ دون تسجيل أحداث الثورة فقال : ما كدت اتصفح جرائد الأهرام والآنسكار والمقطم في شهر مارس ١٩١٩ حتى عاودتني ذكرى مؤلة قاسية هي (البلاغ ٢٤ مارس ١٩٣٢) ذكرى الرقابة على الصحافة في ذلك الوقت وكيف حاربت هذه الرقابة تسجيل الحقائق وتبيين الوقائع وإعطاء كل ذي حق حقه ، والواقع أن الحركة المصرية عام ١٩١٩ كانت أكبر ظاهرة ملموسة لحقيقة القوة القومية التي تسكن في روح الشعب . فلا عجب أن يلجأ المستعمرون إلى (م - ١٦ تطور الصحافة العربية للامامرة)

قطع الصلة الصحفية بين الشعب وحقيقة الحوادث ليحفظوا هذه الحوادث في ظلام دامس .
أنك لتر حين تتصفح الصحف في مارس ١٩١٩ بذكرى ثانية تهتز لها النفس روعة
ورغبة لم تصنها الصحف حينذاك إلا بأن تقول عنها (أنها حوادث يؤسف لها وما هي
إلا ذكرى الشهداء الذين نثرنا عليهم بالأمس الزرود والزهود) . والواقع أن ثلاثة من
أبرز كتابها استطاعوا أن يحتفظوا بيوحيات كاملة لثورة ١٩١٩ وقد نشروا هذه اليوميات
في صحيفة البلاغ وغيرها من الصحف ، هم : أمين الرافعي وعبد الوهاب النجار ومحمد
الخطري .

ومما يذكر أن جريدة سلطات الاحتلال لم تسمح بإصدار صحف وطنية جديدة إلا
في أواخر عام ١٩١٩ . حين صدرت الأفسكار (أبوالمهيين بدر) في ٩ أغسطس ١٩١٩ .
كما صدرت جريدة النظام (سهد على) في ٢٩ نوفمبر ١٩١٩ .

رئيس التحرير

كانت شخصية رئيس التحرير أبرز شخصية في الصحيفة ، حتى كان يمكن أن تذكر كل صحيفة رئيس تحريرها : الأهرام : داود بركات ، السياسة : هيكل ، المصدر : فكري أباطة ، آخر ساعة : التابى وهكذا . وفي هذه الفترة أصبح لرئيس التحرير من السلطان ما يفوق سلطان الوزراء وقد بلغ ذلك النفوذ حداً ، جعل مثل الدكتور هيكل وهو رئيس تحرير «السياسة قد منع » محمد محمود « رئيس حزب الأحرار الذي يصدر السياسة من نشر بيان له في السياسة واضطره إلى نشره في جريدة الأهرام ، وفكري أباطة هو أقدر من محمد توفيق من منصب رئيس التحرير يقول : رؤساء التحرير في نظرنا مساكين ، أغليتهم الساحقة خنيلة ، عالية ، سقيمة ، ولعل لطول السهر وكثرة العمل دخل في الموضوع . ورئاسة التحرير في مصر وظيفة من أدق الوظائف ، ومركز رئيس التحرير مركز من أخرج المراكز ، دعك من الوجهة السياسية والمسئولية الجفائية فشرحها بطول ، وإنما تمال بنا نقتحم باب غرفة رئيس التحرير وهو يكتب على ورقة محرر مقالته الافتتاحية ، ها قد مد يده مصاخاً وهو يتنسم بعد أن ألقى قلبه على القرباس ، أو كذا أنها ابسامة حشكفة متصلة ، وأؤكد لك أنه في حاجة إلى المزة والافتراء لأن رئيس الطيبة يطلب «الافتتاحية بإلحاح ، ها قد دق الجرس لطلب القهوة عملاً بواجب الضيافة ونحن لا نحس . ولا نشعر أو أننا لا نود أن نحس ونشعر ، ها قد أخذنا نتحدث وهو طائر الدهن يجب إجابات مضطربة غير مستقيمة ، ها قد انتهز فرصة سكوت قصيرة فتناول القلم خلسة وحرر سطرأ أو سطرين ، ولكن إرتفع من أحدنا صوت عال أجش يوجه إليه سؤالاً ، فألقى القلم مرة أخرى والتفت للسائل ، وجبن التجلج والوداعة بمقل لسانه وبمطل واجبه ، ونحن على هذا كله لا نحس ولا نشعر : والفريب أن رؤساء التحرير جميعهم يقدرن في هذا الخطأ ويتباهون هذا الضعف ، فلامهم الشجاعة الواجبة لاستئذان الزائرين ، لإتمام

معلمهم ، ولا يخصصون وقتاً مناسباً - وفي جهة منزلة - يتممون فيه ما يجب عليهم أن يتموه في مياديه ، فإذا ظهر المقال مضطرباً مفككاً مرتبكاً ، فاستولوية عليهم أولاً ، وعلى ضيوفهم الظرفاء ثانياً ، والجمهور هو الذي يمانى على كل حال . وقد شاهدت الوفود الثلاثة المتتامة التي تقدم على رئيس التحرير ، هاند دخل وقد ضخم من طلبه المالية ويبدم هرائض وتقارير فطلبوا إلى رئيس التحرير بلهجة الأمر الناهي أن ينشر عرائضهم ، هاند تفاول رئيس التحرير منهم الأوراق بيد مرتجفة فهاه إسهابها وتطويلها فالتمس الاختصار ، ولقد ارتفعت عبارات السخط والاحتجاج مقترنة بالإشارات الحارة ، والحركات المصيبة ، فاضطر أن يضع الورقة أمامه بغاية وأن يقول لهم بكل تواضع ومسكنة : حاضر . وها قد دخل شاب يتراسق ، ولكفه ليس بالرشيق ، ويتظارف ولكنه ليس بالطريف ، فسأل ببساطة وزلافة عن السبب في عدم نشر مقاله الذي أرسله أمس ، فيجيب رئيس التحرير إجابة مؤدبة متواضعة ، أنه سيراجعه ، ولكنه لا يقتنع بهذا الجواب فيطلب بإلحاح أن يراجع أمامه وفي مواجهته ، لأنه تأخر بلا مبرر وبلا موجب ، والمصلحة العامة ، وحرية الرأي ، وأهمية الموضوع ، تستلزم سرعة النشر ، فيحتال عليه رئيس التحرير بكل الأساليب ليصرفه فيأبى إلا إذا وعد وعداً أكيداً ، فإذا وعد وعداً غير أكيد ودع مصاعفاً وعلى فنه ابتسامة صفراء مصحوبة بهذه الكلمات - حسناً سأمر على حضرتك بعد الظهر . وها وقد افتتح باب الغرفة من تلقاء نفسه لرجل من ذوي الحيليات والفتامات ولكنه يحمل مقالاً سخيلاً ، فيقوم له رئيس التحرير ومن بجوار رئيس التحرير يؤدون واجب التبجيل والتعظيم ، فيجلس منتفضاً ، ثم يلقى بالرسالة إلى رئيس التحرير طالبا تلاوتها فإذا تلاها في سره أمره بالتلاوة العلنية ، فإذا أخذ يتلوها علانية أخذ هو في نفسه بظهور الاستعسان ، ويطلب الإعادة فإذا أتم رئيس التحرير التلاوة على مضض سأله : مارأيك ، فأجاب : هال ، فقال : إذن دق الجرس ! فيدق الجرس ، فإذا حضر الخادم أخذ الرسالة من رئيس التحرير . وقال له خذها ، فإذا سأل الخادم إلى أين قال : إلى المطبعة . إذا لاحظ انقارء في الجريدة التي يقرأها ضعفاً أو اضطراباً أو سقفاً فيعلم أن ذلك راجع إلى سببين : ضعف رئيس التحرير + (تلامة) المراسلين والمكاتبين والزائرين .

حياة رئيس التحرير

وبصور انطون الجبل رئيس تحرير الأهرام كيف يمضى رئيس التحرير يومه : يقول :

« يمضى رئيس التحرير من نومه بمدد سهر طويل يتناول النسخة من صحيفته فيقع نظره في الحال - وعينه مدبرة على ذلك - على عنوان ناقص في الصفحة وعلى غامضة مطبعية في الصفحة الثانية ، وعلى إهمال في ترتيب الصفحة الثالثة ، وعلى رقم مقدم أو مؤخر في الصفحة الرابعة مما لا يخفى على نظر ابن المهنة وإن غاب على القارئ المادى فيجد رئيس التحرير في كل ذلك أو في بعض ذلك أولى مضايقات يومه . ولا يكاد يزول عن نفسه أثر هذه المضايقة الأولى ، حتى يقرع الطليعون مرة ومرتين وثلاثاً ، هذا كاتب لم تنقصر مقالاته فيسأل عنها عاتياً ، وهذا بيت مالى يحاول أن يتحرى عن مصدر خبر له أثره في دوائر المال والاقتصاد . ويخرج رئيس التحرير من منزله ويترك مركبته ليسير بضع دقائق على الأقدام من قبل الرياضة ، فيقابل أول عابر سبيل ويقبل عليها مسلماً ، ويأبى إلا أن يرافقه في سيره متحدثاً إليه عن منزلته في قلوب قرائه وأثر مقالاته في دوائر السياسة والأدب فيشكره رئيس التحرير ، ولا يمضى عابر السبيل في سبيله بل يتطرق إلى السياسة والتعليق على الأزمة الوزارية إلى آخر أنباء الحرب . ولا يكاد يتخلص رئيس التحرير من هذا الفضول حتى يقبل عليه آخر فيحدثه عن مقال طريف يفسر في تديبجه ويريد أن يختص به جريدة الأستاذ . وينتهى المطاف إلى مكتبة في دار صحيفته فيرى أمامه أكداً من الرسائل البريدية والبرقية ، وقبل أن تمهد يده إلى واحدة منها يكون الحاجب قد ألقى إليه ببضع بطاقات زيارة ينتظر أصحابها قدومه ، هذا يريد تجديد اشراكه ، وهذا يطلب تغيير عنوانه وثالث يشكو من عدم وصول الجريدة في ميعادها ، ورابع يرغب في نشر إعلان وخامس يطلب نشر خبر .

وعبثاً يحاول أن يقنع الزائر أن في دار الجريدة عشرات من الموظفين أقدر على خدمته

وقضاء حاجته من رئيس التحرير ، ولكن الزائر لا يرضى إلا أن يقابل رئيس التحرير
لأمر خاص - والإعلان مع أنه أبعد الأشياء عن عمل رئيس التحرير لأنه عمل تجارى بحث ،
ومع ذلك فلا بد من حشر رئيس التحرير فى شؤون الإعلانات ، هذا يريد تخفيض
الأجرة مع أن للإعلان رسوما مقررة ، وهذا يريد نشر اعلانه فى مكان بارز ، مع أن لكل
صفحة فى الجريدة رسما خاصا ، والإعلانات فى الصحف حقل واسع للدروس
السيكولوجية ، فهى تارة مظهر بمثل ممقوت وتارة مظهر سخاء مستنكر ، يحتفل الرجل
بزواج كريته أو بنأتم والديه ، فينفق فى هذا السبيل مئات الألوف من الجنيهات من غير
حساب ، ويأبى إلا أن يعرف عشرات الألوف من القراء عقد قران سليله المجد والشرف
وربة الصون والنفاد أو وفاة السيدة الجليلة التى قضت حياتها فى أعمال البر والتقوى ،
فإذا طلب منه قسم الاعلانات مائة أو مائتين من القروش إستنكر المبلغ وهول إلى رئيس
التحرير بواسطة بما له من مكانة فى الجريدة ليخفف ريالاً أو ريالين ، ورئيس التحرير يؤثر
غالباً أن يدفع الفرق من جيبه . وفى أثناء هذه المضايقات وهذه المخالفات يستمر التليفون
يمثل الدور الذى بدأه فى الصباح ، استيضاح عن حادث ، التحقق من إشاعة ، الاستفهام
عما يجرى فى مجلس النواب أو مجلس الوزراء . ولعل من أشد مضايقات رئيس التحرير
ما يجيئه عن طريق الكتفاب المتطوعين ، وهم لاشك مشكورون على غيرتهم على الأدب
بحمل ثمرات قرأهم إلى دور الصحف ، ولكن للصحف اليومية أحكاماً ليست للمجلات
التي هى المجال الطبيعى لفل هذه المقالات . فالتبأ التلغرافى والخبر المحلى مقدمان فى الصحف
اليومية على ما سواهما ، ولكن بعض هؤلاء الكتفاب يرويدونا على مثل ذلك ، بلقى
الواحد عاشرة ثم يرسلها إلى الصحف طالبا نشرها ، وهى أحيانا من النوع الذى يكفى
أن ينسكب به المشتراة من السامعين فلا يصح أن ينسكب به الألوف من القراء .
وعلى ذكر ذلك أذكر أنا فى سنة ١٩٣٢ وكانت قضية القنابل فى أشد أدوارها ،
حتى أن المحكمة كانت تمقد فى النائب جليستين فى اليوم فتستغرق تفاسيلها أنهرها من محفلة

وحوالى الساعة العاشرة فى إحدى الليال ، حل إلى الحاجب بطاقة تغلت باسم صاحبها وما تلاه من الألقاب السالية الضخمة ، فاضطرت إلى مقابلته على مضض ، ودخل وبمه عتاب وجماملات ، قدم إلى مقالا كثير الصفحات فألقيت نظرة على العنوان لأتبعين الموضوع فألقيته مما لا تذهب جدته ولا تضيق بهجته بل هو من قبل سد الفراغ بمثله فوصفته جانبيا : قال صاحبنا : أرجو أن تقرأ مقالتي هذه . قلت : أنا مشغول الآن جداً ، سأطالعها غدا ، قال : ولكن يهمنى أن تنشر صباح غد . قلت : لا سبيل إلى ذلك : الساعة الآن العاشرة ولا نستطيع جمع مقالات والجريدة مزدحمة ، وقضية القنابل مستغرقة جانبيا كبيرا ، فلما رأى تصميمى على الرفض وقف كاسف البال وهم بالانصراف ثم عاد فقال : ألا يمكنك يا أستاذ أن تؤخر قضية القنابل وتنشر مقالتي هذه . وكدت أصعق لأن موضوع مقالته التى لا تحتمل التأجيل هو « سيد الموت فى الأفيانوس » والكتاب المقطوعون مصدر مضايقة أخرى ، ذلك أنهم يتلفون إلى موضوع تطرفه الجريدة فيتهافون على الكتابة فيه ، كأن هناك مباراة عامة .

صورة وصفية لرؤساء التحرير (بقلم فكري أباطة)

داود بركات : قيل عنه أنه شيخ الصحافة ، لم « انقب » عن سفة ولم أهم بالبحث من تاريخه . وإنما لا أدري أين تسكن تلك القوة السارية في أسلوبه ، له ثورة أو ثورتان في العام يبلغ فيهما القمة ، مقالاته حديث الناس وفي الأزمات يندلع قلبه كالنار فتجد في « المحليات » نصفي نهر يعلوها (عنوان) يندب بالخطر . لا أظنه يتمشى مع عواطفه ووجدانه في آرائه ، لعله يحكم (العقل) ويراعي (الظروف) أكثر من تحكيم القلب . ولعله معذور فينبه عليه عمل كبير ، وفوق عاقته مسؤولية عظيمة ميزته على زملائه أن يحصوه التاريخي هائل ، فهو يمتاز في المناسبات وكثر معلوماته لا يفتي .

خليل ثابت : بطل الشرق والشرقيات ، مغرم بدراسة تطورات الشرق ومسائل الشرق وهي فصيلة بلا جدال ، أحسن من يحميد الوقوف على الحياض ، مع الأزمات ، تحرير وترتيب عملياته ترتيب ونحير شهي سهل مقبول ، ولذلك يقرأ الناس جريدته بسهولة . ولئن أخذت عليه كثرة الأخبار التافهة كحوادث النشل وحوادث الترام وتنقلات ملاحظي البوليس - ووكلاء البوسنة ، ونظار الخطات ، ودرجة تلك الأخبار العادية في صدر المحليات بعض الأحيان - لئن أخذت عليه هذا قلل جريدته في حاجة إلى معاونة هؤلاء ، ولعله أدرك سر ميل الشعب إلى الحوادث والمفاجآت . معلوماته المحلية غزيرة ، ولكنه يحمل به ألا يتكلم في الافتتاحيات عن حلوان - والقراب في العاصمة ، وآلة الرش الجديدة فالافتتاحيات روعة وجلال .

أمين الرافعي : هو بلا منازع قد إحتكر خاسيتين : (الأولى) جنون العقيدة . (الثانية) استحضار النصوص . أما جنون العقيدة فقد أحاطه بسياج متين من الإجلال خاله ، أما استحضار النصوص فلا أظن أنه يوجد في مصر كاتب يجاريه في هذا ، وويل لكل سياسي يلتقي الكلام على عواهنه ، فمند أمين الرافعي أقواله السابقة وتصريحاته السابقة ، كأنه كان يدرك في الماضي أن المكلم سيناقض نفسه وينسخ نظرياته ، أخذ

عليه التكرار في نفس الموضوع ، ودفاعه من هذا أن فيه ترسيخاً للفكرة ، وقد يكون وجيباً أو لا يكون .

عبد القادر حمزة : يمتاز بملسكة التحليل ، يحلل الموقف أو موضوع اليوم بمهارة عظيمة ، وإن وجبت المناظرة — وعند الصحفيين هي كثيرة الوجوب — فقد لا تستقيم اكتشافها . إنجازته يتفق وميل القارئ ، والمودة في الكتابة اليوم هي الإنجاز المفيد .

ولعل تفوقه في التحليل وتسلسل القديليل يرجع إلى دراسته القانونية ومرآته الجدلى .

حسين هيكل : لا يعرفه العامة إلا منذ تولى تحرير السياسة ، أما الخاصة فقد قرأت له كثيراً في الجريدة وغيرها ، ميزته أنه (Brillant) مشرق في تفكيره ودقيق جداً في تحديد موضوعه ، وأظهر ما يروعك في أسلوبه أنه يحيطه بسور من الجلال ، ولعله وهو يكتب يتذكر من يكتب بلسانهم من الوزراء وجباة العقول . فياض من ناحية الأدب ، ويدهشني أنه يكتب في الأدب كل هذه المجلدات .

حافظ عوض : journalesite (صحن ممتاز) بمعنى الكلمة في محاولات واضحة في تحسين جريدته ، لعله أقدر من يدرك سر فنه ، مطلع على الأدب الإنجليزي وقوى في مادته ، ورجال المهنة السابق لا يحتاجون إلى تعريف .

× وهذه صورة أخرى لرؤساء التحرير : بقلم كاتب مجهول .

أنطون الجليل : يجلس إلى مكتبه في الأهرام إلى ما بين الثانية صباحاً ، يكتب أحياناً ويراجع أحياناً ثم إذا به ينتقل بين مكاتب التحرير ويدورم المطبعة ليشرّف في توضيب الصحائف بين عمال المطبعة وصفا في الحروب ، فإذا أحس بالجويع عند منتصف الليل إنسل إلى بار اللّواء وهو على قيد خطوات من مكتبه فتناول عشاءه وعاد إلى ما كان عليه من عمل مقوَّاصل فلا يرح مكانه إلا إذا عرف أن ما كيفة الطباعة قد بدأت تدور .

خليل ثابت : يذهب إلى فراشه في الساعة التاسعة تماماً فإذا جاءت الساعة السادسة صباحاً وأيقظه قد زل إلى مكتبه بالبيجاما أو الروب دى شامبر ففتحه وجلس وحيداً فريداً بطالع جرائد الصباح فإذا جاءت الساعة الثامنة سلم لعاامل المطبعة « افتتاحية المقطع » التي يضمها عادة أربعة مواضيع مختلفة . يكتب بسرعة غريبة وخطه رديء لا يقرأه إلا الإخصائيون من

عمال الصف الذى مضى على اشتغالهم بالقطم عشرات السنين ، ويصعد إلى مسكنه بعد ذلك ليتناول حمام الإنطار ويرتدى ملابسه ، حتى إذا جاءت الساعة التاسعة ألقته رايضاً على مكتبه ليشرّف على كل سفيرة وكبيرة مما ينشر فى القطم حتى الإعلانات ومن عادة أن يراجع بروفة مقاله بعد تصحيحها .

الدكتور هيجل : سريع فى الكتابة إلى حد بعيد حتى ليشمل السجارة أحياناً قبل أن يسك بالقلم فلا ينتهى من تدخينها إلا وقد انتهى من كتابة المقال . خطه لهذا السبب لا يقرأ إلا إذا اجتمع لك رموزه عدد من الزملاء . لا يبنى بالأسلوب بل يسرف فى استعمال حروف الجر بلا حساب ولكنه يعنى بالفكرة ويناقش فى منطق سليم وتخريج حكيم .

عبد القادر حمزة : إذا أراد أن يكتب شرب فنجاناً من القهوة وسجارة ثم يشرع القلم كأنما أرهف سيفاً . يكره أن يدخل عليه أحد أثناء الكتابة حتى لا ينقطع تيار أفكاره المزدحمة ، وهو يحب أن تراجع ما يكتب وينشر قبل أن يتسلمه حامل المطبعة . ينال من خصمه يهودته ورزاقته أكثر مما ينال منه غيره بمحدثه واندفاعه .

القابى : نشيط جداً ولكنه مزاج ، يستطيع أن يحرق مجلته الكبيرة من ألفها إلى يائها فى جلسة واحدة إذا أراد بحث الهدوء لتضايقه أحياناً دقائق ساعته الأنيقة .

توفيق دياب : خطيب بطبعه حتى فى مقالاته يؤثر أن يعل ، وقد يكتب بيده شيئاً ، يذرع الترفة جيئة وذهاباً ويشير بيديه أحياناً ويدق على المنضدة يمينه أحياناً ، يتحدث ثم يهدأ ، يرفع صوته ثم يخفضه ، فكأنما لا يعل على كاتب ، بل يتحدث إلى جماعة ويخطب فى جمهور ، يعنى باللفظ المخفّر ، ويصعد إلى الكلام المثيق للتأثير على قراءه . فلما يبدأ كتابة مقالة قبل منتصف الليل وكثراً ما يعل وحوله نفر من خاصة أصدقائه كان يقصدهم فيما مضى أمير الشعراء شوقى أو وحيد الأيوبي .

عباس العقاد : يؤثر الهدوء إذا بدأ يكتب ويكتب فى الصباح الباكر ويمضى بالأسلوب يقدر ما يعنى بالفكرة ، لم يتولى رئاسة التحرير يوماً من الأيام ، ولكنه عمل فى كثير من صحف : المنبر . البلاغ . الجهاد . روز اليوسف . الضياء .

من تجارب الصحفيين

لم يكن رؤساء التحرير وخدمهم الشخصيات البارزة في الصحافة اليومية والأسبوعية خلال فترة ما بين الحربين بل كانت هناك شخصيات مؤثرة ، لها صوتٌ مدوي ، وتجربة ضئيلة وقد سجل كثير من هؤلاء الكتاب الصحفيين تجاربهم الصحفية والظروف التي عاشوها ، وهي في مجموعها تعطي صورة الصحافة من الداخل :

(١) تجربة عباس العقاد

ليس في وسع الكاتب السياسي مهما يكن شأنه ، ومهما يكن الشعب الذي يكتب له والموضوع الذي يكتب فيه ، ليس في وسعه أن يؤدي اليقين القانونية التي يؤديها الشهود في الحاكم قبل الانضاء إلى القضية بما يملكون .

فهو قد يقول الحق ولكنه لا يقوله كله في وقت واحد ، لأنه مرهون بأوقاته التي يتسكشف فيها على حسب المناسبات والأحوال . فهو إذن قد يقول الحق ولكنه لا يقوله كله كما يفرض عليه بين المسككة . وتفسير ذلك أنه لا يقف في كتابه موقف الشاهد أمام القضية ، بل يقف أحيانا موقف الملم أمام التطبيق أو موقف الطبيب أمام المريض أو موقف الواعظ المصلح أمام أتباعه المريدين .

وإذا وجب على الشاهد أن يقول كل شيء أمام القاضي الذي يحكم في القضية حكمه الفصل فليس من الواجب على الواعظ ولا على الطبيب ولا على الملم أن يقول كل ما في نفسه لللاميذ والمرضى والموعوظين وقد يكون في الأمر سر يتعلق بأناس آخرين ولا يملك الكاتب أن يجر به علانية في جميع الأوقات لأن كتمان ذلك السر أمانة يحاسبه عليها ضميره ويحاسبه عليها أولئك الناس الذين أنتمنوه عليها .

وإذا كان الكاتب يكتب للثانين والجهلاء فليس أصعب عليه من الصدق وليس أيسر .

الهدية من الكذب والتبويه ، والكذب في بعض الأحيان عجز وليس بقدره ، فإذا لم يملك الكاتب قدرة الصدق كذب وهو عاجز مضطر إلى مخالفة الحقيقة ، ولكنه إذا قدر على الصدق لم يكذب ولم يخالف ما في ضميره ، فربما كان الصدق أرحم من فن الكذب في أكثر الأحوال (وعندنا) أن الكتياب يخالفون غيرهم في أمرين ظاهرين : وهى أنهم من جهة خاضعون لرقابة الجاهير ، ومن جهة أخرى خاضعون للمفريات والمؤثرات التي تسلطها الجاهير عليهم وهم يشعرون أو لا يشعرون . نخضوعهم لرقابة الجاهير يجعلهم أكثر من سائر الناس حذراً من الكذب والتبويه . وخضوعهم للمفريات من قبل الجاهير يجعلهم على نقى ذلك أكثر من سائر الناس رغبة في مواءمة الجاهير أو رغبة في إخفاء الحقيقة واسطناع الأباطيل ، وأن الكاتب ينبغي أن يخلص في كل سطر وفي كل كلمة وفي كل حرف بخطه بيمينه ، سواء قال الحق كله أو صرح ببعض الحق أو ترك بعضه مكتوماً إلى حين ، وخلاصة هذا كله أن الكاتب كالطبيب والواعظ والمحامي في موقفه من الصدق والصراحة فلا الأطباء ولا الوعاظ ولا المحامون يقولون كل ما يعلمون ، ولا الكتياب يطالبون بذلك في شرع الأخلاق أو في واجب الصناعة ، ولكنهم جميعاً يطالبون بواجب الاخلاص الذي لا يسقطه عنهم عذر من الأعذار .

(٢) تجربة التابى

هذه صورة للتأبى ولجنة آخر ساعة كتبها أحد الصحفيين في مذكراته .

الذين اشتركوا في تحرير العدد الأول من آخر ساعة (١٩٣٤) م : أحمد الصاوى محمد ، أمينة السميد ، سعيد عبده ، زينب صدق ، السندباد البحري ، صاروخان ، قاسم فرحات ، كريم ثابت ، محمد التأبى ، محمد حسنى عبد الجيد ، محمد عبد الوهاب .

وتدخل غرفة الأستاذ التأبى فنجدته جالسا إلى مكتبه وقد وضع على ذراعيه أكماله

الموداء وراح يدخن شبيجارة أو يشرب فنجانا من القهوة، والقابى رجل معتراطى لا يحب التحكم أو أملاء الرأى، ومن هنا إذا أراد وضع فكرة صورة نادى «ساروخان» ونادى جميع المحررين يطلب منهم أن يسكروا فى صورة كاريكاتور . وعلى يمين الأستاذ يوجد غرفة ساروخان . . تدخل حجرته فتجده قد خلع جا كفتة وأسند يده إلى رأسه الأصلع وقد أمسك بريشته القاسية يسود بها وجوده الناس ويمبث بالاناقة والجمال، ويجيد زميلنا كامل الشناوى المحرر بالأهرام تقليد صوتى الأستاذين المقاد وتوفيق دياب إجادة تفوق الوصف . وحدث مرة عند ما كان الأستاذ المقاد يعمل فى إحدى الصحف اليومية أن تظاهر الشناوى بأنه الأستاذ المقاد ودق التليفون لسكرتير تحرير تلك الجريدة وسب عليه دشا بارداً من الشقيقة والسباب، وتضابق سكرتير التحرير وكاد يستقيل لولا أن الشناوى دخل عليه وأخبره أنه هو الذى كان يتحدث باسم المقاد وبصوته، فشجع سكرتير التحرير صديقنا الشناوى إلى الباب بما يستحق من التحية والاحترام والشاليب .

وبعد دقائق دق جرس التليفون فى حجرة سكرتير التحرير وقال المكلم إنه الأستاذ المقاد وثار سكرتير التحرير وقال على اعتقاد أنه الشناوى يعيد الكرة مرة ثانية : « بلاش أمور عيال » أقلل السكّة واتركنى أشغل وما كاد ينتهى من هذه الجملة حتى رأى الشناوى واقفا أمامه وسمع الأستاذ المقاد الأسلى يقول فى التليفون .

ومن انقلب والفصول الباردة فى (آخر ساعة) أن حدث منذ أيام أنزار الدكتور غلوش رئيس أركان جمعية منع المسكرات زميلا من الزملاء أشهر بيننا بأنه أشد الناس إيمانا بجزايا المسكرات وأكثرهم تطبيقا لهذا الاعتقاد . وظننت أن الدكتور غلوش زائر الزميل لهديه إلى الماء الفراح والصراط المستقيم . ولكن ما كان أشد دهشتنا عند ما رأينا الزميل يتظاهر بالقى والورع أمام رئيس جمعية منع المسكرات ويهاجم للشروبات من

الوسكى إلى النازوة ، ويسأل بدهشة عن مصير السكرى يوم القيامة إذا ساروا على الصراط المستقيم الذى هو أحد من السيف وأرفع من الشجرة وليس له درابزين .

ولم نحتمل نحن الأصدقاء نفاق الزميل فانفقنا فيما بيننا على مقاب نظيف زده الزميل إلى الصراط المستقيم ، اتفقنا على أن يدخل أحد سماة الهمة وفي يده زجاجة ويسكى ويقول للزميل أمام الأستاذ غلوس : حضرتك ح تأخذ زجاجة الوبسكى معاك ، وإلا أبثم البيت مثل كل يوم .

وقام السامى بالمهمة خير قيام وأغنى على الزميل ، وجل الأستاذ غلوس مبادمه المروفة وغادر الزميل بعد أن نظر إليه بكل هزؤ وزراية واستخفاف .

قال صحنى كبير : إن التهويش والصحافة كلمتان مترادفتان بمعنى واحد ، ومن التهويش الذى يلجأ إليه الصحافي : المصادر العلمية ، ودوائر الحل والربط ، ومن يديم مقاليد الأمور وولاية الأمور . يسمع الواحد منهم خبراً من ساعى أحد الوزراء أو من موظف درجة ثامنة حرف جيم في مكتب مساعد وكيل إحدى الإدارات فتأبى عليه كرامة المهنة أن يقر ويعترف بالواقع ويقول : بلغنا من أحد صناع موظفى قسم الروزنامة بوزارة المالية بدلاً من أن يقول هذا بالخط المريض أنه سمع الخبر من ولاية الأمور ، ونقرأ في الصحف اليومية برقيات تقول أنها لمراسلها الخاص فإذا وقعت حادثة في حارة غير مطروقة بزقاق غير معروف بقرية مجهولة في جريدة مدغشقر نشرت الصحف في اليوم التالي برقيات مطولة لمراسل الحريدة في هذا الزقاق . . ويسأل القراء : هل لهذه الصحف — وخبرها غير المفروء منها — هل لها مراسلون في كل مكان .

(٣) من تجربة فكرى أباطه

فى سنة ١٩١١ كان فى المدرسة السعيدية تلميذان صغيران يتناوبان ويقتادان الرسائل
التي تمس السياسة العامة ، أثناء إلقاء الدروس فى الفصول ، هذان التلميذان (النجيبان)
كانا : محمد الطابى وفكرى أباطه وإن كان أولهما سيثور ثورة حامية ضد هذه الذكرى
الآلمية التي تسجل سنه بوجه التقريب . عرف التلميذان بتملقهما السليق العزيزى للصحافة
منذ ذلك الحين ، أولهما يمالج الصحافة فى بعض المجلات ، والثاني يمالجها فى المؤبد تحت
اسمين مستعارين . . فرقت بينهما السفون والهجون إلى أن التليا مرة أخرى بمد جيل
كامل صحيفتين ناضجتين . فسلك كل منهما طريقه حتى اليوم .

كانت أميتى بمد ثورة ١٩١٩ أن ينشر توقيمى تحت مقال لى بالأهرام . كان أقطاب
السياسة فى مصر يملون على أنكارهم ونحن نعمل مما فى الحركة الوطنية . تجمرات
فى ٥ ديسمبر ١٩١٩ بنشر مقالى الأول الذى هز الخواطر فى جريدة الأهرام « خيال
وصياد » .

رداً على جريدة الشمس التي أشارت إلى شكوى المصريين من احتشار الإنجليز
بالوظائف الكبرى ، فلبجأت إلى دوسيهات بعض رجال كبار موظفي مصلحة الزى وإلى
إحصاء عن عدد كبار الموظفين الإنجليز فوجدت النسبة فادحة فى المرتبات والوظائف .

وفى مقال تال : ٢٣ يناير ١٩٢٠ (نطاط ورقاص) .

بشرت الشهادة الوحيدة التي وجدتتها فى ملف أحد كبار الرؤساء فى وزارة الأشغال ..
وأنه يجهد ركوب الخيل والنط والرقص ، وكان مساعد مدير أعمال وزارة الأشغال ورئيساً على
مصريين حازوا الشهادة العليا الهندسة وقد أحدثت المقالة دوياً فملقت عليها جريدة التيمس .
وأبقى إلى تقلا باشا (صاحب الأهرام) طالباً الحضور لمقابله فحضرت من الزقازيق

وعرض على أن أحترف الصحافة فاعتذرت بشدة في ذلك الحين مؤثرا المروءة على الاحتراف .
وشبت نار الثورة ١٩١٩ غررت كثيرا من المنشورات للطلبة الأناشيد التي طبعت منها الآلاف
ووزعت . وخطب ضد مشروع ملنر في المنشورات السرية والمظاهرات « كتبت فكري أباطه
ضد مشروع ملنر في الأهرام ٢٠ سبتمبر ١٩٢٠ .

ثم حيل بيني وبين الكتابة في السياسة ، ولما كتبت هاويا للصحافة قلت لأشملن نفسي
بمناوشة الجنس اللطيف مؤقتا بدل الإنجليز ، وقد بدأت ثورة تسوية تحمل لواءها اثنتان :
واحدة توقع مقالاتها باسم الخنساء وكانت قوية الأسلوب واقعية التعبير ، فلطمعتني أكثر
من لطمعة ، وهكذا اكتشفت أن الخنساء هي « محمد لطفي رحمه » .

أما الثانية فكانت فتاة مثقفة غاية التهذيب ، هي « منيرة ثابت » وكانت تطالب إذ ذاك -
بأن يكون للنساء حق التصويت بمناسبة وضع الدستور .

لم تنفني العروض المشهية لسي أحترف ، فظلمت هاويا ، فلما عرض على أن أجمع
مقالاتي في مجموعة واحدة لم أجد في جيبى رأس مال الطبع والنشر ، فاعتمدت على الناشر
مصطفى محمد بشارع محمد علي ، ثم عرض على جبرائيل تفلأ أن أحقل زاوية في جريدته الكبرى
شرط على نفسه ألا يتدخل في موضوعها ولا أهدافها ولا مبادئها ، ولكنني كنت في مسهل
شبابي المندفع فظننت أن الاحتراف قيد وذل وغل .

أول مقال كتبه فكرى فى أهرام ٥ ديسمبر ١٩١٩ (١).

نشرت القيمس مقالا رقيقا عطلت فيه على المصريين ونددت بإسراف الحكومة فى توظيف الشبان الإنجليز وطلبت فى النهاية المدول عن هذه السياسة الأخيمية المؤدية إلى السخط والاستثناء . خيل لى أن القيمس تفرض ضمنا أن عدد الإنجليز فى الوظائف الكبيرة ضئيل أو على الأقل لا يذكر بجانب المصريين فيبحث ويبحث حتى وصلت إلى نتيجة وفت أمامها مذهولا متحيرا - فى مكتبات الوزارة كتيب صغير - غير الكتيب الأصفر، حصرت فى أسماء الموظفين المصريين والأجانب . حدثت فى كتيب منها وأخذت أجمع وأطرح وأضرب وأقسم وكانت النتيجة ٧٤٥ إنجيز ٩٩ أجانب ، ١٥٠ مصريون أى أن عدد الإنجليز ثلاث أضعاف المصريين . وقد وفد علينا فى هذين اليومين جيش جرار من شبان إنجليز زاحمنا حتى فى أصغر وظائف مصرنا العزيزة ، وسارت حكومتنا مع الوافدين على النصف الثانى من البدا المشهور (أحرار فى بلادنا - كرماء لضيوفنا) فألحقهم بالوظائف الفنية وغير الفنية، وترتب على ذلك خروج عدد من الموظفين المصريين قائلجأوا للمحاكم طالبين المدل وكان دفاع الحكومة ولا يزال ملخضا فى كتيين : رقتناه للاستعناء ، ولو انصفت لقالت : رقتناه للاستبدال ، وقال فكرى أباطة فى ذكرياته : كتبت عن رجل كبير قلت : إنه يزحف نحو المجد ونحو القمة بسرعة ، فطلبنى بالتليفون وكلمنى قائرا غاضبا من كلمة « يزحف » قائلا : أترانى طفلا صغيرا وهل هذا يليق ، قلت له بكل هدوء : سل أحد القنويين عن معنى « يزحف » فى هذه

(١) احترف الصحافة حين تولى رئاسة تحرير للصور سنة ١٩٢٦ .

العبارة وكلنى من فضلك بعد خمس دقائق، وبعد خمس دقائق كلنى قائلا : شكراً
بافسكرى يقولوا أن يزحف (دى كويسة) .

(٤) من تجارب إبراهيم عبد القادر المازنى :

كنت أعمل في جريدة الأخبار مع أمين الرافى : وكان عبد القادر حمزة كلما رأى
سياحة جريدته « الأهالى » متفقة مع سياستنا المستقلة في الأخبار يدهونى إلى الكتابة
في جريدته فأقبل ولكن بتوقيع مستعار باسم استقر عليه الرأى « مطلع » ، وكان رأى أن
الحال لا يدعو لظهور الأحزاب وتمدها فقاومت حركة تأليف حزب جديد في ست
مقالات نشرتها جريدة البلاغ بتوقيع « مطلع » ، وكان الأستاذ المقاد يكتب في البلاغ
ويحمل من ناحيته على الحزب الذى دار تأليفه ولكن باسمه الصريح ، ولم يكن يلح في
هذه الحجة، وإنما كان كل منا يكتب في هذا كما دعت مناسبة . ومضت الأيام وقام الحزب
وإذا يبيض الحقى بنقالون المرحومين حسن باشا عبد الرازق وإسماعيل بك زهدى على باب
حزب الأحرار الدستوريين . وقد تبين من بعد أنهم مجانبين لا علاقة لهم بصحافة
ولا أحزاب ولكن ثروت باشا أراد أن يمد « البلاغ » وساحبه ومن يكتبون فيه مستولين
أديبا عن الحرية ، وكان هذا خطأ ميبها ، فأما صاحب البلاغ فمروف، وإنما المقاد فيكتب
باسمه الصريح وإما « مطلع » فلم يمد ثروت باشا من يده على أنه المازنى ، ودعانى أمين
الرافى وقال :

اسم ، أخبر صاحبك أنك ستفتيان من مصرويسى بصاحبى الأستاذ المقاد ولا أحتاج
أن أقول أنى لم أقصر في ابلاغه ولا فى الاستعداد للفق وتدير الأمر مع أمين الرافى على
ما يكون وأنا موافق ، ولا سيما بعد أن رأيت القيامة تستدعى عبد القادر حمزة للتحقيق معه
ولسكننا لم تنف، لأن وزارة ثروت إستقالت وجاء وزارة نسيم فصرفت النظر عن هذا .

× فر الشيخ جويش من تركيا ودخل مصر في ففلة من الحكومة ودعاني أمين
الترافى ذات صباح ، ودفع إلى كتابا وقال : إقرأ ، فإذا هو من الشيخ جويش يعلن فيه أنه
دخل مصر ويسوغ اضطراذه إلى التنكر والدخول خلسة ، فأثرت عليه بنشره ففعل ،
فقامت الدنيا وقعدت واضطربت الحكومة وانطلق البوليس السرى في كل مكان يتجسس
ويستحرى ، وسار الناس يقدون علينا : يسألوننا أين هو ؟ وكان الدستور قد صدر وهو يحرم
نقى المصرى ، فأثرت عليه بمقابلة يحيى إبراهيم رئيس الوزراء ، وقلت أنه قاض قبل
أن يكون رجل سياسة ، فصدق ظنى ولم يحبب في هذا الرجل . قال : هل للشيخ جويش
أن يظهر وهو آمن . قال : « نعم بلا مراة » فصدرت الأخبار فيها دعوة له أن يظهر .

× × كانت الصحافة قبل ربع قرن - يقصد قبل ثورة ١٩١٩ - وإلى عهد
غير بعيد « صحافة رأى » لهذا كانت المقالة من أهم ما في الجريدة . وهى التى كان عليها
المول . كانت الصحف لا تنشر من برقيات روتر وهافاس إلا بضمة سطور كانت الصحف
تشتري لقراءة مقال واحد : اللواء ، مصطفى كامل ، المؤيد ، على يوسف ، أو النفلوطنى .
الجريدة : لطفى السيد . إن المقالة كانت هى الجريدة . ثم فتحت الصحف صدورهما
الكتاب والأدباء ينشرون فيها شعرهم ونثرهم وأسبق الصحف إلى ذلك جريدة الدستور لفريد
وجدى . أما أهم تطور صحفى فلم يحدث إلا فى عنفوان الثورة المصرية ١٩١٩ لأن الصحف احتاجت
إلى الاطلاع على ما يكتب عن مصر فى الخارج والوقوف على ما يجرى فى مؤثر فرساي
فبدأت الصحف تتخذ المراسلين المصريين فى باريس ولندن . ومن أهم آثار الحركة
الوطنية أن احتاجت الصحف إلى معرفة حملات الصحف الأجنبية عنها فقدمها هذا إلى النهاية
بالشئون الخارجية .

× × فى ١٩٠٩ نشر عبد الرحمن شكرى الجزء الأول من ديوانه فعمل عليه

محمد المرسى حملة عتيقة في مقال نشرته جريدة مصر الفتاة (أبو بكر لطفى المنفلوطى) وكان المازنى في ذلك الوقت طالبا بـ مدرسة المعلمين العليا ومن المجيبين بشكر شكرى، فكتب مقالا في الرد على المرسى نشر في جريدة مصر الفتاة، كان أول مقال للمازنى ثم نشر ١٤ مقالا متتاليا في جريدة المستور عن ديوان شكرى في مصر الفتاة (٤ مايو ١٩٠٩) وهذا نموذج منه :

أيها الكتاب ولا أقول الأدباء فليس كل كاتب بأديب ولا كل ناقد بنقاد ، خليك بكم أن تتأدبوا في مخاطبة الشراء فإن أوجع ما يمانيه الشاعر أن يقوم من لم يستجد من الشعر غير ما نظمه ابن الفارض ولم يمن إلا بما قال البهاء زهير من السلام الموزون المقفى الذى مأؤه الوهن والتميزة ، فيقول له تمال أعلك كيف تقول الشعر . أيها الشيخ أنا نعرف اليد التى حركت قلمك فكيف ما كتبت ، أما ذلك السباب الذى رميت به الشاعر فليس منك وإنما هو منسوب إليك ، ولو كان هذا السلام من قتلى النفاق لارتباك من دهاء أستاذك ما يزيدك حيرة في أمره .

• — من تجربة أحمد حسين

فتحت عيني في فجر الثورة المصرية ، كنت طفلا وقد ذك لم أ تجاوز الثامنة من عمرى ، ولم أكن إلا طالبا بالمدارس الابتدائية في السنة الأولى منها ، ولكنى أذكر أننى اشتريت كسكلى طفل في ذلك الوقت في الجهاد القومى فاندرجت في سلك المظاهرات وارتفع صوتى بالمطافات الداوية « مصر والسودان لنا » ، إن الصورة التى أيقظت روحى بقوة كانت تغطى جدران معبد الكرنك ووادى الملوك ، علمتى كيف كانت لمصر حضارة منذ أربعة آلاف من السنين ، الله أكبر لقد ، رأيت مصر تعلم العالم وتضىء عليه بجمامة الأزهر المصرية ، وتحارب الجيوش الأوربية الجيوش فتقهرها وتأسر ملوكها وقارت بين هذا الجودوما نبش منه من ذل فعرفت السر ؛ السر هو : « أن الله لا يغير ما بقوم حتى

جئروا ما بأنفسهم » ، لابد من العمل ، لابد من رفع النشأة التي تعمى أعين المصريين ، أصدرنا جريدة الصرخة منذ أربعة سنين ، كنا محوطين بالطلبة ، رأيت كل شيء مملوكا للأجانب ، فدعوت الأمة إلى جمع قرش من كل مصري لتأسيس مؤسسة قوية وقد كان وجمعت القروش وشيد مصنع الطرايش ، فكان هذا إيذاناً بنصر الشباب ويشيرا بمودة الروح

× قد تكون الاعلانات عن الجور حقا ، مورد كسب عظيم للجريدة ولصاحب الجريدة ولكن الجرائد لها مهمة أخرى غير مهمة الكسب الشريف والتبرع الشريف ، لاصحف مهمة أخرى أكثر قدسية من الكسب واكتناز الأموال ، أعنى بها قيادة الراى العام وتوجيهه نحو الأصلح والأفضل ، فالصحف ليست إلا مغير الراى العام ، مصاييح الإصلاح ، كفاح في سبيل الحق ، ولسكنها لا يمكن مطلقا أن يكون سبيلا للكسب ولا شيء غير الكسب ، وهى لو تفككت الطريق لأحرى بها أن تكون بما تفعله أداة هدم لا أداة بناء ، ليس يؤلنا أكثر مما يؤلنا من رؤية الصحافة الرشيدة عديدها إلى هذه المفكرات فتعاونها وتلبسها ثوب البراءة وتهيل عليها عبارات من التهييد والاطراء .

× إلى طلعت حرب : لقد أصبحت فريدا في تاريخ مصر ، كوكبا دريا لا مما يضيء سمائنا الملبدة بالنيوم والآلام ، أى شيء لم تفعله من أجل مصر ومجدها ، أنت رجل التعليم ، رأيتك في العام الماضي على رأس مدرسة في حلوان وسوف نراك على رأس مدارس أخرى كثيرة ، وأنت بعد ذلك الرجل الذى أوجد لمصر بنسكا أنهم البنوك في سفوات قلائل ، أنت الرجل الذى رد على مصر كرامتها الاقتصادية وبث الثقة في أرجائها وأنقذ كل زوتها ، وها هو بنك مصر بعد أربعة عشر عاما في مصر لا يسير إلا من مجد إلى مجد ، أى شيء لم تفعله هذا البنك ، بل لم يفعله أنت من أجل مصر وعظمتها ، أو لم توجد مصانع القطن ، أو لم يصيب

مصنع المحلة بمد الزیادات الحديدة من أعظم مصانع العالم ، أولم تشتت المصانع الانجليزية للثقلنة لتديرها على ضفاف النيل ، أولم تنشئ لنا الأساطيل تجوب الهواء والماء ، فرفت العلم المصرى فى السماء ، وفى أنحاء العالمين ، يجب أن يكون ورق القند موقعا عليه من طلعت حرب لا من « كوك » .

× مصر هى مركز العالم : ومعلمه الانسانية وأم الحضارات وهى منبع الحكمة وموئل الأديان جميعا فنما خرجت الديانة الموسوية وبها احتمت المسيحية ، وهى التى رفعت لواء الاسلام عاليا ، وأنشأت جامعة الأزهر ، وهى التى حاربت أوروبا الصليبية فهزمتها وأسرت ملوكها ، وهى التى انقذت المدينة والعالم من شر التتار المخربين ، وهى التى أنفت كل أعدائها وغزاتها ، وبقيت حية خالدة وهى التى رمت بالجیوش الانجليزية إلى البحر وهى التى قرعت جيوشها أبواب أوروبا وأخاف أسطولها الأساطيل ، وهى التى تقدم الاسلام اليوم وستقول إليها زمامه .

× لا تنسكم إلا بالبرية ولا ترد على من لا يخاطبك بها ، تطهر - فقاطع الخجور ودور الهمم الحرام والشبهات الأخرى - لا تشتري إلا من مصرى ، ولا تشتري إلا ما صنع فى مصر - الاحتلال الملى فى المدارس الأجنبية التى تنزونا ، فهل آن لنا أن نهجر هذه الهور ، الحاكم المختلطة : سفحة سوداء . حاجة مصر إلى بنك مركزى . جهاد الأمة فى سبيل الاستقلال الاقتصادى . والقضاء على الأمية . إعتزوا بمظائكم وخلدوا ذكراهم . قاطعوا أغاني التخلف . شركة قناة السويس تؤلف دولة فى الدولة . لابد من إتمام الامتيازات الأجنبية (١٩٣٣) .

٧ - من تجربة « محمود كامل »

لقد كفور هيكل طريقة في معاملة شعار الكتاب المبتدئين قد يعتبرونها في بادئ الأمر عتيفة قاسية . كان كاتب هذه الكلمة يقوم بكتابة سلسلة مقالات في السياسة عام ١٩٢٢ (في عالم السينا) وحدث أن تأخر نشر بعض المقالات ، وكان لكفور هيكل إذ ذاك والسياسة في عظمتها وعزها مكثير خاص هو الزميل طاهر حتى يستفسر من الزملاء في مقابلة رئيس التحرير واعتقدت أني لو مررت بالأستاذ حتى لما فزت بمقابلة الكفور ، فانهزت فرصة سانحة وانتحمت النرفة وأبدت احتجاجي على تأخر نشر المقالة وكم كانت دهشتي عندما صاح في وجهي - يعني هي مقالات برناردشو ، اغتطرتني بمجد لها مكانا . وحقدت على الكفور هيكل مدة كنت اعتقد أنها ما أنه مثال الشراسة إلى أن نشرت في السياسة بحثا عن الأدب الأغريق ووجدني يوما جالسا في غرفة سكرتير التحرير الكفور محمود عطا وكنت لا أزال طالبا في مسهل دراسي العلمية ، فاقتربت مني وأخبرني في صوت هامس أنه قرأ البحث وأعجب به ، وأنه يريد أن يفضي إلى بسر خطير من أمرار المهنة ، وهو أنني إذا أردت الترجمة فلا يجب أن أترجم وأقدم الأصول إلى الطبعة ، بل يجب أن أنقأ ما أترجمه في الدرج أيا ما عديدة عشرة أيام أو خمسة عشر يوما ، ثم أهود فائقه وأسهله في أسلوب الخالص حتى لا استعبد لأسلوب من أترجم عنه ، وأخبرني أنه فعل ذلك .

٨ - من تجربة توفيق حبيب

أن الصحافة المصرية نهضت بعد الحركة الوطنية بزعماء سعد باشا فزالت المقالات الطويلة ، حلت المقالات المختصرة المأدودة بالمعلومات ، ظهرت المناوون المبشكرة والصور ، ظهر التقنيين في تدوين الجنايات وقوائم البوليس والرسوم السكاريكاتورية في الهاكات وغيرها . وإمتازت الجرائد الهزلية بالتصوير السكاريكاتوري ، ولم يكن في التقديم شيء من الصحافة الأسبوعية الموجودة الآن ، بل كانت قدما غصصة لنهش الأعراس ، مما يدل على انحطاط

المصحافة، أن إبراهيم العزبي أصدر جريدة أسماها الهلال المثاني للطنين في منافساته من النسوة السافطات، وكانت أعظم جريدة أدبية أو هي الجريدة الأدبية الوحيدة هي «مصباح الشرق» .

أما أشهر الجرائد الأسبوعية فكانت : الأستاذ (نديم) حمارة ميثيق (محمد توفيق) الخلاعة ، الشجاعة ، السبق (أحمد عباس ، حسين شفيق ، محمود جاد) وكان القفص عماد الصحافة الفكاهية كقولهم . « غاب توفيق حبيب عن مطبعة الأخبار فاستبدل بما كيفية قص » . هذه الجرائد كان عمادها الطمن في الأشخاص والجرأة في النقد، حتى استهدف أصحابها للسجن سنوات طويلة ، وأكبر شاهد على ذلك المرحوم أحمد عباس ، فإنه نظر أكثر الأحكام التي صدرت ضده انتصر بمجوار جامع أبي العلا بيولاقي ، وكان رحمه الله متأقفا في ملابسه - وبين ١٩٠٠ - ١٩١٣ كان محلات الهم والتسلية من ميدان الأوبرا إلى شارع كامل ، الروبي ، باب الشمرية ، وكان شارع وجه البركة مركز هذه الحركة ، وكذت نظن أن به كل يوم مهرجانا . ولم تسكن الحياة ندب في هذا الشارع قبل الساعة التاسعة مساء ، ثم تستمر إلى الصباح ، وكان أعظم البارات وأهمها (دراكانوس) من جهة ميدان كامل وباب الفرج عند ميدان الخازندار ، وأبنامرت لا تجد إلا الأعيان وكبار التجار وأعظم المزارعين وكبار الموظفين والأدباء . وكانت هناك قهوات للرقص البلدي المشهور ، وكان هناك جماعة من تجار الجواهر يؤجرون لأولئك النسوة حليا نفيسة من الذهب والالاس ، وتجمع الرافعات « النقطة » في طبق ويتفانمنها مع أفراد جوفة النخت . أما المحاسل الأدبية فكان أشهرها في الفجالة قهوة (السكايتال بار) ومهيدها الشيخ إبراهيم اليازجي ، وكان يحيط به أنباعه وتلاميذه من محبي القنة العربية ، ثم تلبها قهوة الشازويه بالفجالة أيضا وكانت لزبائنها الممتازين شرفه لا يسمح لنيرم بالجلوس فيها ، وقهوة بريكلي أمام التياترو المصري (تياترو اسكندر فرح) وكان يجلس فيها كتاب الروايات التمثيلية وفي مقدمتهم إلياس فياض

وفرج أنطون وجورج طنوس ، وقهوة الليموناده بباب الخلق وعميده الشيخ مهدي أبو يافه ،
والشيخ مفتاح الزجال والشيخ أحمد القوصي ، ويحيط بهم فريق من أبناء دار العلوم ، أما أم
للقهوات ، فكان الاسبلندر بار وقهوات حمارة مانتانيا وكان ممددا أمام العبد وأحمد فؤاد
وحسين وصفي رضا وحافظ إبراهيم وأحمد زكي باخا .

٩ — من تجربة توفيق دياب

أحدث إليك عن الماضي — عن ذلك العهد الذي منى فيه دستور مصر بالتمطيل
مرة ، ثم بالتبديل مرة أخرى ، فهجرت مكاني من إدارة الجامعة واتخذت مكاني بين
أصحاب الصحف ، وكلا أصدرت جريدة حجبوها بعد فترة تطول أو تقصر بين أسبوع
وعام ، حتى انتهى الطراد إلى جريدة « الجهاد » ، فماشت وزخرت حياتها بألوان السكفاح
سنوات ثمان ، ثم احسبتها شهيدة كريمة ، قبل نشوب الحرب الأخيرة بزمان يسير .

ولو كان ما أكتب الآن قصيدة لقلت هنا بيت القصيد ، أعنى هنا لباب الموضوع .
ولباب الموضوع أن يدي ، لا يد عمرو ، التي وأدت ابنتي « جريدة الجهاد » . وأدتها
بيدي ، كما كانت عرب لجاهلية تشد البنات غافة المار . والفرق : هو أني أثبت عملا
لا يحرمه خلق ولا دين ، بل يوجبانه الوجوب كله .

تسألني كيف كان ذلك ؟ وإليك الجواب بعد تمهيد :

توهجت في صدرى شملة من الحماة للدستور سنة ١٩٢٨ ، فطار بي وهجها
من نمومة الوظيفة إلى خشونة الفضال ، ولقد أكبر الجمهور هذه التصحية الهينة ، لأنه
قالها بباعثها ولم يقسمها بقيمتها ، كانت الحمية يومئذ ملتزمة في صدور الناس ، فلم يكن
عجبا أن تنصل حرارة القلم المؤمن بحمارة الرأي العام ، وأن يقرب الشعب صفحه المعبرة
عن لواعجه ، فيتخطفها في شوق ولهف . وكلا ألت السلطة صحيفة شفعتها بأخرى
أرفع منها صوتا وأبلغ أثرا ، ذلك وإقبال الجمهور يتضاعف على كل وليدة جديدة ، بعد

احتجاب أختها الشهيذة ، حتى بلغ ما أكلته تلك الحرب ثلاث عشرة جريدة ، في أقل من ثلاث سنوات ، يد عمرو وأدت كل تلك الصحف ، إلا صحيفة الجهاد ، وكانت كبرى جرائدى ، وأطولها عمراً ، وأوسعها انتشاراً في مصر وسائر بلدان العرب وأدتها يدي - نعم وأدتها يدي فداء لضميري ! حجت جهادى يدي ، وأنا أعلم علم اليقين أنى بذلك أحطام سيفاً طاملاً تهيبه أفواى ، وطالما انتصر به حق وانهمزم به باطل ، سيفاً يقيح لحامله كثيراً من المنافع ، لو استباح الإينال في سوق المنافع ، سيفاً يجذب بريقه من يعبدون الضعف إذا تسلسح ، ويمجدون القوة إذا تجردت من السلاح ، سيفاً كم طلب نجده زعماء ، وكفى تمنى هدته خصوم ، فلم يستعجب رثيته قط ، ولا اهتر نصله إلا لصوت الضمير . ولكن لماذا جردت نفسى من هذا السلاح ؟ لماذا حطمت سيفى يدي ؟ لا لشيء سوى أنى حنبلى مازمت في مواطن الشبهات والريب . . . علوت المنابر سنوات في صدر الشباب وأواخره ، وفي أوائل السكوة وإلى يومنا هذا ، أنى المحاضرات في الأخلاق ، وفي روائع النبل الأعلى والحياة السامية ، فكان محالاً على مثلى وتلك مفارقتى وبقايتى طيلة أيام العمر ، أن أكون رسالة الأخلاق لأستبقى جريدة الجهاد . لم يكن إلى بقائها من سبيل سوى التلوى والموج ، سوى قبول المال ، والمال الكثير ، إن لم أقل الثراء العريض ، من جهات شتى تشتري التأييد بلال الكثير ، فهدده شركة غفيرة قوية ذات نفوذ بينها وبين الحكومة خصومة ناشبة ، « والجهاد » تنصر الدولة ، لأنها نذود عن مصالح الجمهور في هذا المراك و يرسل الفرقة مندوبها بمقد يتعجب لقيمتها الضخمة لباب الطامعين ، عقد إعلانات لدى هام أسطره قليلة وقرانه متباعدة وأجرته باهظة ولن يكاف الجريدة إلا السكوت عن الحق ، رفض في غضب واحتقار ، وهذا بلد يحارب بلد يحارب بلداً فيفتح الجهاد إلى الناجية المظلومة ويوزرني مندوب الظالمين يعرض الوفا من الجنهات لا لشيء سوى أن أنشر برقيات المستعظمين فيأبى ابن حنبلى

ويعصر على الإياء ويبقى إحدى عاضراته على المندوب في قضية الأخذ بيد الضعيف الوداع حين يستدعى عليه القوى القاهر ، فلا المندوب يقبل القضية ، ولا ابن حنبل يقبل المال . وهكذا يرفض الجهاد بينه وبين ضميره مبالغاً ظاناً قد تقبل مثله كبرى جرائد القرب . على أنه عمل صحن مشروع ، وأنها برقيات تنشرها صحف الدنيا على الإطلاق . ذلك دون أن أعرف من رجال البلد الفقير للظلم أحداً ، أو أعلن تضحية الجهاد لأحد . وتلك جهة أجنبية أخرى تريد إبداء عطفها على الجهاد ، فتحاول أن تبث إليه هدية مالية شهرية ، في غير غرض ظاهر ولا عوض مفهوم . أليست مجرد تعبير عن العطف والتقدير ؟ ويرفض ابن حنبل في إياء وشمم ، لأن العطف المصحوب بالمال شراء للذمم من غير عقد . وصاحب الجهاد خلال ذلك مرهق بأقساط شهرية تجاوزت قدرته ، وكان يدفعها غملاً لأحدث ماعرف الشرق من مطابع الجرائد اليومية وآلاتها . وإنما أقدم على شرائها خدمة للصحافة المصرية ، وحرصاً منه على أن يبلغ بها مبلغ السكال . لقد خافه التقدير ، ولكن لم يخف الضمير . لقد نزل عن تلك الطابع والآلات للدائنين . ونزل لبنك مصر الذي أعانه على شرائها ، عن أرض واسعة للبناء في أحسن أحياء الجيزة — ولكنه لم ينزل قط ، وإن ينزل أبداً ، من جوهر الأخلاق التي آمن بها وحاضر فيها طيلة أيام العمر . ولو شاء أن يضحي بدمته في شبل جريدته ، لسكان اليوم في عداد الأغنياء ، وانظر الجهاد في عداد الأحياء وسكان غنى أشرف منه السكناف وحياة أكرم منها الموت . عند الله ، وعند الناس ، قسى — وبمجيء اليوم أن تكون الكريات مصدر سعادتي ومدد ما بقي لي من أيام : « وأدت جريدتي »

١٠ — من تجارب لطف جمة

الصحافة المصرية مدينة في تقدمها للسياسة الوطنية لأن الأمة لا تزدهر إلا إذا كان للكاتب هدف يرى إليه غاية يقصد إليها لأن ، الكتاب عندما اتجهوا إلى السياسة أخذوا

يعتقون بالمعاني ويسولون فيها يكفون على الأفكار بعد عهد التمويل على الألفاظ ، كان مصطفى كامل صحفيا موهوبا ولما دعا بأسرار هذا الفن حتى لا يكاد يجاريه أحد في عصره من مواطنيه وحتى قلب في الصحافة على شيخ المؤيد ودحره ورد مكابده في نحره ، فأسس اللواء جريدتين أخريين إحداها بالفرنسية والثانية بالإنجليزية وكانت الثلاث تظهر كلها في يوم واحد .

وقد كتب موديس كولزا محرر الجيزال ونجيب في سنة ١٩٠٧ أن مصطفى كامل رغم كرومر على الإفطار بجريدة أجيشيان استأندار وبمذهبه باللواء العربي وبمشيه بالاستندار أجيشيان . وكانت الدوافع الشخصية ذات أثر قوي في حياة الصحافة في العقد الأول من هذا القرن ، فشغل شيخ المؤيد على حضائنه وسمة حينئذ بقضية الزوجية فاهته من حرفته وسياسته . كما أنحه المرحوم محمد أبو شادي بك بجريدة الظاهر نحر مشاركة الأستاذ الإمام محمد عبده حتى تطاول على شخصية بتهم كاذبه كافتعال الفتاوى المزعومة كالوقوذة وإباحة استمال القبة للمسلمين في جنوب أفريقيا ، وقيل إذ ذاك أن أبو شادي مدفوع من الجالس على الأريكة الخديوية وطامع في الانقلاب كما انقطعت بعض الصحف للدفاع عن الاحتلال ومقاومة تيار الوطنية الجارف .

دخائل الصحافة

في مرحلة ما بين الحربين

ما كادت الحرب العالمية الأولى أن تقف حتى بدأت مرحلة جديدة في تاريخ مصر ، كان أبرز معالمها « ثورة ١٩١٩ » وطلب الاستقلال ، وكانت الصحافة مرآة هذه الحركة : وهذه هي الصورة : صورة الاستقلال ١٩٢٣ والصحافة :

« كانت ثورة ١٩١٩ ذات أثر في الصحافة ، وكانت الأغاني كان التمثيل من وقوة الثورة ، كان الشعب يقابل هذه الأغاني بحماسة وإعجاب « مصر العزيزة للمصريين ، وحبها للوطنيين » . و « يا هم حمزة ، إحنا التلامذة واخذين على الميش الحاف والنوم من غير لحاف » وكان عتري الفناء والإنشاء يحورون أغانيهم القديمة ويبدلوها مسابة لطروف الحركة الوطنية . وظهرت عشرات المقطوعات التي تدور حول الحرية والاستقلال وكذلك التمثيل . والروايات كلها كانت تدور حول حب الوطن والاستشهاد في سبيله . ولما اشتدت الرقابة على المسارح ولم يبق في استطاعتنا ارضاء الجماهير ، كانوا يجمعون الروايات الأخرى اقحاماً وكان كثير من المثائين يشيح بسممه عن الملحن في أثناء قيامه بدوره ثم يرتجل كلاماً آخر ليس من صلب الرواية .

وكانت كتابات الصحف حارة : سنيوت حفا بواصل الكتابة الحساسة في جريدة مصر ، سيد علي في جريدة النظام : حملات على الاستعمار ، محمود مزي (المروسة) : عبد الباقى سرود نعيم ، مصطفى لطفى المنفلوطى في جريدة الأفسكار وفي شتى الصحف رسائل من باريس — عبد الرحمن الببلي ، مجد الدين ناصف وكانا يهرآنها (الببلي وناصف) جريدة مصر توزع بحالاتها الوطنية في القاهرة وحدها ما يربو على عشرة آلاف نسخة من العدد الواحد ،

زعماء الشباب : عبد الرحمن الجدبلى الطالب بمدرسة القضاء الشرعى ، زكى مبارك بنظم كثيرا من القصائد الحماسية ، منيرة المهدي تخلط أغانيها الهزلية بالأنشيد الوطنية .

ويقول فسكرى أباطه أن لنة الصحافة كانت مهشمة مهدمة قلقة ، أما اليوم (١٩٢٤) فاللنة سليمة صحيحة راسخة ، وكان أسلوب الصحافة أمس أسلوبا ضيقا ركيكا يحتاج لعمليات ترميم وتعمير ، أما اليوم فالأسلوب منسجم واضح كله ذوق سليم لا يفتر منه الطبع ، وكانت موضوعات الصحافة أمس موضوعات سخيفة جوفاء ، أما اليوم فاللوضوعات قيمة مفعمة بالآراء والابتكارات والاستنتاجات . اقرأ جرائد الأحزاب السياسية الفشادة واعمل إحصائية اذكر فيها عدد الشقائم المتقية والعصرية وعدد الأكاذيب الممومة وعدد المغالطات الثقيلة والاستفجابية ، أنك إن فعلت وأقدمت على هذه الإحصائية الصحفية الأخلاقية إحتجت لمصلحة إحصاء تم العمل فى مام مهما حدثت لها من جيوش المال والنفاز والأفلام والمخابر .

تقدمت الصحافة حقاً فى فرع الروح ، وابتسكرت فى عالم الهجاء فنونا لها قواعد وأصول ، وأية أخلاق مهما بلغت المثانة والرسوخ تستطيع أن تستمر فى متانتها ورسوخها وهى تتلقى فى كل صباح ومساء دروسا متجددة مستمرة ، متدفقة فى السب والظمن والتجريح والقتل . سئمنا ، سئمنا وبدأنا نشعر بعيل إلى الوقاحة تحت ضغط التخليد والمادة، وتحت تأثير الدروس النهارية والليلية من كتابنا الأفاضل وعمرربنا الملمين ، تلك هى النواحي السوداء الهزينة القاتعة من نواحي التقدم الصحفى اليوم .

٢ - ولكن هل كانت الصحافة بمد ثورة ١٩١٩ صحافة وطنية مائة فى المائة ، الواقع أن المكفور هيكل لا يرى ذلك ويقول أنه كما جرف تيار الرأى العام الرجعية وجعل الحرية المطلقة لا يفيد منها غير الاعتبار القوى ، كذلك جرف الصحافة ودفع

بها جميعا للماصرة النهضة الإجتماعية ، وأنه ليأخذك العجب ، إذا حاولت أن تفارن بين الصحافة ١٩١٩ إلى ١٩٢١ وبين هذه الصحافة نفسها فيما تلا ذلك من السنين . خضعت الصحافة إلى تيار الرأى العام يومئذ وجملت تنفيذية وتقوية وتعهد له أسباب سلطانه وسيادته ، ولو أنهم - أى الزعماء - أولو النهضة الاجتماعية ماهى جدرة به لاستمرت مظاهر للنشاط الإجتماعى ، ولكن هؤلاء الزعماء ألفوا أنفسهم بإزاء قوى سياسية اضطرتهم أن يمحروا نشاطهم فى الميدان السياسى وأن يتركوا الميدان الإجتماعى ينفذ نفسه ، بل لقد حاولت القوى السياسية المختلفة أن تستغل النشاط الإجتماعى لفائدتها .

وكثيرا ما فكرت أنا كصحفى فى هذا وفى اواجب الذى يجب على أن أقوم به ، ولكننا معشر الصحفيين نرى الجمهور منصرفا إلى الفاحية السياسية إنصرفا بجملة يعر على ما سواها من غير أن يأبه له ، ثم أن السياسة دخلت فى مصر فى كل شىء واخذت لسلطانها كل شىء ، وكل طائفة من الطوائف حتى من لاصلة لعملهم قط بالحياة السياسية .

٣ - ويقرر زكى عبد القادر إنجاء الصحافة فى فترة ما بين الحربين حين يقول : كانت الصحافة حينئذ فيما عدا الأهرام والمقطم صحيفة حزبية تقوم على الصراع الحزبى وتتغذى منه بتلقى إعانات من الأحزاب ولا تستطيع أن تمبش بنبرها وتتلقى إعانات من الحكومة إذا كانت من الحزب الذى ينتمى إليه وتتلقى صفعات منها إذا كانت معادية لها ، فهى من حيث الفن الصحفى لم تكن تعنى به ولا تلقى بالها إليه . كانت الفرقة الحزبية هى الغالبة ، كان من واجبها من حيث القيمة الصحفية أن تمنى بالأخبار والتحقيقات الصحفية وتحدد وجودها وتحقق تطورها .

ولكنها فى الواقع لم تكن تمنى بالأخبار العناية الواجبة ، كانت المقالات السياسية من أهم مادة تشمل عليها ، وكان الكتاب السياسيون هم أهم الشخصيات فى الجريدة .

ومن هدام مساعدون فانهمون ، يمكن الاستثناء عنهم ، كانت الجريدة تباع حينئذ تباع بسبب كاتب سياسى معين أو ككتاب سياسيين معينين ، فى البلاغ عبد القادر حمزة وعباس المقاد رضى كوكب الشرق أحمد حافظ عوض وفى الكشكول سليمان فوزى وفى السياسة هيكى وعزى . . . جريدتان فقط لم تسكونا تمتدنان فى البيع على الأسماء أو على الحزبية هما الإهرام والمقطم . وكانت الصحافة الحزبية كل واحدة منها تنشر مقالين سياسيين أحدهما فى صدر الجريدة والأخرى فى وسطها . عدا أعمدة صغيرة أولحات هنا وهناك لا تخلو من الطابع السياسى ، وفيها عدا ذلك كانت الأخبار تأتي فى الصف الثانى أو الثالث ، كانت الجريدة لا يمنى أن يفوتها خبر مادامت تحمل المقالات السياسية الحاسمة النارية المفعمة بالألفاظ الضخمة والمباراة الحاسية والشائتم المقتناه . كتب المقاد بمرض هيكى ذات مرة فلم يمرض لفاله ولكن عرض لشخصيته ولمح تلميحا بل صرح تصريحاً بأن هيكى كتب ما كتب وهو غير واع ، كان فى غيبوبة اشتهرت عنه حينئذ .

٤ - من هنا ترى أن صحفياً لا مراكا إبراهيم المازنى يتمنى فيما لو بدأ حياته من جديد أن يكون بائع طعمية :

« نعم : أننى أختار أن أكون بائع طعمية . حقا لو بدأت حياتى من جديد لما احترفت حرية الصحافة فى مصر ولفضلت عليها بيع الطعمية وفتحت دكانا كدكان (أبو ظرفية) أبيع فيه الطعمية والفول والدمس ، وفق بأننى سأكون أحسن حالا مما أنا فيه الآن ، وربما نقت أباطرفية وأمثال أبى ظرفية من بائى الطعمية والفول والدمس الذين تروج بضاعتهم فى مصر أكثر من رواج الأدب ولا يمانون عشر ممشار ما يمانيه الأدب ، وأنا على اعتقاد بأنى سأنجح فى هذه المهنة التى أرى أصحابها أحسن نجاحا وأوفر خطأ من الأدب وسأستطيع أن أقدم لبائى طعمية جديدة وفولا نفلينا ، وصيصيح اسم المازنى علما على بائع طعمية وفول مدمس مشهور ، بدل أن يكون علما لمهب لأيمى من وراء أدبه

إلا الشقاء الدائم ولا يجد من الجزاء ما يتناسب مع الجهود ، مادام بائع الطمعية أروج حالا من الأدب في مصر ، فلماذا لا أطلق الأدب ولا أخذه حرفة للميش ، ولماذا لا أفتح «أبو عريفة» . أجمل زبائن من أصحاب الممدات بدلا من أن يكونوا من أرباب الأذهان وفقه وجدت بالتجربة منذ عشرين سنة أن تنذبتى للأذهان لم تعد .

٥ - ومن أجل هذا ترى « مصطفي صادق الرافعي » يفضل الوظيفة على العمل في الصحافة .

لماذا آثرت الوظيفة : إنما آثرت الوظيفة على الصحافة لأن الصحافة عندنا هي عمل اليوم والساعة ، والجمهور هو القى يصرفها بحسب أهوائه وزغوانه ، فالصحافة مقيدة بأوهام أكثر مما هي مقيدة بحقيقة نفسها ، وذلك كله بعيد عن حقيقة الأدب بمعناه الصحيح ، فإنه ينظر إلى الوقت الدائم لا الوقت النابر ، ويراد به معنى الخلود لا معنى النسيان ، ولا يقتل النبوغ شيء كالمثل في الصحافة العربية فإن أساس النبوغ العميق والتأمل في أسرار الإنسان أما الصحافة فلها أساس غير هذا . وعلى من يدخلها أن يكون تاجا من تيجانها لا خزانة من خزائنها . ويكون أشبه بالمفارقة القائمة تلقى أشتتها في أهل الجوى على مدى بعيد من الآفاق .

٦ - ويرى حسن شفيق المصري كيف كان الكاتب يستطيع أن يكتب أى شيء ليسد به فراغا حين يقول :

من ذلك حادثة حريق الأستانة وينسبونها إلى المرحوم الشيخ الشربطلى ، تفصيل الحادث أن الصحفي القى أهدم على تلك السكينة وجد نفسه في حاجة تصوى إلى حمود علوه من جريدته ، ولم يكن عنده أخبار ينشرها أو حادث يملق عليه ففكر جليا ، ثم جعل يكتب بصف حريقا وهميا قال أنه شب في الأستانة ، وانطلق بذكر التفاصيل وكيف اندلعت ألسنة الميران قاتلهم المائل ، وجاء رئيس المبال وقال : الحريقة لم تستقرق أكثر (م - ١٨ تطور الصحافة العربية للناصر)

من ثلاثة أرباع العمود فسكيف السبيل إلى ملثة إلى النهاية ، وكعب الصحنى بقية العمود
لهـكذب الخبر الذى إستغرق ثلاثة أرباع العامود .

فى أثناء حرب البلقان كان « أبو المنين بدر » يصدرفى مصر جريدة الأفكار التى كانت
تزامم المؤيد وكان يحرر فى الأفكار حسين شفيق المصرى . لجأت جريدة « الأفكار » تنشر
كل يوم طائفة من التلفزيونات الخصوصية والرسائل البريدية نصف فيها تقدم الجيوش
العثمانية إلى الأمام واكتساحها الأقطار وعدد القتل والجرحى من البلقانيين بوقوع
مراسل الأفكار الخاص « اسلانكى زاده بك » وأقبل الجمهور على الجريدة إقبالا عظيما وصار
الناس يتضاطفونها فى الشوارع إلى حد أن الشيخ على يوسف صاحب المؤيد تضايق وراح
يدعى أن بريقيات الأفكار مزودة لا أصل لها . ولكن هذا لم يمنع الجريدة من المضى
فى نشر بريقياتها . وبلغ فى النهاية عدد الذين قتلهم بريقيات الأفكار من البلقانيين ضعف
سكان أوروبا على الإطلاق .

٧ - ويتصل بهذا جانب الحياة الصحفية الخاصة ما يجد بعض الصحفيين من قسوة
فى الحياة: يقول توفيق حبيب: أنه حكم صارم قاسى، لا أدرى متى يقفيراو يتبدل ، هو الحكم
على المشتغلين فى تحرير الصحف أن يعيشوا فقراء ويموتوا فقراء ، فقد يعيش بعضهم
منها فترة من الزمن ، ولكن إذا أغمده المرض يوما فلا بد أن يد يد سائل الدوا والقرش
للعيش . . . وهكذا كان الحال قديما وهكذا الحال حديثا مع ما دخل عالم الأدب والصحف
من تطورات ، فقد تحسّن سفة نى بإشاره نقلا كاتباً معاصراً هو « محمد أنسى » فقال : بمزيد
الأسف أفيدكم أن المنية قد اغتالت فى الليل الفائت المرحوم أنسى مدير المكاتب الأهلية ،
توفى على أثر داء الفالج فلم ينجح به دواء ، وقد خلف الأسمى كل من عرفه وعلم سمو
مكانته من التهذيب والعلم ، فقد رضم أغاوبق العلم من المرحوم والده « عبد الله أبو السمود »

حفد الصفر فتمكن من العلوم والفنات ونشأ على مبادئ والده ، فخدم الألب خدمة شريفة
ألف وطبع كتباً عديدة في مطبعته وأنشأ أكثر من جريدة وسافر مراراً إلى أوروبا . .

أما دفنه فجرى صباح اليوم كما يليق بمقامه إذا مشى وراء نمشه (١) عدد عديد من ذوات
الحكومة والموظفين والأعيان وأمامه فريق من البوليس وكلهم يردد جل الألف على
خفقه ، وأنا في هذا المقام نالت أنظار الحكومة إلى رعاية عائلته وأطفاله فهي تلم حق العلم
أنه وأباه من قبله خدماتها باخلاص واستقامة « وعلق الصحفي على المجوز على الخبر بعد
تخسين عام فقال : ومضى خمسون سنة ونحن نرى الفيلم يتكرر ، مات الشيخ رشيد رضا صاحب
النار ، الرجل الذي ملأ الدنيا كتاباً وأصدر نحو أربعين مجلداً من النار ومجلدات في شرح القرآن
وطبع عشرات المجلدات من كتب قديمة وحده ، كان يطبع ويخزن فترك مخازن مشحونة
بأكداس من هذه الكتب ، ولقد كنت أعتقد كما يعتقد غيري أن الشيخ رشيد مات
عن بضعة ألوف من الجنيهات مما جفاه خلال رحلاته إلى الهند والسند واليمن والبحرين ،
والتدخل بين الإقباليين والمهاجرة والسلاطين والأمراء واللعب على مساح السياسة
الشرقية ، والدعاية للحركة العربية واللامركزية والدسغور العثماني وغيرها ، فلما مات
انكشف القطاء ، إذ هب الزملاء والرفقاء المارقون حقيقة الرجل فأعلنوا خبيثته وبؤس
عياه . قالوا : أن الرجل شديد بيتا لا يسكنه ويدم فيه بل ليأوى إليه ما كينات الطباعة
وصناديق الحروف والدشت وغير الدشت من رمم تسمى كتباً ، هذا البيت على ما قاله
طارقوا الشيخ مرهون على ألف جنيه يحمل في الشهر القادم قسط منها قدره
ثلاثمائة جنيه . . الخ . .

(١) من الخامس - ١٩٣٦/٤/٢٠ - الاحرام

٨ - ويصور سلامة موسى في تشاؤم ما وصلت إليه الصحافة بين الحربين فيقول :
أما الصحفيون فهم كالجنود المرتزقة لا تحارب إلا مع القائد الذي يدفع لها الأجر الأكبر
ثم هم لا يفيدهم شيء أن يملوا بعد ذلك في صفوف أعدائه يصوبون إليه السهام التي دانعوا
بها . فالقلم مثلاً لا تستحي أن تملن في مكان بارز منها أنها صحيفة حكومية وإنما دائماً
مع الحكومة القائمة مهما كان لونها السياسي وهي حين تفعل ذلك تتفعل ذلك الشعب
الذي عد يد المونة للمقطم ليصبح كل يوم أقوى على معاداته والكيد له . .

والأهرام هي الأخرى تغلب للفرد ظهر الجبن كلما سقطت وزارته ثم يقصد إليها
جمهور متحمس الهيئة ويلقى للأستاذ المقاد خطبة فيكشف عن عورته لرجال الصحيفة الرقطاء
استخفافاً لهم وتحقيراً ، وحين تهب جريدة السياسة للدفاع عن زميلاتها تروح الأهرام
تتمسح بالقراء وتترسام .

وللأهرام آية أخرى نستحق من أجلها الإهراء لأنها ترتكب ضد وطنها وميت
أرومتها الخيانة العظمى ، وذلك إنما ما فتئت توجه إلى استقلال سوريا سهامها المسمومة
بل للأهرام آية أخرى فهي تناقض المسلمين في رمضان حتى تخصص مكاناً في أظفار أعمدتها
لنشر حديث متتابع عن الصوم والصلاة والزكاة ، حتى ليظن القاري أن داود ركعت
وآل تفلأ جميعاً قد ارتضوا الإسلام ديناً أو أنهم من خريجي قسم التخصص
في الأزهر الشريف .

أثر الاحتلال، في الأدب والصحافة

استعرض الدكتور زكي مبارك أثر الاحتلال في الأدب والصحافة فقال : كان احتلال
الإنجليز لمصر صدمة قوية أيقظت ما عفا من العقول والقلوب والأرواح ، وكان حسف
المحتلين وتلونهم وعينهم وإستهانتهم بكرامة الرجال ، كل أولئك مما أحفظ رجال القلم وآثار
الضميمة والمقد في أنفس الشعراء والكتاب والخطباء والفكرين ، والأدب لأفود له إلا النوازع
القوية من حب وبعض ورجاء ويأس ، وعطف وحقد ، وقد فاق المصريون في عهد
الاحتلال جميع الأنوان النفسية ، أفقظ أن ذلك يقع دون أن يترك أثراً قوياً في أنفس
الكتاب والشعراء ، المنصر الأول من حياة الأدب هو الحرارة والصدق ، كان أقوى ما بنى
عليه الأدب المصري في عهد الاحتلال .

ونحن قد صحت لنا بفضل الاحتلال أيام فورة وغليان تركت لشرائنا وكتابتنا
صفحات من الأدب سيكتب لها الخلود ، وفي هذا دليل أننا لم نستقبل ظلم إنجلترا مستسلمين
وإنما قارعناها بنرائنا وعقائدنا ، وفرضنا عليها أن تنظر بمد خسيخ عاماء ، فلا تجد لها في مصر
إلا ما دخلت به من أسنة وحراب ، وهذا كله بفضل ما فملت أسنة الأفلام ، لأن الأيام لم تمكننا
بعد من الحركة الفاسدة من أن نشرع في وجهها رحماً ، وإنما وقفنا نحاربها بأفلامنا وأفكارنا
ثم أن هذه النهضة قد إقيمت في وجهها ألوف الأسداد والحصون ، ووضعت في طريقها ألوف
العقبات والمرايل ، ثم استطاعت مع ذلك أن تكسح كل ما أعترض سبيلها أو وقف في وجهها .
من أشتات الظالم يصوبها المحتلون وأشياءهم إلى حلة الأفلام وأرباب الفكر والبيان .

وجهت إنجلترا في صينغ تعليمها بالصبغة الرسمية لتقف آمال المعلمين منا عند كتابة
الدواوين ، فهل أفلحت . كيف ونحن الذين أنشأنا الجامعة المصرية بأموالنا وغذيناها
بطلابها من طلابنا وأسائدتنا . . ونحن الذين رفعتنا الصحافة العربية إلى مقام لا يفضلها

منه من الصحف الأوربية إلا القليل ، ونحن الذين أعزنا القلم وسحونا بالبيان ولو شئت
لكاثرنا الانجليز أنفسهم بكتابنا وشمرائنا ومسكرينا .

كان المثلون يتشاءمون دائماً من الروح الأدبية وكانت الحكومة تهاجمهم ، فلا تتوجه إلى
كاتب أو شاعر بعطف أو تشجيع ، فهل قضى ذلك الاجال على الأدب ، وهل منع مصر من
أن يعوم بالدفاع عنها أدباء أوفياء يلتقون الأذى في سبيلها باسمين ، عجز المثلون عن قتل حرية
الرأى والقول ، ولكنهم نجحوا نجاحاً مبيهاً في أن يشغلونا بأنفسنا ، وأن يوجهوا جهود أدبائنا
إلى أشغال الفن الأهلية ، فإن نصف ما أنتجه شراؤنا وكتابنا وخطابؤنا قد وقع في هاوية
النزاع والشقاق ونو ذهبنا نستقري الجيد الممتع من أعمال الكتاب والشعراء والمخطباء
لأربابنا أعظم جوانبهما إنشاء منشئوه في إيقاد الأحقاد الحزبية والدعوة إلى تمزيق الوحدة
وتفريق الصفوف ، وأنه لمن الحزن أن تقرر أن هناك آثار أدبية كثيرة كانت كلها تجريحة
في أعمال مصطلح كامل وسعد زغلول ، وتلك الآثار ستظل حية باقية لما فيها من الحرارة
والقوة ، وهما أساس حياة الأدب ولسكنها ستظل كذلك شاهداً على أن المصريين أو فريط
منهم وقموا فريسة للأعيب المحتالين ، ولا يمكن أن نسي أن الانجليز كانت لهم يد خفية ،
فأثار في مصر من المناوشات الأدبية والدينية والاجتماعية ، وهذا كلام يبدو غريباً لا ولد
وهلة ، ولكن الذى بدق النظر يراه عين الصواب ، فمن مصلحة الانجليز أن تحمي المصريات
في مصر وأن تتمدد فيها المذاهب الاجتماعية والدينية ، ألم يعلنوا حرصهم في كل مرة على
حماية الأقليات .

أنهم ليودون أن تصبح الديار المصرية كالأقطار الشامية مسرحاً لعشرات المذاهب
والديانات ليتم لهم ما يبتغون من إضرار الفن بين رجال الدين ورؤساء الأحزاب ، وأن
الفرقاء ليذكرون الفن التي قامت مرة قبل الحرب ، وكان فيها مؤتمر للمسلمين في مصر الجديدة
ومؤتمر للأقباط في أسيوط ، وكانت تلك المؤتمرات بالفعل مظهراً من مظاهر الحياة الأدبية

أنشئت فيها خطب ورسائل وتصادت ستطيل ذكرها باقية في تاريخ الآداب ، ولكنها ستظل كذلك شاهدا على أن الانجليز شغلوا المصريين بأنفسهم حينما من الزمان . أن انجلترا لا تلعب واسكن المصريين يلبون في بعض الأحيان ، والأدب مع الأسف بطبيعته كفن من الفنون قد يكون من أدوات اللعب عند الرجل . وهم حين يفعلون ذلك أفعال كيار ، لقد شغلنا الانجليز بأنفسنا ما في ذلك ريب واستطاعوا أن يوجموا جانبنا من أدبنا إلى أحياء الفتن الأهلية . فلننظر إلى جانب هذا ما استطاعوا بقوتهم أن يصرفونا عنه من فنون الآداب .

لقد صرفنا المثلون عن درس ما وقع لنا في عهدهم من البلاء وحرما الآداب المصرية من إستغلال تلك الموارد التي تبعث حرارتها روح الصدق في الأدب (القتل الكبير - دنشواي - حادث المزبنة) وهضت رقابهم فتمتد كل ما يكتب في بث الروح الوطنية وأصبح من المتعذر على الأدباء من الموظفين وهم جمهور كبير أن يكتبوا أو يظلموا في الشؤون القومية .

ولو عن طريق درس الأخلاق وصار من الممكن في عرف بعض الموظفين في وزارة المعارف أن يؤلف كتابا في التربية الوطنية ، حتى إذا جاء إلى العصر الحديث وأنظمتها أشار بجميع الأماء البارزة وترك سمد زغالول ، ونهانا القوق عن تعيين من فعلوا ذلك ، وحسب الفارسي أن تقسم له أن هذا وقع من موظفين أدباء كان ينتظر أن يترفعوا عن مثل هذا الاسناف ، والموظفون من الأدباء يقدمون لنا أظهر الشواهد على أعمال المهملين ، لأن الموظفين عندنا هم المنوان الظاهر على طبقات المتعلمين وهم كذلك نموذج لن استقرت حياتهم المعيشية وأصبخوا قادرين على خدمة وطنهم في نزاهة وإخلاص ، أترام استطاعوا أن يحرروا أعلامهم لخدمة الوطن عن طريق الدراسات التاريخية والأدبية التي تنرس المزة القومية في النفوس ، أم ترام أنصرفوا إلى شؤونهم الخاصة واكتفوا بالتفيل والقالب في إيهاء القهوات لأن المثليين راضوا الإدارة الحكومية على القل والمسكنة وحببوا إليها التفاهة

والجول . لقد درج الناس في مصر على هذه القاعدة المشنومة ، وهي أن لا صراحة ولا قدرة لموظف على كلمة الحق ، وقد عرف الأنجليز كيف يروضون فريقا من الكتاب على الرضا بهذا الحظ المفحوس ، وفي مقدورنا أن نسمى عشرات من الأدباء اشترت ألسنتهم الحكومات المختلفة وقبرت مواهبهم في مكانها واقنعتهم بأن الرتب الثابت أجدى عليهم من شرف العمل لتحرير البلاد .

وليت الأدباء من الموظفين توجهوا إلى الدراسات الانسانية حين عزت عليهم الدراسات القومية ، أنهم لو فعلوا لأصبحوا أماندة لكبار من أمم الشرق ، ولكن الدولاب الأنجليز أراد أن يديرهم إدارة صوفية ، حيث يمسون ويصيحون ، ولا هم لهم إلا الملاوات والترقيات فضلا عما ابتلوا به من الشلل العقلي الذي صيرهم أداة صماء في أيدي الرؤساء والوكلاء .

كان عهد الاحتلال خيرا للأدب من حيث الصورة ، لقد انطلقت السفة كثيرة وشجعت مواهب عديدة . ولكنه كان شررا من حيث الماني والأفراض فقد شغلنا الأنجليز بأنفسنا وحولوا أدبنا إلى مناوشات حزبية وصرفونا عن الدراسات القومية والانسانية .

صناعة الأخبار

برزت في صحافة ما بين الحربين أهمية « الخبر » ، فقد أخذت الصحافة تنمى به وتوليه إهتماماً كبيراً، وأصبح في الدرجة الأولى من مواد الصحيفة، وقد صور أحد الصحفيين العاملين في ميدان الأخبار أهمية هذا العمل فقال : تزداد مهمة الخبر للصحفي مشقة وتمقيداً في ظروف تعتبر الوزارات أو ما كانوا يطلقون عليه « الانقلابات السياسية » وعندما تصبح الجريدة أو المجلة التي تعمل فيها معارضة لسياحة الوزارة القائمة في الحكم ، عند ذلك تقضاض الصمويات . ومن الرأى السياسى الأليم في مصر أنه في الوقت الذي يمانى فيه غيرو الصحافة المعارضة للحكومة أشق المصاعب في تسقط الأخبار والأنباء ، تفتح مكاتب كبار الموظفين على مصراعها لخبرى الصحف الموالية . ومن التجارب الأليمة التي وقعت لسكاتب هذه السطور أنه كان يعمل في جريدة يومية تنطق بلسان هيئة سياسية كانت هي الفابضة على زمام الحكم حينذاك فكان لا يجد أى صموبة في جمع الأخبار لجريدته كانت الأبواب المذلفة تفتح له ويتلقاه كبار موظفى الدولة بالترحيب والمهاملة .

وتغيرت الأحوال السياسية فجأة وأفضت الهيئة السياسية التي تنطق هذه الجريدة بلسانها عن الحكم وأعقبتها هيئة أخرى تضم لها الحقد والعداء ، ففى ليلة ونحهاها تنسكر له أو تظاهر بالنسكر كبار الموظفين وسنارهم ممن كان يعتمد عليهم في جمع الأخبار والأنباء ، واضعى الواحد منهم لا يتحدث إليه إلا وهو يتلفت يمنة ويسره ، خشية أن يراه أحد فيشئ به إلى الوزير أو المدير، وتلفت يوماً رجاء من صديق حميم لى من الموظفين الذين كانوا من المصادر الهامة لأنبأى وأخبارى إلا أزوره في مكتبه رحمه به لأنه صاحب عيلة (وعايز يربى أولاده) ورأيت أن الموظفين على دين وزرائهم ، وهم يعجاشون أن اتصل بهم خوفاً من وزيرهم ، فلا اتصل بالوزير ولأجرى معه حديثاً أو حديثين ، ومتى رأى الموظفون أن وزيرهم يستقبلنى ويفضى إلى بما أسأله ، عنه قانهم ولا شك سيحذون حذوه ، وبعثت ببطاقتى إلى

معالي الوزير مع سكرتيره الخاص ، فلم يلبث أن دعاني إلى مكتبه ورحب بي وأكرم وقادني وأدبرت دفة الحديث بلباقة وكياسه حتى اطمأن الوزير إلى أن زيارتي إنما هي زيادة صحفية بريئة ، وأجابني عن كل ماسألت ، واستأذنت في نشر ما أفضى به إلى في سينة حديث فأذن لي في ذلك ، ونشرت الحديث في اليوم التالي كما هو بدون تغيير أو تبديل وبعد أيام أعدت السكره مرة ثانية ، نجحت السكره وتفتحت لي الأبواب المنلقه ولم يبد الموظفون يحشون إستقبالي في مكاتهم والإفضاء إلى بما عندهم من أبناء .

(٢) المخرون في الصحف اليومية

ويتصل بهذا عمل الصحفيين وهذه صورة دقيقة عن هذا الموقف :

كان وضع المخبر الصحفي أقل شأنًا من أي كاتب بالجريدة حتى ظهرت جريدة السياسة في ٣١ أكتوبر ١٩٢٢ وكان الهائم بأمرها الدكتور حافظ عفيفي فرتب لهذه الجريدة فلما خاساً بالاختيار جعل رئاسته للرحوم ساي قصيري أقدم من اشتغل في هذه المهنة ، وكان حتى تلك السنة مرتب المخبر الأول في المقام (١٥ جنيه) فأعطته السياسة (٣٥ جنيه) وكان قسم أخبار السياسة مؤلف عام ١٩٣٧ من عزيز طلحة وزكي عبد القادر وعلى بليغ ومحمد فهمي يوسف ومحمد خالد حتى عام ١٩٣١ التحق على بليغ وزكي عبد القادر بالشعب . وعزيز طلحة ومحمد فهمي بالجهد ومحمد خالد بالأهرام .

أما الأهرام فكانت مرتبات محرريها قبل ظهور السياسة قليلة : رئيس القسم نجيب هاشم . وله حوادث صحفية مع كبار رجال الدولة خلال ثلاثين ٣٠ عاما وكان مساعده صالح البهنساوي .

(٣) في مايو ١٩١٩ أعلنت نقابة الصحافة وشككت من :

جبرائيل تولا (صاحب الأهرام) نقبنا : أمين الرافعي (الأخبار) الوكيل ، سيد على (الأنكار) سليمان فوزي : أمين الصندوق ، جندى إبراهيم (الوطن) سكرتيرا وعضوية

هاود بركات (الأهرام) تادرس شموه (مصر) حامد إبراهيم ، رشيد رضا (المفاخر)
خليل ثابت (المقطم) أميل زيدان (الهلال) .

(٣) بطاقات لصفيين .

وفي ١٩٢٩ أعدت وزارة الداخلية بطاقات للصفيين لتسهيل أعمالهم .

٤ - أخبار الأقاليم

أولت الصحف في هذه الرحلة إهتماماً لأخبار الأقاليم ، وهذا تقرير عن هذا القطاع:
كيف ننذى صحفنا اليومية بأنباء الأقاليم والريف المصري وهي غاصة كل يوم بهذه
الأبناء ، وهل هي تدين مرشحين خصوصيين مأجورين لموافاتها بأخبار تلك القرى الصغيرة .
أن اسكل جريدة من الجرائد اليومية الكبرى وكيلاً أو مراسلاً في الإسكندرية وهو
يتقاضى أجراً على التيام بهذه المهمة ، أما مراسلو الأقاليم فالتقاعدة الممول بها أنهم
لا يتقاضون من الصحف التي يرأسونها أجراً مميلاً ولكنهم يتقاضون الأجر عالياً
من البلاد التي يعملون بها . وتمييزهم الصحف في الحصول على هذا الأجر بنشر أبناء
قد لا تهم الصحيفة ولا قرائها ولكنهم الراسل التشيط وتود عليه بيمض الخير ،
ولمؤلاً الراشدين أسلوب خاص في كتابة الأخبار وهو الأسلوب المفيد الذي يوضحهم
عن الأجر . فقد تسرق جاموسة أحد الزارعين وبيادر الراسل إلى إرسال الخبر إلى الصحيفة
في ديباجة رائحة من إستقبال الأمن في البلدة بفضل حضرة صاحب السعادة مديرنا المهام
الذي لا يفتأ ينصح العدد والشايخ والمأمورين بوجوب الحرص على مصالح المباد وبمعاينة
سمادة وكيل المديرية الذي اقتبس هذه المسكارم من مديرنا الحازم .

وحضرة المسكدار الذي اهتم بالحادث إهتماماً خاصاً وأصدر تلميحاًه الثقافية إلى حضرة
للأمر الذي لا تنزل عينه عن مراقبة إماراد تقدم الأمن والذي جمع الضباط ورسم لهم خطة
العمل وطريقة انقبض على الجاني الأثيم ، فاستطاعوا بفضل هذه الخطة الرشيدة إلقاء القبض .

على السارق إذ ضبطه أحد الجفود مخفياً في إحدى المزارع ، كما ضبط خفيّر الناحية الجاموسة المرسوقة ضالة في إحدى الطرقات ، سلسلة طويلة يجب أن ينمق بها صدر كل حادث معها كان تافها ، وعدالة في توزيع الثناء على رجال الإدارة في كل مناسبة .

(٥) ما لا يفسر في حينه .

هل كل ما يمرره الصحفي ينشر أم « لا » .

هذا سؤال محير كان موضع البحث في خلال هذه الفترة : أجاب عليه فكري أباطه فقال : أدلى إلى أحد الوزراء بمحدث خطر من بعض الشؤون التي كانت تشغل الأذهان في تلك الأيام وأرسلت الحديث للطبعة وأعد للنشر . ولكن حدث قبل الشروع في طبع الجريدة بنحو ربع ساعة أن إتصل بي ذلك الوزير ، وقال : أرجوك لا تنشر الحديث . وكان الحديث قد أدرج في صحيفة الاخبار والصحيفة معدة للطبع . وشمرت فعلا أنه متضايق فاتصلت بالجريدة وقلت عندكم حديث لوزير (كذا) إحدنوا عبارة أنه حديث مع فلان وقولوا أنه حديث مع بعض المشتغلين بهذه الشؤون .

(٦) أثر السوريين في الصحافة

كان دور الصحافة السورية في الحركة الوطنية هاماً وخطيراً خلال هذه المرحلة فإلى أي حد كانت الصحف السورية الراسخة تخدم الحركة الوطنية وفي هذا كتب سلامة موسى فيقول :

× ما زالت الصحف التجارية السورية التي تنزع نحو السياسة التجارية تتفوق على الصحف المصرية وتطردها أحياناً من الميدان ، ولكن ليس هذا لكفاية أصحابها وإنما لظروف سياسية تقضى بهذا القضاء على بلادنا .

× مجلة الطوائف المصورة نشأت حوالي سنة ١٩١٥ وهي المجلة الوحيدة المنشورة في مصر ، وكانت تستند إلى السلطة الإنجليزية والدليل على ذلك أن السلطة الإنجليزية

كانت تأخذ من إدارة تلك المجلة ألواناً من النسخ الملوثة بصور إنتصارات الإنجليز في الحرب ، وترميها بواسطة الطائرات على خطوط الأعداء الأتراك في سينا وفلسطين .

× الرأي العام خاضع لآراء الكتاب السوريين في مصر سواء أكان ذلك في السياسة أم في الثقافة ، وعندما كانت تمطر في الصحف المصرية التي تدافع عن الحريات كانت تروج الصحف السورية التي رستخت وإنقشع أمامها الميدان .

× قال نيومان في كتابه من مصر في عهد الإحتلال :

إن الرأي المصري تنبث به منذ نصف قرن جماعة من السوريين الذين يبيعون أعمدة جرائدكم لمن يدفع أغلى ثمن ، (وقد نشرت الأهرام فصول هذا الكتاب) وحذفت هذه العبارة . « أما السوريون فإنهم مشهورون بسلطانهم على الصحافة المصرية التي أخذوها وسيلة لتسكديس مقادير هائلة من النقود ، فهم دائماً يعملون على استئلال الخلافات بين الأحزاب ، وبيدهم أعمدة جرائدكم إن يدفع أغلى ثمن وليس هذا النوع الراقى من الصحافة ولكنها مع ذلك صحافة رابحة .

محاكمات الصحف

لم تتوقف محاكمات الصحفيين خلال فترة ما بين الحربين . وهذه قصصات من هذه المحاكمات قالت :

١ - المذنب (١٩٢١/١٠/١٠) تحت عنوان :

الصحافة المصرية تتألم : « لقد عرف الخاص والعام الضربتين المولتين اللتين أصابتا الصحافة العربية ونعني بها تعطيل جريدة اللواء المصري وإبعاد علي بك كامل (شقيق مصطفى كامل) ثم سجن صاحب جريدة وادي النيل (محمد الكثرة) والسكائب حسن الشريف ، وإننا وإن كنا لا نريد تحليل هاتين الضربتين المولتين نشير إلى ضعف جرائدنا العربية الأدبي الذي سببه عدم اتحاد أصحابها وعدم اهتمامهم بالدفاع عن مهنتهم .

(٢) الصحافة أمام القضاء ١٩٢٤/١٠/٣١ .

سليمان فوزي (صاحب الكشكول) ومحمد المهياوي .

(٣) الصحف في ٧ أغسطس ١٩٢٥ .

أمام القضاء : عبد القادر حمزة (البلاغ) عباس المتاد (البلاغ) سيد علي (جريدة النظام) محمود رمزي نظيم (النظام) .

(٤) قضية جريدة السياسة عام ١٩٢٤ .

قال توفيق دوس أن هذه القضية كانت تملق بمقالات عنيفة جدا كتبها طه حسين طعنا في سياسة الوفد المصري ، ولما لم يكن موقفا عليها باسمه فقد رفعت النيابة العامة الدعوى ضد حائط عفيفي وهيكل ، وظلت أترافع فيها عشرة أيام كاملة وانتهت بفرامة

هيكل وتبرئة حافظ . ورفضنا رفضاً قاطعاً براءة هيكل ، كانت أهمية القضية من الوجهة السياسية . كان معطورا على الأحرار عقد اجتماعات عامة لبناء سياستهم ، فلما رفضت الدعوى الجنائية كانت المرافعة عبارة عن بسط تلك السياسة بأوسع الماني وكانت قاعة محكمة الجنايات هي (الصهيون) الذي تجمع فيه خلاصة المثقفين من المصريين لسماع تلك السياسة .

وكانت جريدة السياسة تنشر تلك المرافعة حتى وصل عدد ما يطبع منها إلى خمسين ألف نسخة في الرق التي لم تصل إليه مقطوعة أكبر الجرائد إلى ٣٠ ألف .

(٥) عاكة جريدة الصرخة .

قالت الأهرام في ١٢/٤/١٩٣٣ نظرت أمس المعارضة المرفوعة من الأستاذة : أحمد حسين وسيد فتحي رضوان وحافظ محمود محرمي الصرخة ، وقد تخلف الأستاذ أحمد حسين لمرضه في السجن وحضر للدفاع عنهم : الأستاذة محمد علي علوبة وعبد الرحمن الرافعي ، وفكري أباطه ونعيمه الأيوبي .

وجه القاضي التهمة إلى المتهمين أنهم حسنوا أمراً من الأمور التي تمد جنحة بحسب القانون بما نشره يوم ١٣ نوفمبر الماضي ، قرر المتهمان بأنهما لا يريان فيما كتباها جريمة يعاقب عليها القانون ، ثم وقفت الأستاذة نعيمه الأيوبي وترافقت وهي مرتدية روب الحمام طالبة قبول المرافعة والإفراج عن المقبوض عليهم . وحكمت المحكمة بالإفراج عن المتهمين بكفالة قدرها عشرة جنيهات .

وكان أحمد حسين (٢١ سنة) محام ومقيم بشارع عمر بن عبد العزيز نمرة ٧ بالمنيرة قسم السيدة ، وسيد فتحي رضوان (٢٢ سنة) محام ومقيم بشارع مصر القديمة نمرة ٨٢٠ وحافظ محمود (٢٦ سنة) سكة عبد الرحمن بك نمرة ١٧ بالحليقة الجديدة قد نشروا

في جريدة الصرخة مقالاً عنوانه (يا شباب سنة ١٩٣٣ كن كشباب سنة ١٩١٩ ورسخوا سورة تحت عنوان الشهيد المجهول ، وحض المقال شباب ١٩٣٣ على أن يمثل بشباب سنة ١٩١٩ الذى قدم نفسه وقوداً للهجاء والوطن وأشمل ثورة جامعة ضد الإنجليز والأجانب لا تعرف هراة ولا لينا ولا تمقلا .

(٩) سجناء الصحافة :

أحمد نؤاد صاحب الصحافة : : الهجاء ، وتناول سمد زعلول بالقذف .

المقار : : حملات شديدة في جريدة المؤيد الجديد .

توفيق دياب : : (الهجاء) إنتهده موقف وزارة صدق والبرلمان من خزان جبل الأولياء .

محمد العاصمى : : (آخر ساعة) حمل على وزير الحفانية واتهام البوليس بتعذيب الأهالى .

حسين شفيق المصرى : : إنتهده خروج حمد الباسل وزملائه على النحاس .

رياض شمس : : مقالات عدت عيباً فى الملك .

محمد الشافعى البنا : : (المصرى) ، أهانة النقراشى .

أحمد حسين ، فتحى رضوان ، أحمد عتد اللطيف الشيمى : : جريدة الصرخة .

سليمان نووى : : مجلة الكشكول .

عبد المنعم رخا ، عبد الحلیم محمود : : مجلة الصريح .

أحمد شفيق : : مجلة المطرقة .

عبد السلام شهاب ، محمود رمزى نظم : : مجلة الحوادث .

محمد مصطفى حمام : : الخ . . . الخ .

(١٠) الهجوم على الصحف وتعطيلها

سنت بعض الحكومات الحزبية وهي في الحكم ، مهاجمة الصحف المارسة لها ، بدأ ذلك عام ١٩٢٤ على جريدة الأخبار التي يصدرها أمين الرافعي وتكرر ثلاث مرات ، واقتصر المتظاهرون دارها عنوه ، وقد سوره أمين الرافعي على هذا النحو :

٢٢ مارس ١٩٢٤ : جاءت بالأمس مظاهرة إلى إدارة الأخبار وكان بابها مقفلاً فهجم عليه المتظاهرون وحاولوا كسره واقتحامه ليجددوا الأساة التي وقعت منذ ثلاث سنوات عن قطع أسلاك القليقون . هبوا أن المتظاهرين تمكنوا من كسر الباب والاعتداء علينا وقتلنا ، هبوا أنهم غمسوا أيديهم في دماننا ، وذهبوا بقليل أو كثير من هذه الدماء إلى حضرة صاحب الدولة سمع بأشأ بدلاً من ذهابهم إليه يهتافهم وحده . فهل كانت الدماء تنفع الأمة بأن الدستور أصبح قائماً على المبادئ المصرية .

٢٤ مارس ١٩٢٤ : ذهب مدير الأخبار إلى النيابة الأهلية في الساعة الخامسة بعد ظهر أمس وقد كان يظن أنه سيُسأل عن حادث الاعتداء الذي وقع على الأخبار فإذا به يحقق معه كهم ويسأل عن المقال الذي نشره يوم السبت ٢٦ مارس ١٩٢٤ « هجوم جديد على الأخبار : قذف الطوب والأحجار وأعمال التكسير والتعطيل » : وقع الاعتداء على الأخبار يوم الجمعة الماضي فطلبنا من الحكومة أن تحقق هذا الحادث وتقوم بواجبها ولكن أصواتنا ذهبت إدراج الرياح ، وكان رد الحكومة علينا أنها أحالتنا إلى النيابة لتتحقق ممنا باعتبارنا متهمين لا شاكين ، ولم يمض على حادث الاعتداء الأول خمسة أيام حتى تجدد الهجوم على الأخبار بصورة شنيعة ، فقد جاءت مظاهرة يحمل أنصارها الطوب والحجارة وأرادت اقتحام الباب . فأخذوا يقدنون حجارتهم وطوبهم على الأبواب والنوافذ فأصاب حجارتهم كثيراً من النوافذ ودخلت إلى الغرف ، ما يريدون ، يريدون (م - ١٩ تطور الصحافة العربية للعاصرة)

أن نطلق عقولنا ولا نقول ما نعتقد ؛ أيريدون أن نسكت من إنتقاد الأعمال التي
توجب النقد .

(١١) كلمة مابرة أحدثت أزمة :

كتب حسن الشريف بصور أقسى تجربة صحفية مرت به فقال: كنت في فبراير ١٩٢٠
رئيسا لتحرير جريدة مصر ، وكانت جريدة مصر إذ ذاك أجرا الصحف وأشدها تطرفا .
وكنت قد كتبت مقالا عنيفا عن الخطر الذي يهدق بمصر من تنفيذ مشروعات السودان
شدت فيه التكبير على وزارة يوسف وهبه (باشا) وعلى : محمد شفيق وزير الأشغال :

وقلت بالحرف : «أما أنت أيها الوزير فاهو اليوم واحد تقضيه في منصبك بعد اليوم وتسكون
قد فقدت كل شيء» قصدت فقدان كل شيء من الكرامة أو الاعتبار لا كل شيء من
المانية ولا من الحياة . وحدث في اليوم التالي لظهور المقال أن قنبلة ألقيت على وزير الأشغال
قال الوزير: «ما هو إلا يوم واحد» ثم لا ينتهي اليوم الواحد إلا وتناق على قنبلة ، وأهمنى شفيق
باشا بأنني السبب في إلقاء القنبلة عليه وقال أنه يؤكد أن حياة الوزراء ستكون في خطر
وكتبت الصحف : القنابل ، حسن الشريف ، القنابل ، تنذرنا على صفحات الجرائد وتحدد
وقت ارتكاب الجريمة .

وقد أوقفت جريدة مصر وفرضت الرقابة على الصحف من جديد .

(١٣) سالون الأهرام :

في خلال فترة ما بين الحربين ظهر سالون الأهرام ، عبارة عن غرفة رئيس التحرير الأستاذ أنطون الجليل . تضيق النرفة أحيانا عن أن تسع كل أعضاء الشلة . يترك كل فرد داخل الصالون حزيته على الباب ، ويجوارها لقبه وصر كزه حيث تختلف شلة الأهرام عن الشلل أخرى ، أنطون الجليل . مستقل جبرائيل تقلا ممرض - عبد الهادي (سمدي) زهير صبري وفدي اشتراكي ، عبد الستار الباسل وفدي محافظ ، وعبد الجليل أبو سمرة (مستوري) حفي محمود ، توفيق دياب ، وتجدي شلة الأهرام كل صنف . فهي أحيانا تنمقد بشكل مؤتمر حربى أبحث الخطط العسكرية على الخرائط ؛ هنا يبرر الخبير الحربى عبد الرحمن هزام وعبد الستار الباسل الخبير فى طرق الصحراء . وقد انقطعت محاضرات الباسل بمدايتها حملة شبال أفريقيا . أوعلى هيئة مؤتمر اقتصادى يبحث المال والأسمم والسندات . فيقول الحديث أحمد نجيب مندوب الحكومة فى بورصة الأوراق ، وسيد جلال بوصفة خبيراً فى شؤون التزوين ، أو تنمقد على هيئة مجلس أدياء فيتصدرها توفيق دياب ، وتوفيق الحسك ، أحمد الصاوى ومحمد كامل الشناوى ، وعند ما تنمقد شلة الأهرام بهيئة سوق عكاظ يتصدرها الشراء ، خليل مطران وكامل الشناوى ومحمد الأسمر ، وقد كانت الحكومات تهتم كثيرا بما يجرى فى هذه النرفة ، حدث أن ذهب حسين سرى مفد أساييع إلى الأهرام ودخل غرفة أنطون الجليل فقال : هل هذه هي النرفة التى تحسب الوزارات حسابها . هؤلاء عبد الحميد عبد الحق . عبد الحميد إبراهيم صالح . سليمان نجيب . فكري أباطه . الألقى عطية ، لويس فانوس ، حسن الأعور ، محمد عبد الوهاب ، وإدجار جلال ، وتوفيق سليب ، محمود عزى ، محبوب ثابت ، علي راتب ، مأمون عبد السلام فى غرفة الأهرام حيث تسمع كل الآراء وكل الملاحظات وحيث تتصاعد الضحكات العالية من الأصدقاء والمصوم على السواء .

الأخطاء المطبعية

من أم القضايا الصحفية التي توثقت في فترة ما بين الحربين «الأغلاظ الفنية والمطبعة في الصحافة» وقد عرض لذلك الأستاذ محمد مسمود فقال :

١ - أخطاء الكتابة

أخطاء الصحف منتان أحدهما مصدره المحررون والقرءون من الكتاب ومردة غالباً إلى الجهل والسهو ، والثاني مصدره الطابعون أى منفذو الحروف ورؤساؤهم ومردة أولاً إلى طبيعة الحروف العربية وكثرة عددها وتشابهها ، ثم إلى جهل الطابعين أصول صناعتهم وهيجز منفذى الحروف منهم عن إدراك معنى ما ينفذون حروفهم ، لأن سودام تملؤا رسم الحروف فى الطابع لا فى المدارس فهم يجملون بسائط العلوم العربية من نحو ومصرف .

٢ - الأخطاء فى الصحافة المصرية ليست تراننا ورثته عن صحافة الربع الأول من هذا القرن فيما قطعت من أشواط بخطواتها القائرة ، وإنما مصدره طغيان الجانب المادى منها على الجانب الأدبى وقصر العناية فيها على الوضع دون الموضوع ، كأنها ليست تقيصة لاسقة بها دون غيرها من صفوف المطبوعات كالكتب التى يقسم الوقت عادة لإبرازها فى ثوب قشيب . ومع ذلك لا يكاد يظهر كتاب فى عالم المطبوعات حتى تكون لآلى الأخطاء منشورة على صفحاته . كتب الأستاذ الشرقاوى « من علماء الأزهر » بنى على الدكتور زكى مبارك وقوع أخطاء مطبعية فى كتابة التراث فى فقال : كنا نحسب أنه لا يوجد خطأ فى كتاب يشرف على تصحيحه رجل عالم كالدكتور زكى مبارك ويتولى طبعه دار الكتب المصرية ، فرد الدكتور يقول : أن الغلط الطبى فى المطبوعات العربية قد عجز عنه الإساة ولا سيما إذا كان المؤلف

هو الصحيح، فانه يقرأ في صحائف ذاكرته ، وهو يظن أنه يقرأ في صحائف الكتاب » وهذا التعميل يدل على أن سواد أخطاء الموظفين ناشئ من تصحيحهم التجارب المطبوعة لمؤلفاتهم بأنفسهم ، لأنهم وهم بسبيل تصحيحها تسبق خواطرم أنظارهم فتتم الأخطاء أمامهم مرأ دون أن يظفروا لها .

٣ - وجاء في كتاب أعجام الأعلام القى الله الا ستاذ محمود مصطفى هذه العبارة «فات حرصنا أغلاطقلية» ولعل ما أوردناه هو كل ما وقع في الكتاب من أغلاط ثم أورد (خسة أخطاء مطبعية فقط) وما أنفا قد بلغت من مطالعة الكتاب إلى صفحة ١٣٨ (الكتاب ٢٥٠ صفحة) فأنحصت سوى الأخطاء الخمسة المقدمة ستة عشر خطأ مطبعيا غليظا .

وهذا القليل المقنع على أن المؤلف لم ينقمه حرصه في إخراج مؤلفه بريئا من ميوب الأخطاء وأن مساعدة الطابعين له على ذلك كانت مجرد حسن ظن لم يحققه الواقع ، لأنه إذا كان مجموع الأخطاء في الصفحات (١٣٨) بلغ ٢١ خطأ ، فالمنظور مع مراعاة قاعدة النسبة والتناسب أن يرتفع في كتاب يبلغ ٢٥٠ صفحة إلى ٣٨ غلطة وكسرا من غلطة واحدة .

٤ - كلما فتحت صحيفة من صحفنا التنارية في مضمار الإجاهد والاتقان ، يكون الأخطاء بمختلف أنواعها أول ما يلبس نظري منها ، ولقد استغزى ذلك منذ فترة من الزمن إلى التقاط دررها وأصدانها من بطون الصحف فاجتمع لي منها بضمة آلاف قيدت أو أيدها في كراسات كثيرة رجاء أن تناح للفرصة لي لإبرازها في كتاب يكون عدة السكاكين في توقيعهم معار الأخطاء التي تملأ طريقهم كما تنصاح صحف كثيرة في نشر عبارات السكاكين بلعوز فيها ضنف التأليف وركاكة العبارة :

× الحفان الاموى : نسبة إلى الأم بيننا هو بالنسبة إلى أميه .

× أموميتها الحنونة: يريد بالأمومية الأمومة .

- × حكمت المحكمة على المتهم لعام واحد سجنا مع الاسماء بقانون التأجيل (يريد وقف التنفيذ) .
- × ستلقى محاضرات عن الاسرائيليين في عهد الفاطميين أى منذ قرين ونصف .
- × «والسحت سواء كان حلالا أو حراما» السحت في اللغة هو كل مال لا يحل كسبه أو أكله فمن أين يكون منه حلال أو حرام .
- × «أولا فأول» - أو أولا بأول (الصواب أول بأول) وجلس على يمينه أو يساره (الصواب جلس إلى) من أول وهلة ، لأول وهلة ، في أول وهلة (الصواب أول وهلة) .
- × افتتح دولته معرض للسكرتيريم : الصواب الأقحوان .
- × صورة بروئيل : الصواب : صورة من طرّض (جانب الوجه) .
- × المدالية : الشارة هذا بالاضافة إلى الأعلام الجغرافية ، الاصلاحات العلمية ، الأماكن ، الاصلاحات الطبية ، الفسكلية .

٥ - نشرت الجريدة هذا الخبر : دعا جلالة ملك إيطاليا إليه المسيو تيير وعهد إليه تأليف الوزارة فألقى بين يديه كلمة شكر قال فيها : أن آسف فلا آسف إلا على شيء واحد ، هو معجزى الآن عن كسر رقبتك بيدي كايكسرون رقة الديك الرومي ، فلما قرأ الناس هذا الكلام البذيء ، أيقنوا أن المسيو تيير قد أصابه مس من الجنون وتوقعوا له ، سوء الماقبة ولكنهم لم يلبثوا أن تحقق لهم فساد حسابهم وخطأ ظنهم ، لأنهم لأمضوا في قراءة الصحيفة قرأوا في الظهر التالي من الصحيفة ما يلي : أسفر التحقيق الدقيق الذي أجراه البوليس عن جنابة شارع... عن نتيجة باهرة فلما قبض على الجاني الأثيم الذي لم يتألق بعد أن جرد من سلاحه وشدت يده إلى عنقه أن ساح وكيل النيابة خائفا .

« أن الله وأبناء وطني يشهدون بأنه لم يكن لي ثم من غاية غير الاخلاص في خدمة مليسكي ووطني » إذ فهموا أن الطامعين الكرام قد أزعجوا المجلة الأخيرة الواردة على لسان

الوزير المؤرخ من حيزها في العمود الأول حيث حل عليها قول المجرم القاتل الذي عز عليه أن يرى نفسه عاجزاً عن الفتك بوكيل النيابة فأعرب عن أسفه لأنه لم يكن يستطيع كسر عنقه كما يكسر عنق الديك الرومي .

٢ - أخطاء التصحيح

عرض المصحح ذكر السامح لأخطاء التصحيح في الصحافة المصرية فقال : أن المصحح الصحفي بعد أن كان عمله مقصوراً على الخطأ الطبلي أصبح في نظر المجتمع رجلاً معروفاً أنه مختصص في علوم الفنة العربية متمق في آدابها . ومن الأخطاء التي عرضت لي أقدم هذه النماذج .

١ - خطأ التعبير : قول خيرى سميد (التوأمة نفوس الأطفال) وقد التوى عن النرض الذي روى إليه والتوى فيه أيضاً نظري وقلبي وشموري ، وعلى ما أظن والله أعلم بنيه واحكم أنه يريد أن يقول « أعواج نفوس الأطفال » .

٢ - الخطأ القوي والخطأ الفحوى : يقول حبيب جاماني : عهد إلى هذا القائد الباسل بقيادة الجيش ، ويقول آخر : عهد إلى جلوريا سوانسون بتمثيل دور البطولة ، فكان هناك معاهدة بين الأستاذين على الخطأ والصواب ، كما لا تخص « عهد إليه في » ويقول بعض الأساتذة : هذا الشيء يوازي ثمنه ألف جنيه . والصواب : (يساوي ثمنه) ويقولون أيضاً (لا يكلمه قط) وفاتهم أن « قط ظرف » زمان لاستغراق الماضي ، وتختص بالنفي .

(٣) الخطأ الطبلي : من ذلك أن زعيماً عاد من الاسكندرية وأخذ المحرر يصف الرحلة إلى أن قال (وما بلغ دولته بيت الأمة حتى علا التهليل) ولكن شاء الخطأ الطبلي أن تكون الجملة هكذا : ما بلغ بيت الأمة حتى علا الصهيل ، وكان أحد المثاليين قد صنع تمثالاً نصيفاً لسميد باشا وأراد أن يقدمه لدولته أمام الجماهير التي كانت تند على بيت الأمة ، فوصف أحد المحررين هذا النرض فقال : (ولما عرضته أمام الجمهور) ، فأبى الخطأ الطبلي إلا أن تكون الجملة (لما عرضه أمام الجمهور) ، ودعا أحد أعيان الريف إلى مادية وكان أكولاً وأراد أحد المحررين أن يهتمكم به أثناء وصف المادية فقال : « ثم هيأ القمة وابتلمها » فجاءت

جلته هكذا « ثم هيأ الأمة واجتمعوا » . والظريف في الموضوع أن هذا المين كان ممعا ، وكان أحد النقاد يصف إحدى روايات رعاة البقر في أمريكا فأراد أن يقول « نخطف الحص المجلة وطار » فظهرت جملة « هكذا نخطف النجيلة وطار » . وأراد محرر أن يصف تحمزا أحد مصادر عينا للوثوب بقوله : « ثم تحفز للوثوب » فكان رسفه هكذا « ثم تقمزم للوثوب » أ . ه .

X من الأخطاء الطبيعية : الآن هلموا إلى العمل واسنوا إلى صوت « الضمير » : فجاءت « الجير » وقولهم : الفرنسيون يضيقون الحناق على « البطل » الرا كفي جاءت : « البصل » وكان اسم جريدة البلاغ يرد أحيانا البلاغ أو البلاء .

أخطاء طبيعية : عندما يغفل توضح السطور .

يحدث أحيانا أن يخطئ الموضب لزمعة العمل في جمع سطور الأخبار . فيختلط بعضها في بعض . . وينشأ عن هذا الاختلاط خلط عجيب ، يثير الضحك أو يستثير الاستغراب وهذه طائفة من هذه الأخبار المختلطة نشرت بمجلة « مسامرات الجيب » .

ثناء : كتبت جريدة يومية ذات مرة تنى على « همة » أحد المشايخ الذين قاموا ببعض الأعمال التي تستحق الثناء فكتبت الخبر وعلقت عليه قائلة : « وأنها تنى على همة فضيلته » ولكن حرف الهاء لأمر ما رفض أن يسفر مكانه ، ورأى حرف المين السكان شاغرا فلأه وخرجت الجريدة تنى على « همة » فضيلته .. وغضب الشيخ واعتقدت الجريدة في اليوم التالي .

جثة : ومن التعليقات المروعة في الجرائد اليومية عبارة : « وسنوافي القراء غدا بالتفاصيل » ، وحدث أن نشرت جريدة خبر جريمة قتل غامضة ، وبد أن روت كل ما لديها من معلومات كتبت العبارة التقليدية . . ولكن الحروف تضاربت . . فخرجت العبارة غيفه مروعة ، فقد قالت الجريدة : « وسنوافي القراء غدا بجثة القتيل » . . .

خبر زواج : ونشرت إحدى الجرائد خبرا عن حصان جمع في شوارع القاهرة ونشرت بجانبه خبر زواج أحد اليونانيين ، وهذا حلالا لسطور أن ترقص فأختلط الخبران ، وظهر خبر

الزواج كالاتى : « ثم زواج الخواجه كارلو كانا كسى فى الكنيسة اليونانية ثم خرج جامعاً واندفع إلى مقهى بلدى لخطمه وأصاب بضمة أشخاص باصابات قاتلة ، وعاد إلى المنزل بين تهاوى الحيين والأصدقاء » . . أما الحصان سميد الحظ فسكتب خبر هياجه بالطف صينة عرفتها الصحافة : « بينما كان أحد الحوذبة يقوم جواده فى شوارع القاهرة إذ انطلق فاستقل مع هروسه « عربية » طافت بهما شوارع القاهرة . . وقد استطاع البوليس تهديته والتبض عليه .

شطب الرقيب : وفى عامود وفيات جريدة نشر أطرف نى متواضع إذ جاء فيه : « توفى إلى رحمة الله وكان مثالا للرجولة الكاملة والأخلاق الفاضلة تنمده الله برحمته الواسعة » وبظهر أن الفقيد أبى اسمه الكريم أن يحمل هذه الصفات ظلما وعدوانا فاختفى من السطور وأوحى إلى جامع الحروف بأن ينسأه ، وعندما سئل سكرتير التحرير عن هذا النلط اعتذر بأن الرقيب شطب اسم الفقيد .

رؤية رمضان : إعتادت الجرائد اليومية أن تنشر خبر رؤية رمضان بصيغة تقليدية وأرادت الحروف والسطور أن تترنح قليلا . فخرج خبر الرؤية فى جريدة يومية كبيرة ، وقد خلطاً عجيباً . . قالت الجريدة : تحت عنوان رؤية رمضان : « احتفل فى المسكة الشرعية أمس برؤية الشيخ » « ذلك فى الساعة السابعة والواقعة الحادية عشرة بحضور الشيخ رمضان المبارك ومحافظ القاهرة وبعض هيئة كبار العلماء » .

عودة : ومن الأخبار التى رقصت فيها السطور رقصاً صريحاً خبر ترى حرب عاد من أوربا ودفع مبلغاً طيباً للجريدة ، فنشر له خبر عودته فى الاجتهائيات ، ولكن عمود الحوادث كان له بالمرصاد ، وثارت الحروف وغضبت السطور من النعوت الكاذبة ، التى ألصقتها المررد بترى الحرب وتمركت من أماكنها واختلط الخبر بمحادثة عامل سقط من عمارة يعمل فيها فسكتب فى الاجتهائيات هكذا :

« عاد إلى القاهرة الوجيه (٠٠٠) بإدراجه طويلة في أوروبا ، حاملاً الأسماء ومواد البناء ، إذ سقط من أعلى المارة . وتوافد على مكتبه الكثيرون مهنيين حضروته بمودته من أوروبا . وكتبت الحادثة كالآتي :

« بينما كان العامل أحمد البرموني يصعد المارة التي يعمل فيها وكان في استقباله لفيف كبير من المظالم والوجهاء ، وقد أصيب برضوخ وحملته الاسماء بين الموت والحياة ! »
ومن هذه النماذج :

كتب داود بركات - قدسك يجب ترقية القضاء . فنشرت في الأهرام - فذلك يجب ترقية القضاء . وكتب أحمد فيثي على (هم) الملامه الفضائل فجاءت (عمه) وكتب أحمد اسم ديوان شكوى فجاءت شكوى . ونشرت مصلحة السجون : مصلحة الصحون .

وعبارة « أقطاب » الوزارة : نشرت « أو شاب » الوزارة .

وساحب المزه : نشرت صاحب المزه .

ولجنة البطالة : نشرت لجنة البطالة .

واختلط عمود بآخر فظهر في عمود واحد وفي موضع بارز هذا الكلام (يجب أن نبعث عن هذا العامل والأمراض الاجتماعية ونصف لها العلاج ، ونساعد . . . الرافعات اللاتي يحضرن إلى هذه البلاد ثم يفسدن الوسط الاجتماعي .

ونشر أحمد نيا وخفى الصحيح أن يتجاوز السطور المقررة له ، فكتب أمام السطر الأخير في الهامش عبارة « إن كان له مكان » ، فجاء النسي هكذا : توفي إلى رحمة الله (فلان) أسكنه الله فمسيح جفاته إن كان له مكان .

تطور الصحافة الأسبوعية

(١) صحافة النقد السياسي الساخر.

(٢) صحافة الأدب والثقافة.

صحافة النقد السياسي الساخر

صمدت الصحافة الهزلية قتلهم والظالمين ، ولم تنفر عطياً ولا كبيراً إلا سخرت منه وتألفت صحافة النقد السياسي الساخر بعد ثورة ١٩١٩ وكان أول من منى بها حافظ عوض (خيال الظل) وسليمان فوزي (الكشكول) وكان (خيال الظل) موالياً لحزب الوفد و (الكشكول) منارضا له ونجح الكشكول نجاحاً باهراً واكتسح . هنالك تحولت مجلة (زوز اليوسف) التي كان يحررها محمد المتابي : صحيفة لفرن التتيل أساساً ، تحولت إلى مجال النقد السياسي الساخر وبلغت غاية البراعة والذوبوع ، ثم استغل المتابي مجلة خاصة هي « آخر ساعة » وظلت الكشكول وروز اليوسف وآخر ساعة أبرز صحف الكاريكاتير في هذه الفترة . وإن كانت قد ظهرت عذرات الصحف التي حاكت هذا القود وأهمها الرغائب .

من أبرز فنون الصحافة الأسبوعية : صحافة النقد السياسي الساخر ، وكانوا يسمونها (الصحافة الهزلية) أو (صحافة الكاريكاتير) وكانت أبعد أزا وأكثر رواجاً من الصحافة الأدبية ، ظهرت هذه الصحافة قبيل الثورة المرابية : قوامها الصورة والكلمة الفكاهية القائمة على نقد الأوضاع الإجتماعية . وكان من أبرز الماملين في ميدانها : بمقرب صنفوع ، عبد الله نديم ، وظهرت صحف : حارة منيتي ومصباح الشرق ، وخیال الظل والمسامير والشجاعة (١٩٠٧ - ١٩١٠) وكان الأسلوب الصحفي الهزلي ضمن وسائل الكفاح خلال ثورة ١٩١٩ ضد الحماية وفي سبيل المطالبة بالاستقلال والدمستور والثورة ١٩١٩ أثر في ظهور عدد من الصحف الهزلية ونفر من الكتاب السياسيين الظرفاء .

وفي العدد الأول من حارة منيتي (الدريبي) جاءت الافتتاحية هكذا :

« الحمد لله الذي زين الدنيا بمصاييح والقلوب بالسرور والتفاريح ، وجعل الضحك عنواناً للانتسراح ، وتمتلاً للمسرة والنجاح » .

وفي فترة ما قبل الحرب ظهر الماسير (السيد طارف) أحمد عباس (جريدة السيف) حسين شفيق المصري (جريدة الناس) يقول : أخذت على نفسي أن أكتب لقوى ، وأنا من قوى ، ولقوى ، بقلم غرس في الجحيم أو النعيم ، فإن أصبت الحز في ذلك الموقف فما هو الإلهام من الوطن .

وكان طابع هذه الصحافة ما يلفتون عليه « القفص » ومثال ذلك : قال أحدهم لفلان باشا ، نظن أنك الوطني الوحيد قال : أنا وطني حسب الظروف ، ومن ذلك : بلغنا أن المرحوم عشماوى عندما جاء هزرائيل يقطف روحه قال له : خلى عنك !

كما أصدر محمود بيرم التونسي مجلة الشباب وتناول حياة الطبقات الفقيرة وقد أبرزت الصحافة الساخرة بعد الحرب كتابا ظرفاء لمت أستاذهم في مقدمتهم : محمد إبراهيم هلال ، عبد العزيز البشري ، توفيق حبيب ، حسن شفيق المصري .

* * *

وقد عرض سلامة موسى لهذا اللون من الصحافة في بحث شاف (١) : مؤسس الصحافة الأسبوعية السياسية في مصر هو الأستاذ محمد القابسي . ولكنه عندما شرع فيها لم يكن يقصد إليها بالقدات فإنه بدأ تحرير (مجلة روز اليوسف) بالكتابة عن الأدب والفنون والمسرح ، فلم يجد إقبالا يذكر فجعل يتحول رويدا رويدا حتى زال الأدب والفنون وحتى المسرح . ثم تفرع من المسرح فروع كثيرة هي القيل والقال عن الأشخاص البارزين حتى دخل في هؤلاء رجال السياسة ، ولذلك أقبل القراء على مجلة روز اليوسف فراجت وكثر المقلدون لها ، ولكن بلا نجاح .

ثم استغل الأستاذ القابسي بمجلة آخر ساعة فسار بها على الخطة التي رسمها وهي القيل والقال عن الأشخاص البارزين ، مع الإكثار من الصور الكاريكاتورية . ولكن هذه الصور هي من مخترعات الأستاذ سليمان فوزى في السكشكول .

(١) المجلة الجديدة الأسبوعية م ١٩٣٥ .

إن كل ما نتمتع عليه المجلات الأسبوعية هو القيل والقال ، بصرف النظر عن صدق ما يقال وكذبه ، لأن كل ما يطلب هو البراعة في إيراد الخبر . النفاية بالأخبار المستفربة النادرة عن الجنسين . وقد تكون هذه الأخبار مؤلة لمن تروى عنهم ولكن ليس هذا من شأن المجلة . وليس شك في قدرة الأستاذ القابى وفراسته الصحفية ، ولكن الإنسان عندما ينظر إلى وفرة المجلات الأسبوعية التي نشأت على غرار روز اليوسف وإلى الإسفاف في تناول الأشخاص يتساءل : هل كان أثره مفيداً أم مضراً في الصحافة ، والذى لا شك في أنه لو كانت الأمة أرق قليلاً من ناحية الثقافة لما استطاعت أن تقرأ المجلات الأسبوعية الحاضرة ، بل هذا هو الذى إعترف به الأستاذ القابى في آخر السنة الأولى من مجلة روز اليوسف . وفي عام ١٩٣٠ نقد إبراهيم جلال (وهو نجم المرحوم محمد عثمان جلال) - أكبر دعاة العامية والمدرسة الساخرة - نقد الصحافة الساخرة . قال :

إن الصحف التي لها اتصال بالسارح تنشر صوراً وأخباراً يندى لها وجه الفضيلة ، وتأبها أذواق العامة فضلاً عن الطبقة المتعلمة ، والفروض في الصحافة أنها مدرسة تهذيب أخلاق الشعب ، وترفع مستوى آدابه ، والفروض في المحرر أنه معلم يرشد القراء إلى ما فيه نفعهم من علم وأدب ، لذلك يجب أن يكون كل عمل يأتيه المحرر يرى إلى تهذيب المجموع حتى في الكتابة المزلية كالفسك والملح . وعندى أن الخلاف بين الصحف المزلية يجب أن تكون خالياً من الهجوم والإفذاء فيه ، وأن يكون كل من الطرفين يرى إلى الإنساع وإظهار الحق دون التمرض للأشخاص ، فالغماز التي أقل ما فيها أنها تريد شقة الخلاف بين الشخصين وتولد في النفوس أحقاداً وحزازات ليست من مصلحة المجموع في شيء .

وكان أبرز صراع في مجال الصحافة السياسية الساخرة بين مجلتي الكشكول وروز اليوسف . وننقل هنا نموذجين من كتابات الصعيقتين :

مقال روز اليوسف

إننا باسم كرامة الصحافة التي أذلها صاحب الكشكول وأسف بها إلى حيث يجعلها فوطه المطيخ الفذرة - يسمح فيها ما شاء وباسم ضحايا صاحب الكشكول الذين عاشوا وعاشت أعراضهم عشرة أعوام مادة لريشة الكشكول وقلمه ، يتبادل فيها بالظمن والتشهير ما كان يجب أن يكون منبهة أبطال ومفضرة بلاد وباسم ماضيه الملقن التفتيح ، الذي اكتفى فيه بأن يكون خطرة من مكارم الدنيا جلسة عليها مكتب إدارة مجلة (نوفمبر ١٩٢٩) .

مقال (الكشكول) : روزا وتاجها العريف .

كان ولیم يقاب صفحات الدليل المصري في قسم الصحافة ومضى يتمتر في قراءة أسماء الصحف والمجلات ، حتى وقف من بينها على اسم مجلة (روزه اليوسف) فأخذته نوبة من الإعجاب : اسم كويس خالص ، يجب أن يكون لسان حال الوفد ، حتى نضيف إلى خشونة رجاله الصناديد ، لطاقة الجنس الناعم ، لتسكن صاحبة المجلة امرأة ولتسكن مجلتها تافهة ، ولتسكن هي امرأة وزعت من عمرها ستين عاما هبه للتمثيل ، حيث هرعت آلهة الفن وراء الستر السميك وتركزت لأبطال الترام والحب عمالا لأعداد العرض والانجاز ، من عساه لا يرضى بتحرير مجلة تحمل هذا الاسم ويكون له جرأة على أن يسب ويشتم . ويسطو بالافتداع على الأعراض والكرامات دون أن يستطيع واحد النيل من عرشه وكرامته ، لم يطل في اختياره واحداً من الشباب المتراحم ، ثم أدناه منه « خذ ههناك . امرأة وزير سابق اسمه ولا بلاش اسمه ، تهرب مع خادمها ، موظف كبير يقبل هدية من مرءسيته بألف جنيه ، أخت وزير تضبط في هوائيه مع آخرين .

ما تنسأشي علامات التعجب ، أكثر من علامات الاستفهام ، أدى خمسين جنيه على الحساب .

× هبت النياية من مرقدها ، تأخذ بخيق ولد مرور ، لا تزال آثار الطين والوحل عالقة بركبتيه من جبهه على الأرض (١٩٢٦ / ١١ / ٢٢) .

الطائف = (تأديب صاحب الكشكول) :

ومما يتصل بهذه المركبة ما نشرته مجلة الطائف تحت هذا العنوان (٢٨ أغسطس ١٩٢٢) قالت : لم نستغرب مطلقاً حادث (الملقة) التي ذاقها صاحب الكشكول في عمل الحلواني صولت في القاهرة منذ أسابيع وكانت حديث الآداب والسيدات في اجتماعاتهم ومسامراتهم في المحافل والبيوت ولقي الكاريكاتور الذي نشرناه في العدد الخاص عن الكشكول وعلقية إرتياحاً من جميع القراء بدليل كثرة ماسمئاه من الثناء .

فقد أدب الكشكول على نشر الصور والفيدي بقصد الطعن في أقدار الناس ولا سيما الظواهر والمشاهير والخط من كرامتهم لتأية معروفة لا تخفى على أحد، فكان يعمل أسبوعاً بعد أسبوع على اضحائك الناس من مشاهير الأمة بمجملهم موضوعاً للمزح والسخرية وهذا للتشجيع والتقبيل، فأخذ الناس يشيرون أن الصحافة المصرية مبتلية بآفة تعمل على هدم كرامة وشهرة رجالنا المروفين وأفرادنا الذين يشار إليهم بالبنان ، وبمازاد الطين بلة خروج الكشكول بطمئة وقدمه على السيدات وهزته على السيدات المصريات كتاباً وتصويراً حتى طلع الكأس وصار من المنتظر أن يجل بصاحبيه ما حل به، والراء لا يعلم إلا على حسابه ، والتريب أن صاحب الكشكول جمع بين سفه الكتابة والقول وجرأة الاعتداء على الناس ، بالضرب فقد اتصل نبأ من تفاصيل حادث الملقة أنه كان البادئ بالإعتداء على محمد بكري المهدس في مصلحة المساحة على أثر مناقشة حاده دارت على سفاهة مقصد من الخط من قدر سيدات الوفد بنشره صورهن بأسلوب تنفر منه القول السليمة فإ كان من فوزي إلا أن صفع بكري على حين غرة على صدغه الأيمن ثم على صدغه الأيسر ، فأمسك بكري بتلابيب صاحب الكشكول وقبض عليه بيد من حديد ، ودفعه أمامه إلى أن ألصقه بمحائط المكان وهناك أخذ يكيل له الاسكات بنير عدو حساب وكانت ضرباته مؤلمة أتقدت صاحبنا شجاعته الأولى فأخذ يصيح ويستغيث . ولكن بكري لم يترك فوزي إلا بعد أن أشبعه وزوده بما ظنه كافياً في المستقبل .

(م - ٢٠ تطوار الصحافة المصرية للعامة)

وهكذا ظلت معركة الصراع بين صحافة الوفد وصحافة فاعمة مستمرة ؛
ووصلت إلى مجال القضايا ، والالتام بين كتاب المجلتين : الكشكول وروز اليوسف
وهو إلتام في مجال (الشرف) كما تقول المصحف (١٩٢٩/١١/٢٢) .

ولا يمنع هذا من أن يصف أحد تلاميذ الأستاذ التابى بعد ذلك بأكثر من عشرين
عاما فيقول : مدرسة التابى الصحفية لها أثرها في تاريخ الصحافة ، لقد حرر أسلوب الصحافة
الساخرة من الأسجاع والتراقات ، فهو الذى أدخل اللغة الكاريكاتورية في الصحافة ،
بضمة خطوط سريعة تعبر كأنها لوحة فنية رائعة ، كلمة واحدة تلتصق بشخصية السياسى
وتحوّله من رجل وقور إلى مسخرة ، لقد كانت لنة الصحافة قبل ذلك أشبه بفساتين
السيدات في الماضي مليئة بالقبول فجمل لنة الصحافة بسيطة .

(الصاوى في مجلة روز اليوسف)

وهذا نموذج من كتابات مجلة روز اليوسف عن « الرسفء » كما كانوا يسمونهم في هذه
الفترة : دأب الصاوى في التظاهر بمناصرة النهضة النسوية ومشايستها وذلك بدفع بعض
دينه للميدة هدى شعراوى التى ساعدته على الظهور ، وعاونته في الحياة التعليمية وجعلت
منه شيئا ، وهذا لون من البر تشهد للصاوى فيه بالوفاء ، ولكن الأهم في الأمر أن الصاوى
قد ظن - طوال هذه السنين أن مناصرة المرأة ونهضةها لا يخرج عن معنى الكتابة
في الترام والتلاعب بالفاظ الحب والصباية ونجوى القلوب وخفق الأُفئدة وما إلى هذا
الكلام المجيب ، وهذا ما يدعونا إلى أن نلاحظ أن الصاوى ككاتب لا يمكن
أن يؤثر أو يبقى لكتابتة أثر ، ذلك لأنه يتملق نزوات الجماهير في كتابته ،
ثم هو رجل يجيد الإعلان عن نفسه كثيرا ، وبشئ الطرق . وعلى العموم نحن
نهى الأستاذ الصاوى بزواجه وتساءل هل سيظل يعلّج مجلته الترامية
بالحب الرخيص والعشق التافه . . أو بما يكون فيه فائدة للقراء وتقدم لمن يطالونها

في وزارة المعارف التي جومل فيها إلى حد أن اشتركت في أكثر من خمسمائة نسخة من مجلد هذه، لقد شكك أحد الأدباء من أن وزارة المعارف تقرر مثل هذه المجلة في مدارس البنات بينما هي عبارة عن مجموعة أقوال وكلمات في الحب والفرام مما يفتح عيون الفتيات ويلقي في روعهن أن التبذل معناه رقة المواطن .

الصاوي في مجلة الجامعة

وكتب صاحب الجامعة :

نشأ الصاوي يقياً من الوالد وكفلته السيدة والدته حتى نال البكالوريا فاستخدم في الحكومة في مصلحة . . الفاجم ! وهناك تفتحت كنوز أدبه وبدأ يظهر رسائل صغيرة للأهرام اتخذها إسماً ثانياً هو « مائل ودل » ثم أخذ يخلق فرص الحياة حتى اتصل بسيدة عظيمة من زعمات النهضة النسوية بمصر فأوفدته إلى باريس ليتم دراسة نساء ورجع . ولست أدرى ماذا حمل من باريس، بله الشهادات ، ثم اختير محرراً في الأهرام وأوفده الأهرام إلى باريس ورجع ولا أدرى ماذا حمل هذه المرة أيضاً من باريس من الشهادات . وإن كنت أدرى يقياً أنه اكتسب من باريس أسلوباً غريباً شائفاً وعقلية لا بأس بها .

وتمكن وهو موظف بسيط يحمل من اللغة الفرنسية بضعة ألفاظ عمومة زميل له موظف في المصلحة من خريجي الفرير أن يترجم روايتي تاييس والزينة الجراء . وتمكن من أن يحصل بالأهرام الذي أفسح له صدره وأن يسافر على نفقة جهة غير حكومية لاتمام الدراسة ، وبعد أن كثيرين من قراء الصاوي ليمتقدون فيه الغرور، ويظنون أيضاً أن الرسائل التي ينشرها على اعتبار أنها مرسلة إليها كلها منتحل ومنتحل . والصاوي أن كان فشل في أن يكون قائم أمين في الكتابة عن المرأة المصرية كما فشل طه حسين في كشفه عن كنوز الأدب الفرنسي كما فشل في أن يكون قائداً من قواد القصة المصرية فهو على أي حال كاتب من أقوى كتاب الشباب .

الأدب للكشوف

ولم تتوقف هذه المجلات عند هذا الحد من الهزائم في مجال الأسلوب والمضمون بل ذهبت مجلة الراديو التي كان يصدرها محمود عزت المفتي إلى محاولة هدم القيم الأخلاقية والاجتماعية ، حتى جاءت مرافعة النيابة في محاكمته على هذا النحو : قال حسن صالح الجداوى :

الصحافة مهنة نبيلة لها جلالها ، ولها خطرها ، والصحافي رجل نبيل خطير ، يكده نهاره أو ليله أو إن شئت الحق نهاره وليله في تلقط الأخبار وتسويق البيانات وجمع المعلومات ليصبح الفاس وعيسهم بأخبار كل ما هو جار في جميع أنحاء المعمورة . فالصحيفة إذن مدرسة يستكمل فيها المتعلمون علومهم ، ويتقن عندها أنصاف المتعلمين كل معارفهم ، على أن الصحافة والصحافي لا شأن لهما بقضية (الراديو) إلا بقدر ما بهتهم طبيب بقضية أحد الدجالين الذين يدعون الطب ، والطب منهم براء ، فإذ مجلة الراديو ولا صاحبها وممارسه إلا أديباء صحافة يظهرهم في ثوبها ويلتصقون بها . انظروا إلى القازورات التي لطخ التهمان بها صفحات المجلة باسم (الأدب المكشوف) و (الأدب الوضع) لتحككوا أن التهمين لم يقصدا أدبا ولا رميا إلى تأدب ، وإنما قصدا إلى انجاس شنيع بضاعته أخط الشهوات وأخسها .

والأدب هو فكرة تسمو بصاحبها عن ماديات الحياة وأردائها ، فيرتفع بنفسه ويمكن أن يحلق بهم إلى أسماء التفكير وينير أمامهم طريقه وينذى روحهم ، ولست أنكر أن في بعض كتب الأدب القديمة حكايات وملح تشير من قريب أو بعيد إلى بعض ما يتصل بالملاقات الجنسية ، كالأنا أنكر أن بعض كتاب التوب في العهد الحديث قد أخذوا يتجهون نحو دراسة العلاقات والميول ، ولكنني أحمى للهم أن يأتي بصحيفة أو كتاب تدنى إلى مثل ما تدنى هو إليه ، وأوقف صفحاته على مثل ما كتب ويمثل أسلوبه وألفاظه . أما المشرع المصري فلم يشأ أن يجارى المشرع الفرنسي في إلناء عقوبة كل اعتداء على حرمة الآداب فأبقاها ورفع عقوبة الفحشاء ووضع لها حد أدنى هو عشرون جنهما بما يدل

على رغبته في العقاب لا على انتهاك حسن الأخلاق فقط بل على حرمة الآداب أيضاً،
فإنما الآداب فهي المبادئ المتممة من المجموع ، هي تلك المبادئ الأساسية التي لا تقوم
الحياة الإجتماعية والأخلاقية إلا بها ، والتي تواضعت العادات وتواضع الناس على الأخذ
بها، فمن سولت له نفسه أن يبرر الإباحية أو تزوج المرأة بأكثر من رجل ، أو حرية
المرأة في جسمها ، ينتهك حرمة الآداب ، ويجب أن يأخذ القانون بمقابله وقد فعل
التهمة ذلك ، أما حسن الأخلاق فأظن أن من امتنان العقول أن يقال أنها في حاجة لتعريف ،
خصوصاً بعد ما تمرض التهمة لموضوعات لاجدال في أنها بما لا يصح نشره على الناس ،
لو أن التهمة نشر بحثاً علمياً تمرض فيه لثل ما تمرض له للوصول إلى فائدة علمية ، لجاز
أن يناقش فيما قصد ، وفي الفائدة مما قصد ، ولو أنه نشر فنا أو أذاع رسماً لجاز أن يقول
قائل : إن هذا هو الفن ، وإن للفن حقوقاً . أما والتهمة يمرض علينا أنواعاً من الشهوات
والفجور ، لتبر ما قصد إلا إهانة الشهوات الدينية ، ورغبة في الكسب ، فليس
من العقول أن ينسب مثل هذا للفن أو الفن . إن لنا عادات وأخلاقاً تغير أمامنا سبل
التقدير ونعرف بها ما هو حسن وما هو سيء ، فلا تضمنوا القائل يقول ، في فرنسا
أولى أمريكا يفعلون

معركة سياسية^(١)

وقد أثارَت الصحافة المهازلة معركة سياسية بين جريدتي السياسة وكوكب
الشرق (مايو سنة ١٩٢٣) يقول الدكتور هيكل :

× اتخذ هذه الصحف أسلحة للفضال السياسي وإفساد أذواق الجماهير ، امتدت
هذه الصحف إلى حياة الناس الخاصة ، وروجت لكثير من الفساد ، أن تشجيع هذا
النوع من الصحافة جناية على الأخلاق ، أكبر ما جنى على قضية هذه البلاد خلال
عشر السنوات الأخيرة الاستهانة بالأخلاق ، واتخاذ الأسلحة للفتنة بالخصوم السياسيين .

(١) راجع تفاصيل للمعركة في كتابنا « الصحافة السياسية في مصر » .

× أى جناية على الأخلاق أكبر من أن تقوم سائر الصحف بتناول حياة الناس .
الخاصة في منازلهم ، وبين أهلهم ، ثم تردف ذلك بأخبار كلها انخلاعة والجون .
× انتشرت هذه الصحافة التي تنال من كرامات الناس وأعراضهم انتشاراً مزعجاً .
فيمد أن كانت مقصورة على مجلتيين أو ثلاث أصبح يظهر منها في كل يوم مجلة ، وأصبحت
تلقى من إقبال الجمهور الساذج الذي ألف هذا النوع من الكتابة ما أصبح خطراً داهماً
على الأخلاق وعلى العقول .

× هذه الصحف ليست أقل خطراً ولا أقل فتكاً بأخلاق الأمة من المجلات .

من تجربة أكبر كتاب الصحافة السكاريكاثية : حسين هفبق المصرى

تذكرت أيام الصبا والشباب ، في ذلك الزمن الذي كان يمرمر النسيم ، كانت
مصر في ذلك العهد تبدأ سورها في طريق للطالبة بالاستقلال ، كنا نلهو ونلعب ولكن
كان لنا أدب وكانت لنا أخلاق ، ولم تكن ننسى أن بلادنا رازحة تحت أعباء تتوالى
فلم يكن مرحنا ولهونا بصرفنا عن التعاون على إلقاء تلك الأعباء عن عاتق الأمة .

ولست أنسى أن عدد المتعلمين منا كان أقل من عدد الجنيهاات وأسألوا عن المهرجلان
الذي كان يقام تمظيلاً لتطهيد القى ينال الشهادة الابتدائية ، فإذا علم هذا عرفتم
عدد الذين كانوا يقرأون ولا تذكروا الذين كانوا يكتبون ، فإنهم كانوا كالجن نسمع بهم
ولا نراهم ، في تلك القلة من القراء كانت تمشي الصحافة وليس العجيب أنها كانت
تمشي ، ولكن العجيب أنها كانت قوة فاهرة تنهاها الأعداء ويتق حربها الأصدقاء .

نشرق المطبوعات عدد قراء الصحف اليومية والأسبوعية في ديسمبر ١٨٩٢ (٢٧٧٥)
الاهرام - ١٤٥٥ المقطم - ١٢٠٠ المؤيد - ١١٣٤٥ الأستاذ - ١١٣٠٠ المتكطف - ٧٤٠
الملال - ٦٠٠ الزراعة - ٥٤٥ الفلاح - ٤٤٣ الحروسة) وأوسع الصحف انتشاراً
لم يبلغ عدد قراءها ثلاثة آلاف ، وأكبرها حجماً وأطولها وأعرضها ، أربع صفحات .

فإذا علمت أن الأهرام والمعلم كان كثير من نسخها يرسل إلى لبنان والشام والعراق والأناضول وبلاد المغرب الأقصى ، رأينا أن « الأستاذ » كان أوسع الصحف انتشاراً في مصر وصاحبه عبد الله نديم ، الكاتب الشاعر الرجال الجاد الهازل المنقطع النظير ، خطيب الثورة المرافية الذي كان الإنجليز يحسبون له ألف حساب ، وكان المصريون يرفعونه إلى صف المظاہ (ومن هنا يكون عمر الصحافة الأسبوعية من عمر الأستاذ) ١٨٩٢ ، وأنها نشأت بين يدي هذا الأدب الكبير ، وهو أول من أجاد الجمع بين الجد والمزحل ، في الصحافة ، ولقد القلدون ، ومنهم من قدم به العجز عن إدراك شأوه ومنهم من لحقه ولكن بعد زمن ، ثم سبقه السابقون من التأخرين - أما الأدب المحض ، الخالص من المامية الذي يكاد يكون سالماً من اللحن ، فبدأ عهد مجرودة مصباح الشرق الأسبوعية التي نشأها « إبراهيم المويلحي » كان مصباح الشرق بأسلوبه وحسن ديباجته في نظر القوم تحفة يقتنونها ، أما الصحافة الهزلية بدء « الأستاذ » فسارت في الطريق الذي رسمه لها عبد الله نديم وارتقت من حيث الصناعة ولكنها انتمت في أفذار المهجاء الشنيع وبذاء الألفاظ ، ولم يسلم من ذلك القبيح إلا « الأرفول » فقد زهه صاحبه الشيخ محمد النجار عما يشبهه من تلك السفاهة ، اللهم إلا ألفاظاً أصابته بالمدوى .

أخذت الصحافة الأسبوعية بالإرتقاء بمهارة منبئ والخلاعة ، ثم الشجاعة ، ثم السيف والمسامير ، ولكنها إرتقت في كتابتها وتدهورت في أخلاقها إلى أسفل مكان ، ولكل صحيفة من هؤلاء الصحف تاريخ يخجل منه إبليس لأنها كانت تمشي بالعلمن على الكبراء والمخوض في الأعراض ولم يكن في أصحابها كاتب إلا عمد توفيق صاحب (حمارة منبئ) فقد كان أدبياً يكتب وينظم الشعر والزجل بأسلوب بضحك الفكلي والآخر نأميون ، كان يكتب لهم كتاب مستترون وراهم فلا يرفعون الجمهور ، إذ كر منهم الأدباء أمام المبد ، خليل نظير ، وواحد صاحبنا ندم بعد كده وربنا تاب عليه

(يقصد نفسه) . ظهرت حمارة منبئى ١٨٩٨ فجأة ، فكانت ترفس هذا وتمض هذا وتنبق فى وجه هذا ، ولم يسلم الأستاذ محمد عبده من شرها وراجت رواجالم تبلىغ إليه صحيفة غيرها ، حتى لقد وصل ما يباع منها فى الأسواق إلى أكثر من أربعين ألف نسخة مع قلة عدد التملين ، وكان إغش الحماره فى السب والقذف بالبذاءة المنكرة ، نكبة على الأدب القوى ، فقد قلدها كتاب الصحف الأسبوعية فى قبح للذهب ، وخلتها بمضمهم فى طريقة الكتابة فجاءوا بأساليب جديدة منها المنكرات التى كانت تنشر فى مجلتي للشجاعة والسيف من بعدها وما لا أحد عباس وقد كان لا يحسن القراءة والكتابة ولكنه كان شملة ذكاء له بديهة ظاهرة وروح من أخف الأرواح وله نوادر ظريفة .

وكانت الصحف فى تلك الأيام تحاول أن تكون كالشجاعة والسيف فتسخر سخفاً تشمئز منه النفوس فلا يقام لها وزن فتختفى بعد صدورها بأسابيع ، ولم تكن الصحف الأسبوعية كلها للهزل فى تلك الأيام فقد ظهرت على الشجاعة والسيف صحف آخر منذ ثلاثين سنة (١٩٠٦) واستجابتها فى حكم الأميين ، وكان يكتبها لهم رجل عجيب يدعى الشيخ الشربلى ، رأيته رأى الدين يجلس فى بعض مشارب القهوة بالمتبة الحضراء ويكتب الجريدة كلها فى ساعتين ، وهى أربع صفحات من القطع الكبير ، وقد حاولت أن أعرف سبب وجود تلك الصحف فلم أستطع لأنى لم أقدر على فهم ما كان الشربلى يكتبه ولا أظنه كان يفهم ما يكتب .

(٢) انتدأت بالأستاذ فصباح الشرق ، فجارة منبئى فالشجاعة فالسيف وجاء بعد ذلك الظاهر من ارجاس المطاعن الشخصية والافتداع فتوليت كتابة جريدة السيوف عام ١٩١٤ فجعلتها صحيفة سياسية وأدب وحولت دفعة الهجوم عن الأشخاص إلى ناحية الحكومة والمحتلين وأنصارهم من الجماعات والرجال السياسيين ، فراج السيوف حتى طبع منه أربعون ألف نسخة فى الأسبوع ، ومماذ الله أن أدعى أننى أول من طهر الصحافة الأسبوعية

من الأردن ، فقد سبقني عبد الله نديم وإبراهيم المويلحي ، والشيخ محمد النجار أصحاب الأستاذ ومصباح الشرق والأرغول وأستاذي محمد مسعود وحافظ عوض ، فقد أنشأ مجلة خيال الظل ١٩٠٦ وهي وجريدة السياسة المصورة لم يميشا طويلا لأسباب غير السكاد فقد كانتا راغبتين كل الزواج ، لأنهما أقدم الصحف التي ابتدعت التصوير ، وعنها أخذ الكشكول ومجلات دار الهلال وروز اليوسف وآخر ساعة .

(٢) عدت بنفسى إلى عهد الشباب حين كنا ندخل قهوة الرقص والنساء فنرى أعاجيب : الأنداد وحياة النفوس وألف ليلة ونسمع بهمة الملاوية وليلة وقرر ونوحده والوانديه وملسكه سرور وأضراهم من النيد الحسان ولا سيما الفنانة الباهرة شفيقة القبطية التي طالما جن بها العقلاء ، وتذكرت الوارثين من أبناء العطاء والعمد والأعيان والأغنياء والواحد منهم يدخل الملهى ووراء العدد العديد من الحاسيب والأتباع الذين إذا غضب غضبوا وهم لا يملطون سبب غضبه ، وضربوا من يعرفون ومن لا يعرفون بالهراوات والكراسى وبونيات الحديد ، وخطفوا الحابل بالنابل وتركوا السكان قائما حصيفا .

وكان الوارث أو الممدة أو الوجبة يدخل الرقص كما يدخل غيره من أنداده فيقارون في البذل والسخاء ، فيطربون ويوتهم تخرب بالإسراف وهم لا يشمرون .

ولا يزالون في هذا الجنون حتى يأتى على كل منهم وقت يحتاج فيه إلى الخبر . واست أنسى ما حيت ذلك المهرج إلا شيب (الشيخ بحر) وكانوا يلقبونه بالخطيب ، ومهمته أن يتقاذف هو وبعض الناس شتائم مضحكة بين فترات الرقص والنساء على النحو المروف بقولهم اشتمنى . أما شارع وجه البركة فكان قطعة من جنة النعيم ، بما فيه من الملاهى الشائنة والحانات التسيعة الجنبات التي تمتج عن فيها عجيها ، والمصاييح تفلأ فيها وعلى أبوابها ولها مثل نور الشمس في النهار . وفي شارع عبد العزيز ، نجد فرحة الحزون وبهجة المكروب والسعادة التي يمينها الشيخ سلامة حجازى على قصاص تيارو اسكندر فرج ،

والشيخ سلامة وتلاميذه يمثلون الروايات الدرية السامية المأثورة الفضيحة الكلام من وضع
تجيب الحداد وإسماعيل ماسم ، روايات صلاح الدين والسيد وقلب الأسد ، وتلك ،
وعائده ، واليتيمين وغيرها من قصص التاريخ والأخلاق . والشيخ سلامة يضاهي أعظم
ممثلي أوروبا ، ويبلغ على البلايل بالصوت البديع ، وليس له ند في إيقاع الألحان لاني
الشرق ولا في الغرب . ولم يكن الشيخ سلامة حجازي عظيمًا في التمثيل والفناء إلا بقدر
عظمته في الأخلاق فلا وقاحة بين المفرجين ولا تبذل للمفرجات .

(٣) الكاتب يكتب كلمة عن حفلة طرب وأنس وإبتهاج ، وقانون العقوبات يرفرف
بأوراقه على رأسه وفيه مواد أشد خطرا من المواد المرفقة والقلم عن يمينه والقلم عن يساره
يقص به من الصحف والكتب والمنشورات ما يستشهد به على صدق ما يقول . فلا يدري
من يراه بمقص ، أم هو أم حلاق . ولا بد لهذه المقتطفات المقصودة من الصحف
ليلصق بالورق الذي يكتب عليه فلا يفرغ من مقاله حتى يكون كالطفل الذي أكل حسلا
وطحينة أو الإسكاف الذي وقع حذاء فلوث يديه بالرسارس .

وهذا قليل إذا رأى الصحافي حادثا وكتب عليه كما راه ثم فوجى ببلاغ رسمي يكذبه ،
وهو غير بين أن يتلغ هذا الكذب في برشامة خوفا من الهاكة ، وإما أن يجيء
بالبراهين على صدقه بعد أن قامت الحادثة وتفرق الدين رأوها معه وضاعت أدلتها .

الكاريكاتير والصحف الهزلية

يقول سليمان فوزى أبرز رجال الصحافة الهزلية في مصر (الكشكول) ١٩٢١ - ١٩٤٠ تقريباً - أن أول من أدخل التصوير الهزلي في الصحف العربية هو (يقرباً بنظارة) وكان مدرسا في المدارس الأميرية واشتغل بالتمثيل وأنشأ جريدته «أبونظارة» في أواخر عصر اسماعيل الذي غضب عليه فقصده إلى باريس وأصدر جريدة أبونظارة وجرائد أخرى، ثم (عبد الحميد زكي)^(١) الذي أصدر جريدة مصورة بالألوان باسم السياسة المصورة كانت وطبها أولا في فينا ثم في روما ثم في مصر وكان (خليل زنبه) المحرر بالأهرام قد إتفق مع جريدة (البي باريزيان) على أن ترسل إليه إعدادها مصورة بدون متن (مكان الكتابة تحت الصور يترك أبيضاً) وكانت متى وردت يعلوها بما أعده لها من مادة باللغة العربية ، ثم أصدر : الراوى والمرأة والمصور ، ثم أصدر (عبد الحميد كامل) جريدة هزلية باسم (البابا غفلو المصري) طبع صورها الكاريكاتورية على الحجر ، وأصدر (محمد اللوبلي) جريدة أبو نواس فسكات أرق صحيفة هزلية كاريكاتورية ، وأصدر (إبراهيم رمزي) مجلة أسبوعية باسم الفيوم، ثم حولها إلى جريدة وكان يصدرها دائما بصورة هزلية محفورة على الخشب ، ثم أصدر (يوسف حقائقه) جريدة لها صحيفة هزلية ونشر صورة الملكة فكتوريا (ملكة بريطانيا إذ ذاك) برأس إنسان وجثة حيوان معلق في مشفقه ، واهتمت النجابة بالموضوع وأحسن بالمقاب نقر إلى الاستانة .

(١) تمه (السياسة للصورة) في نظري ورخي الصحافة الهزلية أول مجلة سياسية مصرية مصوأة ، وكان عبد الحميد زكي عام ١٩٠٧ ضابطا في الجيش المصري ثم أصدر مجلة عام ١٩٠٤ - وقد أربنا العدد ٣٩ (يناير ١٩٠٩) وكانت تطبع ١٢ ألف نسخة ، وقد توافقت ثم عادت إلى الصدور عام ١٩١٢ وكانت إدارتها في شارع للمزى وقد اخترك في تحريرها : حافظ إبراهيم ، أحمد نسيم ، جرجي زيدان ، حفي ناصف ، عبد العزيز البشري وقد حوت تعليقات سياسة لاذعة وغمز سياسي ورسوم كاريكاتورية ملونة .

ثم أصدر (محمد مسمود وأحمد حافظ عوض) جريدة (هاهاه) ثم أصدر (حافظ عوض) وحده (خيال الظل) وأصدر (طاهر حقي) الجريدة الأسبوعية كاريكاتورية وبعد الحرب العالمية (١٩٣١) أدخل (السكسكول) في تحريره الصحف الكاريكاتورية ، وبدأها بلون واحد ، وكان ينشر كل أسبوع أربع صور ، لكل فنان صورة ، وكان أربعة من المصورين يعملون معه ، وقد اشترك فيه محمود مختار ومحمد حسن ، وعياد ، وأحمد صبرى ، ومحمد مندور ، ومصطفى مختار ، واستمر التصوير الهزلى بتقديم يتتابع الحوادث .

ويرى « سليمان فوزى » أن مهمة الجرائد الكاريكاتورية تختلف عن الجرائد الأخرى ، وأبرز معالم هذا الاختلاف ، هو البحث عن مواطن النقد في الأعمال العامة ، وإبرازها في وجوه أحمائها وتكبيرها ليكون منها صنيرا ، وإظهارها واضحة جليا ، ليراه الناظر إليه كأنما يراه في أصله ، فليس شأن المصور الكاريكاتورى أن يرى الحسنات ، كما أن الصور التى تتضمن الدح والتناء ليست إلا عيبا فنيا ، فأنحأ في التصوير الهزلى ، ولا يهضمها الفن ولا يتذوقها . وعنده أن مهارة المصور الكاريكاتورى أو مهارة مديري سياسة الجرائد الكاريكاتورية تنصب على تصوير العيوب ، تصويرا يجعلها بارزة بقدر علاقتها بالجمهور والمصلحة العامة ، ومن الناس من يكون مطبوعا على الهزل فتجىء ألفاظه سوفا كاريكاتورية وهو لا يتعمد ، وكلما كان المفكر (ابن بلد) كانت الصورة الهزلية ناضجة لأذعة ، ووضع الصورة الهزلية متعب غاية التعب ، وواضحة يسهر الليالى ويكد ذهنه طوال الأيام لتجىء موقفه ، ويمكن القول أن الصحف الكاريكاتورية لا تفوق إلا في الحوادث السياسية الهامة أو الانقلابات أو فى البرلمان الذى تسدون جلساته حامية ، ولدى يضع المصور صورة مضبوطة الملامح بارزة الأوضاع المقصودة منها يحتاج إلى جهود وتفوذ ، وإذا كانت قد نجحت فى مصر فذلك لأننا كنا نحمل الزعماء والسياسيين والوزراء على الجلوس أمام المصور فى الوضع الذى يريده

هذا المصور لا الذى يتطلبه مركز المصور يرسم شذقيه على حدة ، وانه على حدة ، وأذنه على حدة ، وفه على حدة ، ولقنته إلى اليمين أو اليسار ، وهكذا حتى لا تتغير ملامح الوجه والشكل فى أى وضع أراد المصور أن يضم صورته .

ويقول سليمان فوزى : أن الكشكسكول والمناعب التى لاقاها أصدقائه والمشتغلون فيه لم تستطع الاستمرار فى خدمة فن التصوير الهزلى إلا بفضل القضاء العادل وأحكامه وفضل الدين تولوا الدفاع عنه من الهاميين ، بقوة هذه الأحكام ونحت رأيها أمكن أن يتشجع أصحاب الصحف الهزلية وأن ينهض فن التصوير الهزلى ، وأن تسكر صحفه وتتمده « ا . هـ

فن الكاريكاتير

٢ - ويتحدث ابراهيم هدايه عن فن الكاريكاتير فيقول : يتكون الكاريكاتير من العناصر الثلاثة : الشكل ، الحركة . الأخلاق واللفظ . المفروض أن الرسام يعرف الخطوط المميزة فى وجه الشخص ، ويعرف مقاييس الجلال ومن هذه يسقط على الأجزاء البارزة عن التنظيم فيبرزها أكثر ويبالغ فيها إلى المقدار الذى يراه كافيا . وكل ذلك مع المحافظة على الشبه . ثم ينتقل إلى الجسم فإن كان تحيلا زاده نحولا ، ويمثل ذلك إن كان طويلا أو قصيرا . وبعد ذلك يعود إلى ملابسه فيجهد لها كاللازم ثم إلى عصاه إن كان من يمسكون العصا أو إلى مظلة إن كان من أصحاب المظلات وغير ذلك من حاجاته التى اشتهر بملازمتها له ، وأخيرا إلى طربوشه ، هذا الطربوش المسكين قد برع الكاريكاتير المصرى بحق ، أكثر من كاريكاتير القبة ، لأن فورمة الطربوش قابلة للمبث الكاريكاتيرى أكثر من جميع قبعات العالم وخصوصا مسألة الزر إذا كان الشخص خطيب فسعبد أن شذقيه مفتوحان بمبالغة مضحكة ونجد الجاس قد طبر طربوشه قسرا إلى الورا أو لمب بزره كيفما يشاء . وهكذا حركات يده التى يحاول بها أن يفتح . لسكل شخص أخلافة ، ولكن الرسام سيعنى بإبرازها وخصوصا المعنى بالذات فى موضوع الصورة .

جشمه ، نجله ، حرصه ، دهاؤه ، ما يضم من شريرة . أما اللفظ فينبر عنه بأسفل الصورة بما يناسب الموقف .

سيكولوجية الكاريكاتير

٣ - وفي حديث مع الرسام «ساروخان» يكشف الرسام عن فنه وفهمه لأخلاق الناس وطبائهم . من : ما هي المظاهر الخارجة التي تدل على مواطن الشخص الذي رسمه .

ج : عندما أنظر إلى شخص أبحث في وجهه أولاً . وفي همداه وحركاته ثانياً عن المظاهر الخارجة التي لا بد أن تدل على ناحية من نواحي خلقه وطبيعته وتربيته ، ولا بد أن يكون في وجه كل شخص من الأشخاص ظاهرة من هذا النوع . خذ مثلاً الطربوش فإن طريقته وضعه على الرأس تجعله أحياناً جزءاً معممًا لحبين صاحبة فيصبح قطعة غير مفصولة من شخصيته ، بل يصبح ذلك الطربوش وحده شخصية قائمة بذاتها مادام في موضعه . وفي وضعه على الرأس . وهناك أيضاً الميرون ، الميرون التي هي مرآة النفس ، والتي لا يمكن للباحث التعمق في بحثه إلا أن يستدل منها على مكنونات الشخص الذي يراه أمامه ، وهناك أيضاً الأنف والابتسامة والأذنان والشعر والحنق والدفن وكل ما يقع عليه النظر . أن كثرين من الناس يشبه بعضهم بعضاً في الشكل الخارجى ، وهؤلاء لا بد أن يشبه بعضهم بعضاً من الفاحية النفسية والعقلية أيضاً فالشخص الذي يكون هيئته الخارجة عادية أو إذا شئت فقل سخيفة ، لا بد أن يكون شخصيته الداخلية التي لا ترى عادية أو سخيفة ، ففى كل إنسان طائفة من المميزات الحسنة والسيئة وفى كل إنسان عيوب وفصائل وليس فى استبطاء أحد من الناس أن يغفل من مراقبة الباحث الدقيق وإذا أراد أن يدرس شخصيته ويعرف نفسيته من مجرد النظر إليه ، غير أنى ألفت النظر إلى شيء آخر ، هو أنى لا أكتفى بالنظر إلى شخص مرة واحدة أو مرتين لكي استخلص الرسم الذى أضنه له والذى يصبح فى نظرى صورة

حية لصاحبه ، كلا ، بل أننى أراغب الأشخاص مراقبة طويلة فى حياتهم الخاصة والعامة
وأفارق بين أعمالهم وبين ما تنبئنه من أسرار وجوهرهم وسناتهم وهكذا أتق فى سعة ملاحظاتي
واستخلص من ذلك الدرس الطويل الرسم الذى أضمه .

تطور الكاريكاتير

٤ - ونحدث أحد راسم من تطور فن الكاريكاتير فقال :

إن « الانتقاد مع التهكم » هو أول مفهوم للحرية وأولى خصائصها وقد أخذ منه
الكاريكاتور يتطور حتى صار الأسلوب المفضل للانتقاد والتهكم والتعبير . واستمد
حيوته من الصحافة وأندغم فيها فسمت فى سبيل القديح والانتشار، ظل يأتى الصحافة
حتى أصبح فنا قائما بذاته ولا شك أن الكاريكاتور سلاح فى يد الممارض سياسة كانت أو جماعة
ويتناول بالنقد مختلف النواحي الإجتماعية وبحيث يمكن التعرف إلى المجتمع فى مختلف
مجاذبه وفى كل فترة من الزمن .. وبالرغم من الرقابة عليه فإنه استطاع أن ينفذ إلى غاية فى غاطية
الشجب بالإيمان العنف والنمز اللطيف، وقوام الكاريكاتير التمييز بخطوط قليلة وبسيطة وبإيجاز
واقتراب لا عن هيئة المرء فحسب بل عن كامل شخصيته وعما يحويه على أن يبرز
ما فى هذه الشخصية من ناحية الطرفة وأن يضبط على ناحية الضعف فى خلقه ويحسم
أعرب ما فى الملامح .

X لا يشترط فيه الأمانة المؤرخ ولكن إعطاء خطوط تفصح عن المراد بإيجاز
وقوة، وقد سار الكاريكاتير فى طريق طويل مدى مئتي سنة ومر بتطورات كثيرة
حتى بلغ هذه المستعبدة المنتجة وهذا الإيجاز الرائع، وكان كاريكاتور العصر الماضى مغفلا
بجيوت تشابك وتمازج ولأول مرة فى مجلة « الاستراسبون » (الفرنسية)
وكاريكاتيرها، بدأ الكاريكاتير ففامستقلانته على الزمن، ففى فرنسا برز أمثال: سيبب وإفل
وضورد وويد ومونيه وجاك ، لكل واحد مدرسته فى الفن الكاريكاتيرى ومدرسته

في الفن والإبداع وخلق الجو واستثارة العاطفة . ولا شيء يسو على تقدم أو يتراجع من
تهكمهم . تهكم قوامه « النمز اللبق - الإشارة البعيدة ، الوحي - السذاجة التي تخفى
وخزاهداما » لكل واحد أنموذجه المفضل يعود إليه ويبرزه في شتى المناسبات والأوضاع
ولسلك شعب أسلوبه في هذا الباب . فالسكاريكاتير الإنجليزى (لو) وقد أرخ الجمع
الإنسكازى بنرائب أطواره السياسية والإنجليزىة بمميزاتا الميرة في براعة وذوق فائض .

أما السكاريكاتور الأمريكى فلا يمدوح مجرد الرسم المزلى . وقد دخل الفن السكاريكاتورى
الأمريكى الرسوم المتحركة Dessin Animé التي ابتدعها الفنان دسنى (دنى) إلى الرسوم المازلية
تداول المجتمع والسياسة والأحداث بنقد لطيف وهي ترى إلى إثارة المرح والسرور .

وبعد الحرب العالمية الماضية انتشر السكاريكاتير في الشرق وكانت قبل الحرب
جريدة (أبو نضارة) وجريدة الدبور في لبنان نشرت الفن السكاريكاتورى والنهار
في لبنان صحيفة يومية وارتقى الفن السكاريكاتورى متطوراً مع الصحافة .

ويرى العقاد أن الرسم السكاريكاتيرى من ناحيته العامة فن جميل يستحق المسكاة
الملائمة التي وصل إليها من أوروبا وأمريكا وغيرها من بلاد الحضارة . أما الرسم
السكاريكاتيرى في مصر خاصة فإنه فن حديث العهد إلى حد ما ولكنه بلغ درجة محمودة
من التقدم والإرتقاء وقال أن أحسن الصور السكاريكاتيرية التي نشرت لي ، هي صورة تمبر
فيها الطاف تنفير عن ناحية بعينها من نواحي شخصيتى أبدعتها ريشة الأستاذ سانس .
ونشرت في الإثنين منذ سنوات .

٥ - ويرى نقاد فن السكاريكاتير : أن أبرز معالم الفن هو :

× إبراز ناحية معينة من الشخصية .

× المبالغة في إبراز بعض الصفات المرسومة إلى المبالغة في تشويهها .

ولما كان ساروخان (روز اليوسف وآخر ساعة) وسانتس (السكشكول)
هما من أوائل رساي النقد الهزلي في الثلاثينات فقد جرت أبحاث حول كل منهما :
أما (ساروخان) فهو يعمد إلى دراسة الشخصية التي يزعم رسمها ويلم بعففات صاحبها
وعاداته، أما (سانتس) فهو يبحث عن النواحي المضحكة في الشخصية التي يتناولها
بريشته ، وعما خفي من نقط الضعف في روحها وعمله يوصف بالتخطيط الباسم ، وكشف
النواحي الهزلية للروح والمادة ، وامتزاج موهبة الفن في الرسم مع بلاغته في النقد والتعبير
مع فلسفته الساخرة .

وريشة ساروخان كما يقول تلميذه « رخاء » رغم شدة الذبح فيها ، خالية من الحقد وهو لم
يحاول قط أن يجامل شخصياته أو يلين في رسم فلاح خشن المظهر مثلاً فيحيطه بشيء
التنعم ، وهو يرحم عن عواطف الضعف في الشخصيات السياسية ، ووجوهه مليئة بالحياة ،
حافضة لأشبابها ، وهو يسجل جميع احساسات الروح بالظل والنور ، ويرسم ملامح
النباوة والضعف والدهاء والمكر مما يعجز عنه السكاتب بقله .

* * *

وقد ابتكر السكاريكاتير شخصية (المصري أفندي) : آخر ساعة ، (مجنون المصور)
المصور ، (مصر) قناة تمثل مصر ، (جحا) مجلة الفكاهة ، (مارس) إله الحرب عند
الإغريق ، (جون بول) بريطانيا ، المم سام (الولايات المتحدة) .
وقد حاول عبد القادر حمزة أن يثبت أن فن السكاريكاتير كان من إختراع الفنانين
المصريين القدماء على عهد الفراعنة ، وأنهم لم يقصروه على الفكاهة بل أرادوا به
ممانى سياسية واجتماعية .

ويرى (توفيق حبيب) في صحافة السكاريكاتير رأياً مخالفاً لرأى أنصارها يقول :
أن صحف السكاريكاتير قد حملت منذ اليوم الأول على نهش الأعراس ، وأن صحف خارة .

(م - ٢١ تطور الصحافة العربية للامامة)

مثنى ، والملاعة والشجاعة والسيف كان عمادها الطعن فى الأشخاص وأن (إبراهيم
الغزى) أصدر جريدة وأسمها (الهلال المثنى) للطعن فى منافساته من النسوة الساقطات .

سانس وصاروخان

توفى « سانس » فى ديسمبر ١٩٤٥ وقالت جريدة المصور عنه : أنه فنان من أعظم فناني
الكاريكاتور لا تزال رسومه الهزلية تزين صحائف أعداد المصور القديمة بضع سنوات ،
كان خلالها عميد رسامى دار الهلال ، ورغم أنه من أصل أسباني فهو من أقدر الرسامين
على فهم الروح المصرية ومجاراتها ، وكأنه مصرى صميم ، وله لوحات فنية غير هزلية ،
كما أنه له تماثيل عدة تتألف منها مجموعة ثمينة . وكان سانس قد أقام فى مصر أكثر من
ثلاثين عاما وعمل مدرسا فى الفنون الجميلة وعمل فى الكشكشول .

أما صاروخان فقد عمل فى مجلة آخر ساعة ١٥ عاما ، وفنه مشبع بروح النكتة
الملاذمة ، ومن أعمال صاروخان إهتمامه بمنق عبد الفتاح يحيى (أحد رؤساء الوزراء السابقين)
فقد سافر إلى الإسكندرية وكانت له مقابلة فى مصر فأبرق إلى السفير معتذرا ، ولكن
ريشة صاروخان رأت أن عبد الفتاح يحيى كان فى إسقاطه الحضور لمقابلة السفير
مستقيما بمنقه الطويل ، فيبحث برأيه من الإسكندرية إلى القاهرة متخطيا كبارى النيل
ومزلفانات السكة الحديد وحواجز المرور حتى تدخل غرفة السفير .

جريدة (هاهاها) (٨ مارس ١٩٠٧)

قدمها صاحبها فى العدد الأول : « صحيفة هزلية تصويرية أسبوعية » لصاحبها محمد مسموه
وحافظ عوض (وكم ذا بعصر من المضجعات ولسكنه ضحك كالكاكا) .
النرض من الجريدة : أن تصور الحوادث والأشخاص فى المسائل السياسية بصور يبق
لها تأثيرها فى النفوس ، وأن الصور تؤثر فى المجموع ، وتثبت فى العقل أو على شبكة اليمين
يختلفان للقلات فأنها تسمح الواحدة الأخرى ، ونفسى بمد قراءتها ، وبالاختصار نريد أن
نوجد شيئا جديداً فى الصحافة العربية هو « الرسم الهزلى السياسى » :

قال: والنرض من السكارى كاتير - على ما أعرف - التمكن من تصوير الناس على حقائقهم
عجرا، ستار الضحك والاستخفاف والمزحل، وقد صار في أوروبا فنا مهما، بل هو اليوم من
الفنون الجميلة التي لا يبيد فيها إلا النوابع، ونوابع النوابع الذين لا يوجد لهم في مصر مثيل،
وإذا كان في القراء من يحتاج إلى تفسير لهذه الصور فليس لمشلة تصدر هذه الجريدة، لأن النرض
من هذه الجرائد التلبس والتعمية والادغام والابهام وكل ما تشاء مما يدخل تحت كلمة
(الخدق، يفهم).

وقد أصدرت مجلة (هاهاها) عددا واحداً، ثم أصدر حافظ دوز (مجلة خيال
الظل) في الأسبوع الثاني ١٩٠٧/٣/١٥ ثم أعادها بعد الحرب العالمية الأولى في مواجهة
جريدة السكسكول حيث كانت تمثل وجهة نظر الوفد بينما كانت السكسكول تمثل وجهة
نظر خصومه.

صحافة الأدب والثقافة

يمكن أن يوصف بالصحافة الأدبية في هذه الفترة كل صحافة غير سياسية . فقد كانت الصحف اليومية متخصصة في شئون السياسة ، بينما مزجت المجلات الشهرية ونصف الشهرية والأسبوعية بين شئون السياسة ودراسات العمران والاقتصاد والتجارة وغيرهم . ثم بدأ تيار جديد في هذه الصحافة يدخل الأدب ضمن هذه الموضوعات ، وفي عام واحد ظهرت مجلتا « الجنان » في بيروت و « روضة المدارس » المصرية هذه العبارة تعريفاً بهدفها :

تعلم العلم واقراً نحمز نغار النبوة
فالله قال ليعصم خذ الكتاب بقوة

ومنذ ذلك التاريخ بدأ عهد يمكن أن يطلق عليه « فجر الصحافة الأدبية » يتمثل في كل صحافة غير سياسية . والواقع أن السكتاب في الثلاث الأخير من القرن التاسع عشر كانوا يفهمون الصحافة الأدبية على أنها الصحافة التي تأخذ من كل شيء بطرف . وأشار أغلبها في افتتاحيات أعدادها الأولى إلى تجنب البحث في السياسة والدين .

أما ما عدا ذلك من مباحثات الاجتماع أو الاقتصاد أو العلوم أو القانون أو الجغرافيا فهي داخلة في الصحافة الأدبية غير منفصلة عنها . وقد ظل هذا المفهوم سارياً خلال أربعين سنة تقريباً . ظهرت خلالها مجلات متخصصة في العلوم وحدها « كالفقطف » ومجلات متخصصة في الطب « كاليمسوب » و « الطبيب » ومجلات متخصصة في الهندسة . ثم تطورت بعض هذه المجلات وأدخلت الأدب ضمن دراستها كما فعل « الفقطف » بعد أكثر من عشر سنوات من صدوره . حتى لفظة (الآداب) عندما أطلقها الشيخ علي يوسف على مجلته لم تكن تعني الأدب وحده وإنما هيت مختلف مباحث الثقافة .

وفي خلال هذه الفترة كانت الصحف تمزج بين مباحث الأدب والعلم والتاريخ ومختلف الفنون الأخرى ، ولم تظهر صحف متخصصة في الأدب الخالص إلا في عام ١٩١٠ بظهور مجلة « الزهور » لأنطوان الجليل وأمين نقي الدين و « البيان » للشيخ عبد الرحمن البرقوقي سنة ١٩١١ . وقد غلب الطابع العلمى على المجلات غير السياسية حتى ليتمكن القول بأنه كان أبرز من الطابع الأدبى الخالص . كما كانت دراسات أحوال الوطن الإسلامى والعربى من أبرز موضوعات هذه المجلات ومن الصحافة الأدبية ذات الطابع الخاص : المجلات النسوية وقد صدرت أولاها « أنيس الجليس » عام ١٨٩٨ ثم صدرت « السيدات والرجال » عام ١٩٠٣ و « فتاة الشرق » عام ١٩٠٦ .

وهناك مجلات غلب عليها طابع الدين والثقافة الروحية « كالنار » و « المشرق » . وأهم المجلات الأدبية التى صدرت في هذه الفترة هى :

الجنان (بطرس البستاني) ١٨٧٠ - بيروت روضة المدارس (رفاعة الطمطاوى) ١٨٧٠
بيروت المقتطف (*) (يعقوب مروف وفارس القاهرة الأدب (على يوسف) ١٨٨٧
م (١٨٧٩

القاهرة : الأستاذ (عبدالله القديم) ١٨٩٢ القاهرة : الهلال (جرجى زيدان) ١٨٩٢
القاهرة : والبيان (إبراهيم اليازجى) ١٨٩٧ القاهرة : الضياء (إبراهيم اليازجى) ١٨٩٨
- القاهرة

بيروت : المشرق (لويس شيخو) ١٨٩٠ - اسكندرية : أنيس الجليس (اسكندره
أفرينو) ١٨٩٨

القاهرة : الوسوعات (أحمد حافظ عوض) ١٨٩٨ القاهرة : مصباح الشرق (إبراهيم الويلحى)
- ١٨٩٨

القاهرة : الجامعة (فرح أنطوان) ١٨٩٩ - القاهرة : المجلة المصرية (خليل مطران) ١٩٠٠

صدر المقتطف في بيروت ثم انتقل إلى القاهرة وصدرت الجامعة في القاهرة ثم انتقلت إلى نيويورك .

القاهرة : مجلة المجلات العربية (محمود حسيب) السيدات والرجال (روز انطوان) ١٩٠٣

١٩٠١ -

القاهرة : مجلة مركيس (سليم مركيس) ١٩٠٥ - القاهرة : فتاة الشرق (ليبيه هاثم) ١٩٠٦ -

المتنبي (محمد كرد علي) ١٩٠٦ لبنان : العرفان (أحمد عارف الزين) ١٩٠٩ -

القاهرة : الزهور (أنطوان الجليل وأمين تقي الدين) بندلوك : لغة العرب (انستاس مارى الكرملى)

١٩١١ -

١٩١٠ -

القاهرة : البيان (عبد الرحمن البرقوقي) ١٩١١ .

تطور الصحافة الأدبية

ويبدو صورة تطور الصحافة الأدبية واضحاً في هذه المجلات : ف « الجنان » مجلة سياسية علمية أدبية تاريخية ، شعارها « حب الوطن من الإيمان » ، على مؤسسها بطرس البستاني بأحوال العمران وتطور المجتمع في هذه الفترة ، وجعل للثقافة الأدبية والتاريخية جانباً واضحاً فيها . وفي العدد الأول (كانون الثاني ١٨٧٠) يتحدث عن بلاغة العرب ، وينشر أولى تجارب القصة له (قصة الهيام في جفان الشام) ثم يواصل دراساته في معنى بالتراجم ويكتب عن صيبويه وابن سينا والمتنبي ، وينشر دراسة عن اللغات (لويس صابونجي) وفي مجلة « الجنان » كتبت أول كاتبة عربية (مريانا مراش) في الصحف مقالها الأول (شامة الجنان) ثم اتبعتها بمقال (جنون القلم) وتضمنت الصفحة الأخيرة ملحاً وأشعاراً وحكماً ، وتناولت أبحاثها : الحرب والتمدن وحقوق النساء وفضل اللغة العربية .

وأبرز دور قامت به في هذه الفترة هو نشر الدعوة إلى « تحرير المرأة » بخطاب بطرس البستاني المشهور . وبها نشرت فصول الساجدة الأولى تقريباً في معارك الأدب العربي بين اليازجي والشدياق . وكانت تعمل رأى إبراهيم اليازجي حيث كان ينشر الشدياق رده في مجلته « الجوائب » . كما نشرت كثير من القصائد لفا صيف وإبراهيم اليازجي . أما « روضة المدارس » فقد صدرت بمبادرة : « تحت نظارة حضرة رفاة بك » ، ناظر في الترجمة . مباشر تحريرها : على فهمي رفاة . وكانت ذات طابع مدرسي الثقافة . فتمت .

بمشر فصول متعددة من التاريخ والجغرافيا والفنحو . وبها نشرت (المعامة الفكرية في المملكة الباطنية) ترجمة عبد الله فكرى ، و (قدماء الجرمانيين) لمحمد توفيق أحمد . كما عنت ببعث للؤلؤفات القدبة فأحيت (سياحة حسن الطيب البندادى إلى مصر) ، واهتمت بأبحاث متعددة عن (تخطيط الصحراء الكبرى) لآحمد نجيب ، ونبذة في الرسم لحسن والى ، والألحان والأغانى لمئان مدوح .

كما نشرت كتاب (قلائد الفاخر في غريب هوائد الأوائل والأواخر) ترجمة رفاة العلم طاوى ، وأبحاثا إجتماعية وفلسفية مثل (قدوة الفرع بأصله في حب الوطن وأهله) لملى فهمى رفاة ، و (توقف الجمعية على تماقب الأجيال البشرية) له أيضا ، (وكانوا يطلقون لفظة « الجمعية » على ما يعرف اليوم بالجمعية) .

أما « المتقطف » فقد بدأ على نحو على خالص . ولم تظهر الأبحاث الأدبية فيه إلا بعد عشر سنوات ، أى حوالى عام ١٨٨٥ ، حيث بدأ يكتب عن أصل الكتابة والألفاظ الأدبية والتمثيل العربى والخط العربى ، وأخذ منذ عام ١٩٠١ في نشر الشعر ونقد دواويله نقد دوان حافظ لأسعد داغر) و ترجمة الروايات فترجم رواية « أممية » عن الإنجليزية . أما « الللال » فقد كان طابعه في البحث التاريخى واضح الالة ، ولكنه عنى بنشر القصة عندما كتب جرجى زيدان (أرمانوسة المصرية) و (فتاة فسان) واهتم إلى جانب ذلك بدراسات التراجم وأبحاث اللغة والتعريب وتاريخ الأدب .

وعنى « الضياء » ثم « البيان » بالعلوم ، فقد كان الشيخ إبراهيم اليازجى عبدا للعلوم الملك والسكواكب ، فكان ذلك أبرز اهتمام مجلتيه . وكان أبرز أعماله في « الضياء » بحثه عن (لنة الجرائد) والعناية بالمطارحات ومرادفات الألفاظ . وكان فنه هو تحويل الأدب إلى علم ، فهو يتحدث عن القمر كشاعر ثم لا يلبث أن يتحدث عنه كعلم يقول :

« . . . إذا استقل في فلسكه بسميح فوق الوهاد والآكام ، ورأيت به بتراجع مع النجم وهو مجدّ في وجهته إلى الأمام ، فتخطى الأبراج وكأنه واقف لا عس له الناظرون انقلا ، مثال الزونق والجمال وآبه الأبهة والجلال . . . إذا برز من الأفق إنهمزمت في وجهه جيوش الظلام ، وانفجرت السكواكب لمره في عرض السماء . . . » .

ثم يقول « .. أما شكل القمر ، فالظاهر أنه كروي على الجلبة ، إلا أن الذى يستقبلنا منه إنما هو أحد منحنيه دون آخر . . . » . وقد تناولت مجلتاه (الضياء والبيان) دراسات فى التربة وأشعة رنتجن والقوى النفسية للاطفال والزجاج والطاعون والصائبة . ونشر شعرا لنجيب الحداد ، من ذلك قوله :

من بدور تسير فى المركبات	ومن القبعات فى هالات
ملسكتها أزاهر الصنع من	نبت الأيادى لا أيادى النبات
افرحوا بفاخر الثغر فى الحسن	وورد يفاخر الوجنسات

وكتب فيها شكيب أرسلان واحمد زكى الملقب من بعد بشيخ العروبة .

وكانت « الجلبة المصرية » لخلايل مطران فى أوائل القرن علامة على لون جديد من الأدب ، ففيها نشر دعوته إلى وحدة القصيدة وأهم بالشعر ، وجمّل أبوابها مقسمة على مختلف الفنون : التاريخ ، الزراعة ، الاقتصاد النفس ، العلم ، تلخيص الكتب . وقال فى افتتاحيتها أنه يتجهب البحث فى الدين والسياسة ، وإن هدفه الأدبى هو اطراح ميتزل القول ومطروق المأى . ونشر فيها للسكاظمى ، وإبراهيم رمزى . ونشر شعرا للبارودى وقصائد لحفنى ناصف قاضى محكمة أسيوط ، كما قدم (المرأة الجديدة) لقاسم أمين ، وتعرّب الألياذة لسلطان البستانى ، وعنى بالسكنوز الدفينة من الكتب النادرة ، وقدم دراسات عنها ونشر طائفة من المؤلفات المترجمة كراوية (بين نارين) لجورج مطران ، وقد وصفه بأنه (شقيق وميمى فى إنشاء الجلبة) ، وزهرة الشاى (قصة صينية) مترجمة لحمد مسمود .

وكانت مجلة « الزهور » (١٩١٠) قمة هذا التطور ، فقد أصدرها أنطوان الجليل وأمين تقي الدين فى أول مارس ١٩٠٠ فكانت « صلة تمارف بين كتاب العرب فى كل الأنظار ، وذلك بنشر ما تجود به قرائهم الواعدة من النفثات الرائمة . وأعلننا أن عدداً من الكتاب

سيشاركون في تحرير المجلة ، وقد كانت مجلة أدبية خالصة لأول مرة في تاريخ الصحافة الأدبية ، لم تشغل بنير فنون الأدب — وقد قسمت المجلة إلى أبواب : رياض الشعر ، جفائن العرب ، حدائق الغرب ، أشواك وأرهار ، حديقة الأخبار ، الروايات . واستطاعت فعلا أن تجمع الأدباء والكتاب من مصر والشام وبنفاد وتونس وطرابلس الغرب والجزائر وأمريكا (المهجر) وقد غلب عليها الاهتمام بالشعر . وكتب فيها شوق والكشاف ومحرم ونسيم وإسماعيل صبري وأمين الريحاني وحافظ إبراهيم وحفي ناصف وخلييل مطران وداود بركات وشبلى شميل وفليكس فارس وعبد القادر النورى ومحمد كرد على ومحمد مسمود ومحمد السباعي والمنفلوطي وحليم دموس . وكتب فيها أنطون الجميل بتوقيع (حاسد) وعرض بالفقد لعائمة من المؤلفات كـ « النظرات » للمنفلوطي و « الريحانيات » للريحاني و « تاريخ الأدب » لحفي ناصف الذي أصبح (وكيلًا لمحكمة طنطا) و « الجاذبية وتعليها » للزهاوى . ونشر أبحاثا من نهضة الأدب في الشام وفي العراق ، وترجمات لشبلى شميل . وكتب فيها جبران من باريس . أما « البيان » فقد عني صاحبها (عبد الرحمن الترفوق) بالترجمة من اللغات العالمية . وكان أبرز كتابها العقاد والمازني ومحمد السباعي ولطفي جمعة وعباس حافظ . وقد ترجموا كثيرا من الآثار الأدبية عن اللغة الإنجليزية . وكان دور « البيان » هاما في مرحلة الترجمة . فقد جمعت إلى رصانة الأسلوب العربي جودة المترجمات . ومن أبرز الكتب التي ترجمتها « الأبطال » لسكارليل ، و « الواجب » لجول سيمون و « الأكاذيب المقررة في المدينة الحاضرة » لماكس نورده ، و « أميل القرن التاسع عشر » لروسو ، و « رباعيات الخيام » و « اعترافات موسيه » ، وترجمات عن ولیم هازلت وتشارلس دكنز ، كانشر فيها عبد الرحمن شكري وسلامة موسى ومحمد عبده . ونشرت « مذكرات إبليس » للعقاد ، وأبحاثا عن ابن الروي المازني ودراسة عن ابن زيدون لأحمد زكي (باشا) ومقالات للرافعي عن اللغة العربية في الرد على لطفي السيد . وكتب فيها الدكتور هيكل وصادق عنبر وحسن القاياتي . وفي هذه المرحلة ظهرت مجلة « لنة العرب » للأب استاس ماري الكرملي وهي (مجلة متخصصة في أبحاث اللغة مع العناية بالتاريخ وتحقيقاته) .

وتعد نهاية هذه المرحلة في أوائل الحرب العالمية الأولى علامة بدء مرحلة جديدة بتخصص عدد من المجلات لأبحاث الأدب منها مجلة «الصدور» التي صدرت خلال الحرب العالمية وكتب فيها منصور فهمي ومصطفى وعلى عبد الرازق وأحمد زكي والزيات وهيكمل وطه حسين وما يذكر أن أربعا فقط من هذه المجلات هي التي استطاعت أن تستمر في الصدور من بعد هي : المقتطف والمجلد والعرفان والشرق ، وقد احتجبت «المقتطف» و «الشرق» وبقيت مجلتا «المجلد» و «العرفان» تصدران إلى يومنا هذا ، الأولى في القاهرة والثانية في سيداء لبنان .

أما أبرز المجلات الأدبية والثقافية التي صدرت فيما بين الحربين^(١) :

- (١) السياسة الأسبوعية : هيكل ، المازني عنان ، طه حسين .
- (٢) البلاغ الأسبوعي : العقاد ، لطفي جمعة ، زكي مبارك .
- (٣) الرسالة : الزيات ، العقاد ، الزاقي ، طه حسين .
- (٤) المجلد : أمير بقطر ، إبراهيم المصري ، العقاد ، هيكل .
- (٥) المقتطف : فؤاد صروف ، الزاقي .
- (٦) الشرق : لويس شيخو .
- (٧) المنار : رشيد رضا ، شكيب أرسلان ، وغيره .
- (٨) المصور : إسماعيل مظهر .
- (٩) المحلة الجديدة : سلامة موسى .
- (١٠) الفتح : محب الدين الخطيب .
- (١١) الزهراء : » » .
- (١٢) الثقافة : أحمد أمين ، زكي نجيب محمود ، فريد أبو حديد .
- (١٣) الصفحات الأدبية الأسبوعية في : البلاغ ، كوكب الشرق ، الأهرام ، الجهاد ، الوادي .

(١) تناولنا دراسة هذه الصحف وكتابها في كتابنا (الفن العربي للعامة) . وقد أصدر الدكتور محمود فياض دراستين عن الصحافة الأدبية من أوائلها إلى أوائل الحرب العالمية الثانية .

الكتاب والمصاحفون

دخل مجال الصحافة بعدد كبير من الكتاب والمصنفين والمصاحفين ، وقد استعملت الاصطلاحات الثلاثة في التفرقة بين أصحاب الأديان من كتاب الصحف ، وبين الصحفيين للتخصص في صياغة الخبر ، وبين الكتاب غير المحترفين الذين أماني عليهم الدكتور محمد مزي لقب للمصاحفين . وكثيراً ما جمع العاملون في الصحافة في هذه الفترة بين عمل الكتاب وبين عمل الصحفيين ، فكانوا ينفون أحطال الخاصة ويمرزون السابق في مجال الخبر ، وفي نفس الوقت كانوا يكتبون النصوص والتعليقات ، وهذا وقد جمع مقام كتاب الصحف ، بين الكتابة في مجال السياسة وفي مجال الأدب ، فكانوا صحفيين وأدباء في نفس الوقت . وقد كان لقال الروائي والعمياني هو أبرز مادة الصحافة فيما قبل الحرب الأولى بينما أصبح الخبر موضع الاهتمام في فترة ما بين الحربين .

- ١ -

مرحلة ما قبل الحرب الأولى

(ميخائيل عبد السيد) : وصف سلامة موسى ميخائيل عبد السيد صاحب جريدة الوطن فقال : تعلم العربية في الأزهر وظل طوال مدة تعلمه متخفياً يتظاهر بالإسلام إلى أن عرف أنه مسيحي فأخرج . . أفاده الأزهر وأخبره ممأ ، أفاده بأن جملة يقرأ ويكتب بالعربية بأحسن ما يمكن أن يصل إليه مسيحي في ذلك الوقت ، وأخبره فكان لذلك يتمصب المسيحية ، بل إن ميخائيل كان ينز بالتمصب وقد ألف كتابه الهداية لذلك ، وما يمكن أن أخذه وأهداه إلى اليازجي صاحب مجلة الضياء فلما خرج أشعل اليازجي ثقاباً وحرقه ترفماً عن قراءة الشاب والطاعن في الإسلام .

(محمد يريم) : أقام محمد يريم الخامس في مصر بعد جولات طويلة بين تونس والعالم العربي وأوروبا وصل إليها ١٨٨٤ وأنشأ جريدة الأعلام وكانت له خطة في عاصمة الانجليز والاستفادة منهم وقد انتقد عليه بعضهم ذلك، لأنه يخالف الخطة التي كان عليها في تونس ، وأنه إغاءجرها فراراً من الحكم الأجنبي فكيف يكلف المصريين عكس ذلك (الهلل م ١٦) .

(حمزة فتح الله) : صاحب جريدة البرهان ، قال عنها محمود عزى أنها كانت صحيفة السراى ، وأن حمزه كان يقول عن الشورى « لا يجب العمل بها ولكن يصح الأخذ بها » .

(سليم عنحورى) : كان واحداً من أولياء جمال الدين الأفغانى ، ثم أصبح من أولياء الحكومة التي جاءت بعد ثورة ١٨٨٢ ونظم قصيدة في مدح بريطانيا .

(أدب اسحق) : كان من أنصار جمال الدين ثم اختلف مع رياض بلخا فخرج من مصر وهاججه في باريس ، وكان بناصر الحرية وهاجم الاستعمار ولكن كان يمدى أنجلترا ويناصر فرنسا ويرى أن استعمار فرنسا حلال واستعمار بريطانيا هو وحده الحرام ، أعيد إلى مصر وأعطى درجة ونيشان وملكه هزير مصر المرتبة الثانية فوجد الخديو والمهد البريطاني .

(أمين الحداد) : محرر مجلة أنيس المجلس التي كانت تصدرها (اسكندرا افريفو)

(إبراهيم اللقاني) : وصفه السيد رشيد رضا بأنه أرق تلاميذ السيد جمال الدين بعد الأستاذ الامام .

كانت له الغلات الرائعة والمطرب النافمة ولكن الأمراض حالت بينه وبين الإصلاح حتى وافاه الأجل .

(أحمد حلمي) : حرر في جريدة اللواء أول عهدا، وظهر بنوعه في تدوين أخبار قضية دنشواي ، عمل مع عبد العزيز جاويز وأمين الرافعي وسادق عنبر وعلى الناياني وإبراهيم رمزي وعبدالرحمن الرافعي وسني اللقاني ، وكان مصطفى كامل يبعث إليه من باريس برسائله بوصفه نائبا عنه في تحرير اللواء ، وقد حوكم أحمد حلمي في قضية الطعن على الخديو ، بأن نقل إلى جريدة القطر للمصري يوم عيد الجلوس (يناير ١٩٠٩) مقالا نشرته جريدة المدل .
(حسن حسني الطويراني) : صاحب جريدة (النيل) شاعرا ، بدأ حياته بالتأليف والتصنيف ، عمل في الصحافة في القسطنطينية بين عربية وتركية . وبرع في الكتابة باللغتين ، عاد سنة ١٨٩٠ إلى مصر مستأنفا عمله في الصحافة ، وفي القسطنطينية حرر جريدة الاعتدال والسلام وكتب عدداً من المؤلفات منها (صولة القلم في دولة الحكم) وبحث مسائل ضعف المسلمين في كتابه (التصحيح العام في لوازم عالم الإسلام) وله كتاب الصدع والانتقام في أسباب انحطاط وأرتقاء الإسلام ، هاجم إبراهيم اليازجي في قصائده في هجاء الترك . أصدر في مصر جريدة النيل (١٨٩١) والشمس والزراعة ١٨٩٤ والمعارف . وكان يفخر بأجداده الأتراك ويتمصب لهم على العرب . وقد أفسح صدر النيل للسكانية العربية زينب فواز وله معها مساجلات ، قال عنه أمام العيد : أن حياة حسن حسني الطويراني ضاقت في وجهه وسم الحياة وكان يرى نفسه في المرآة خيالا ، وما زالت حالة كذلك حتى جاد بنفسه والله يعلم أن مكانه الرجل من العقل مكانه من العقل .

(الشيخ الشربل) : عمل في الصحافة زهاء ربع قرن أو أكثر وأشرف على أكثر من عشر صحف يومية وأسبوعية وكان مقره في قهوة العلم في باب الخلق : جمع كتاب مصر وصحفيها ..

يحمل تحت أبطه عمرته الدعاسية وأورلق تحريره وأفلامه، ويجلس في انتظار أصحاب الصحف الذين كان أغلبهم من الأميين . يقول لطالب المقال : هل تريد من النوع المادى ، أم المتوسط أم الفاخر ، الأول من نوع أسلوب المؤيد واللاواء وهذا نحن تحريره خمسة قروش ، للصحيفة الواحدة ، والثانى من أسلوب محمد عبده وتوفيق البكرى ، بدشرة قروش للصحيفة ، والثالث (الفاخر) من نوع كتابات ابن المقفع ، والجاحظ ، وبديع الزمان ، خمسة عشر قرشاً للصحيفة - كتب مائة مقال تحت عنوان (السرطان السيامى) فى إحدى الصحف اليومية ، كان يتحدث فيها عن مجاهل أفريقيا وعادات أهلها وعن الهنود الحمر، وشذوذ طبائهم ، وكان يلقى الحوادث ويرتب وقائعها ترتيباً قصصياً .

(يوسف الخازن) : وصفت جريدته « الأخبار » بأنها جريدة لا مبدأ لها ولا سكتها تحافظ على صداقتها للاحتلال وعداوتها للدولة العلية .

وقالت جريدة الكشف : وهى تنمى يوسف الخازن (آيار ١٩٤٤) لم تسكن جريدة الأخبار مع الأسف تسار الحركة الوطنية المصرية بل كانت تقاومها مقاومة جريئة وتسار الأغراض الأجنبية، فكان المصريون يكرهون الأخبار ويسمونها (الجريدة الصفراء)، وقد أصدر يوسف الخازن جريدة الأخبار بالاشتراك مع داود بركات الذى تركها ١٨٩٩ واستقل بالأهرام ، ثم توقفت الأخبار وكتب يوسف الخازن فى الجوائب والراوى واشتمل فى المقطم ، ثم أعاد الأخبار سنة ١٩٠٧ وقد عرفت مقالته الماكرة اللثيمة فى مختلف المواقف الوطنية وخاصة عندما هاجم مرابى بعد عودته من منفاه .

يقول صاحب هامش الأهرام : لم يكن بمالى الوطنيين وكثيراً ما كان ينفذ مسلكهم، كتب جورج طفوس يوماً عن لازمات السكتاب ، فقال أما «لازمة الخازن» فهى «أما سعد باشا» وقال إن الخازن سافر إلى باريس حتى أواخر ١٩١٩ وعاد إلى بيروت

وفي سبتمبر ١٩١٩ تولى عبد الحميد حمدى تحرير الأخبار ، ولما كانت السلطة مانعة إصدار صحف فقد ابتاع أمين الرافى رخصة الأخبار بمبلغ ٨٠٠ جنيه في أوائل عام ١٩٢٠ وراجت رواجاً كبيراً . (خليل مطران) : عمل في جريدة الأهرام ومكث بها بضع سنوات ، وهو الذى أقدم لها داود بركات الذى أصبح من بعد رئيساً لتحريرها . أكثر من أربعين سنة ، يقول : أصبح مرتبى فيها لا يكفى لإعالة عائلتي ، اضطررت أن أهرج اشتغالى بالأهرام ومارست التجارة وأسدرت إلى جانبها المجلة المصرية . ونشرت بها معظم ما نظمت إسماعيل صبرى ، وقد مكثت هذه المجلة تسع سنوات ، وكانت طريقة التوزيع عسيرة لأنها تقوم على الاشتراكات ، وقد ذهب الحصيل مرة إلى صديق من أعز أصدقائى للحصول الاشتراك فقال صديقى للمحصل : هل هذا عن عيش ، فألتفتي جدا هذه الكلمة وأغلقت المجلة ، وهجرت الصحافة واشتغلت بالتجارة ، ثم عدت إلى إصدار الجوائب المصرية خمس سنوات ثم انصرفت عنها .

(نقولا الحداد) : وصفته مجلة اللطائف فقالت : في ١٩١٨ ، كان في العقد الرابع من عمره . ويقيم في حاصمة القطر وله سيدلية باسمه في شارع شبرا . تلقى علومه في كليتي صيدا وبيروت شغف منذ صغره بالتحرير والكتابة . مضى عليه في عالم التحرير نيف وعشرون سنة لم تخل جريده أو مجلة عربية من كتاباته ، لم يترك موضوعاً إلا طرقة ، معرفته باللغة الانجليزية معرفة جيدة وأسفاره إلى أوروبا وأمريكا متصلة ، وله رواياته الفكاهة ، وأبحاثه الاجتماعية - اشتمل في الصحافة فكان محرر جريدة الرائد المصرى ، المحروسة ، جريدة الأهرام ، الجامعة ، جريدة الجامعة في نيويورك - مال منذ اثني عشر عاماً إلى تأليف الرواية وتصنيفها وتعريبها فلم تسكد تصدر أول رواية له (عين بعين) حتى تفاولها الجمهور برغبة وإهتمام ، أشهر رواياته : الحقيبة الزرقاء ، حواء الجديدة ، الصديق المجهول - بضم نصب عينه في رواياته شيئاً ملموماً لا يتمناه ، فإذا أراد أن تكون رواياته مسلية فكاهية كان ذلك ، وإذا أراد أن يكون منمزي اجتماعى أو اقتصادى أو أخلاقى كان له ذلك أيضاً ، كما يدرك ذلك كل من تقرأ رواياته الكبيرة وهو يكيف كتاباته تكييفاً يوافق الأحوال . وله مؤلفاته كثيرة في أبحاث عمرائية واجتماعية تدل على سلطة كلام مداوك فلسفة عقلية في المقام الأول بين الكتاب والملاء والأدباء وله شغف بنظم الشعر كلما دعا .

٢ - مرحلة ما بين الحربين

(داود بركات) : قال : كان ذلك حوالى عام ١٨٩٣ حين رأى عزيز الرند صاحب المحروسة أنى أجيد الكتابة فبعث إلى وعرض على التحرير فقبلت . كانت الصحافة حزبية فى ذلك العهد . كانت المحروسة والأهرام تدافعان عن مصالح الوطن وتقولان بأن تركيا هى صياحية الحق فى مصر ، ويستندان إلى تأييد فرنسا وروسيا فى مكافحة الإنجليز وكان ، (القطم ومصر) يؤيدان إنجلترا . وكان الحزب الخديويى الصحف الوطنية . وكانت من الجرائد المسموعة فى ذلك الوقت جريدة القاهرة (أسبوعية) والسلام لصاحبها طليات ولسان العرب للشيخ بحيث الحداد من الجرائد اليومية ، وكلها لاتزيد عن أربع صفحات وبالنسبة للثورة المرافية : كان حزب الخديو يعتقد أن المرافيين خونه ، ولكن الشباب كانوا يعتقدون أنها حركة وطنية رائدها الاخلاص ، فى سنة ١٨٩٦ اتفقت مع الشيخ يوسف الخازن على إصدار جريدة يومية ونجحنا فى ذلك نجاحا لم تكن نتظروه ، إذ كان عندنا أنى مشترك وكنا نبيع فى اليوم ٨٠٠ نسخة وكان ذلك عدداً عظيماً فى ذلك الوقت كانت الصحافة (إذ ذاك) قليلة الانتشار ، كان المؤيد فى أحسن أيامه لم يكن يطبع أكثر من ٨ آلاف نسخة وطبعت الصحف يوم وفاة مصطفى كامل ٤٠ ألف سنة ١٩٠٠ ويوم وفاة سعد زغلول ١٢٠ ألف .

(عبد القادر حمزة) : سور عبد القادر حمزة إرتباطه بالصحافة فقال : فى ١٩٠٩ اشتغلت فى الجريدة نحو عام ثم تآلفت شركة لإصدار الأهالى فانتخبت رئيسا لتحريرها وبقيت على

ذلك إلى سنة ١٩١٩ ، ثم أدت (الأهالى) لحسابي ، ونقلها إلى القاهرة ، وفي ١٩٢١ عطلت الحكومة الجرائد المنتهية للوفد ، كتبت أحرر الأهالى للدفاع القضية الوطنية مستقلا عن الوفد . أرسل سعد باشا) حافظ عوض ليعرف رأيي فيها إذا كنت أناصر الوفد أم لا ، أخذت الحكومة تجاربي فلما عطلت الأهالى ٨ نوفمبر ١٩٢١ ، أصدرت المحروسة . التي عطلت من بعد فأعدت إصدار الأهالى فمطلت في مارس ١٩٢٣ واعتقلت في قصر النيل .

(عباس العقاد) : لما توقف الدستور (الجريدة) دعاني حافظ عوض للعمل في المؤبد ، في ظل الحرب العالمية تركت الصحافة ، كتبت في الأهالى بعد الحرب . كانت الأهالى تناصر الوفد فاشتغلت بالتحرير فيها ، ثم انتقلت إلى جريدة الأهرام وكانت تناصر الحركة الوطنية . وكتبت في الأفكار ، البلاغ ، كوكب الشرق . ويقول العقاد : لم يسبق لسعد باشا أن أملى على خطة معينة لأنبها في كتاباتي السياسية ، بل كتبت دائما كما أنا الآن استوحى رأيي من عقيدتي السياسية وفكرتي الوطنية .

(ابراهيم عبد القادر المازني) : صور المازني علاقته بالصحافة فقال : لما قامت الحركة الوطنية هجرت الإشتغال بالتعليم وانتمرت في هذه الحركة ، وكان أمين الرافعي يعمل لإصدار الأخبار ، وقد طلب في أن أعمل معه في هذه الجريدة ، وفي الفترة التي كان يستعد أمين لإصدار الأخبار سافرت في رياضة إلى الإسكندرية فطلب مني صاحب جريدة وادى العمل أن أترجم له التلغرافات الخارجية فاجبت طلبه وكتبت إلى جانب ذلك أحرر بعض المقالات الخاصة بالقضية المصرية فارتاح صاحب وادى الليل إلى تلك المقالات .

وكان أمين الرافعي ما زال يستمد ، فاشتغلت بجريدة النظام وفي خلال اشتغالي طلب مني عبد القادر حمزة أن أرسل له ببعض المقالات لنشرها في الأهالى فسكنت أقوم بها العمل أيضا إلى أن تم الإستعداد لإصدار جريدة الأخبار .

(أحمد وفيق) : وصفه فكري أباطة فقال : في كتاباته ضحية المبدأ ، إرتفعت لفته (م — ٧٧ تطور الصحافة العربية للماصرة)

نخاة في السامين الآخرين لدرجة أنها يجب أن تهبط ، عندما يبدأ يقدم لك آية من آيات
البلاغة ، وعندما يثور يقذف عليك ما يقذفه بركان فيزوف ، اعتقد اعتقاداً راسخاً أنه أعلم
المصريين بتطورات وتاريخ القصة المصرية .

(عبدالله حسين) : يمد من أبرز كتاب الأهرام في فترة ما بين الحربين ، وقد صور سلته
بالصحافة فقال : إنني مقفوع من أسرة صحافة منذ إنشاء جريدتنا اليومية الكبرى « المؤيد »
التي كان يصدرها قبل الحرب السيد علي يوسف ، وكان والدي من أكبر معاونيه
في إنشائها إذ كان ابن خالته . كانت نشأتنا الأولى في دار المؤيد . عندما كان بشارع
محمد علي ، ومنذ أن وقعت عيني على نور الدنيا شهدت في اللحظة نفسها جريدة (المؤيد)
والجرائد الأخرى التي كانت ترد إليها . وعندما جادت الحرب الكبرى وكفت أدرس
الحقوق في السنة الأولى شجعتني الميل إلى هذه الحركة بالكتابة في الصحف واختصمت جريدتي
المقطم والأهرام بالكتابة .

× لا أرى في الصحافة إلا أنها ميدان للدفاع عن الحقوق الوطنية ، ولذلك ترى كتاباتي
مشبعة دائماً بهذه الروح وهي أكثر وأبعد من أن تشوبها الروح الصحافة التجارية الظاهرة
في أفلام الكثيرين من الذين يعيشون في الصحافة . وتضطرم الظروف إلى التنقل
من الصحف بنير رعاية المبادئ التي تروجها . وقد وجدت في جريدة الأهرام وسطاً
كرباً وتشجيعاً كثيراً ، أن عملي في الصحافة قد دعت إليه رغبتي في الدفاع عن المبادئ الوطنية
وفي اليوم الذي أرى في الصحافة متمارضة مع مبادئ فإني أعتزلها وأكون خصماً لها .

× الصحفي المختبر هو محني للمستقبل ذلك لأن المقالات تهبط قيمتها في نظر القراء طالما يمد
عام وهم يؤثرون معرفة آخر الأخبار وأصدق الحوادث .

(الدكتور محمد أبو طايه) : اشتغل في الصحافة عشر سنوات ١٩٢٠ - ١٩٣٠
وكتب في افتتاحات كوكب الشرق والبلاغ وحرر في مجلات دار الهلال وخيال الظل

حوالكشاف والوطن والاطائف والمصور وكل شيء والفكاهة وكان يوقع «ابونظارة».

(جورج طنوس) : كان وكيلا لتعلم الرقابة الصحفية في مصر في أثناء الحرب الأولى ، أصدر جريدة المنبر سنة ١٩٢٠ ، مؤلف كتاب بفضلة العرب باللغة الإنجليزية ، سافر في لبنان وتعلم في كلية فستوريا بالإسكندرية وأتم علومه في كبردج ، وتزوج إحدى كريمات فارس نمر ، وصف بأنه كاتب متقن يكتب بأساليب مختلفة دون أن يشعر القارىء أن صاحب هذه الأقلام المختلفة شخص واحد ، عمل في تحرير كوكب الشرق ١٩٢٨ توفى (يونيو ١٩٤٢) .

(نجيب هاشم) : عمل في الأهرام منذ ١٨٨٩ ، ثم عمل في المؤيد ، واشتغل في المقطم ومصر والوطن والإكبريس والجريدة والأخبار (مع يوسف الخازن) ثم البلاغ . تألم مايدكو رواية خبر الإنفاق الإنكليزي الفرنسي ١٩٠٤ ، وكان عمله في جريدة الأخبار التطبيق على الأحوال الحاضرة كما كان يختصا بترجمة تقرير اللورد كرومر في المقطم . (توفى يوليو ١٩٣٤)

(ميرة ثابت) : برز اسمها في أوائل سنى الثورة الوطنية ، وكانت تتقن اللغة الفرنسية . وقد أصدرت جريدة لسبوار اليومية بالفرنسية فكان هذا أول حادث من نوعه ، أصبحت الصحيفة لسان حال الوفد ، ثم أصدرت جريدة الأمل الأسبوعية بالعربية ، وكانت تطالب بحق المرأة المصرية في الانتخاب وعضوية المجالس النيابية وتعديل شروط الزواج والطلاق لحفظ حقوق المرأة والحد من تعدد الزوجات ومساواة المرأة والرجل في الحقوق السياسية والاجتماعية بوجه عام ، وقد حملت لواء الدعوة إلى انشاء نقابة الصحفيين ، وتزوجت عبد القادر حمزة .

وصف فكرى أباطة أسلوبها سنة ١٩٢٦ فقال : أسلوبها فيه روح - وفيه حياة ، يشعرك أنه أسلوب جديد وإن كان لم يبلغ بعد درجة التكوين الكامل ، متدفعة للدرجة

القصوى، وهي تعتمد في ذلك على أنها أنسة، ومن الجنس اللطيف، جريئة... فلننظر إلى مستقبلها بعيد اليقظة.

(سيد علي) صاحب جريدة النظام : رسم لطف الجمعة (أكتوبر ١٩٣٢) صورة وصفيّة للمصطفى سيد علي : كان سيد علي صديق وشريك في تحرير جريدة اللواء أيام الرحوم مصطفى كامل . ليس على قيد الحياة الآن من هذه الثمة سوى أحمد حلمي وأمين عمر الذي كان يكتب مقالات فكاهة بتوقيع «أبو حفص»، أما البقية فقد امتدت إليها يدى الردى في مدى ثلاثين عاما . كان محرراً مختصا بالترجمة من الفرنسية إلى العربية كما كان عثمان صبرى مختصا بالترجمة إلى اللغة الإنجليزية وى حياة سيد علي ثلاثة فترات : (١) عهد اللواء .

(٢) بعد وفاة مصطفى كامل وعهد تحرير مصر الفتاة وتأسيس النظام والأفكار .
(٣) عهد الانقطاع عن العمل .

وكان في الفترة الأولى مترجما ينقل ما يراه الباشا (أى مصطفى كامل) جديرا بالترجمة أو ما يماره هو بعد مطالعة صحف البريد الفرنسى وكان قله سيالا، وأسلوبه فوق المادى وكان مصطفى كامل شديد التمسك بالبسكور إلى حد «الموس»، وكان نهض من نومه حوالى الفجر ويبدأ العمل فى الساعة وكان أول وجه يلقاه وجه سيد علي طربوشه موهوج على جنب، وفى عروة سترته زهرة، كان صغيفيا فقط، لم ينضج لبدأ معين، وقد خدم الحزب الوطنى فى اللواء مصادفة، وكان عبأ مصطفى كامل، فلما مات مصطفى قساوت الأمور فى نظره، ولم ينضج رأيه مع خلفاء مصطفى فى قزان، فاختلف معهم وأسس جريدة مصر الفتاة وسار جنباً إلى جنب مع الجرائد الوطنية ونالت نصيباً

من الرواج سبباً أثناء المظاهرات الحادة التي حصلت في الجمعية التشريعية حول مد امتياز
قناة السويس .

انصل سيد علي ببعض رجال السياسة الأوربية وكانت الوكالة الإنجليزية
تخطب ود كل صحفي لبنى المربكة ، ولكن سيد علي كان قليل الإختلاط بهم ، اشترك
مع أبو المنين في جريدة الأفسكار ، بدأها في قبض المدة وانتقلت إلى حى عابدين
وفي ١٩١٦ اعتقل سيد ، ثم أفرج عنه بعد وفاة أبو العيدين ، اختار جريدة النظام وكان
قد أسسها محمد مسمود ، وكان سعد زغلول يدعو ويكلفه ببعض الأعمال الصحفية .
ثم انقطع عن الصحافة منذ ١٩٢٥ تقريبا وأتجه نحو الزراعة ، وكان يركب فرسا أسود
أسمها هزيرة وقد ألفا معاً جمعية الدفاع عن حقوق رجال الصحافة والأدب .

(الشيخ صالح روتر) : حاول أحد الصحفيين أن يرسم صورة له فقال : أنشأ شركة
أنباء تنقل كل ما تهفو إليه النفس من أسرار ومعلومات ، ولم يكن يحفظ إلا كلمة
أفريقية واحدة هي (رزي يدانس) : أى دار الحماية وكان يقولها في كل مناسبة وكل وقت .
ومهمة الشيخ روتر تتحضر في أنك تقول له نبأ ما ، فيطوف القهاوى بعد أن يضيف
إليه كل ما يتسع له خياله الخصب من رنوش ثم يعود إليك فيخبرك به على أنك
لا تعرفه ، فإذا جادلته في بعض النقاط صاح : سبحان الله : هذا خير من « بز أمه » .

(الدكتور سيد كامل) : وصفه زملائه بأنه كان صحفياً من الطراز الأول : عمل
في جريدة المؤيد ، وكان مندوباً له في قضية دنشواى ، أتم دراسة الحقوق ١٩٠٨ وسافر
إلى فرنسا وأكمل دراسته في السربون ، وظهر الأساتذة الفرنسيين بذكائه ، نال الدكتوراه
في الحقوق برسالة : « المسألة الشرقية ومصر في مؤتمر الآستانة » ، عمل بعد عودته رئيساً لتحرير
المؤيد بعد وفاة مؤسسه الشيخ علي يوسف ، رافق الحداد عباس في أوروبا خلال حنى الحرب ،

عاد إلى مصر سنة ١٩٢١ قاتلحق بتحرير جريدة الأخبار ثم عمل محرراً في جريدة السياسة ، ثم عمل مع طلت حرب في بنك مصر حتى توفي (يونية ١٩٣١) .

له جولات في وصف الحرب الروسية اليابانية ، كان يكتب بتوقيع (بيدبا) .

« توفيق حبيب » (صاحب عامود على الهامش) في الاهرام : بدأ يعمل في الصحافة ١٩٠٠ في جريدة الاهالي ، التقى في دار العلامة محمود أنيس في شبرا بكثير من أهل الادب والسياسة وفي مقدمتهم الشيخ عبده وأحمد زكي باشا ، أصدر جريدة اسمها « الشيطان » ثم التحق بجريدة مصر . اشترك مع جندي إبراهيم في شراء إمتياز جريدة الوطن من صاحبها ميخائيل عبدالسيد ، ثم أصدر الإكسبريس ، وعمل في الجريدة مع لطفى السيد . وفي الاخبار مع يوسف الخازن وفي الصور والكشكول والاتحاد ثم التحق بالاهرام . وفي عام ١٩٣٢ تسمى « الصحفي المجوز » وبدأ يكتب عاموده : « على الهامش » يقول : بلغت الصحافي أشكالا وألوانا ودرجات وطبقات مختلفة ولم أنل منها إلا السكافد ومع ذلك لا أزال أحبها وأعشقها .

(د . محمود عزى) : كتب عن نفسه في ٢٣ أبريل ١٩٣٧ (الصور) يقول اشغلت بالصحافة ١٨ سنة ، كنت مدرسا في مدرسة التجارة العليا إلى نوفمبر ١٩١٨ ثم بدأت على الصحفي بإصدار (المحروسة) ١٩١٩ حتى عطلتها السلطة العسكرية . فأصدرت (الانكار) إلى ١٩٢١ حتى عطلتها السلطة ، فأصدرت (الاستقلال) ١٩٢١ وساهمت في (السياسة) ١٩٢٢ حتى ١٩٢٨ وأصدرت مع توفيق دياب (وادي النيل) و (الشرق الجديد) ١٩٢٩ ، وجريدة اليوم ، ثم غادرت مصر ١٩٣٠ - ١٩٣٤ حيث عملت في مجلة الخديو السابق وعملت ١٩٣٤ فتعاونت مع توفيق دياب في إصدار (الجهاد) ثم رأت تحرير جريدة (روز اليوسف) اليومية ١٩٣٥ ثم أصدرت مجلة الشباب سنة ١٩٣٦ وكفت أول من كتب (المليونيرات) في الجهاد ١٩٣٤ ، إنني أول صحفي مصر أدخل كلمة « ثقافة » في متداول الألفاظ العربية .

وأول صحفى مصر حضر مؤتمرات دولة فى لوزان ١٩٢٢ وأول من أدخل بدعة البرلمانيات والتعليق على الحوادث البرلمانية بصراحة وجرأة كبيرة، وأول من سن نظام المقالة فى عامود واحد فى جريدة الاستقلال . وقد تحدث محمود عزمى عن تطور الصحافة فى محاضرة له عام ١٩٤٦ فقال : انه أصدر الاستقلال سنة ١٩٢١ وكانت فى اتجاهها « مصرى وطنى » مختلفة فى التفاصيل مع سعد زعول ، وتعلل إلى عدلى . وكتب فيها طه حسين وهيكىل وعنان ، وقال بائع الصحف الصغير عنها انها (جورنال أنجليزى) . وكان باعة الصحف يذهبون بها إلى بيت الأمة ويقبضون الفلوس ، وقال أن جريدة الاهرام كتبت على صدرها بعد ثورة سنة ١٩١٩ : جريدة مصرية للمصريين) والصحيح (جريدة مصرية بالمصريين) .

وقال : كان الناس إذا شاهدوا « الهلباوى » يقولون : لبسقط عمامى دنشواى ، أو يقولوا : « أطلقنا الحمام » . وقال ان « سمودى » متمهد الصحف الوفدى ، تمخدى ثروت باشا عند ما أصدر الأحرار الدستوريين جريدة السياسة ، فأصر سمودى ألا توزع السياسة إلا بالسراقة حده ، وكان لثروت باسا بعض الاشراف على الفوزيع ، ولم تسقط السياسة أن ترى النور إلا بالاتصال بسمودى .

(فكرى أباطة) : يقول : كنت أحفظ أربعة آلاف بيت من بيوت الشعر المختار . ابن ذهب هذه الآلاف من المذكرة النبوية . وكنت أحفظ مقالات الحريرى كلها .

١٢ يولية ١٩٢٦ . فى تراس حمام سان استفانو جلست أجرعه الكازوزة جرجا يمد حمام مقرب كله حنة وعافية . وإذا شاب سمورى القند نجيل القوام يقرب منى ويحيينى قال : أنا أميل زبدان عدى فسكره فى إصدار مجلة مصورة ويسرنى أن تماوننا .

لم أكن أفهم مطلقا إلا أن أكتب وأفرح بطبع ما أكتب ونشره ، وكنت أكتب

الأهرام سبعة أعوام (١٩١٩) واصبت نجاحا بلا شك ، وفي ذات يوم من الأيام استدعاني جبرائيل تفلو وقال لي بلمحة رقيقة : أنه جرت المادة في أوروبا أن يقبض الكتاب المشهورون حقهم من الكتابة ، فلا بد أن تحدد لك أجرا وثرت يومها ثورة .. شمرت كأن لكمة مستشرى وحررت كرامتي ، وكلما ازداد دهشة من ثورتى ازدادت غضبا وخفقا . كنت كاتبا (بكرا) وظففت أن الفلوس تخرج « غدريتي » وأخذت أصيح في دار الأهرام : أنا محترف . أنا حزب وطني . أنا أكتب للبلد لا لحيبي ..

وكتب المقالات الأولى في الأسابيع الأولى من الثوارين حيث كنت أقيم ، وإذا بشيك ظريف يتهاوى إلى بالبوسنة فأقلبه مندهشا ، ولكن رقه العالي يحمي ثورتى ويهدى أعصابى ونحدرنى تحديرا فاقبضه وأنا سامت وأظلم أقبض - بصمت - من ١٩١٦ إلى اليوم ١٩١٨ . وكان فسكى أباطة أول من مزج بين حرص الفقيه القانونى للتسلح دائما بالنطق والقانون والأدلة والحيثيات وبين الأسلوب الصحفى الناعم القوى أو السهل الممتنع .

(محمد الممياوى) : تمرد على الأزهر في وقت مبكر . المنشئ . لأكثر دعايات السكشكول في الفترة التي وقع الخلاف فيها بين الحزب الوطنى والوفد ، كان أخطر من دافع عن الحزب الوطنى . قام مشروع ملتر في جريدة الأمة ، شاعر وكاتب . وله قصائد هزلية نشرها في السكشكول بمضاء « الشاعر إياه » ، له كتاب « الطبع في الشعر » وله كتاب اسمه (مصر في ثلثي قرن) . وعندما رفعت بريطانيا الحماية وقالت (الكلمة الآن لمصر) كتب تقول (الكلمة لمصر ولكن ليس لمصر أن تتكلم) أول كتاب نشره : الفرائد : مجموعة ما كتب في مطلع صباه . قبيل أن سمع زغلول كان ينتظر كتابه في السكشكول كل أسبوع .

توقيعات الصحفيين

- (١) ع.م. - الأهرام: عباس مصطفى (٢) لكاتب كبير يرمي عنه قلمه - مصطفى لطفي المنفلوطي
(٣) س - سعد زغلول (٤) لأمير من أعلام البيان في الجهاد، كوكب الشرق - (شكيب أرسلان)
(٥) محمد واحد : محمد بن : كوكب الشرق : كان الناس يظنون أنها حافظ عوض : ولكنها
جورج طنوس (٦) ابن طييه : السياسة : محمد حامد عصب الحماي (٧) أبو التلاميذ : محمد سليمان
عنداره (٨) حندس = محمد التايبي (٩) خلدون : محمد خالد (١٠) ابن رشيق = محمد علي غريب .
(١١) سليم : في جريدة الأهرام = اسماعيل أباطه (١٢) محمود المقاصد : محمود نغرى -
في الأهرام (١٣) س ١ : سعد زغلول في البلاغ (١٤) حكيم : مكرم عبيد في المصري (١٥)
غالب القنطري : ودبك الجني : أحمد نجيب الهلال - المصري (١٦) صريح : محمد محمود -
المصري (١٧) فؤاد ، سعاد ، ربيعه ، ح.ي. ، أنطون الجليل : الزهور (١٨) مستفهم = اسماعيل
صدق (١٩) هي . بن . بي = داود بركات الأهرام ١٩٠٨/١٩٠٩ (٢٠) ابن غانم =
توفيق دياب (٢١) . حقوق : إبراهيم دسوقي أباطه (النزال أباطه) (٢٢) ع . م . :
عباس الصني (٢٣) معممص : مصطفى أمين (٢٤) صحنى عجوز = توفيق حبيب
(٢٥) : اشموز : محمد أمين حسونه .

صحفيون اجتذبهم المناصب

ترك الصحافة كثير من أعلامها أمثال : محمد مسعود وراشد رستم ومحمد أبو طايه
وعباس حافظ (في عام ١٩٢٩) وعملوا بصحيفة التجارة والصناعة والتعاون الرسمية
ومن الصحفيين القديين ولوا منصب الوزارة : الدكتور هيكل ، والدكتور حافظ عفيفي ،
والدكتور أحمد ماهر ، والدكتور طه حسين .

كان أحمد ماهر مديرا لسياسة جريدة كوكب الشرق في عهد وزارة صدقي ١٩٢٣
يكتب المقالات الرائعة ، وعمل أحمد عبود بالصحافة فاصدر جريدة الكشف سنة ١٩٢٧
وهو أول من أدخل تقليد نشر الصور في الصحف اليومية ، وأول من عقد اتفاقات

مع كبريات الصحف الإنجليزية لنقل تلترافاتها لتنتشر في مصر وإنجلترا في وقت واحد .
وعمل عبد الرحمن عزام في الصحافة ، وكان مديرا لسياسة الكشف على مبادئ الوفد .
فلما رأت أن تملأ استقلالها تركها عزام ، وحافظ عفيفي كان صاحب امتياز جريدة
السياسة ثم مديرا لسياستها ، والاقتصادي أحمد نجيب انضم إلى أسرة الأخبار بعد
صدورها بأيام صحفيات :

للرأة في الصحافة

عمل في هذه الفترة عدد من الصحفيات . في سنة ١٩٣٤ كانت أمينة السعيد
في كوكب الشرق ومبير القلاوى في الوادى ثم تحولت أمينة السعيد إلى الصور ودار
الهلل . أماميرة ثابت : فاصدرت الأمل (لاسبوار) بالفرنسية وأصدرت :
سيرانيراوى « المصرية » بالفرنسية ، وأصدرت لبيبة أحمد : النهضة النسائية . وأصدرت
روز اليوسف : مجلة روز اليوسف ، كما أصدرت فاطمة نعمت راشد مجلة أسبوعية وعملت
بالصحافة أيضا حبيب المصري ومنيرة عبيد .

وقد صور انطون الجميل دور المرأة في الصحافة في نهاية مرحلة ما بين الحربين
فقال : إذا كان محور الصحافة « تسقط الأخبار » . فإن المرأة إذ تجلس في قاعة استقبالها
بين زائراتها أو تقعد على عتبة دارها مع جاراتها ، هي أروع من يروى أخبار الناس .

إن الصحافة النسوية لم تعرف عندنا إلا منذ حوالى نصف قرن ، عندما أصدرت
(همد نوفل) أول صحيفة نسوية ١٨٩٢ . ثم توالى صدور الصحف ، ولا أفعل مجلة
الأجيسين التي أصدرتها : هدى شعراوى وتولت تحريرها سيرانيراوى وكثر مع انتشار
تعليم للبنات عدد الكاتبات الأدبيات اللواتي ينشرن في الصحف والمجلات
المقالات والأبحاث . وللصحافة فضل لا ينكر على نهضة المرأة فقد أنشأت الصحف
المجال للمرأة ، تكتب وتنفرد آراءها وتذيع دفاعها عن حقوقها . وخصصت بعض
صحف يومية صفحات أسبوعية كاملة للمرأة والشئون النسوية (الكوكب البلاغ . الجهاد) .

المصاحفون

(فترة ما بين الحربين)

محمود أبو الديون : ظل طوال حياته مكافأ بالقلم في ميدان محاربة البناء ومساوىة الشواطىء ، والأخلاق ، والدعوة إلى التعلم الدينى فى المدارس . وله ثلاث مجموعات مقالات هامة نشرها فى الأهرام .

× الصحيفة السوداء ١٩٢١ وهاجم فيها الانجليز بأن سطوة احتلالهم .

× مذايح الأمراض ١٩٢٣ .

× مقالات « يا ضيعة الأخلاق » ١٩٣٣ يقول : فى نفسى

آلام أرى فى الكتابة ما يخفف عنها هذه الآلام ويشمرها ببعض الذة .

أحمد زكى باشا : له أكثر من ألف مقال فى الصحف والمجلات فى الفترة من ١٨٩٢

إلى ١٩٣٤ وكلها تتعلق بالتحقيقات التاريخية وتصحيح الأسماء الجغرافية .

عجوب ثابت : أولى اهتماماته : الكتابة عن السودان ووحدة وادى النيل وشئون المال :

محمد مسمود : أولى اهتماماته لتصحيحات اللغوية والتحقيقات التاريخية ، قارع شيخ العروبة زكى باشا ، يقول ، اكتب لنفسى وللعالم ذوى أى اعتبار آخر .

مفصور فهمى : أمضى وقتا طويلا بعيدا عن العمل الرسمى ، وعاش فى قريته يرسل

الأهرام بكتات من خواطره فى مختلف المجالات تحت عنوان

« خطرات نفس » جمع منها القليل فى كتابه والباقي لا يزال منشور

فى دوريات الأهرام .

- د. محمد مسبرى : بدأ فى سنة ١٩٢٢ كتابات متنوعة فى الأهرام ، فى الوطنية والابحاث التاريخية والاجتماعية وما يزال يكتب إلى اليوم .
- وحيد : كان يرأس الصحف فى فترة ما بين الحربين بكتابات قصيرة فى التصحيحات اللغوية (أقرأ عنه فى كتابنا الشرق فى فجر النقطة).
- محمد لبيب البتانونى : نشر فى صحيفة الأهرام فصولا متنوعة عن رحلاته فى أنحاء العالم وأهمها رحلته إلى أسبانيا وأمريكا .
- الفتتاوانى (محمد الفنىمى) : كان يحرر حديث الصيام فى الأهرام خلال الثلاثينات ، ويقنول خلالها موضوعات متنوعة فى التاريخ والأدب والتراجم .
- توفيق اسكاروس : حفلت الصحف بمقالاته فى التحقيقات المتنوعة فى التاريخ المسيحى وتاريخ الإدارة ومنايع النيل وعلاقات مصر بالحبشة .
- محمد فريد وجدى : نشر عددا من الفصول والدراسات فى الأهرام وغيرها عن تركيا الجديدة والأديان والمضلات الفكرية والاجتماعية والعرب والترك والقرآن وله أكثر من ٣٠٠ بحث فى مجلة الأزهر .
- خليل حسن : له عشرات الأحاديث والابحاث حول اكتشافات الآثار الفرعونية التى كان يقوم بها .
- د. أحمد غلوش : حفلت الصحف والمجلات بكتاباته وأحاديثه وسوره حول تحرير المسكرات .
- الكاظمة بى زيادة : ظلت تنشر فصولها فى جريدة الأهرام وقتا طويلا ثم حررت باب المرأة فى السياسة الأسبوعية فترة من الوقت .

محمد طوسون : أولى اهتماماته للدراسات التاريخية المصرية في عصر محمد علي ، وخاصة الأرساليات ، الحملات العسكرية ، كما سجل رحلاته إلى الصحراء الغربية وغيرها .

أحمد فؤاد (الدكتور) : ركز اهتمامه وكتاباته عن مصر والسودان في نظر العلم والتاريخ . د. علي مصطفى مشرفة . نشر عديداً من الأبحاث عن العلم وبسط مفاهيم وتحدث عن طبائهم الاجرام السماوية .

أحمد شفيق (باشا) : نشر عديداً من مذكراته عن تاريخ مصر في عصر لمسلمين وما بعده . عزيز خاني : نشر عشرات من الدراسات والفصول التاريخية والقانونية .

لطف جهمه : يضاها في نشاطه في تلخيص المؤلفات الغربية التي تهتم بمصر والعرب والمسلمين ، نشاط أحمد زكي باشا ، فقد نشر عشرات من الفصول والدراسات في مختلف الصحف ، وكانت له فصول أسبوعية في البلاغ اليومي ، وله مقالات متعددة في البلاغ الأسبوعي ، ومجلة الرابطة العربية وعشرات المجلات منذ (١٩١٦ - ١٩٥٠) .

عبد المتعال الصميدى : من خيرة الكتّاب في مباحث الاسلام والدين ، نشر عديداً من الدراسات والمقالات .

محمد رمزي : أولى اهتمامه بدراسة الخواضر والمدن وتاريخها وأعلامها ، وسار في ذلك على نهج الخطوط التوفيقية لعل مبارك .

شكيب ارسلان : هذا كاتب عربي عاش فترة ما بين الحربين تقريبا في جنيف ، وقدم للصحف والمجلات المصرية أبحاثا ومقالات لأحد لها ، وكتب في الأهرام وكوكب الشرق والجهاد والبلاغ وفي مجلتي المنار والفتح .

وتناول عشرات من أبحاث السياسة والاحلام وألقى نظرات سائبة
على آراء المستشرقين وكتاب الغرب في قضايا العرب والمسلمين .
الأب /انتاس الكرملي : نشر في الصحف المصرية عددا من أبحاثه القنوية والآدبية
وكانت له مساجلات .

جميل مسدوق الزهاوى : نشر في الصحف المصرية شعره وكتابهاته وكانت له
مناقشات ومساجلات مع كتاب مصر حول كثير من القضايا
العلمية والفلسفية .

حسن القاياتي : أولى اهتمامه بالأنايبش القنوية وتخصص فيها .

محمد ثابت : نشر كثيرا من الفصول عن رحلاته في العالم العربي وآسيا وأفريقيا .

وهناك عديد من المصاحفين ، شغلوا الصحف بأخبارهم ولكنهم كانوا أقل في الدرجة من
حيث النشاط والاتجاه في مقدمة هؤلاء : الدكتور أحمد عيسى ، عبد المجيد أبو هيف ،
أحمد تيمور ، عبد المجيد نافع ، أمين واصف ، عود العزيز البشري ، عبد الرحمن عزام ،
ليبي الكرداني ، محمد عبد المطلب ، أحمد فهمي العمروسي ، الدكتور محمد شرف ،
أمين ساي^(١) .

(١) يستطلع الباحث للتوسع في دراسة هؤلاء الكتاب مراجعة مؤلفاتنا (١) المعروف في نثر الببنة
(٢) أعلام وأصحاب أعلام (٣) النثر العربي للماهر (٤) المصاحفة السياسية في مصر .

تكریم الكتاب^(١)

أولت الهيئات الصحفية والسياسية كتابها بالاحتفاء والتكريم ، وكان الدكتور هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة (١٩٢٢ - ١٩٣٦) في مقدمة هؤلاء بمد أن ترك الصحافة وبمناسبة إصداره مؤلفاته الإسلامية : حياة محمد والصدیق والفاروق ومنزل الوحي .

X محمد علي علوبة^(٢) : صدیق الدكتور محمد حسين هيكل رافع لواء الثورتين : ثورة الأدب وثورة الفكر أما الثورة الأدبية فقد شب إوارها وأزكى نارها وهو بمد في ريع شبابها أما الثورة الدينية فقد حمل الدكتور هيكل لواءها زهاء تلك الفترة أو أكثر .

كان الدكتور هيكل في ثورية الأدبية والدينية على السواء ، قلقا حائر النفس ناقدا ، نوعا ما على الأدب العربي والفكر العربي والتراث العربي بكل ما يحويه من أوضاع وسنن ، بمد أن رأى في أوروبا معينا فياضا من الماني والأنسكار والانتجاهاات ، وكان في قلقه وحيرته ونقمتة مخلفا ينشر الحقيقة لا يتكلف وممانيا لامباهايا ، ثم أدى به إجتهاده وإخلاسه للحقيقة التي ينشرها من وراء القلق والحيرة والفهمة ويطلبها بالمائة والتجرد ، أدى به ذلك إلى النتيجة اللنطقية التي لاممدى عنها لكل من تجرد لفكرة ، لقد عثر الدكتور هيكل على الفردوس المفقود ، الفردوس الذي يكشف له من عظمة الشرق وسمو آدابه وجلال الشريعة التي ملأت نفسه زهوا ونفرا وإعجايا وغمرتنا بلهجة من العلمانية ، فأبنا هيكل القلق الحائر النفس ، هيكل الناقم المسخط على التراث العربي ، يخرج منه هيكل العربي المبالغ الباني ، هيكل الذي إمتلأت نفسه يقينا ومبالاة بالشريعة السمحة وزهوا بالجد العربي ، هيكل الذي يحمل في إحدى يديه قبسا من نور الحقيقة وفي الأخرى قلعه يترجم عن معاني ذلك النور ويشر به ،

(١) نقرنا نصلا عن تكریم العقاد في كتابنا (للمارك الأدبية)

(٢) المصنف مايو ١٩٣٥ .

مخلصاً في ذلك أكد الاخلاص واتعه . لقد قادت الحقيقة هيكلاً ، ولو كان الهوى هو القدر
قاده كما قاد كثيراً من الباحثين ، لما وصل إلى هذه النتيجة الباهرة ، ولكنه طلب الحقيقة
جاهداً حتى ظفر بها .

× عبد العزيز البشري : لقد كنا نحن معشر الأزهريين ولعلنا مازلنا ننتقدان المنطق
الصحيح حكمة لنا من دون الناس جميعاً ، ذلك بأن علم المنطق يدرس في الأزهر حتى درسه ،
فاذا أصبنا غير أزهري يرتب المقدمات ترتيباً مطلقاً ، ويجري الأقيسة إجراءً مستقيماً ،
حتى يصل إلى النتائج الصحيحة ، أخذنا من صفة العجب .

ثم عرفت الشاب هيكلاً ، ١٩٢٠ فاذا هو على تدفقه في خاطر الساعة وإذا هو على
تعمقه في طلب دقائق المعاني ونظمها في أنوار الألفاظ لا ينحرف بعيداً عن سبيل المنطق
في ترتيب المقدمات ونظم الأقيسة ، على اختلاف أشكالها ونظم صحيحها ، لا يطرقه أي خلل
في أي قطر من أقطاره ، وأول ما يشعر به محدث الدكتور هيكلاً وفارته على السواء هو إبعاده
في النظر واممانته في التفكير ، حتى لقد يرثى المرء له ولا مثاله ، على ما بذلوه في ذلك من
جهد ، وما عانوا من تعب وكد ، وحسب هيكلاً فضلاً أن خلقاً من الناس كانوا يظنون أن
هناك تناقضاً بين العلم والدين ، فثبت بكتابة حياة محمد أن الدين لا يتنافر العلم ولا يقف عند
هذا ، بل لقد أثبت أن الدين مما يحتمه ويلزم به : العلم الصحيح .

× الدكتور منصور فهمي : إنني عرفت هيكلاً القدي ارتفع به قلبه الثابت وجهاده
الفكري إلى أعلى الرتب من نحو ثلاثين سنة ، وهو من طلاب العلم وبين أعضاء الجمعيات
العلمية ، وبين ناشئة الكتاب المتميزين ، وكان يبشر منذ أدب الشباب الرائع بما كان
ينتظره في كمولته من فصيح الأدب ، وكان يتمو خياله في صباه بنبوءة بطموحه في سمو
المقاصد ، وكان صدقه وصفاء طويته يشعرنا بصدق وطنيته ، كان هيكلاً طالب
العلم والكتاب والحلم في صفاء من الود لا يتسرب إليه حقده لخلاف في رأي ، ولم يقطع

صلة من صلات الودة بنضرب وهو يتكشف لدى كل من عرفه حسنه بجها ويرتبط به من أجلها .

X الشيخ مصطفى عبد الرازق : كنا شبابا نطلب العلم في باريس ، وذهبتنا ثلاثة إلى بعض الملاهي تلهو كما يلهو الشباب ووجدنا هناك عراقا يصف الناس أسرار قلوبهم وينبئهم بما يضمن النيب لهم في المستقبل المحجوب .

قال لأحدنا وهو يومئذ أصغرنا سنا وأحدثنا عهدا بباريس ، إنك ستكون عظيما بين أصحاب القلم ، ولم تكن هذه البشارة كبرى اليشار ، التي شرح العراف بها صدورنا للمستقبل ، ولكنها كانت على ذلك أكثر روعة في نفوسنا ، ذلك لأن الشباب المصري المثقف في ذلك العهد ، ينزع بحماس إلى مذاهب الديمقراطية التي تريد أن تهدم الفقاوت بين الناس بالأموال والإنساب والناماب ، لتبني مراتب البشر على أساس الثقافة والعلم ، قد تكون بشاره العراف لزميلنا الشاب قد أعانت على توجيهه وجهة الدراسات الأدبية إلى جانب دراساته القانونية والاجتماعية ، وكان زميلنا من الدكاء والجد والنشاط بحيث نهض بهذه الدراسات المختلفة نهضة الصباق المتقازة ، وليس في إنتاج الدكتور هيكل شيء من نوع الأدب الرخيص ، الذي لا يقتضى جهدا ولا يحمل عناء ، بل تنفاز آثاره الأدبية بالسكر العميق والتحليل الدقيق ، وفي كتاب حياة محمد وفي منزل الوحي توجيه للأدب العربي جديد يصونه عن فقدان شخصية في الآداب الأجنبية ، من غير أن يضيع عليه أى معنى من معانى النروض والتحديد والرقى ، ولقد صدق عراف باريس منذ عشرات السنين .

X إبراهيم عبد القادر المازني : إذا كانت القاذرة لم تخفى قصة زينب هي أول ما أفتتح به الدكتور هيدل حياته الأدبية ، ويعني من أمر هذه القصة التي لقيت بعد ذلك

بسنوات من الإنصاف ما هي جديرة به ، أنها أولا ابتداء في ميدان جديد ، وثانيا : أن روح الإيمان التي برزت جداً في كتابية حياة محمد وفي منزل الوحي ظهرت في هذه القصة .

وهذا هو الذي أريد أن ألفت إليه النظر ، فإن روح الإيمان ظاهرة في كل ما أخرج الدكتور هيكل من الآثار الأدبية ، بل حتى في مقالاته السياسية وبشير الالتفات إلى هذه الناحية ، يستحيل أن يملل المرء على وجه صريح بسريخ إليه العقل ، هذا الوثب المفاجيء من الغرب إلى الشرق ، ومن العناية المقصورة على الأدب الأوربي ، إلى العناية المقصورة على ينبوع التناويع الإسلامي ومصدره الأول ، وقد كنت في أول الأمر وقيل أن تتصل أسبابي بأسبابه أراي في حيرة من أمره ، لا أرى له عناية تذكر بالأدب العربي والتاريخ العربي ، وكنت فوق ذلك أسمع أنه ملحد ، وكان ذلك مضافاً إلى ذلك يجعلني أتصور أنه سأنح طالب له المقام فاقم ، ولكنه بقي محتفظاً بمخاضة التي جاء بها ولم يتألم ، ولكنه كفى كنت أعود إلى كتيبه وأراجع نفسي في مقالاته السياسية التي يكتبها كل يوم في « السياسة » فاستغرب ذلك ، أن روحه هي روح المؤمن العميق الإيمان ، لا روح الملحد الذي يحترق على الحرام - كم على ما لا يفهم بحكمة مريضة ، وسألت نفسي يوماً : كيف يكون ملحداً من لا يختار من كتاب رنسا « جان جاك روسو » ليترجم له في العربية .

لماذا لم يختار فولتير مثلاً ، وكيف تتطلع النفس وتتجه دائماً إلى المثل العليا ومصور السكال في الدنيا ، وتسكون مع ذلك نفس ملحد ، وهيكل تأثر فكيف يتأثر أن تنزع إلى الثورة والفرار ، نفس ملحد يكتفي من النظر بالسكف عن النظر ، ومن عذاب البحث بالراحة من البحث ، ومغنى الأيام ففرقة وكتب لي الحظ أن أحمل معه وأن أكون أحد أعوانه في السياسة ، فلم أحدثه في هذا ، فقد أغفاني الاتصال به عن السؤال ، فلما شرع يكتب - ونحن في غمرة ثقيلة من المشاغل السياسية - « حياة محمد » وبشرها تباعاً في السياسة الأسبوعية ، كنت واحداً من القليلين الذين لم يستغربوا منه هذا الاتجاه ، ولم يغم منهم موقف المفاجأة ، بل كنت على يقين جازم بأنه - بفضل إستيلاء روح الإيمان على نفسه - أفد-

حين يكتب حياة محمد كما يلينى أن تسكتب ، وأرجو أن تصدقنى حين أقول أنى فرحت
بكتابتك لحياة محمد ، وأن فرحى وزهوئى ما كانا ليزيدا على ذلك ، لو أنى كتبت السكتاب
«الوفى لحياة محمد» ، ولا أحب أن أكتب أن فرحى لم يجل من أنانية ، فقد أغبطت لأن
«نظرتى لم تخطف» ، حين اعتقدت من قبل أننى أعرفه ، أن فى نفس هذا الرجل كسرا
«من الإيمان» . كثير أن يفرد به واحد ، ولو أن بير بونت مورجان أو روكفلر وزع من
«ملايينه» التى لا يستطيع أن ينفقها كلها ، على بضع مئات لأيسروا ، ولما أحس هو بمخاطرة أو فرق ،
«وكذلك هيكل المليونير الروحانى» ، فليته بمطينا بما أعطاه الله فيقينا من هذه النار الخالدة ،
«إذا ن لسان لئلى أن بطمع أن يكون يوما من الأيام شيئا» .

الصحف العربية فى مرآة الصحف الأجنبية

نشرت جريدة ما نشستر جارديان البريطانية مقالا عن الصحافة المصرية ١٩٢٩/٢/٢٣
عنا : تمثل الصحف والمجلات العربية دوراً هاماً نشيطاً فى الآداب المصرية ، ليس فقط
«فى البلدان التى تتكلم العربية بل فى بلدان يعرف أهلها العربية ولا يتعلمونها إلا كلغة
«علمية ، وتجهز مطابع تجمع فيها الحروف العربية . فصر اليوم المركز الرئيس لهذا
«النشاط الأدبى» .

وقوة الصحافة فى مصر عظيمة جدا وأبناء العرب يحترمون العلم كل الاحترام وهناك
«كلمة ما ثورة عن مصر» ، هى أن المصرى إذا رأى شيئا مطبوعا اعتقد أنه حقيقى ، فالصحافة
«المصرية والحالة هذه تحوز نفوذا قويا فى نشر الآراء الجديدة ، وفى وسعها أيضا أن تكون
«مصدر شر واذية ، كما يفعل بعضها فى تضليل الرأى العام لأرب ذاتية ، ولحسن الحظ بزغ
«الآن فجر جديد فى عالم الصحافة وجمت بعض الصحف من نفسها قدوة فى هذا الشأن ،
«وقد تشأ هناك سمور ، بالسراية وسيصبح ما كان بدعى منها شاذا مثالا عاما يحذى ،
«فهنالك صحف عربية تشمر بمسئوليتهم نحو قرائها ولا نهملك الانهماك كله بتسكيس
«الأموال فى خزائن أصحابها . وقد بانقضى الآن زمن عدم مراعاة القدمة والضمير ، وبدأ
«القارىء المصرى يحرز الموهبة اللازمة للتمييز بين الأخبار الصحيحة القائمة المنزهة
«التي تقدمها له أفضل الصحف العربية والأخبار المرتبكة والآراء التخريبية التى لا تزال رأسمال
«الانحجار لبعض الصحف التى هى أحط سمة وكرامة .

ومن الغريب في مصر أن الجريدة التي لا تراعى كرامة الصحافة تبايع «كالكساح» بسبب مقالات يومية تنشرها لبعض مشاهير الكتاب يستعمل فيها كل ما في حافظته من عبارات القذف والسباب والكلام البليد البذيء .
وهناك بعض الصحف النكرة تراها تبرز فجأة ، وتأخذ دوراً هاماً بين الجمهور لأن حزبا من الأحزاب يكون قد فقد جريدته وقتيا بسبب عقوبة تعطيلها يتخذها سائلا حاله ، ولم يكن حدوث مثل هذا قليلا في خلال العشرين الأخيرة ، ومثل هذه الصحف لا تشتري وتقرأ لما تحتويه من الأخبار الهامة بل للاطلاع على الآراء التي تنشر فيها بطريقة حماسية مريرة . ولا يسعني من يشترها عن شراء غيرها من الصحف التي يعتمد على صدق روايتها ، وهذا هو سر النجاح المستمر الذي صادفته صحيفتان استغناهما القاضى مارشال من كتابه الأخير :

الجريدة الأهرام أنشئت عام ١٨٧٥ وكانت أول جريدة عربية يومية وحافظت منذ صدورها على مكانتها الأول في الصيق بنشر الأخبار ، فهي والحالة هذه جريدة جذابة وافية المواد الإخبارية ، ساحة الآلة ، جيدة الأسلوب ، وهي مشهورة بنوع خاص بتلغرافاتها انحصارية ، ولا تزال الجريدة العربية الوحيدة ، التي لها مراسلون خصوصيون مقيمون في عدد كبير قليل من الدواجم الأجنبية تتلقى منهم يوميا برقيات خصوصية عن الحوادث في العالم ، والأهرام جريدة مستقلة لا يتحكم فيها أى حزب سياسى .

أما جريدة المقطم فقد أنشئت عام ١٨٨٩ وحافظت على سمعتها بنشر الأخبار الموثوقة ولا سيما فيما يتعلق بالأخبار المحلية كترقية الموظفين وتقامم ، وما إلى ذلك من أخبار مصالح الحكومة ولهذا السبب يطالعها معظم موظفى الحكومة بعد الظهور عند ذهابهم إلى مشارب القهوة والاندية ، وللمقطم مكاتبها الخاصة في لندن ، وهي معتدلة في آرائها السياسية ومياله إلى تأييد أية حكومة يتولى الحكم .

أما جريدة السياسة فلها أنشئت من قريب وأنها لسان حال حزب الاحرار الدستوريين ومن مظاهر التطور الصحافى الحديث النجاح العظيم الذي لقيه بعض للصحف الاسبوعية المصورة ، فلها تصدر في ثوب يديع من الصور المتقنة الطبع التي لا يقل رونقها وجمالها عن رونق أية صحف أخرى في سائر أنحاء العالم .

إطار لصورة العصر وملامح المجتمع

من خلال الصحافة العربية في مصر (فترة ما بين الحربين)

(١٩١٨ - ١٩٣٩)

١ - تحرير المرأة

سجلت ثورة ١٩١٩ إستشهاد عدد من الفتيات المجاهدات - شفيقة محمد ، نهيمه رياض ، عيشة عمر ، حميدة خليل ، كاسبق بضمين إلى السجون وأنخذن من سجنهن أو كراً للحركة الوطنية كما أنخذن من حجابهن وسيلة لإخفاء المنشورات السرية .

وعند ما تقرر إعلان اضراب العام لمدة ثلاثة أيام ، أصدر الحاكم العسكري البريطاني أمراً بفصل كل موظف لا يمود للعمل في اليوم التالي ، هناك بكرت كرام السيدات ورباطن على أبواب الوزارات والمصالح الحكومية وممن سلال الخبز والطعام والنقود ، فسكن إذا رأين موظفاً متسللاً بادرين بملاقاته ، وقلن له : هذا هو الخبز إذا كنت جائناً ، وهذا هو المال إذا كنت محتاجاً ، فيمود خجلاً على عقيبته ، وبعد ما أعلن مقاطعة البضائع الأجنبية بادرت السيدات بمحاصرة المحلات الأجنبية ، دون سواها ، وممن جيش مرابط من طالبات المنازل .

٢ - ما كادت لهب الثورة تخف ، وتعود البلاد إلى طبيعتها شيئاً ما ، حتى احتفل بذكرى قاسم أمين في ٢٣/٤/١٩٢٠ وحفلت الصحف فيها بعد ذلك بمشارك ومساجلات ضخمة فيما أطلق عليه « بين السفور بين والحجابين » وفتحت جريدة الأهرام باب المناقشة على مصراعيه ، واشترك في ذلك ، عبد ربه مفقاح ، و«ع» هانم فوزى ، وعبد القادر يسوي وعبد الحميد حمدي (مدير جريدة السفور) وعبد العزيز سليمان ويوسف الدجوي ومن تحدثوا في يوم قاسم أمين : الدكتور هيكل والشيخ محمد الخطري .

قال الخطري : أنه أول من رد على كتاب قاسم (تحرير المرأة) بالمؤيد ، وهو مدرس في مدرسة المنصورة ، وكتب رده دون أن يقرأ كتابه لما كان مقسماً به من أفكار تخالف أفكار قاسم ، ووصل في اليوم ذاته إلى المنصورة الروح الامام الشيخ محمد عبد فتلأعليه

ذلك الرد منتظراً منه الثناء والدح ، فلم يفر من الإمام بكلمة ، وهز رأسه استخفافاً ، ولما اعترف له بأنه هو الكاتب ، وأنه لم يقرأ الكتاب ، نصحه بأنه يعرف الكاتب وما كتب ، والنرض من كتابة قبل الرد عليه ، فانتصح ولما ظهر الكتاب الثاني لقاسم « المرأة الجديدة » قرأه وكتب ثلاث فصول عنه ، وتعرف بقاسم ، وأدرك أن الرجل يريد تعليم المرأة التي تصوغ عقول أبناء الأمة ، وكما تصوغ تلك العقول ، تكون الأمة ، وعدا ذلك من حجاب وسواء ، فهي ذبول وتفاسيل لا يجوز أن تمس الجوهر وهو « تعليم المرأة » لتعلم الأمة ، لأنها الأساس !.

٣ - مضت الصحف تولى مسألة تحرير المرأة أهمية كبرى حتى ظهرت بواكير خرجيات الجامعة (في الثلاثينات) نعيمة الأيوبي (المفدشة بالعارف) ، ثروت التونسي (التي كتبت على اللوحة الفحاشية) : دكتور لا دكتور ، سمير القفاوي ، أمينة السميد ، فضيلة طarf ، نفيسة مباحة (طبيبات) نبوية نصر الشافعي (كلية التجارة) فاطمة سالم (آداب) وكانت نعيمة الأيوبي أول من ليست روبرو الهامة : « يوم أن نالت نعيمة الأيوبي ليسانس الحقوق من كلية الحقوق بالجامعة المصرية يومها ثم ثارت ضجة في القطر كله ، وثار المناقشات في أعمدة الصحف حول اندماجها في سلك الهامة ، وأرادت نعيمة أن تحقق أمالها إلى النهاية فانخرطت في تلك المهنة الفاسية ، وارتدت الروب الأسود وقامت مدافمة أمام المحاكم وبدأت مدة ترحيلها عند محمود فهمي حندية المحامي . ثم ودعت الروب الأسود وعادت إلى أحضان الحكومة ووزارة المعارف . ثم اختصت بمقابلة السيدات الوافدات إلى ديوان الوزارة . وبعد التدريس ، قررت العودة إلى الروب الأسود .

لم يكن نعيمة الأيوبي أول محامية مصرية ، فهناك الآنسة كريمة الأزبي أبو العز ، التي حصلت على ليسانس الحقوق بالفرنسية . ولم تعمل بالهامة . ومضت الصحف تنشر أخبار الخريجات . فالدكتور نعيمة الأيوبي المفدشة بوزارة المعارف ، تسافر ١٩٣٦ في بعثة لدراسة

المقدمة الاجتماعية إلى فرنسا ، وتقوم رحلة دراسية إلى ألمانيا والسويد وإنجلترا وفرنسا للوقوف على المقدمة الاجتماعية هناك ، ثم التحقت في بلجيكا بكلية الحقوق وحصلت على إجازتها في مادة : «الأحوال الشخصية في بلجيكا» بالمقارنة مع الأحوال الشخصية في مصر ، وتحدثت «أسبا فمى» عن : كيف إنضمنا الجامعة لأول مرة عام سنة ١٩٢٤ .

بعد حصولي على الثانوية وقتت أفكر في طريقة تساعدني على مواصلة تعليمي بعد إنتهاء مرحلة الدراسة الثانوية ، ولم أجد أمانى غير باب الجامعة المصرية القديمة ، ولكن لم يكن من السهل طرق هذا الباب ، لأن التعليم المختلط لم يكن معروفا ولا مألوفا في مصر ، على وجه أن الفتاة المصرية لطول عهدها بالحجاب تخشى بالضرورة للوجود بين أفراد الجنس الآخر وتظنر إليهم كما لو كانوا مخلوقات عجيبة نازحة إلى أرضا من كواكب بعيدة !

كما كان الحجاب لا يزال سائدا وأن لم يعد بالنسبة للطبقات المتعلمة أكثر من زى حادى قابل للتغيير والتعديل في آية لحظة ، وعلى الرغم من ضعف سلطان الحجاب وتبدل حاله لم يكن من اليسير التحرر من تأثيره تماما ، كان للمرف والتقاليد آثارها البعيدة في النفس ولها قوة الدفع التي يستمر مفعولها مدة طويلة حتى بعد التحرر من نيرها . بيد أن المضطر يركب الصمب من الأمور وهو عالم بركوبه ، ولا مفر إذن من الأقدام على هذه النافرة وافتحام باب الجامعة ، على أنى شعرت بشئ كبير من الاطمئنان عند ما علمت أن سيدتين مصريتين قد سبقتني إلى الميدان الجامعي ، وبذلك مهد الطريق وانتشمت النجوم ، بيد أن هذا التمهيد لم يؤثر إلا قليلا في تحقيق ما شعرت به من الملح عند ما وجدت نفسي لأول مرة وسط قاعة المحاضرات الرحبة بالجامعة ، وتبينت أن مئات العيون تصوب إلى ، ولا أظن أن دخول ميدان الحرب يكون أشد رهبا من الظهور لأول مرة ، في مكان يستأثر فيه الجنس الخشن على أن زميلتي وقد أنصبتها تجارب الاشتراك في الثورة المصرية ، كانت من الشجاعة وورباطة الجأش بدرجة ألقت في روعي شيئا من الهدوء والسكينة فاتجهينا جانبنا من القاعة ، وجلسنا نستمتع

للمحاضرة بليغة من التاريخ الروماني، ولم يصبح ظهورنا في الجامعة شيئاً مألوفاً، إلا بعد أن سمعنا، لعدد من التجارب الفاسية، فقد كانت كل حركة من حركاتنا تحصى علينا بدقة . وشرنا أن مكاننا وسط الجنس (المضاء) يحتاج إلى تدعيم وتحصين ، وسرعان ما صنعت لنا الفرصة لاحتلال مواقع جديدة حصيفة، فلم نتردد في التقدم والافتحام، وبعد ثلاثين عاماً من وفاة قاسم تحدث الكثيرات عن نهضة المرأة ، نالت هدى شعراوي : كسبت المرأة المساواة بين الجنسين في التعليم ، تحدد سن الزواج . حق الأم في الحضنة . إدخال بعض تعديلات في نظام الخطبة والزوج والطلاق ، اشتراك المرأة المصرية في العمل على رفاهية الشعوب، وقالت اسمها فهمي : (نالت B. A. في التاريخ و M. A. في التربية) : أعتقد أننا نبالغ في تقدير ما وصلت إليه المرأة المصرية إذ الواقع أنه قليل وضئيل . ولو أن قاسم أمين كان موجوداً ماسرته حالة المصرية ، ولا يصح أن نحسب على تقدم المرأة بحالة العواصم والمدن ، فالواقع أن الأكثرية العظمى التي تبلغ حوالى تسعين في المائة في الأرياف لا تزال المرأة جاهلة ومكبلة بالقيود .

وأثيرت محاولات كثيرة لاستغلال نهضة المرأة بتغيير المقومات الأساسية للإسلام : وقد كتبت هدى شعراوي (الأهرام ٢٨ ديسمبر ١٩٢٨) : دعاني الأستاذ سلامة موسى في كتاب أرسله إلى بناء على إقتراح وجه إليه أن أطلب إلى وزارة الحفانية سن قانون يساوى بين المرأة والرجل في حق الميراث وباطلاعى على ملخص هذه المحاضرة قدرت للمحاضر حسن عطفه على النهضة النسائية، ولما كان تقييد المرأة في الميراث ليس من المسائل الداخلية في برنامجها فليس لي أن أندخل في هذا الموضوع لا باقرار الحالة الحاضرة أو تعديلها .

وأقول بصفتي الشخصية أني لست من الموافقين على رأى سلامة موسى فيما يتعلق بتعديل نصيب المرأة في الميراث، ولا أظن مثله أن النهضة النسوية في بلادنا تأثرها بالحركة النسوية بأوروبا يجب أن تنبمها في كل مظهر من مظاهرها ، ذلك لأن لكل بلد تشريعه وتقاليد، وليس كل ما يصلح في بعضها يصلح في البعض الآخر على أننا لم نلاحظ تدمراً من المرأة في الميراث

ومن الرجم بالنيب أن يقال أن المرحوم قاسم أمين لما قام بنشر كتيبه في سبيل تحرير المرأة، كان ينوى المطالبة بمساواة المرأة بالرجل في الميراث، وأن الذى أخره عن إعلان هذا الطلب هو أنه ظار تضوج رأى العام كما ذكر سلامه موسى، فاطلع على كتب المرحوم قاسم يقرأ بين سطورها أنه كان يرى فقط بحمل المرأة «مضوا سالحا في الهيئة الاجتماعية وأن تمد الفتاة لتسكن أهلا للقيام بنصيبها من العمل في خدمة مائلتها ووطنها .

وتحدث الدكتور هيكل عن المرأة المصرية والفن، وما ينقصها في الهامه . إقال : ما يزال الفن المصرى الرقيق خاليا من وحى المرأة أويكاد ، وتستطيع أن تتعرض لما تشاء ريشة المصورين المصريين، فلا ترى للمرأة فيه إلا أثرا قليلا ولا تسكاد ترى فيه للمرأة الملهمة أثرا قط . والقاء اللوم على المرأة وحدها فيه ظلم كثير، ويحملها ثيمات لا يصح أن تنوء بها منفردة ، ولله من الانصاف أن تقول أن المرأة قد أوحى إلى الفن ورجاله حينما استطاعت هذا الوحي . بل أن فن غنثار كله صادر من وحى المرأة .

أن نعمة عاملان أساسيا لهما أكثر الأثر في ذلك، «أولهما» : هذه النظيمة بين مسكرى الرجال والنساء برغم إرتفاع الحجاب في أكثر طبقات النساء فقل أن نجد المجتمع المشترك الذى يندمج فيه الرجل والمرأة من مختلف الأحاديث في شتى الأمور «والثاني» : هذا الانحياز من جانب المرأة لسكسب حقوق تنفق أن الرجل غصبها أيها في الماضى فلا بد لها من استردادها لتقف من الرجل موقف المساواة ، وهذا الانحياز يحمل المرأة تنظر للرجل وكأنه خصمها اللدود وكأنه القوة المابضة المستبدة التى يجب محاربتها .

٢ - مجتمع القاهرة

رسم فكري أباطه سورة مجتمع القاهرة (١٩٣٥) :

ركبت الترام من مخزن شبرا حتى العتبة المخضراء ، ومن العتبة المخضراء حتى الأهرام ، ثم انحرفت إلى مصر القديمة ، ومن مصر القديمة إلى مصر الجديدة ، ثم تنقلت في الدراسة والحسينية والسيتية ، ثم صعدت للقلعة ثم هبطت للمناوى ، وفي الليل تسللت إلى نوادى والصالوات والحانات والحفلات ، ثم ارتقت إلى كارب محمد على ، وكارب الفسطاط ، ثم انحدرت إلى قهاوى باب الشعرية ومنها إلى جروبي وصولت .

أول ما يروع السائر في القاهرة ، حركة القاهرة : هذا جعش ، وهذا حمار ، بنه ، حصان . بسكيت ، موتسيكل ، حربة كرو ، حربة حنطور ، ترام ، سيارة ، باور زلط ، رشاشه ، زحافة ، هذه المخلوقات الحيوانية والحاربية ، تفوق في عددها المخلوقات الأدمية ، والشوارع ضيقة والمهارات لا تنجبل ولا تنزجرح . وفي القاهرة كرتفال في كل لحظة ، طاقة وبيوارها لاسه بيوارها كوفية وعقال ، وبيوارها طربوش ، وبيوارها عمة بطربوش وبيوارها برنيطة ، هذه جرمة رادول ، وبيوارها شبشب ، وبيوارها قيقاب .

هذه بدلة بطربوش ، هذه بدلة بياقة ولسكن بومة ، هذه جبة وقطان ولسكن بومة ، هذه جاكته بيجلاية ، وهذه جلالية بباطور ، وهذا بطلون بلا جاكته . هذه ملابة لف بريقم أسود ، هذه حبة بريقم أبيض ، هذا بالطوا ببيشة ، هذا فستان بدون قناع .

* * *

إذا ما نمت الساعة الخامسة صباحا ، دق معها صوت بائمة الزبدة وبائمة اللبن ، إذا ما نمت في الصيف بعد الغذاء ، خرج عامل جروبي بصوته الشفيق معلنا وصول الجيلاتنة ، جودت الآكسة التي تنمل البيانو بيجواري أدواراً غير رخيصة ، وظل الفونترفار بسمى

رغم أننى أصوات المطربين والمطربات، ونادى بالمو الجرائد على المقطم والبورص، وأخذت خادمة الدور الثانى تنفض السجاجيد والأبسطة من شباكها .

إن القاهرة الوعرة تعيش على حساب العزب والسكفور . إن القاهرة نبني وتشيد على انقاص البيوت القديمة فى الريف . من يوم أن باع الأعيان قطعهم سنة ١٩٢٠ ، سنة ١٩٢١ بأربعين جنيهًا لانتظار ، وامتثلت جيوبهم بالمال زحفوا إلى القاهرة ، خفافا فاحتلوها إحتلالها وتملخوا عن قلاهم وحصونهم فى الأرياف .

يمطر المطر فى ميدان الأوبرا وشارع المناخ وحى قصر الدوبارة ، فإذا ما انتهى وجدنا ميدان الأوبرا وشارع المناخ وحى قصر الدوبارة أنظف مما كان وأرشق مما كان ويمطر المطر فى الدراسة ، وبوابة التولى وباب الشمرية فتظل آماره أياما ، والقاهرة كما هى تزور وتزيف وتنش وتخدع ، وتبدو للقادمين من المحطة والنازلين من شبرد والسكوتيتال وسيراميس ومينا هاوس عروسا هيفاء ناصعة البياض مثقنة التواليت ، ولكنها هى نفسها فى الواقع شطاء صفراء غليظة فى الدراسة والتربية والجمالية والحسين والوابلية .

* * *

إنعمم التزاور فى القاهرة داخل البيوت ، وأصبحت المقابلات فى جروبى وصولت وسيلندديار والأنجلو وباب القواء والمشيخة . عيشة القهوة عيشة عقيمة ، الأنس النائلى مفقود ، قلما يتناول رب البيت طعام المشاء على المائدة مع زوجته وأولاده وقلما يعضى معهم السهرات .

فى القاهرة طرب وموسيقى ، ولكنه طرب متمب . أطل أنا طول الليل من الساعة التاسعة مساء إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل أحرق فى وجه أنسة تندب سوء حظها مع حبيبها وأنا جالس لرواية بين الغنية وجيها لا دخل لى فيها .

فى القاهرة سموم قتاله تمصف بشباب الشبان هى المرويين والسكوكاين والحشيش .

٣ - المقامى

وهذه سورة قصص المجوز من المقامى فى القاهرة (١٩٢٧) .

أفقلت « القهوة الوطنية » أكبر الفخوات والأندية العامة وأشهرها فى ميدان العتبة . وميدان الخازندار . أنشأها سيد القهوجية الخواجا مانولى يوانيدس صاحب مرفص ألف ليلة وليلة لنحو عشرين سنة حلت فى عمارة حسن بك ميد المشرقة على شارع البوسطة والبواكى والباب الشرقى ، وعنى بتأنيدها وتأنق فى تنظيم غرفها وقاعاتها ، ومنها قاعات البلياردو وقاعات الطاولة والدرمينو والشطرنج وقاعات القهوة والشبشة ومنها أبهاء الصيف وأخرى للشتاء .

وكان الإقبال عليها عظيما ، إذ تراكب زبائن أندية العتبة والخازندار مجالدهم فى قهواتها . وتهيأفتوا على القهوة الوطنية وشاركهم فيها بعض زبائن الاسبلندد بار وغيرها حيث تقدم أنخر الشيش ، وكان لرواج الأسواق المالية ونشاط الوطنية أثرهما فى إزدهار هذه القهوة الجديدة التى اتسعت قاعاتها لمقد كثير من الجمعيات الوطنية والمذاكرة فى الشؤون العامة خفية . وعلنا . فلما أعلن الاستقلال والدستور اتخذها كثيرون من أعضاء البرلمان الزبائن مركزا لهم ، واحتفظ الشيخ سعد مكرم بالولامها حتى أعلن انقائها . وكسب منها الخواجة مانولى وأثرى ، حتى أنه اشترى عمارتها ، ولسكنه لم يلبث حتى باع المارة والقهوة إثر خسائره المشهورة فى تجارة الدخان وقصر أعماله حتى آخر أيامه على إدارة مرفص ألف ليلة وليلة .

الحلاون

كانت لجماعة الأسطوات المزبدين أو الحلالين فى مصر صولة ودولة . كان لهم تقيب وكان منهم معلمون كبار وصبيان مزبدين . وكانت دكاكينهم أندية لأهل الذوق السليم والظافة يقصدونها عصر كل يوم للمسامرات . وكان الحلاق لا يقتصر على قص شعر الرأس وحلق اللحية والقنوت بل كان يجمع إلى ذلك كثيرا من الحرف والصناعات .

٤ - منع المسكرات

كتب الدكتور أحمد حلوش الرئيس العام لجمعية منع المسكرات في القطر المصري في مجلة (الطوائف) ١٩٣١ بصور حركة منع المسكرات .

بما أن جميعنا جمعية نسهر على خدمة الأمة المصرية ولا نألو جهداً في سبيل ما يمزج الروح القومية ويصون الأخلاق الفاضلة ، لم نبدأ من أن نرى دولتنا بين الدلاء فيما يواجهنا المقدس إننا نرحب بكل حركة ترى إلى خير مصر ونقع أبنائها ، ولما كانت مقاطعة البضائع الأجنبية التي يمكن الاستغناء عنها في مقدمة الأمور القائمة وأساس نهضة الأمة فإننا نضم صوتنا إلى الأصوات الصارخة بضروره مقاطعتها .

غير أننا رأينا خلال الضجة القائمة أموراً من الغرابة بكان ، وأي أمر أغرب من أن نرى بعض الجرائد تهتف في صفحة من صفحاتها بحياة الصناعة الوطنية ومقاطعة البضائع الأجنبية ، وفي الصفحة الأخرى من نفس العدد تنشر الإعلانات الخلابية المواد هي ثمر البضائع الأجنبية وأشدها كيداً وعبثاً ، وأي ضرر يقاس بضرر الخمر شر الآفات الإجتماعية وأفظع ما منيت به الشعوب في متراخيات المصور .

إذا كانت البضائع الأجنبية تضر من الوجهة الاقتصادية وتحرم أبناء مصر أموالاً طائلة هم بها من جميع الشعوب أولى ، فإن الخمر تضرهم في مالههم ودينهم وشبابهم وأخلاقيهم ، أيجهل فاشروا إعلانات الخمر أن ملايين الجنيهات تهدر كل عام في مصر على موائد الخمر المستوردة إليها من أوروبا .

لقد آن لهذه المهزلة أن تنتهي ، لقد صبرنا على هذه الدعوات المضارة مدة طويلة إلى أن بات الصبر ضرباً من التقصير والاستهتار .

إننا نمت للأدب بسبب ونقضى إليه بنسب ، وزعمى للافلام حرمه ونحفظ لأربابها
عهداً ولا تريد أن نمت من غضب البراعة شرر إنتقاد كالثار مستطيرا وصري لوم يصعد
كالسيف الثقيل صليلا . واسكن طال أمد الصمت ، ولم يبين من أصحاب هذه الجرائد
بأدرة تم عن ميلهم للاتلاع عن هذه الدعوة الخطرة فأصبح استمرار سكوتنا مما نسمع
وزرى ، إساءة لا يقبل لها عذر وليس لها من مسامح .

إحترموا يا قوم روح الأديان ولا تسخروا بدواعف الأمة ولا تتجبروا بمصالحها
وأخلافها ، واعلموا أن الأعين ناظرة ليست بمغمضة ، وأن النفوس يفتى وليست بها
هجمة ، وأن المسلحين سيصلون هذه الدعوة الثانية من مضاء عزمهم ونور رشدهم ناراً
حامية ، نحن أمة تريد النهوض وتتوخى الاستقلال ، وصرح الاستقلال لن يقوم على جدران
واهية ، وأركان متداعية بمصف بهاريج الصوء وتعبث بها روح الفساد . ولا بد له
من التنويه بفضل الصحف التي ترفع عن السكسب بنشر اعلانات الخور ، أما نحن
فلقد عقدنا النية على إثارة حرب شمواء ضد كل ما يضر بمصالح مصر وصنولى وجهه
شطر هذه الناحية ونسمع المسهرين من آيات الحق ما يقض المضاحم ويقلب كل ما يرى
إلى ضرر الأمة رأساً على عقب .

بالاحصائيات والأرقام وحدها، فقد تم شيء كبير، بل هناك ما هو أهم من هذا، وأعمى به التأثير النفساني في عقول الشباب المصري ممن يتوقنون إلى خدمة وطنهم، فقد تولدت في نفوسهم آمال جديدة وبثت فيهم روح احترام النفس، لقد شق طلعت حرب طريقاً جديداً وقد أنسى له في هذا الباب القيام لبلاده بخدمات أجل كثيراً مما قام به كثيرون.

وقال أحمد عبد الوهاب: في اعتقادي أن أساس نجاحه وسر توقيته، أنه عمل قوى بحث، تجلت فيه القومية بأكل معانيها بحيث لا تفريق بين حزب وحزب ولا تحيز بين طائفة وطائفة، هو فكرة مصرية يستوى عندها المصريون جميعاً ما تبانت مذاهبهم الدينية وتنافرت نزاعاتهم السياسية فهو بقوميته الكاملة هذه قد سما فوق الانقسامات والاختلافات ونجا من آفات الحزب والمحسوبات.

قال طلعت حرب: كان تأسيس بنك مصر ١٩٢٠ مفاجأة أدهشت الجميع وأقبل بعضهم على بعض من فرط ما دهشوا بتساؤلهم عن مستقبل هذا المشروع وعن كفاية القدين يتولون أموره ويهيمنون على شئونه، وعما إذا كان من السطوع إستعمال لنة البلاد في أعماله، وعن مدى تأثيره من الناحية الاقتصادية المصرية.

لقد هال بنك مصر بلا شك يوم بدأ حملته الأبدأ لعمال مصري صميم إلا النادر يدرأ عن الأمة سخريه الساخرين. أما في ٧ مايو سنة ١٩٣٥ فقد تشيرت الظروف وأصبح لمصر بنك قوى بلغ رأس ماله مليوناً من الجنيهات يبدأن كان في البداية ٨٠ ألف جنيه، وبلغت الودائع أكثر من عشرة ملايين، وزى إلى جانبه عدد كبير من الشركات تخدم مصر في الأرض والبحر والسماء.

وقال: طلعت حرب: بنك مصر وشركات مصر ليست إلا معاهد للتربية الاستقلالية يكل فيها الشباب المتعلم علومه بالعمل والمران عليه، لسنا نذبح سرأ إذا قلنا أن سبب نجاح بنك مصر، هو أولاً الابتعاد عن زحام السياسة والحزبية فهو قد فتح أبوابه لخدمة جميع المصريين عامة وخاصة على السواء، كما يرجع سر نجاح البنك إلى الأمرة (أمرة بنك مصر) التي تسود فيها المودة والولاء ويصنف فيها البر بالرحمة، وابتعاد البنك عن السياسة ليس ناتجاً

عن عدم أكثرنا مصالح البلد العليا ، فان المصري الذي لا يكثر بمصالح وطنه لم يولد بعد ،
ولكنه إتباع للحكمة المأثورة « لكل عمل رجال ، فالسياسة رجال » وللمال رجال ، من يخلط
بين عمل ومهنة اختلط عليه الأمر والقوى عليه القصد وأقلت منه سر النجاح ، أنظروا إلى ما عمله
البنك في بحر الخمسة عشر عاما : أنه فتح ميادين عمل مختلفة للشباب المصري كانت موصدة
في وجهه . ساعد الفاولين المصريين حتى ولجوا باب المنافسة وبرزوا فيها أقرانهم كما أسدى في أيام
الآزمنة من المساعدات والخدمات الوطنية لمواطنيه ما لا يمكن أن ينسوه ، سلكوا عملاء البنك
عما لا قوة من بنك مصر . وبلاقونه من مساعدات زراعاتهم وصناعاتهم وتجاراتهم ، سلكوا عن
الروح التي عاملهم وبما ملهم بها بنك مصر ، أنها روح عطف ورحمة قبل أن يكون حزما
موشدة ، سلكوا كم من صانع لولا بنك مصر لما كان له وجود ، وكم من تاجر مدين ببقائه إلى
بنك مصر . وكم من دور غنية عامرة وعائلات كبيرة لولا بنك مصر أصبحت في أوقات
الشدة طما للخراب والافلاس .

لكم أن تسمو بنك مصر أعجوبة مصر ، فاحكموا علينا أولنا ، وما نحن إلا بشر ،
نخطئ ونصيب . فان أخطانا فلنا من حسن نيتنا شفيح ، وأن أسبنا فذلك فضل
الله يؤتيه من يشاء ، وحسبنا راحة الضمير ، حسبنا هذه الثقة أعظم جزاء تقدمه الأمة لخدماتها
المخلصين . أننى على استمداد دائما للتخلي عن العضوية والإدارة لكل مصرى كفاء . بتقديم
الحل الأمانة مع حسن الفية في كل عمل يأتيه . لتتواصى جميعا بالصبر والحق ، وبالحرص دائما
على هذا الهيكل القوي المقدس ولنجملة للناس آية على أننا أمة النيل ، أمة تستحق الوجود ،
على وتستحق الخلود ولتحي مصر .

وقال عبد الله فكري أباطه : أننى لأذكر أننى رأيت طلعت حرب في مستهل حياة
البنك يمسك بعض دفاتر البنك بنفسه . ويقيد فيها بيده . وبشترك مع صغار الموظفين في عمل
تسوية حسابية أو قيد طلبية . وكان يصرف مرتبات موظفيه القلائل من إدراج مكتبه
حتى لا يعرف الواحد ما يتقاضاه سواء من أجر منما للثيرة وفساد الروح بين الموظفين .

٦ - الأزهر

أولت الصحافة إهتماماً كبيراً بتطور الأزهر ، ومن ذلك ما كتبه الدكتور زكي مبارك (١٩٣١) قال : أن الأزهريين يشعرون بالخطر الدائم الذي يواجههم من كل جانب . فقد أصبح بدورها أن الأزهر يجب أن يسير الحياة أو أن يزول . ومسيرة الأزهر للحياة ليست مسألة هيئة . توضع أسسها في يوم أو يومين . وإنما هي عقيدة صعبة الحل ، لأنها تضم إلى جنباتها عناصر الثورة على القديم ، والشوق إلى الجديد . أهم ما يلاحظ على رجال الأزهر أنهم يهتمون أشد الاهتمام بطفلة الألفاظ وجلجلة الحروف . ومن شواهد ذلك أنهم حين فسكروا في إصلاح الأزهر منذ سنين كان أول ما بدأوا به أن سموه (الجامعة الأزهرية) ولقد أولع صديقنا الشيخ أبو العيون بتلك الكلمة ، ولكنها رآها على طرفتها ليست كافية فسمى الأزهر في بعض مقالاته « الجامعة الأزهرية الكبرى » ومن أغرب ما شهدناه من غرام رجال الأزهر بالألفاظ أنهم كانوا يستقلون لفظ « العالمية » فكان المتخصصون منهم ولا يزالون يكتبون على بطاقتهم كلمة (دكتوراه) وقال في موضع آخر : أن الخلاف بين الأفندي والشيخ هو خلاف في العقلية . يلتفت الأفندي إلى الماضي فيرون عظماء مصر كانوا من المشايخ ، أو الأفندية الذين اصطنعوا مذاهب المشايخ ، يرون أسماء سعد زغلول ومحمد عبده وعبد العزيز جاويز وإبراهيم الهلباوي وهؤلاء كانوا مشايخ ، سيرون أسماء مصطفى كامل ومحمد فريد وإسماعيل رافت وهؤلاء وأمثالهم كانوا أفندية يصطنعون مذهب المشايخ ، ما رأيكم في الشيخ مكرم عبيد ، أن هذا الرجل يحفظ القرآن ويروي الأشعار ويصرح بأنه مسلم وطناً أزهرى ثقافة . والمشايخ في كلية الآداب : طه حسين ومصطفى عبدالرازق وأحمد أمين وإبراهيم مصطفى وأمين الخولي وأحمد الشاذلي وعبد الوهاب عزام ، وفي الصحافة على يوسف وعبد العزيز شاوبش ومحمد

عبد وسعد زغلول وأن أول مظاهره قامت ١٩١٤ أقامها الأزهريون ، وأول دكتور في الآداب كان أزهريا ، وأول بعثة علمية كانت أزهريه .

X وكتب أحد الصحفيين الأمريكيين سنة ١٩٤٤ مقالا عن الأزهر قال : أن الشيخ الباجوري كان يبلغ اعتزازه بكرامة الدين والعلم أن والى مصر في ذلك الحين عباس الأول كان معتادا أن يرد الأزهر أثناء الدرس فكان يذهب إلى حلقة الشيخ ، فا كان الشيخ يفعل أكثر من أن يرد عليه السلام وهو جالس في مكانه لا يتحرك ، بينما يأخذ الوالى مكانه على مقعد من الخشب يسمع إلى الدرس ماشاء ثم ينصرف في هدوء ، والشيخ را بضع حيث هو لا يخف لاستقبال الوالى ولا توديعه ، والشيخ الشريفى ولى مشيخة الأزهر ١٣٢٣ هـ فرأى الخديو توفيق أن يكرمه فدعا لتناول الإفطار على مائدته في أحد أيام رمضان ، فاعتذر الشيخ اعتذارا فاقرب إلى أن يكون رضاء ، فما زال به رجال القصر حتى قبل ولكن اشترط شرطا عجيبا ، هو أن يأخذ معه طعامه وشرابه ، ودنت ساعة الإفطار وامتألت ردهات القصر بالدعويين وإذا بالشيخ يقبل على ظهر بقلته ، وفي إحدى يديه قلة ماء غطيت بقطعة من الليف الأحمر وفي الأخرى منديل محلاوى ، ظهر فما بعد أنه كان يحوى طعام الإفطار ، وتناولت الأعناق وأسقط في إحدى رجال القصر ولكن أحد لم يستطع أن يناقش الشيخ ، بل أنفسحوا له صدر المكان ، حتى إذا انطلق الدفع فتح الشيخ معدله ، فاذا هو يحوى رغيفا وقطعة من الخبز القريش وقليلا من التمر ، تناول الشيخ واحدة منها في سكون ، ثم خلع عباءته وفرشها وأقام الصلاة حتى إذا ما انعمها عاد إلى طعامه فأكله دون أن ينظر إلى شيء مما كانت المائدة تذخره من فاخر للطعام والشراب ، وهذا هو الشيخ الذى زاره كرومر في داره ومعه عقيلته فاذاها بجداها خالية من الآثاث ، لأن الشيخ كان ينام على حصير ولا يمس من مرتبه ولا من الأموال الطائلة

التي كانت تؤول إليه غير ما يكنى لطعامه وشرابه، ثم يوزعها جميعاً، ومن شيوخ الأزهر الذين كانوا على كثير من الفتوى والزهد الشيخ حسونة النواوى، حدث في عهد توليه أن توفى الشيخ عبده الذي لم يكن موضع رضا الحديو، وإذا بأحد رجال المية يزور الشيخ حسونة ليفهمه ويفهم بقية العلماء أن الإمام لم يكن غلصاً للحديد، وأنه لذلك يحسن عدم الاشتراك في جنازته، فظل الشيخ يصنى إليه دون أن يتسكلم حتى إذا فرغ من كلامه التفت إلى من كان معه من العلماء قائلاً: « بالله بنا يمشايح أحسن معاد الجنازة قرب » ورأى الرسول أن كلامه لم يؤثر التأثير المطلوب فلم يجد بداً من مصارحه الشيخ بأنه يحمل إليه أمر أفندينا بعدم الاشتراك في الجنازة فنظر إليه الشيخ وهو يقول: ان الله وحده هو أفندينا، فذهب وقل لا فنديك أن حسونة النواوى سيقيم جنازة الإمام . ا . هـ .

* * *

ومن أخبار الأزهر إشراك كبير من نوابغ المسيحيين في دراسة اللغة العربية والفقه في الأزهر متخفين، ومن ذلك ما وقع لوهي بك مدير مدارس الأقباط، فقد قضى تسع سنوات في الأزهر مجاوراً، قال له الشيخ الأنباى: لولم تكن ياوهي نصرانياً لمددناك من شيوخ الأزهر. ثم أصبح يتردد على دار العلوم والأزهر، قبل أن ينشأ الرواق المباسى وكان من شيوخه الذين حضر عليهم: محمد الشريف، عبد الهادى البيارى وكان الطلبة يجهلون أمره، فهو يتردد على الأزهر متأبطاً بالمحفظات بشرح هابدين في فقه أبي حنيفة وصحيح البخارى وتفسير الخازن وشرح ابن عقيل على الألفية والأشئوى على الألفية، وقد اتصل بكبار رجال الأزهر وخاصة جمال الدين، الذى أعجب بذكائه وأخذ له مدرسا لغة الفرنسية، وقد صلى صلاة الجمعة مرة واحدة في حياته، ليحضر خطبة منبرية للشيخ ابراهيم السقا، كما أنف عدة خطب منبرية في موضوعات مختلفة تدرتها الوقائع ومن ذلك قوله: « الحمد لله جلا من آياته البينات عجباً وجل لأولى البصائر من أسرار الكائنات حجباً »، فوصب على مختار بديها خطيب المائى وصبا . واستطاع بحلى حسناً صنفها وصبا .

٧ - مهرات رمضان

وتحدثت الصحف عن مهرات رمضان : وهذه سورة منها :

محالس ومهرات رمضان في بيت طلعت حرب . إنه حريص على أن يدعو جلساءه إلى مائدة
السحور متى جاء وقتها ، الحديث في العلم والأدب والمال والفكاهة والظرف . مضيفة القاياتي ،
حسن القاياتي ، لما كان بيت القاياتي بيضا صوفيا قبل كل شيء ، فرنين تقبيل الأيدي لا ينقطع ،
وجنان التريد واللعن السلوق تملأ المكان وتطعم كل البطون ، وللماء الأزهر وطلابه ورجال
الشعر والأدب نصيبهم الكبير في هذا المجلس الحاشد ، تجري المناقشات في مسائل ههبة
وصوفية وأدبية ، وتروى القصائد والأزجال ويقرأ القرآن وترتل ترانيم دينية بأصوات جميلة
منممة من بطن الريف ، الراوية حمام ، ومهمم الأديب حسن القاياتي وقد احتلوا ركنا
هادئا في مقهى الفيشاوى ، جماعة الصعيتيين فريق يترجمه الأستاذ المهيأوى يلتف حول
الشيخ مزوز ، فكاهة الحى ، وهو رجل بادن الجسم صغير الرأس ، في سرعة اليدين وحلاوة
النسكة وأهل الفن زكى طلبات وعزيز عبيد .

٨ - المولد النبوى

كتب الدكتور زكى مبارك (١٩٣١) يتحدث عن تقاليد المولد النبوى قال :

قبل المولد بأيام تأملت بعض مشايخ الطرق ومنهم ناس ظرافاء ، سألت ماذا اعترتم هذا العام
في مهرجان المولد ، فأجاب : تريد الزفة ، قلت نعم ، فقال : لقد رأينا لشدة الحر أن نلنى الزفة
في هذه المرة ، وإبتدأ المولد مبكرا وقد بكرت أنا أيضا لمشاهدته وقد لاحظت أن الجانب
الدينى سبق الجانب الدينى بأيام ، الأول لأصحاب الملامى والثانى للصوفية . أما الصوفية

فلم يبتعدوا موسمهم إلا متأخرين ، في حين أن أصحاب الملاهي أسرعوا ففصلوا خيامهم وأعدوا ملاعبهم في خفة ونشاط . أصحاب الملاهي يستفيدون ماديا من ملاعبهم . أما مشايخ الطرق فلهم يتهيبون نفقات الاستقبال من قهوة وقرفة ، وفول نبات وحصى مجوهر ولحم متعدد أو مسلووق ، لقد غشيت خيام الملاهي لأعرف بعض ما هناك . الشيخ شمس الدين شيخ السادة المرازقة ، زرته في خيمته مرتين واتفق أن أحد المريدين وقع منشيا عليه فسألت في خشوم من ذلك فأجاب : داخ فوق .

وقضيت لحظات في خيمة الشيخ التقنازاني ، وكنت أعلم أنه إستقدم الموسيقار عبد الوهاب للانشاد على حلقة الذكر : فأخبرني أنه لاقى في ذلك مشقة شديدة حيث قضى اثني عشر يوما يعلم محمد عبد الوهاب كيفية القيام والقعود ، حتى استطاع أن يؤدي المهمة . وفي خيمة الشيخ التقنازاني أديب مطلع هو الشيخ حسن النزال أحد أدباء نجم حمادي بالصعيد ، وللمصايدة غرام بالشعر البليغ والفصيح من الكلام ، وقد مررت بخيمة الشيخ الجبري وهو يعظ عند الشيخ حامد سلامة وهو زعيم من زعماء الشاذلية ، وكنت قرأت له فقرات في غاية الجودة ، وقد رأيت خيمته أكبر الخيام في ساحة اللواد ، ورأيت أتباعه أكثر عدداً من جميع المريدين .

٩ - الطرق الصوفية

وخففت الصحف بأخبار الطرق الصوفية ورجالها :

والصوفية مجلس أعلى : شيخ المشايخ السيد عبد الحميد البكري وهو نفسه شيخ السجّادين البكرية والوفائية ، وقد تلقى ذلك عن عمه الأديب المشهور محمد توفيق البكري هن أخيه عبد الباقي البكري . والطرق الصوفية في مصر : تضم : الطريقة السمدية : الطريقة النزالية : المرازقة الأحمدية ، الطريقة الشاذلية ، الرفاعية ، البراهمة ، القادرية ، البكرية ، السباعية ، الخلوتية .

الطريقة الدمرداشية : تولى المفور له عبد الرحيم الدمرداش الطريقة من عام ١٢٩٤هـ إلى ١٣٤٨هـ . فأحيأربعة وخمسين مولداً ، يقدر عدد رجالها الآن بخمسة آلاف شخص ، لم يحمل له خلفاء في الأقاليم ، من يريد الدخول فيها لابد أن يأتي القاهرة ويتقدم إلى شيخ الطريقة . وياقنه تقيب النقباء بحضوره ، وعبد الرحيم الدمرداش هو ابن مصطفى بن صالح أنا أحد المباليك الشراكسة الواليين لمحمد علي . تزوج والده من إحدى كريمي الشيخ محمد محمد الدمرداش ، وتوفي في ٥ فبراير ١٩٣٠ - ١٠ شعبان ١٣٤٨ .

رسالة الولاية

من عبد الرحيم مصطفى شيخ الطريقة الدمرداشية الخلوتية إلى صاحب الساحة السيد عبد الحميد البكري شيخ المشايخ الصوفية بالديار المصرية ورئيس المجلس الصوفي العالي .

حضرة صاحب الساحة :

السلام على مقام سماحتكم ورحمة الله وبركاته وبعد : فقد تميزت شيخاً لطريقة السادة الدمرداشية عام ١٢٩٥هـ في عهد جدكم المفور له السيد علي البكري ومعلوم لسماحتكم أن مشيخة هذه الطريقة في بيتنا من بدنها ، ومنذ ما عينت شيخاً لها بدلاً من المرحوم والدي بعد وفاته ، وأنا قائم بخدمة ما خير قيام ومشيد لأركانها وموطد لداعمها وصاهر على مصالحها ليل نهار ، ولم أفتر يوماً من الأيام في أقل واجب من واجباتها ، والآن قد أصبحت بفضل الله تامة النظام من الطرق الرفيعة التي يشار إليها بأطراف البنان ، وإنني قد بلغت سن الشيخوخة مع أنني حافظ لتقوى المقلية والأوصاف الشرعية ، ولا بد من يوم يلاقى كل إنسان فيه ربه ، وإنني أحب أن أكون في كل حين مطمئناً على طريقي حاملاً على ما يحفظ كيانتها في الحال والاستقبال ، وأريد أن أعهد في مشيختها لمن يقع في قلبي أن فيه الخير والصالح لهذه الطريقة ، ولما لم يكن عندي ذكور من الأولاد وقع إختيارى على سبطى عبد الرحيم مصطفى الدمرداش ، وذلك لما عهدته فيه من حبه للطريقة وميله إليها كل الميل وحضوره ممي في حفلاتها ، ولما أراه من كونه ميسور الحال

فيكون ذلك سببا لتوطيد أركان الطريقة ، ولقد لفتته المهة بحضور رجال الطريقة وكلهم راضون عن ذلك ، وإنى لازالت قائما بأعمال الطريقة باعتبارى شيخا لها ما مت حيا ، فإذا قضى الله عما هو كائن وهى سنة الله فى خلقه، فيكون من عهدت إليه فى هذا الأمر شيخا لها بدلا منى ، بدون منازع ولا معارض له فى ذلك ، وإذا لم يكن قد بلغ سن الرشد حينذاك فيكون الوكيل عنه فى إدارة شؤونها هو نقيب نقباء للطريقة وقتذاك .

فبناء عليه :

التس من سباحةكم صدور قراركم الكريم بذلك حفظا لسكان الطريقة واستبقاء لبيتنا الذى قام بخدمة الأزمان الطويلة ولما قدمته لهذه الطريقة من الخدمات الجليلة مدة حياتى والله أسأل أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير والسلام .

« إمضاء »

عبد الرحيم مصطفى الدمرداش

على أثر ورود هذا الكتاب لمقام الشيخة إنتدب سباحة السيد البكرى شيخين من شيوخ الطارق الصوفية وأعضاء المجلس الصوفى لميادة الشيخ الدمرداش والوقوف على حالته الصحية ومناقشته فى محتويات كتابه . وعاد الشيخان المرحوم الشيخ الدمرداش وقدما تقديرهما لسباحة شيخ المشايخ بأنه فى حالة عاديه، واضح الحديث مستقيم التفكير حاضر البديهة ، وقد أكد لهما أن رغبته فى إسعاد مشيخة الطريقة من بعده إلى حفيده عبد الرحيم مصطفى مختار الدمرداش هى رغبة جديده .

وتوفى عبد الرحيم مصطفى الدمرداش بعد ذلك بشهر تقريبا ، ونعتة المشيخة العامة إلى جميع مشايخ الطرق الصوفية الذين شهدوا تشييع جنازته بأتباعهم وأعلامهم باعتباره واحداً منهم كما هى عادتهم، وقد تلقى سباحة شيخ المشايخ طلبات عن محمود رشيد القاضى ، الدكتور محمد بدر الدين ، كامل محمود عثمان الدمرداش رغبة كل منهم فى أن يمين شيخا لطريقة السادة الدمرداشية، باعتبارهم من أفراد الأسرة ومن بيت المشيخة ، الأولان من بنات اخوات المرحوم الشيخ الدمرداش الإناث والأخير ابن أخيه لأمه ، ورفض المجلس الصوفى

طلبهم عند عرضه ، إذ ثبت لديه أنهم جميعا لم يسلكوا طريقة السادة الدمرداشية ولم يلتفتوا عهدها ولا ينفذون أولادها وأحزابها ولم يمارسوا خلوتها ولا أذكراها ، وهى الشروط واجبة المراهاة فيمن يعين شيخا لأى طريقة صوفية .

وأنحصر الطلب فى ترشيح حفيد شيخها المتوفى لأنه معزز بطلب شيخ الطريقة فى حياته . وتأيد هذا الترشيح من تقياء الطريقة الإثني عشر ، وهم فى الدرف أصحاب التحدث النبائى عن سائر رجالها ، ووصلت عرائض بتأييد هذا الترشيح مقدمة إلى سباحة شيخ المشايخ من أعيان رجل الطريقة الدمرداشية وبهم عدد من العلماء والأعيان والتجار والموظفين ، وعدد يربو على الأربعين من علماء الأزهر ومدرسيه وكلهم من أتباع الطريقة الدمرداشية ، الشيخ محمد الحلبى أحد أعضاء هيئة (هكذا كانوا يكتبونها) كبار العلماء بالأزهر .

ثم إن عقد المجلس الصوفى المالى للنظر فى تعيين شيخ لطريقة السادة الدمرداشية ، وأصدر قراره بتعيين الشيخ عبد الرحيم الدمرداش التاجر شيخا للطريقة وسمى خصوم الشيخ الجديد جهدا لإثارة الحكوك حول هذا التعيين ، واعتراضوا لدى وزارة الداخلية . وأحالت الداخلية اعتراضهم إلى فضيلة مفتى الديار المصرية ، فأفتى بما أفتى به ، طبق نصوص مذهبه . وردت المشيخة على فتوى فضيلته . وعاد فضيلته تفقد رد للشيخة ، وأصرت المشيخة على قرارها معانة أنه ليس هذا هو الأول من نوعه بين مشايخ الصوفية وأن هذه الوراثة تقليد من تقاليدهم ، لو عدل عنها لهدمت بيوت ولتفرق أتباعهم .

١٠ - أصحاب اللحي

تحدثت الصحف فى مجال الدعاية عن ثلاثة من أصحاب اللحي : الدكتور عجوب ثابت والدكتور أحمد فلو ش وحسن شافى الجبزاوى . قال الدكتور عجوب ثابت : أطلقت لحيتى منذ ٣٥ عاما زهدا . ففى عام ١٩٠٣ بدأت أطلق لحيتى سنة ، وكنت قد أحسست قبلها بانصراف عن الدنيا وميل إلى الزهد ، وكان للحية فى تركيبها مقام كبير فهى علامة الوفاق الاحتشام كما أنها توحى إلى نفس صاحبها بكثير من معانى الرجولة والمظمة .

وقال الدكتور غلوش : إنما أطلقناها تصوفاً فقد أخذت المهد على شيخى المرحوم
عبد الله البنا شيخ الطريقة الخلوتية بالإسكندرية وكان الناس يعتبرون به ويعرفون فضله،
وأنا الآن مسلك على الطريقة الشاذلية والطريقة الخلوتية . وقد وضعت رسالة عن التصوف
في الإسلام باللغة الإنجليزية قدمتها لجامعة بروكسل ، كما قررت جامعة بوسطن منحني لقب
دكتوراه شرف في الآداب . ولستكني مع ذلك لا أفخر بهذا اللقب قدر ما أفخر
بأنني «مسلك طريقه» ، لقد كنت في شباني عياقة كمثل شباب هذه الأيام ، ولستكني بعد
أن درست كتب الإمام الغزالي منذ أكثر من عشرين عاماً سنة ١٩١٥ . انجبت نيتي إلى
التصوف تقرباً إلى الله وزلفى .

وقال حسن شافى الجيزاوى : اللحية فضلاً عن كونها مظهراً دينياً فإنها تدعو
أصحابها إلى التزام الوفاق والاحتشام والحفاظ على الآداب .

١١ - لباس الرأس

كانت لحركة تغيير لباس الرأس ممارك وتطورات وهذه صورة منها :
(توفيق الحكيم) دعوت إلى خلع الطربوش وليس القبعة ليس فقط لأسباب صحية واجتماعية
ولكن لسبب آخر هو مركزنا الدولي كافة بين الأمم ذات الحضارة . لا يدعش شي مثل أولئك
الذين يستنسخون ليس القبعة ، لأن ذلك تقليداً للأوربيين ، أن فكرة التقليد نفسها
أصبحت الآن لا محل لها ولا معنى ومع ذلك فهل نحن لم نقلد العالم المتقدم في كل شيء .
(الدكتور سليمان عزمي) : إن مسألة لباس الرأس مسألة عادة وقليل منها ما يخص
الطربوش ومن يزعم أن الطربوش يحدث عند لابسها إستعداداً لضربة الشمس رددت عليه
بأن الإصابة بضربة الشمس إنما ترجع للاستعداد الشخصي .
ولا يمكن القول بأن القبعة يشسكلها الحال تمنع لطشة الشمس لأننا إذا أردنا غطاءاً

للرأس يستوفى الشروط وجب أن يوافر تنطية الصدفين والقفا . ومن أراد حقيقة لباسا للرأس بقى لطشة الشمس فمليه بالمائة المستعملة في جنوب الصعيد . (ذات الرفارف)
إن العالم يجتاز الآن موجة ترمى إلى هدم تنطية الرأس بالرة .

١٢ - التمثيل

كتب عبد الرحمن رشدي فصلا عن : ذكرياته في التمثيل قال : ذاع في الإسكندرية خبر مؤذن جامع (ترابنة) وتناقلته الألسن فوصل خبره إلى اسكندر فرج الذي كان له مسرح باسمه في شارع عبد العزيز فاستقدم الشيخ - لاهه (حجازي) ومنحه مرتباً لأبس به ، وأخذ في تدريبه على الأدوار الرئيسية . صارفا كل همه في استغلال هذا الصوت المذهب المدهش .

وقد استقبلته الجماهير بتشجيع لم يتلافى قبله ، فقد عرف كيف يملأ مركزه ويصادق على حسن ظن الجمهور فيتقدم بقدوم ثابتة . . وكان أحمد الفار القديم وناجي وسيد قشعة أول من جاء بالتمثيل السكوميدي ، ومن البلاهة أن يقول أحد أن أولئك كانوا أرق من السينما والتمثيل الهزلي ، ولكنهم كانوا على الطبيعة وكانت أعمالهم أدخل إلى النفوس نخلوها من عنف التأليف والتسكاف الذي نراه في التياترات . وكانت طائفة الأدبانية يرتجلون الأزجال الآخذة بمجامع القلوب .

١٣ - الفكاهة

مازال اسم الشيخ حسن الآلاتي معروفا لدى الذي شاهدوا رجال الجيل الماضي ، وما كان لهم من أدب وفكاهة ونوادر ، وقد أشتهر من ظرفاء الجيل الماضي بمضحكانية التي أسماها « المضحكة الكبرى » للمضحك والتفكيت . ، كان حسن الفكاهة لطيف النادرة جذابا في أحاديته . يمجيد الزجل بأنواعه . رأى أعضاء هذا الحرب

أن البيوت لا تنسع لعدد كبير، فاختاروا مقهى في شارع الخليفة بمى السيدة زينب بالقاهرة، أطلقوا عليه اسم (المضحكة الكبرى) واختاروا له رئيسا هو الشيخ حسن الآلاتي وأطلقوا عليه اسم (الشيخ المتيد). أطلق الرئيس على وزرائه أسماء: ناظر مقاطف، باش مقترى، يسرع التراب، بلطجي وخاب إلخ وابتدع أمام المبد طريقة القفص في الصحف الهزلية فكان أول من برع من الصحفيين الهزليين. كان من زبائن ملاهى الأزبكية يجتمع بحافظ إبراهيم والبايلي في قهوة بشارع خيرت، ومعه عبد العزيز البشري، وحسين انترزى، أمام المبد هو صاحب فكرة نادى البؤساء الذى يتمدد تحت شجرة على رصيف ميدان لاظوغلى برئاسة وعضوية حافظ إبراهيم وخليل نظير وأحمد فؤاد صاحب الصاعقة.

X وعبد البايلي وحفنى ناصف وأبو النصر النفاوطى ومحمد عثمان جلال وعلى القيثى، وعمود ثابت وعمود لاشين وإبراهيم ناجى.

١٤ - الأغاني الشعبية

حفلت الصحف طوال هذه الفترة بأبحاث ودراسات وكتابات مختلفة عن الأغاني الشعبية والأناشيد القومية، وقد إنصل ذلك بقوة ١٩١٩ وما ظهر خلالها من أناشيد، وقد أشارت هذه الكتابات إلى أن الأغاني قبل الحركة الوطنية كانت مبتذلة تحدى الأذان فلما جاءت الحركة هذبها، وكان سيد درويش أكثر اتجاها، وقد ظهر التجديد فى الأغاني فى روايتى « هدى وشهر زاد » ورواية هدى هى التى انتشرت بها فرقة عكاشة مسرح الأزبكية ١٩٢٢ (عمر عارف) وكانت مقدماتها على هذا النحو:

« بلادنا نعيمنا ، هفاؤنا ، أنا فداؤها ، نحب بلادنا ، تعين » ومن بينها أغاني رواية العشرة الطيبة ، وأعلن عن مسابقة لنظم النشيد الوطنى المصرى فتقدم للمسابقة ٥٩ شاعرا فاختارت لجنة النشيد أنشودة شوق وكتبت جريدة الأهرام افتتاحيتها

في ١٩٢٠/١١/٢٧ عن النشيد القوي فقالت : أشهر أناشيد اليونان من أناشيد أورفه
وهوميروس وكاليك وأشهر أناشيد الرومان أناشيد هوارس . أما العرب فإن لكل
قبيلة منهم أناشيداً ، وتقدمهم في ذلك السريان فوصلوا إلى مفتحي البلاغة في أناشيدهم
حتى قيل أنهم حفروها على جدار الصين لما انسم ملكهم اناسا عظيماً ، حتى أنهم وجدوا
من آثارهم على سواحل الاوقيانوس الأطلنطي ، وكانت الشعوب جميعاً تنشد أناشيداً
في الحروب فتثير هم الرجال بتلك الأناشيد . وقال مؤرخو اليونان الحديثة والبلغار
أن الذي حفظ اليونان من الضياع ، أناشيد أجدادهم ورجال دينهم وكلا العاملين كان
باعثاً للحياة ولم يكن الأناشيد من الأمور الدينية أقل منها أهمية في الأمور الدنيوية .

ويستهل شوق نشيدة على هذا النحو :

بنى مصر مكانكرو تهيأ فها مهدوا للملك هيا

وقد غناه الشباب ، ثم انصرفوا عنه وفي ١٩٢٢ نظم مصطفى صادق الرافعي
نشيده المروف :

أصلى يا مصر إننى الفدا ذى يدي إن مدت الدنيا يداً
وناصرته جريدة الأخبار ، ثم نظم عباس العقاد نشيداً وطنياً عام ١٩٣٤ وجرت
ممركة أدبية بين مصطفى الرافعي والعقاد في المفاضلة بين النشيدين ، ثم عقدت سنة ١٩٣٦
مباراة في النشيد القوي نظم فيها نحو مائتين من الشعراء ، وفاز منهم : محمود صادق ،
والرافعي ومحمد المراوى ومحمد فضل إسماعيل . وكان نشيد الرافعي يبدأ بقوله :

إلى الملا إلى الملا بنى الوطن إلى الملا كل فتاة وفقى

وقد وضع له الشيخ حسن الملوكة النوتة الموسيقية

الأغاني القومية

وكتب عبد الفتاح عباد سنة ١٩٢٦ عن الأغاني القومية التي تستحق البقاء فقال :
مادخل على الفتياث في حذورهن والمواتي في حجابهن أضر عليهن وأدعى لأن يتورطن من
هذه الأغاني والألحان الملوثة بجراثيم الفجور . ألم تسمع تلك الحفاجر المطربة بأوتارها الزناة
ذات الصوت الشجي الرخيم ، وهي تدفع في آذان الجمهور ميكروب الفساد ، وجراثيم هجر
القول وخشخشة مع ما تدفع الأغاني .

ألم ترى السم يسرى في أحشاء هذه الأمة ، وينساب في عرقها النابض . وشبابها
النض عدة المستقبل ، بفعل الموسيقى ، وما أشد فعلها في النفوس ، وأخطر أثرها في الأخلاق .
ومن في الحياة ينسكر ما للموسيقى والأغاني من الخطر وعظيم الأثر في تكييف تربية النفوس
وتوجيه الميول وإيقاظ المواقف وتنبيهها وفعلها بالاجمال في الأخلاق وفي الحياة القومية
والتربية الوطنية ، وقال « المصور » أن شركات الترفيه لا تدون على أقراصها إلا الأدوار
للشهرة المتداولة .

* * *

وقد تناول الأستاذ العقاد موضوع الأغاني بين الأمس واليوم قال : أغانينا اليوم ليست بخير
ولا أجل من أغانيها بالأمس ، وربما صح أنها تأخرت من جهة المعنى والصياغة عما كانت عليه
قبل جيل أو جيلين حيث يمكن تقسيم الفناء إلى عهد الحجاب وعهد الشهور .
في عهد الحجاب كان للرجال غناء وللنساء غناء . غناء النساء بين أيدي العوالم والراقصات
وبنت الهوى ، وكان يغنى ويسمع في حدود الحجاب ، فيقال فيه كل ما يطيب للعائلة أو الراقصة
أو بنت الهوى أن تغنى به ولا حرج فيه عندهن من السخف والتكشيف والإباحية .
أما غناء الرجال فقد كان غناء الطبقة الممتازة من الأمة ولا سيما الرؤساء والسكبراء
وذوى الهيئات ، لم يكن نظم الحفلات العمومية مرفوقا ، في تلك الأيام ، وهي الحفلات
التي يحضرها السامعون بتذاكر .

× ثم انطوى عهد الحجاب وتلاه على التعديج عهد السفور ، وشاع في المواسم والمدن نظام الحفلات الصومية والتذاكر المروضة ، وظهرت السيدات والفتيات في تلك الحفلات وأصبح الحسك على الأغاني مسألة عدد كثير وجمهور مزدحم لا مسألة ذوق واختيار ، فكانت النتيجة أن الفن القدي كان في أيدي النخبة الممتازة من الرجال أصبح ممرضا لسيطرة المرأة وهي في بواكير نهضتها قبل أن تستوفي تلك النهضة حظها من النماء ، وأصبح ممرضا لسيطرة الجماهير التي لم تستوف حظها من الدراية والتهديب ، ونظر هؤلاء هؤلاء إلى النماء نظرة حسية جسدية لأنهم لم يستطعوا أن تيطروا إليه نظره فنية روحية ، كما ينبغي أن ينظر إلى الفنون المالية ، فنزابة ذلك عجب من العجب . فن أكثر المشيعين لنقاء أم كلثوم الرجال بلا جدال ، ومن أكثر المشيعين لنقاء عبد الوهاب النساء ولأمراء ، وعلى هذا لا موضع للدهشة إذا لحظنا أن غناء عبد الوهاب يكثر فيه الحنين والتوجع والشكاية ، ولحظنا أن أم كلثوم لم تلحق به في هذا المضمار ، وقد كان المقول والمنقظر أن نسبه بمراحل ، ومنذ عشرين سنة دخلت الألحان والأنغام عندنا في دور جديد ، تصرف الماحزون في الوفاق بين الأغراض والآلحان ، وجعلوا الماحن لمة مفهومة تضاف إليها لمة الكلام ، وتوسع الماحفون في الاقتباس من الموسيقى الغربية والشرقية بل من الموسيقى الشعبية في مصر وفيها كثير من الأنغام السهلة التي بقيت على الفطرة ولم تفسدها ركاوة الترفيف في عصور الضعف والانحلال ، منذ عشرين سنة ظهر سيد درويش القدي بعد بحق أمام فن النقاء الحديث ، ومنفى المذهب القدي بمضى عبد الوهاب على طريقته .

١٥ - الأفراح الشعبية

هذه صورة الأفراح كما كانت ترسمها الأصناف :

جرت عادة الجمهور في المبالغة أن تقول عن الفرح المشهور أن صاحبه أقامة أربعين ليلة وليلة . ومن حق الفن علينا أن ننزو تقدم صعاة النقاء والموسيقى وتطورها إلى هذه الأفراح والموالد ، لأنه لم يكن في مصر مسارح ودور للدهى ، إلا بمض القهاوى ، لم يكن النقاء مقصوراً على الرجال فقد كانت هناك جماعة الدوام ، وكان لمن غناء خاص بهم اشتقت منه الطفاطيق ، على أن بمض المالمات (الدوام) قد برعن في غناء الرجال مثل « المظ » زوجة عبده الجولى ، والست اسبا السكسارية وقد كانتا مضرب الأمثال في تقاء الصوت وموسيقية ومهارة الأداء واتقان الصنعة ، وكان في مصر جماعة من المهرجين والبهلوانات والمضحكين يميون ليالى الأفراح ويمرضون بضاعتهم في الموالد داخل صواوين أو وسط حلقات فى الهواء الطلق ، ربما كانت القيلة السابقة ليلية الدخلة لا تقل عنها ابهة واحتفالاً . لكن الصباحية وهى صبيحة ليلة الزفاف كانت أعل زينة وبهجة وحبوراً .

أما زفة العروسة فملى نوعين نوع يسير فى الطريق من دار أبيها إلى دار زوجها ، والنوع الآخر يمتزق حجرات للزل، وزفة الشارع كانت تسير على نطاق متفق عليه . فى المقدمة تجمتد المهرج الذى يرتدى لباساً من الجلد ويمسك بيده قطعة من الجلد على شكل الطاقية ويضرب بها على يديه وتغذه ويثب فى الهواء ويتشقلب ، ويحىء بده الطباون على الجبال يتقدمهم شاعر ربابته وكل جل يمسك به رجل فى الزى العربى ، وأمام الشاعر أبطال زائنون فى زى العرب أيضاً ، يدهم بنادق وسيوف غير سالحة للفتك ، يتظاهرون بالسكر والنر والمهجوم والهدام ، وفى بعض الأحيان كان يسير بدهم موكب ملك يشبه كثيراً ملك بيت التمثيل إيهاما بأنه صاحب الأمر والذى تنازل فسار فى موكب العروسة ، ومن حلف الجبال يتهادى التختروان

«وهو حجرة من الخشب تنهات عندها صناعة التجارة العربية (الأرابسكا) وزخرفت
بالصدف والماج والأبنوس .

ثم بعد ذلك (الطبل البلدى) والمادة هي أن الفخوات كانوا ينهزون فرصة مرور
الزفة ، فيستوقفونها ليظهروا براعتهم في الرقص بالمصى ، وكان بعض الفخوات يترصون
الزفة القادمة من خط أى حى يمدونه فيقفون في وجهها وتدور بينهم وبين فتواتها معركة
حامية ، وأكتر ما يحدث ذلك في حى الحسين . وبعد الطبل البلدى تجيء المزينة . وقد
اشتهرت من بينها مزينة حسب الله ومزينة فرحات ، وتتألف من فلول الموسيقى الأميرية
وموسيقى الجيش .

ثم تأتي عربة مزدانة بالشيلان السشميرى والورد وحولها جماعة الضوية بصيغون
«ثاقلين» هو السعيد الى يصلى على النبي (وكانوا يرتدون لباسا واسما مصنوعا من قماش اسمه
(النباني) . وعربة المروسة يجرها جياذ أربعة ويركب خلفها مملوك كان يلبس كل منهما بذلة
خامسة وطربوشا أحمر ، وخلف عربة المروسة تسير عربات أخرى من صف (السكوبيل)
المنقلة، ويتولى الأشراف على الزفة رجال يثق بهم والده المروس وكفت تسمع الزغاريد تنطلق
من العربات كلها إذا كانت الزفة لأولاد البلد . ويرش الملح على صيحات (ملححة في عين
الى ما يصلى على النبي) ومتى وصلت المروسة نزلت من العربية وسارت في دهليز من الخيام ،
هناك تدير الفخود وتظل تبدر حتى تستقر على كرسي خاص يسمى الكوشة .

وتزف المروسة داخل المنزل الموالم بالأغنية المشهورة « أعططرى ياحلوة يازينه » . .

وتسير المدعوات بين يدي المروسة حاملات الشمعدانات وباقات الورد ، وتبدر عليهما
قطع الذهب المسمى (الخرجات) . وعند ما يصمد العريس قادمة من زفته التي تخترق الشوارع
تزف المروسة ثانية معه .

الشاعر على الرابطة

قصص أبو زيد الهلالي ، الوزير سالم ، الظاهر بيبرس ، عنتر بن شداد ، الأُميرة ذات
الهمة ، على الزبيق المصري ، ينشد على الرابطة بتوقيع موسيقى . فى القهوة بعد صلاة المشاء
حيث يقوم الشاعر فى الأسواق والوالد بانشادها .

وكان الجمهور ينقسم فريقين فثلا كان الأُكثريه يتشيمون لأبي زيد الهلالي ويسمون
أنفسهم بالهلالية والآخرى يتشيمون لزناتى خليفة ويسمون أنفسهم (الزغابة) .
ولا شئء كان يزعج الجمهور إذ ذاك كرفع البطل فى ورطة أو إصابته بعملة ولكنهم
يتفون فى فوزه وانتمصاره . فإذا فاز على خصمه وإجتاز المقات فرحوا واعتبطوا وقد اعتاد
بعض المحدثين والشمرء أن يأخذوا قسطا من الراحة ساعة يكون البطل فى موقف حرج
موروطا حائرا .

١٦ - المجتمع بعد ثورة ١٩١٩

كتب الشيخ محمود أبو العيون عدة مقالات (١٩٣٤) تحت عنوان: «بأنظمة الأخلاق في عهد الحرية»: قال كانت ثورة الشعب ١٩١٩ ونتائجها من الناحية السياسية بقدرها «دهافين السياسة»، أما هذا الكاتب فإنه لا يشك في أن نتائجها من النواحي المختلفة كانت من أكبر الشرور والويلات على مصر، فالناحية الدينية والناحية الخلقية والناحية الاجتماعية قد تصدعت وعصفت بها المواقف والأزواء فما كنا نراه من الصفات الحميدة، والآثار الحميدة في تلك النواحي، أصبحت الآن لا يحملها الناس فيما بينهم محل الاستحسان ولا ينظرون إليها بعين القبول بل قابلوها بما شاءوا من الإغفال والإهمال.

إن الفضائل والأخلاق والآثار الأدبية لا تتأثر بالظروف ولا حكم للحوادث عليها فهي ثابته، ولكن تقديرها ووضعها في منزلتها الملائمة لشرفها والوقوف بها عند حدها، كل ذلك يختلف باختلاف الأغراض التي تتولد في النفوس، فالنفوس قبل ثورة ١٩١٩ كانت بعيدة عن الأغراض والهوى، فكانت أحكام الدين والأخلاق وقواعد الإجماع التي تواضعت عليها الأمة تدرك مقبولة متمدة، أما الآن فقد غشى الناس ما غشهم من طغيان المدنية وسحرهم من يهرجها الزائف ما جعلهم في فتنة وضلالة فاقبلوا ساخرين بكل كاذب.

إن الناس بما أصابهم من الشكوك والريب فقدوا الثقة في كل شيء حتى في أنفسهم، وأصبحوا يفتقون بأزاء ضرورات الحياة موقفا حرجا وجملهم من بعضهم في شبه هزلة، لا يكاد يلوى أحدهم على أخيه إلا مصلحة مشتركة، والشباب المصري كان زينة الشباب، أصبح بعد الثورة والحرية أرجوحة في يد الأهواء وعبث الأيام فقد فقد قداسة العقيدة والثقة بالنفس وشرف الحرية وعزة الوطن.

إن القحط الخلق قد أصاب أكثر جمعة الشباب فأوى بينهم الروابط الإجتماعية والشعور بالواجب ، أصبح الكثير من شبابنا يحذقون اللق والكذب والافتاق ، ويألفون القلة والهموان والضمة ، وأصبحت الكفاءات والمؤهلات بمقدار ما يبذله الشباب لرئيسة من التخصم والمداهن والرشوة ، وبعد أن كانت قيمة العاملين بما يحسنون من الأعمال أصبحت قيمتهم بمقدار ما يعرفونه من وسائل الزلق للرؤساء . وبذلك نعلم سر ايثار هذه (الأممات) على غيرها الباهيين .

وقد جعل كثير من الشباب ينعمون بتلك الحرية، ويزرعون إلى الصبوة والفناء في محبوبته . وما هي إلا أن جنحوا إلى الدعة والترهل ، ولم يتحرجوا عن مقارفة المآثم الفاجرة . ما أعجب ما نرى من أولئك الشبان أنهم بذلك يهدمون الخلق والفضلة والشرف . أنهم لم يخلقوا أنانا ولكنهم خلقوا شبابا ليؤدوا رسالة الجيل الماضي إلى الجيل المستقبل ، حشيت أفسكار الشباب بصور الأوهام الفاسدة ، والهفوات الشائنة ، وأنهم في مقدمهم ومراجهم يحملون أوزاراً وأناماً من الفاظ مستهجنة ونظرات خائبة .

وفي مواسم الصيف نجد الشبان يقيمون عرائشهم (أكشاكهم) على شواطئ البحار . ويقيمون فيها المقاصف وصفوف الملاهي، لا شيء أفضل للفضيلة ولا أذى للرودة ولا أخط لسكرامة الشعوب من تلك الإباحية الخاسرة ، هذه هي نماذج الحرية التي أهدناها بالمذابات الأليمة والدم المسفوك ، أينما الحرية كم لك من صرعى . .

إن ثورة ١٩١٩ قد تركت أثراً بالنا في آداب الامة المصرية وأخلاقيها ولكننا لا ننهم أن ما كنا نسميه نهضة سامية ترمز إليها بالتأثيل وتقيم لها الانصار ، وما كنا نود أن نأخذ من معناه كاله الاوفى يحور إلى انتكاس واضمحلال في كل معاني الحياة الناهضة . تقول أن ثورة ١٩١٩ التي طأطأ لها التاريخ اجلالا وهومت لها الامم إكبارا وإعظاما كانت في حياة مصر نجرا كاذبا لمع ثورة في أقالها . كلسان الشمة ثم خبا وأظلم وما نحمد في ديمور الظلم نأشهن حيارى -

١٧ - توت عنخ آمون

كان كشف قبر توت عنخ آمون عام ١٩٢٢ حدثاً ضخماً إشتراك فيه كارنافون وكارتر وقد توفي اللورد كارنافون مكتشف قبر توت عنخ آمون ، بالأقصر في أبريل ١٩٢٣

قالت الأهرام في أوائل هذا العام: دخل اللورد كارنافون الحجرة المقدسة من مدفن الملك توت عنخ آمون في الأقصر وكان الناس يجهلون من هو ذلك اللورد حتى في مصر رغم بقائه سبعة عشر عاماً بمصر وقيم مع شريكه كارتر في وادي الملوك وفي يوم وليلة تبوأ اللورد كارنافون أعظم مركز في العالم فان رجاله ما كادوا يثرون على درجات قبر توت عنخ آمون ويدخلون الترفة الأولى ويرون كنوزها المكسدة المدهشة ، حتى كانت الجرايد في ممالك الأرض ومنارها قد أذاعت الخبر ودفعت اللورد كارنافون من مستوى الباحثين الماديين إلى مراتب أشهر رجال التاريخ والعلم والاختراع ، وقد توفي اللورد بالموت العاجل الذي حار العلم في تأليه غداة نبوته ذلك المقام الخليل فن لسة ناموسة مصرية صغيرة إلى تسمم في الدم إلى ذات الزنة وكان له استئثار بالسلطة في وادي الملوك والتجيز في إعطاء الأخبار لجرائد بلاده، وقد جاء الاكتشاف في وقت تسمى فيه الامة المصرية إلى نيل استقلالها وحريتها واستعادة مجدها فسكان عمل اللورد أشبه برفع الستار عن ماضي مصر والمصريين أمام العالم، بأن المصريين هم سلاة أولئك المراعنة المظالم الذين سبقوا العالم في المدن والمعمران وها هو مجدم الأمثل .

وتحدث اللورد كارنافون عن اكتشافه فقال : في ٥ نوفمبر ١٩٢١ كان المستر كارتر يعمل في مكان لم يستطع مسه من قبل لانه كان أمام مدفن رمسيس الرابع، وهو مقصد الزوار والسياح فتم على درجة عمقورة في الصحراء فواصل إزالة التماس، وبعد ما كشف درجات أخرى بلغ جداراً منطلي بالسمنت وعليه أختام المدافن الملكية والتهم مؤلف من نسمة

أسرى واقفين في صفوف وفي كل صف منها ثلاثة ونوهم ثعالب رايبس وهو ختم لا يستعمل إلا في الأجزاء الملكية في مدائن طيبة . وبعد ما خص المستر كادرت السقوف فحسا دقيقا أرسل إلى يقول أنه عثر على اكتشاف بديع ثم عاد فرهم المسكان ومكث ينتظر وصولي إلى مصر من إنجلترا .

ولما وصلت إلى طيبة شرعت في الحال في إزالة الردم وقضيفا نهاراً بطولة في صنع باب من الخشب على منوال (الشمرية) وأحكنا غلقه بأربعة أقفال احتياطاً من السرقة . وفي اليوم الثاني بدأنا تطهير المدخل (الدهليز) فوجدنا أن طوله نحو ثمانية أمتار، وكنا نلقى أشياء كثيرة معظمها مكسور في طريقتنا وكان من جملة ما لقيناه صندوق محطم ومنقوش على ضلعه إلا على أسماء عديدة ضمن حلقات بيضاوية ، وكأنا أكلنا تطهير المدخل بلننا باباً مخفوقاً أو جداراً عليه عين الاختام التي على الجدار السابق ، ففسد لنا: هل يمكن أن يكون وراء هذا الجدار سلم آخر مسدود ، أو هل أننا سنبلغ غرفة أخرى من الغرف وكلفت مستر كادرت أن ينزع بضعة أحجار، وينظر إلى الداخل فعمل ذلك في دقائق معدودة وأدخل رأسه في الثغر فتمكن أن يشاهد ما في الداخل على نور شمعة وتلا ذلك سكوت عميق فسألته بصوت مرتجف ما هذا ؟

فأجابني : إن هناك أشياء هجينة غريبة . فكان جوابه بشرى عظيمة وزل من مكانه فذهبت أنا وكريمي إلى الثمرة وعسر على أن أضبط شدة إنقماي، فإن كل ما تقع عليه عين الناظر لأول وهلة في نور الشمعة الضئيل يبين لي أن هذه الأشياء ليست سوى مقاعد عظيمة مذهبة لها رؤوس غريبة وصفاديق صغيرة هنا وهناك .

ثم وسعنا الثوردة فتمكن مستر كادرت من الدخول إلى العرفة وهي أوطأ من أرض المدخل ، ولما أخذ يطوف في أنحاء العرفة على نور الشمعة علمنا أننا عثرنا على شيء غريب لم يسبق له مثيل على الإطلاق، فإن الإنسان كان يستطيع أن يرى حتى على نور الشمعة

«الضئيل مجموعة عجيبة من الاثاث والتماثيل وبمد ماوسمنا الفتحة قليلا ، دخلنا الغرفة وأدركنا هذه المرة حق الإدراك عظم الاكتشاف ، وكنا قد أوصلنا النور الكهربائي إلى المدفن الذى فوقنا فيمكننا بذلك من فحص الموجودات بدقة .

لجنة الفراعنة

وتردد الحديث عن : « لعبة الفراعنة » فقال الدكتور محرم كمال :

أول من أصابته اللعنة : اللورد كارتفون ، صاحب إمتياز الحفر للكشف عن توت عنخ آمون ويذكر أن مقبرة توت عنخ اكتشفت فى نوفمبر ١٩٢٢ غير أن غرفة المدفن التى كانت تحتوى جثة الملك بقيت مغلقة وظل بابها مسدوداً حتى فبراير ١٩٢٣ .

وقد ظهر يوم ١٦ فبراير ١٩٢٣ كانت الشمس ترسل أشعتها المشرقة فى ذلك الوقت . كان نحو العشرين من الأشخاص بينهم الأستاذ بريستيد يستعدون لدخول المقبرة ليقوموا بهدم باب غرفة المدفن ، إلى ذلك الباب المسدود المحنوم الذى ظل أربعة آلاف سنة مغلقاً مختموما لم تمسه يد بشر . فى هذه اللحظة الرهيبة أراد اللورد كارتافون أن يمزح فإذا به يقول : إننا لا شك مقيمون حفلة موسيقى وسحر فى ذلك المكان الذى ستنزل إليه فى داخل المقبرة .

١٨ - أمير الشعراء

وصف أحمد شوقي بأنه أمير الشعراء فكيف جاء هذا القلق، يقول داود بركات رئيس
محرر الأهرام (١٩٢٦/٥/٩).

منذ ربع قرن ونيف جرت على لسان «الأهرام» كلمتان في وصف أحمد بك شوقي
وشعره الذي كان الأدباء بل الجمهور كله خاصته وعامته يرقب نشره على صفحاتها في كل
ظرف من الظروف كالأعياد والحوادث الجسام، فقلت في وصف أنشاعه «أمير الشعراء»
وقالت في وصف شعره «الشوقيات» لأن هذه الكلمة تتضمن في نفسها كل تعريف،
وفي هذا التعريف كل مدح، فأقر هذا الوصف بل التعريف الكتاب جميعاً، وأقره الشعراء
ذاتهم ومن وراءهم الجمهور، وما كان ذلك تبرعاً لأحمد شوقي وشعره، والناس مطبوعون
على الضن يمثل هذه السمات والأوصاف، وقد يما قالوا: كل ذي نعمة عسود، وقالوا «والسبل
حرب للسكان العالي» ولكنه كان حقاً يؤدي لصاحبه ولم يكن هذا الثوب عادية يزول
بل كان الثوب الصحيح ثبت وبقي وازداد مع الزمان رواء وجمالاً ومقانة.

فلماذا استحق «شوقي» هذا الوصف ولماذا بقي بلقبه بهذا القلق ذلك الاجماع : سؤال
يرجع إلى الجواب عليه إلى تعريف الشعر، وهل وصل شوقي منه إلى القدوة حتى صار أميره
وحق صار شعره إذا نسب إليه في غنى عن كل مدح أو هو فوق المدح المتعارف بين
الناس، ليس غرضنا اليوم درس شعر شوقي وما فيه من الروائع، فان ذلك لا يقتضي لباحث
من الباحثين استقناؤه إلا إذا كان كل ما نظمه شوقي مبسوطاً لديه في مجلداته الأربعة التي لم
يصدر فيها الآن سوى مجلد واحد، وكل ما تقصده، والعجز الأول من الشوقيات أماننا
أن شوقي كان «أمير الشعر» بلا مفازل لأن صفات الشاعرية توافرت لشعره
كل التوافر.

١٩ - جمال الدين ومحمد عبده

نشر فتح الله بركات مذكراته التي كانت عليها عليه سعد زغلول في مفاه وقد تناولت هذه المذكرات شخصين هامين هما جمال الدين ومحمد عبده قال (١٤/١/١٩٢٢):

إن سعدا حدثهم في مساء ذلك اليوم عن السيد جمال الدين الأفندي فقال : نفي السيد جمال الدين من بلاد الأفنان فجاء إلى مصر واحتضنه رياض باشا وجعل لي مرقتا قدره عشرة جنيهات شهريا، وكان رجلا واسع الفكر قوى الذاكرة جدا حلو الحديث ، جذبا لسكل من سمعه ولم يكن واسع العلم ولكن ما اكتسبه من سياحته المديدة ومشاهداته المستوعبة وحرية فكره ، كل ذلك جعله يجلب ألباب سامعيه، فيثأثرون بأرائه ويتعرفون طريقته تعلم العلم الصحيح ، وكان يلقي دروسا في منزله فالتف حوله كثير من طلبة الأزهر وفي مقدمتهم محمد عبده وإبراهيم الهلباوى والسيد وفا زغلول (سعد).

وإليه يرجع الفضل في تحيين التحرير باللجنة العربية النصيحة بعد ما كان ملودا لحنا، وغلطا ، وكان يحث تلاميذه على أن يكتبوا ما سمعوه منه من المحاضرات ثم يتلوه عليه. في اليوم التالي من مجلسه فكان ذلك داعيا لأن يتبارى التلاميذ في هذا المضمار، وثانيا: سعى في نشر الجرائد وهو القى سعى في تأسيس جريدة الأهرام وغيرها، ثالثا: سعى في تحرير الفكر من قيود التقاليد ، وقد كان الفاس قبل ذلك مقتدبن باتباع ما يقرأونه من الكتب التي كان تعلمها مقصوراً على فهم الكتب بذاتها يقطع النظر عن العلم ، وكانت الحكومة مقدسة ، لا يمكن لأحد أن يتطالع إليها بنقد مهما كان لها من سيئات ، فأطلق التعلم من قيود التقاليد مسترسلا مع حرية الفكر التامة وأخذ يمود الناس على نقد الحكومة بطريقة غير ظاهرة ومنها إنشاء الجرائد الزجلية الهزلية .

سأل جمال الدين سعد زغلول ذات يوم : هل تريد أن تكون مثل الشيخ الأنابيه.

(وكان شيخ الأزهر يومئذ) فرد عليه سعد قائلا : كيف يكون لي ذلك وبينه وبينى بن هائل، وطن أنه يسخر منه، فقال لي السيد : أنك ستسكون أحسن منه ؛ وقال سعد : بعد نفي جمال الدين كان الشيخ محمد عبده أكبر تلاميذه وكان تفوقه في العلم ، وكان رجل جلد واستمرار على العمل من غير ملل ، وكان فيلسوفا ومسدلا شمر رأسه ومرسلا لحيته على خلاف الأزهرية جيما .

كتب مرة مقالا في جريدة جاء فيها : «الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وأبنائه أساطين الأولين والآخرين» فوشى به أحدهم إلى الشيخ عليش الذي كان عالما تقيا ورعا وفسر كلمة «أساطين» بنبرمناها فقال أنها جمع اسطوانات وأن هذا كفر بالانبياء فغضب الشيخ عليش على الشيخ عبده وقال : أعطوني سكيننا لندبح هذا الكافر . فتدخل بعضهم في الشفاعة له ، فمفا عنه بعد خلق رأسه . ولما تقدم لامتحان المالية كان متضلعا قويا ، فآتمر المتحفون على إسقاطه حسداً منه ، فلم يتمكنوا من ذلك لتفوقه عليهم فاعطوه شهادة المالية من الدرجة الثانية أو الثالثة ، والواقع أنه كان أحق بالدرجة الأولى وكان له الفضل في تدريس العلوم الفلسفية والمنطقية في الأزهر وكان الأزهر محروما منها .

وقد اتصل رياض باشا بعد عودته من الشام ، حيث ظل منفيا ثلاث سنوات لأنه كان له (رياض باشا) دخل في العفو عنه فعين مديراً لتحرير الوقائع المصرية فأخذ معه سعد زغلول ثم إبراهيم الهلباوى ، وبذلك تطورت الوقائع المصرية من جريدة رسمية إلى جريدة لإرشاد الناس إلى حسن التحرير وإصلاح الأخلاق ونقد الأحكام لفة وموضوعة ، وكان سعد يقول نقد المضابط (الأحكام) وذلك أن الجريدة كانت تنقل الإفادات التي ترد عليها من جهات الحكومة بلفتها المقيمة وتملق عليها بما يجب أن يكون على لنتها ويرسلها نسخا من الجريدة إلى الجهة التي صدرت منها تلك الإفادة .

وحدث أن مدير بنى سوبف (الياس شقيق خيرى باشا المهديدار الخديوى) وجه

إليه نقد ، فنفض منه وأمر رسمياً بمنع وصول جريدة الوقائع الرسمية إلى بنى سويف .
ولكن الشيخ عبده احتج لدى رياض واستكتبه خطاباً كله توبيخ وتمنيف لذلك المدير .

وكان الشيخ محمد عبده عفوراً رحباً ومن ذلك أن القدي وشى به عند الشيخ هليش
سمى أيضاً لدى مأمور السجن إقدي كان به الشيخ عبده لى ينزع منه المصحف القدي
كان يقرأ فيه والكتب الأخرى ، ثم ساعه على هذا كله بعد ذلك وساعده . وقال سعد :
أنه كان له نقد على طريقة التعلم في الأزهر منذ أول انخراطه في تلك المجاورة ، فإنه أولاً
لم يتقيد بتتبع دراسة الكتب على الطريقة التي كانت جارية فيه ، وثانياً أنه فكر مع المرحوم
السيد وفا زغلول في عقم طريقة التعليم فيه ولما لم يستطع نشر انتقادهما في الصحف ابتكرا
طريقة للنقد بنشور كتبهما بخطهما من سبع نسخ وأصفاه بأعمدة الأزهر قبل الفجر والناس
نيام فأحدث ذلك رجة في الأزهر في الصباح ، وكان المجاورون يتقاطرون على هذه
المنشورات لقراءتها فكان ذلك باعثاً للشيخ أحمد رافع لأن يكتب مقاله ملأها طعناً
صريحاً على الطريقة المذكورة ونشرها في الصحف فغضب به الأزهريون علاقة حامية وانتقده
سعد زغلول في الوقائع المصرية بطريقة يؤيد جوهرها وجهة نظره في النقد .

وقال سعد : أنه لما بدأ الدراسة في الأزهر قضى فيه شهرين لم يفهم في أثناءهما شيئاً
حتى أدركه اليأس وحدته نفسه بالعودة إلى بلده ولكنه ندرج بالصبر إلى أن أصبح قادراً
على الإحاطة بدروسه فيها في القاهرة ، (سنة ١٨٩٢) .

وقال سعد أنه في ١٨٩١ وقد سافر إلى ألمانيا فرأى عزبة من عزبها ودخل كنيسة
القرية فرأى الصبيان والبنات يؤدون الصلاة وهي على غاية ما يكون من الأداء والخشوع
والنظافة ، فلما شاهد ذلك قال في نفسه أنه لا بد أن يكون هذا الرق نتيجة علم لا يعرفه
إلا الطير بلغة الأجانب وبكى ومن ساعتها طلب مدرسا يعرف الفرنسية .

٢٠ - جوليت آدم

أولت الصحف اهتماماً كبيراً لمدام جوليت آدم الصحفية الفرنسية التي شجعت مصطفى كامل على الدعوة لمصر في صحف فرنسا وقد تحدث « توفيق حبيب » صاحب الهامش عنها (١٩٣٣) قال :

لولا مدام آدم لما عرف مصطفى كامل كيف يعمل بكثارة الكتاب الفرنسيين فيهملمهم على خدمة مصر . التماون السياسي كان بالكتابة على صفحات الجرائد والمحلات وإلقاء الخطب والمحاضرات والتقارير والرسائل التي كان يكتبها مصطفى كامل وأنصاره إلى آدم . التماون الروحي الذي يتجلى في الرسائل الخاصة التي كان يبعث بها مصطفى كامل إلى آدم ونشرت بعد وفاة صاحب اللواء في كتاب عنوان (رسائل مصرية فرنسية) . كانت رسائل مصطفى كامل الخاصة إلى مدام آدم تسكاد تكون بعيدة عن السياسة إلا بعض إشارات فيها إلى ما يتعلق به .

وكتبت إحدى الصحف بمناسبة وفاتها ١٩٣٦ :

توفيت في الأسبوع الماضي (١١ سبتمبر ١٩٣٦) مدام جوليت آدم عن مائة عام خلوتها في الدفاع عن وطنها وعن حرية الأمم المظلومة الحقوق حتى لقبت في عالم السياسة بمحررة الأمم . كانت أدبية كبيرة وسياسية خطيرة ووطنية مخلصه ، اشتهرت بالحاسة والدفاع عن حقوق بلادها منذ عام ١٨٧١ ، وهو العام الذي عقدت فيه معاهدة فرانكفورت بعد انتصار الألمان على الفرنسيين في الحرب السبعينية وأملت فيها ألمانيا على فرنسا شروطاً مجحفة ، منها دفع الأخيرة ملياراً من الفرنكات أي ما يعادل مائتي مليون جنيه غرامة حربية . وساعدها في ذلك أنها تزوجت بصحافي كبير هو مسيو آدمون آدم وكانت تسمى «الفصول السياسية والأدبية في صحيفتها» «لانوغل ريفو» وإليها يرجع الفضل في بروز الأديب

«الفونسي الكبير (يرلوت) وقد أجلبها الفرنسيون واعترفوا بفضلها، حتى أن كليمانصو أرسل لها سيارة حملتها إلى الإجماع الذي عقدت فيه معاهدة فرساي بين الألمان والحلفاء، وقد دافعت على حرية مصر منذ الاحتلال البريطاني ١٨٨٢، ولما سافر مصطفى كامل إلى أوروبا وجد منها عضوا قويا اعتمد عليه في الدفاع عن بلاده . وكانت مدام آدم من أشد المعارضين لاتفاقية ١٩٠٤ بين إنجلترا وفرنسا . وقد أجلت مصطفى كامل وحقته بمطعمها وكانت تدعوه إليها . ووصفت تمارفهما فقالت : طالما اتفق أثناء مقاي في هذا الدار — وقد عمرت — جانيي البريد بالدهشات التي تتردد في حياتي بقدر ما أحرز أصحاب الرسائل من الشهرة وعلى نسبة ما قالوا من المقام .

تزوج من رسائل مصطفى إلى مدام آدم : طولوز ١٢ سبتمبر ١٨٩٥
سيدتي: إني لا أزال سنيرا ولكن لي أطمأنا جساما فإني أريد أن أوقف في مصر الهرمة ، « مصر الفتاة » ، ثم يقولون أن وطني لا وجود له ، وأنا أقول ياسيدتي أنه موجود وأشمر بوجوده ، بما آتس له في نفسي من الحب الشديد الذي يتغلب على كل حب سواه ، وسأجود في سبيله بجميع قواي ، وأفديه بشبابي وأجمل حياتي وقفا عليه . إني أبلغ من العمر إحدى وعشرين سنة وقد نلت شهادة الإيسانس في الحقوق من طولوز منذ عهد قريب وأريد أن أكتب وأخطب وأنشر الحمية والإخلاص للوطن اللذين أجدهما في نفسي وقد قيل لي أكثر من مرة أنني أحاول عمالا ، وحقيقة تصبوا نفسي إلى تحقيق هذا المجال ، فأهينيني ياسيدتي فإنك من الوطنية بكمكان بفردك بمزية تدبر قول وتقوية عزي ومساعدتي .

وعلفت مدام جوليت على اللحفطات فقالت: : حقيقة أعجبت كثيرا هذا الكتاب الذي لا يتجاوز عشر صفحات ، حتى أنشأت في ١٥ سبتمبر مقال عليه واقتبست منه أسانيد جديدة في السألة المصرية ، واثبتت على المؤلف في مقالتي وضربت لي موعد اللقاء ، ووعدته في دار لافونز ريفو، فأقبل على شاب خلته ابن ثمانى عشر سنة فقلت له ضاحكة — لم تصدقني سنك فإنك لم تبلغ الحادية والعشرين قال : قد بلغت ياسيدتي وأكتمها .

وبعد أن تجاذبنا أطراف الحديث رأيت أن عقل هذا الشاب قد بلغ أشده واستوى قبل أوامه ، ورأيت أنه قد أطلت التدبر والتروى في إمكان مصيره ، كما يقول خطيب مصر ورأيت أغراضه الجسام بحالة ممكنة مما ، ربما لاح لنرى أن هذا الفن إنما كل زاده وهم ودعوى ، ولكن جاء كتابه دالا على حقيقته .

٢١ - مصريون في مالطة

كشف حامد المليجي عن حياة المصريين المقتلين في مالطة إبان الحرب العالمية الأولى فقال: لما اندلعت الحرب في أوروبا . ساورت بريطانيا المخاوف من موقف السلطة الثمانية بالنسبة لمصر وأهلها مقدمون لسياسة الاختلاف . كان الأمر في جزيرة مالطة موزعين على ثلاث كتكتات تضمها جميعا قلعة واحدة قديمة اسمها (سانت كلنت) لا تزال عليها نقوش بأيدي العرب الذين حكموا مالطة نحو ٢٣٠ عاما وكنها ٢٧ مصريا . فاقترحت تأليف رواية مصرية سياسية الموضوع تقوم نحن المصريين بتمثيلها ، فقبلوا الفكرة ولكن أبت أكثرتهم إلا اختيار رواية عربية ألفت منذ حين هي رواية حرب الباسوس . فألفت رواية ومثلت ولم يكن رجال السلطة يعلمون موضوعها السياسي ، ولكنهم فوجئوا بالأمر الواقع ، ولم يجدوا بدا من استغلال هذا الأمر لمصلحة حكومتهم ، فبعد مؤاخذتي بشدة على إدخال السياسة في هذه الرواية عادوا فطلبوا تصوير مناظرها ثم نشروا في صحفهم مالطة هذه المناظر ، وفي سويسرا فظهرت تحت عنوان « كيف يعامل الإنجليز أسراهم » وطلب منى قومندان المعسكر أن أعيد تمثيل الرواية فأعدت تمثيلها خمس مرات متوالية ، أما موضوع الرواية فيتلفخص في سبيل بسط تاريخ دخول الإنجليز البلاد المصرية وذكر شيء عن معاملتهم للمصريين وفيها حدث دنشواي ، وحوادث القبض على المصريين وعماكاؤهم ، وما يتحملونه من الصبر في السجون بمصلحة البلاد والتضحية في سبيلها .

الكتاب القادم : جبرني مصر الحديث : « الأخبار والتراجم » .